AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

تجليد صالح الدفر
تلفون ٢٢٢٩٧٧

892.709
Ha435uA

محمد روحي حقي

أدباء البكالوريا

في

سورية ولبنان والعراق

النابغة . الفرزدق . الحجاج .
عبد الحميد . ابو نواس . ابو تمام .
الجاحظ . المعري . ابن زيدون .
شوقي ...

58720

الناشر

المكتبة الهاشمية لاصحابها محمد هاشم الكتبي وشركاه بدمشق

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

Cat. July 1943

58720

جزاء

إلى طالباتي وطلابي، الذين أحبوني من كل قلوبهم. وكان لهم الفضل الأول في خلق هذا الكتاب، أبعث ثنائي وحبي.

ذكرى

كلفتني وزارة المعارف التدريس في الكلية العلمية ، بعد ما مضى من السنة الدرسية ؛ شهر تقريباً . ومضى الشهر الثاني ، في تفهم البرنامج والتعرّف إلى روح الطلاب ، وتنسيق المواد ، وإعداد الدروس ، وتلخيص معلومات العام السابق ، وتركيزها في أذهانهم ؛ لجعلها نقطة استناد يعتمد عليها في بناء المعلومات المطلوبة منهم في البكالوريا .

وما كدنا نصل إلى مبدأ الطريق ؛ حتى ثارت في البلاد عاصفة سياسية هوجاء ، اجتاحت في طريقها المدارس العالية والثانوية . وأضرب الطلاب إضراباً طويلاً دام أكثر من ثلاثة أشهر لم ترَ الدنيا له مثيلاً في التضحية وضياع الوقت !...!

ولما تبسم الربيع ، وشارفت طلائع الامتحانات ؛ هَرَعَ الطلاب إلى مدارسهم يستعدّون لخوض المعركة . وتفقدوا عتادهم يجلونه ويصقلونه ؛ وقاسوا الزمن ؛ فإذا هو أضيق من أن يتصل بهم إلى يوم الامتحان !! والتفتوا إلى ميرتهم ؛ فإذا الوطاب قد صفر منها أو كاد . خصوصاً في الأدب العربي فإن البرنامج ضافي الحواشي ، متسع الأطراف . ولا كتب له .

وكنت أرتجل محاضراتي ، فيتلقفها الطلاب ويتناقلونها بإنشائهم الموجز كأنه عناوين . ويضيع أكثرها . ومع هذا ؛ فقد كان تهافتهم عليها

وحبهم أياها؛ يجعلهم لا يبالون قتل الساعات الطويلة ، في مقابلة ما يكتبون ، بعضهم على بعض .

ما العمل ؟ البكالوريا لا ترحم . والوقت ضيق . والكتابة صعبة تستغرق من وقت التلميذ الثمين أكثر ساعاته . وأنا أراهم يتألمون ، ويركضون حفاةً على الوحى غير مبالين بالرمال المحرقة والشمس اللاهبة فدفعني حبي إياهم أن أوطئ لهم المطية وأسهل عليهم العمل . وأن أفاجئهم بهديةٍ ؛ تعادل حبهم هذا الدرس . فاعتزلت الحياة العامة اعتزالاً تاماً . وهجرت كل أصدقائي . وانزويت في مكتبي ؛ أنشئ لهم هذا الكتاب . ودفعته إلى المطبعة يوم باشرت تأليفه ؛ فجاء هديةً ثمينةً جداً ، بالقياس إلى الطلاب . وفر عليهم كثيراً من المشقة وكثيراً من الوقت .

وكنت أنشئ البحث في سواد الليل ؛ فإذا هو في بياض النهار كراساً مطبوعاً . والمؤلف في بلادنا ؛ محكوم عليه بالاشغال الشاقة : يصارع الوقت بالرجوع إلى المصادر ، وجمع المعلومات ، والتفكير ، والإنشاء ، والتبييض ، ومراجعة الطبع ، مرتين على الأقل . أضف إلى كل هذه المصائب : تدريس ثلاثين ساعة أسبوعية منيت بها تشقق الحجر الجلمود . ففي سبيل الله ، ما يلاقي المصابون بمرض التأليف ، والإخلاص للعلم والمعارف ؛ في هذه البلاد ! !

. . .

جعلت همي في تأليف هذا الكتاب ؛ أن أجعله سهلاً واضحاً جهد إمكاني . وسلكت فيه طريقة ما أظن أني سُبقت إليها : ترى فيها

العصر مصوراً كأنك عشت فيه . وتلاحظ العناصر المكوّنة للأديب ؛ جلية واضحة ، كأنها تسوقك كلها مجتمعةً ومتفرّقة إلى شخصه . فتقول: « ما تنتج هذه العناصر إلا هذه الشخصية » وقد شهد بذلك كبار أساتذة الأدب الذين اطلعوا على الكتاب إبان طبعه ، وبعض عظماء المستشرقين .

أما الديباجة ، فلم أتعمد التنوّق فيها . لئلا يشتغل الطالب بها عن الفكرة . وبهذا : خالفت طريقة من يشغله جمال الكأس عن حقيقة الشراب .

. . .

وأشرت في آخر كل كتاب ، إلى أهمّ المصادر التي استندت عليها . لأرشد الأساتذة إلى المراجع التي لجأت إليها ، وأعين الطلاب على التوسع ، وأعوّدهم حبّ البحث الحرّ . وما كتمان هذه المصادر ؛ إلا أنانية حقيرة ، تعود الطلاب حبّ الاستئثار والضنّ بما يعلمون على الناس . وما يدريني ؟ ! لعلّ منهم من يستطيع التوصل إلى أكثر مما توصلت إليه بالاستناد إليها والاطلاع على ما كتبت . أو لعلّ فيهم من يرشدني إلى فكرة مبهمة ، لم أشرحها . أو صورة مغمضةٍ ، لم أبرزها ، أو خطأ ارتكبته ، فأصلحه شاكراً ممتناً .

. . .

واستعنت في الدرجة الأولى ؛ على المصادر العربية القديمة ، لأنها المنبع الأول . وأنا أوصي أصدقائي الطلاب ؛ بالرجوع إليها ومعاناة درسها كلما سنحت لهم الفرص . فإن وراء هذه الأوراق الصفراء كنزاً ثميناً

جداً . ولكني أقول لهم بكل صراحة : لا تتأثروا بما تقرءون فتضيع شخصيتكم . بل اجعلوا العقل إمامكم ، والشك دليلكم . لأن هذا الكنز ؛ مرصود بسحرٍ خلاّب . ومغشى بطبقةٍ كثيفةٍ جداً من الفوضى لن تستطيعوا الوصول إليه إلا بمشقة تزيلون فيها من طريقكم الأشواك والأحجار .

واستعنت كذلك بالمصادر الحديثة ؛ عربية وإفرنجية . ولكني لم أسرد أكثرها في جريدة المصادر ؛ لأن الاستناد عليها لم يكن في مواضع خاصة . بل كان عاماً وفي نقط غير رئيسية . أذكر من المستشرقين : آثار دوساسي وماسينيون ونيكلسون ونلينو . ومن المحدثين : طه حسين وأحمد أمين والعقاد ومبارك والزيات .

أما آثار الأدباء الذين تناولهم هذا الكتاب بالبحث والشرح والتصوير ؛ فهي الأساس الأول الذي بنيت عليه بحثي . وكثيراً ما كنت أعيدها فوق المرتين ، لأتثبت من الرأي الذي يتصوّر لي أنه حقيقة وصدق .

. . .

وبعد ؛ فقد تمّ حمل هذا الكتاب وولادته ؛ في ثلاثة أشهر فقط ! ما أظن أني ذقت في ليلة من لياليها ، أكثر من أربع ساعات نوماً ! جدًّا وراء إبرازه قبل امتحان البكالوريا .

وقد آن للقلم الآن بعد أن تم طبع الكتاب ؛ أن يرجع إلى كنه ويستريح .

دمشق في ٢٠ — ٥ — ٩٣٩

محمد روح عفي
استاذ ادب اللغة العربية في الكلية العلمية بدمشق

النابغة الذبياني

بدوي

تاريخ

العرب في جزيرتهم

لم تكن جزيرة العرب قبل الاسلام في وحدة مستقلّة تجمعها دولة واحدة كما أصبح الحال بعد الاسلام . بل كانت متفرقة إلى قبائل تصطلح قليلاً وتتناحر كثيراً ، تتربص كل واحدة بأختها حتى تأرثت بينهم العداوة والبغضاء وأصبح الفرد لا يأمن على نفسه وماله إذا لم يستند إلى جماعته الأدنين يحمونه . فذاب الفرد في الجماعة وظهرت شخصية القبيلة وحدها . فعار الفرد يلزمها كلّها ونبله نبلها وجنايته جنايتها وفخره فخرها ... فالشاعر والخطيب والكريم والبخيل والجاني والعفيف كلّهم للقبيلة . إذا ارتفع الفرد ارتفعت بعزّه جميعاً وإذا أساء فالوزر على القبيلة كلّها . وكانت علاقة القبائل بين بعضها بعضاً علاقة حرب على الأكثر ولذلك استحرّ فيهم القتل وكثر الشجعان فنبت الشعراء والخطباء يرددون بشعرهم وخطبهم صليل السيوف ولمع البوارق . يرثون القتلى ويحرضون على

الأخذ بالثأر ويعتذرون للنكبة والانكسار ويهجون أعداءهم ويعيّرونهم انخذالهم أو سوء أخلاقهم أو دناءة نسبهم أو حقارتهم عليهم . فيهيجون النفوس ويثيرون الهمم فتتجدد الحرب . وهكذا دواليك ، حتى أصبح الغزو والقتال شيئاً طبيعياً فيهم .

يقول شاعرهم :

... أغرن من الضباب على حلالٍ
وضبّة إنه من حان حانا [1]
وأحياناً على بكرٍ أخينا
إذا ما لم نجد إلاّ أخانا

فكانوا إذا لم يجدوا من يغيرون عليه أغاروا على أبناء عمومتهم وإخوتهم . ولعل هذا ما يفسر لنا : أنفتهم وعزتهم واستجابتهم للصرخة . يقول شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وكثرة الشعر الحماسي الذي سجّلوا فيه وقائعهم وحروبهم . وافتخارهم بالشجاعة والسماحة والنسب . فكل شاعر سجلّ

---

(١) الضباب وضبة : قبيلتان . الحلال : المال
يقول : أغرنا على ضباب وضبة فاستلبنا مالهم ولم يعترينا الخوف لاعتقادنا أن الموت شيء موقت . والبيتان للقطامي .

صادق لقبيلته ومرآة لعشيرته لا ترى فيه نفسه إلا قليلاً جداً كما في زهير والنابغة ..

وكانوا يعيشون تحت الخيام ينقلونها معهم حيثما ذهبوا ينتجعون الكلأ لأنعامهم والدفء لاستيلادها وعليها معايشهم . يغتذون بألبانها ويكتسون بنسج أوبارها وعليها يحملون أثقالهم ويتنقلون من مكان إلى مكان لم يكونوا بالغيه — لولاها — إلا بشق الأنفس فبحق ما دعيت سفن الصحراء !. وهذا ما يفسر لنا كثرة ذكرها في أشعارهم وتعدّد أسمائها وتنوّعها وبكاءهم على آثار الدمن وأطلال الديار ؟ وكر الاحبّة والأصدقاء الذين تجدد آثارُهم ذكرياتهم في النفوس وتبعث صدى ناعماً ينطلق على ألسنتهم شعراً في وصف الحب والغربة والوحشة والألم..

ومع أن العرب كانوا مجاورين لأعظم أُمتين متحضرتين في زمنهم الروم والفرس ؛ لكنهم لم يتأثروا بهذه الحضارة إلا قليلاً .

ولعل السبب في ذلك ، اختلاف اللغة والعادات والطباع وتفاوت الطبيعة والإقليم وتباين الحس الاجتماعي والإرث . ولهذا قلّ اختلاط العرب بهم إلا فيما يتعلق بالغزو ، فكانوا يغيرون عَلَى تخومهم إذا سنحت لهم الفرصة ويأوون إلى حصن

حصين من الصحراء اللاهبة والبيداء القاحلة . وكان الفرس والروم أعجز من أن يستولوا على هذه البوادي الفسيحة ويستعمروها كما استعمروا الهلال الخصيب على تخومها، لجفافها وقلة الفائدة منها وكثرة ما تكلف من مشقة وتضحية في الجيوش والمال وبناء الحصون . لذلك ركنوا إلى السياسة فاستعمل الرومُ الغسانيّين في الشام، والفرسُ اللخميين في العراق وضربوا العرب ببعضهم بعضاً وفلّوا الحديد بالحديد[1] ولم يكلفهم ذلك إلا بذل يسير من المال والألقاب . فالحارث بن جبلة الغساني يسمو به الامبراطور جوستينيان إلى مقام رفيع ويستقبله في فروق استقبال الملوك العظام ويمنحه لقب فيلارك وبطريق وهو أعظم لقب بعد الامبراطور .

وملك الفرس يشترط يوم عقد المصالحة مع الروم (عام ٥٢٢ م) أن يدفع هؤلاء للمنذر الثالث اللخمي شيئاً من المال لأنه حمى مملكة فارس !!

فمن هم هؤلاء اللخميون والغسانيوّن من العرب ؟ وكيف اتصلوا بالأعاجم والروم ؟ وعلى أي أسس اتفقوا ؟ ولماذا تعادى

---

(١) وقيل إنه كان في مكة بيوت تجاربة رومانية يستخدمها الرومانيون للتجسّس على أحوال العرب (فجر الاسلام ص ١٦)

إمارتان عربيتان من أجل مصلحة مملكتين غريبتين ؟ هذا ما لم يستطع التاريخ بعدُ أن يصل إليه بدقة وثقة . والمقول : إنهما من أصل يمني هاجرتا مع القبائل التي هجرت اليمن بعد انثيال سدّ مأرب ونضوب معين التجارة وانتشار الفقر والفوضى واستقرّتا حول الهلال الخصيب واتصلتا بحكم الجوار مع الروم والفرس ونشأت بينهما وبين المملكتين المتحضرتين علاقات اقتصادية وسياسية، وتعصب كل فريق لجاره وقام مقام وشائج القرابة بينهما نفور فحرب واستحكم العداء وتعصب لكل فريق منهما قسم من العرب فأصبح هوى بعضهم مع الروم وهوى الآخر مع الفرس إلى أن جاء الإسلام فمحا الدولتين . والقرآن الكريم يمثل لنا ذلك في سورة الروم أوضح تمثيل إذ يقول بعد غزو الفرسِ الرومَ واستيلائهم على القدس ودمشق (٦١٣ — ٦١٤ م) :

«آلم : غُلِبَتِ ٱلرُّومُ في أَدْنَى ٱلْأَرْضِ . وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبونَ . في بِضْعِ سِنِينَ . لِلّهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ . وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنونَ . بِنَصْرِ ٱللّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ . وَعْدَ ٱللّهِ ، لا يُخْلِفُ ٱللّهُ وَعْدَهُ . وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّاسِ لا يَعْلَمونَ»

إمارة الحيرة

أنشأ سابور الأول ملك الفرس، من العرب الضاربين على تخوم بلاده وحول الفرات، إمارة عربيـة عام ٢٤٠ م وسلّط عليها أميراً عربياً من قبيلة لخم هو عمرو بن عدي وتوالى من بعده على الإمارة خلفاؤه من القبيلة نفسها تحت حماية الفرس. تقدم لهم هذه الإمارة خضوعها وتحمي قوافلهم التجـارية — ولـكن مقابل جعل — وتنشر حضارتهم وآراءهم السياسية في العرب. وكانت عاصمة هذه الإمارة العربية مدينة الحيرة وهي عَلَى خمس كيلومترات من الـكوفة المعروفة اليوم على حدود الصحراء في العراق. وقد بلغت الحيرة أقصى مجدها على ما يظهر أيام المنذر الثالث ابن ماء السماء إذ حاول أن يستقل عن الفرس فتحالف من الرومان ثم رجع إلى الفرس فضربه الرومان بالحارث بن جبله الغساني فـكسره حول قنّسرين عام ٥٥٤ م. ثم أسر ونفي إلى صقلية ولعل هذه الموقعة هي التي اشتهرت في العرب باسم (يوم حليمة) فقالوا: ما يوم حليمة بسرّ[1].

وتولى زمام الإمارة بعده عمرو بن هند (٥٥٤ — ٥٧٠ م)

---

(١) ويقال إنه قتل أثناء المعركة وقيل: يوم حليمة وقع مع غيره. واختلاف المؤرخين في هذا كثير. ولـكن الأقرب إلى الصحة ما ذكرنا.

صاحب عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة . ثم قابوس (٥٧٠ – ٥٧٣ م) ثم المنذر الرابع (٥٧٣ – ٥٨٠م) فالنعمان بن المنذر (٥٨٠ – ٦٠٢ م) صاحب النابغة المشهور . ويظهر أنه لم يكن لهؤلاء الملوك خطر وشأن إلا غزوات دائمة ومناوشات متوالية بينهم وبين الغسانين . وأنهم لم يكونوا في أكثرها موفّقين إذ لم يذكر لهم التاريخ يوماً إلا يوم انكسار كيوم (عين أباغ) عام (٥٧٠ م) . بل لقد استطاع الغسانيون أن يصلوا إلى العاصمة نفسها فدخلوا الحيرة واحرقوها عام (٥٨٠م) . . وقد حاول النعمان أن يرفع من شأن إمارته ويعيد مجدها ويثأر من الغسانيين فبنى القصور واستقدم الشعراء حتى شاع ذكره في البلاد ، فتجنّى عليه كسرى وطلبه ففر يحتمي بالقبائل ويستجير بالعرب . ولكن سطوة كسرى كانت ترهبهم وتمنعهم من حمايته فلجأ إلى كسرى نفسه فألقاه بين أرجل الفيلة عام ٦٠٢م وعين على الحيرة أميراً فارسياً . وما زال الأمراء عليها من فارس حتى افتتحها خالد بن الوليد عام ٦٣٣ م .

ويظهر أن عرب الحيرة قد تأثروا بحضارة الفرس فعرف بعضهم الفارسية . وكانوا تراجمة لملوك فارس كعدي بن زيد ترجمان أبرويز وتأثروا بحضارة الروم من الأسرى الذين أنزلوا

الحيرة و كان بعضهم مثقّفاً بالثقافة اليونانية . بل لقد تأثروا بدين الروم من الأسرى والمبشرين بالنصرانيّة . ويذكر التاريخ أن هنداً زوج النعمان تنصّرت وبنت ديراً سمي باسمها (دير هند[1]) بقي إلى صدر القرن الثالث الهجري .

وقد كان للحيرة وتاريخها وأمرائها ، أثر كبير في الأدب العربي وعقلية العرب وأساطيرها التي حيكت حول زعمائها كالزبّاء وجذيمة الأبرش . وقصورها : كالخورنق والسدير وسنمّار المهندس المعمار . ويومي النعمان : يوم نعيمه ويوم بؤسه . وأخيراً يوم ذي قار الذي انتصر فيه بنو شيبان على فصيل من الجند الفارسي بعد الغدر بالنعمان ؛ فعدوه نصراً للعرب على العجم[2] وتغنّى به شعراؤهم ومجّده زعماؤهم وعامتهم . يقول ابن رسته[3] : (إن أهل الحيرة علموا قريشاً : الزندقة في الجاهلية والكتابة في الإسلام) . ولا نتعرّض الآن لما يقصد من كلمة الزندقة ولكن هذه الجملة توضح لنا بأجلى مايمكن تأثير الحيرة في العرب . أفنستغرب إذن تعلق النعمان بالنابغة وهو البوق الذي ينشر

---

(١) الطبري

(٢) في القاموس : إن يوم ذي قار هو أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم

(٣) الأعلاق النفيسة

ذكره في العرب ويرفع من شأنه في قومه ؟! ثم تهافتُ الشعراء عَلَى الحيرة ليتمتّعوا بنعيمها وخمرها وعطايا ملوكها .

إمارة غسان

إن تاريخ الغسانيين أكثر إبهاماً من تاريخ اللخميين . فلم يتّفق المؤرخون على مبدأ تسلّطهم ولا على عدد ملوكهم ولا على مدى السنين التي حكموها ولا على عاصمتهم فقيل : الجولان وقيل الجابية وقيل جلّق . فهي إن لم تكن بصرى أو دمشق فقرية قريبة منها . ولكن أين آثارها ؟!

وأول من اشتهر من ملوكها : الحارث بن جبلة صاحب «يوم حليمة» توفي عام ٥٧٠ م وخلفه ابنه المنذر صاحب يوم «عين أباغ» وكان بينه وبين الامبراطور جوستين – خليفة

في مقال للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف نشر في محاضرات المجمع العلمي الجزء الاول؛ أن من أسماء دمشق: الشام. جلق. جيرون وإرم ... الخ وألقابها الفيحاء والغناء ... الخ وقال إن جلق تحريف (جنيق Jinic) اليونانية ومعناها امرأة باسم كنيسة موجودة في دمشق. أو تحريف (كل لك) الفارسية ومعناها مئة ألف زهرة. وقد ذكرها حسان فقال :

لله درّ عصابةٍ نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

والبريص تحريف (Pardisus) اليونانية ومعناها الفردوس .

جوستينيان – نفور دام ثلاث سنوات . ثم صالحه جوستين ليدفع به عرب الحيرة الذين هددوا تخوم الدوله الرومانية . ثم يعود الإبهام إلى تاريخ الغساسنة بعده فيقدمون ملكاً على ملك أو يؤخرونه عنه . وأشد مايختلفون في تملك الأخوين: عمرو بن الحارث والنعمان بن الحارث، صاحبي النابغة . ومهما اختلفوا فانهم متفقون على أن آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم صاحب القصة مع عمر بن الخطاب وأن الغساسنة تلقحوا بالثقافة الرومانية وبلغوا درجة من الحضارة لابأس بها حتى هابهم العرب وقصدهم الشعراء وتغنوا بمجدهم وغزواتهم ووصفوا ترفهم ونعيمهم ونقلوا عنهم الأساطير كقصة أدراع امرئ القيس التي أودعها السموءل فقصده أحد ملوك غسان وطلبها منه فأبى فذبح ابنه وهو يراه . وكالقصص التي يتحدث بها حسان عنهم ... وانا لنرى وصفهم واضحاً أشدّ وضوح في قصيدة النابغة البائية المشهورة (كليني لهم)

اثر الحروب في العرب

حول القرنين الخامس والسادس ، التقت في العراق قبائل من الشمال وأخرى من قبائل اليمن واختلطوا جميعاً بالفرس . فنشأ من هذا الاختلاط صلات: سياسية واقتصادية وعقلية وخصومات وتنافس . فكان ذلك كلّه ؛ مصدر نهضة قوية للعرب تسنّم ذروتها ؛ الشعر .

فكان صدى لكل هذه الحوادث من صلح وخصام وحرب ووئام وتنافر واتحاد ... حتى لنستطيع أن نقول مع الأقدمين : « إن الشعر ديوان العرب ». فقد سجلوا فيه كل شيء ، حتى عدد القتلى ومواقع الحروب وأسماء الشجعان والمقتولين وقبائلهم .. وكان الشعراء كسائر الناس مولعين بالشهرة يقدمون إلى الاسواق المشهورة ويغنّون قصائدهم فيفوز المبرّز بالمعجبين وينتشر صيته ؛ فتفتخر به قبيلته ويتهافت عليه الأمراء يبرّونه لينشر أسماءهم في المحافل . ولعل هذا هو السبب الأكبر في أساس فكرة المديح التي سيطرت على الشعب العربي قروناً طويلة حتى عصرنا الحاضر تقريباً . ومن هنا نرى تنافس اللخميين والغسانيين على شعراء الجزيرة العربية ذلك التنافس القوي وأخصهم النابغة لما له من الشهرة ولقبيلته من المنعة في البادية . يكفي أنه كان حكَم الشعراء في عكاظ تضرب له قبة من أدم فيحكم بين الشعراء ويفضل بعضهم على بعض فيتملّقه الناس . وبعد ؛ فإذا كان الغسانيون واللخميون من أصل واحد كما يدعي النّسابون ـ من اليمن ـ فلغتهم اذن واحدة . وقد ثبت الآن بالأدلة العلمية المبنيّة على الاستقراء ومشاهدة الآثار أن لغة اليمن ، غير لغة الحجاز . أو بالأحرى اللغة اليمنية هي غير اللغة التي نظم بها شعراء العرب المعروفون ، ومنهم النابغة

الذي وفد على الامارتين . فكيف كانوا يفهمونه [1] ؟ ثم لم يذكر التاريخ أن شاعراً ظهر من هاتين الامارتين مع أنهما عاشتا قروناً طويلة فما السر في ذلك [2] ؟ !

يجيب على ذلك صاحب فجر الاسلام بما خلاصته : نعم إن لهاتين الامارتين لغة خاصة غير لغة قريش التي نكتب بها الآن ، كان لها شعراؤها وخطباؤها . ولكنهم مع ذلك كانوا يفهمون لغة قريش ، غير أنهم يأبون التكلم بها لاعتقادهم أنهم أرقى درجةً من العرب . ثم لما جاء الاسلام وسيطرت

---

(١) أورد الدكتور طه حسين في كتابه الأدب الجاهلي صفحة ٨٨ وما بعدها ، نصوصاً حميرية ، ننقل هنا واحداً منها لزيادة الإيضاح والاطلاع على الفرق الكبير بين لغة قريش ولغة حمير :

النص :

(وهبم وأخهو بنو كلبت هقينو إل مقه ذهرن ذن مزندن حجن وقهمو بمسألهو لو فيهمو وسعد همو نعمتم)

التفسير :

وهابُ وأخوه بنو كلبة أعطوا الإله ذاهران (قصر باليمن ذكره ياقوت) هذا اللوح لأنه أجابهم إلى سؤالهم وسلّمهم وساعدهم نعمة .

(٢) يذكرون عديّ بن زيد العبادي من الحيرة ولكن الرواة النسّابون يرجعون بنسبه إلى عرب الجزيرة .

لغة القرآن على العرب أجمعين محيت آثار لغتهم لأنه لم يكن تدوين وقتئذٍ .

ونحن نكاد نميل إلى هذا الرأي ونؤيّده بكتابة اكتشفت حديثاً منقوشة على حجرٍ بالحروف النبطيّة عثر عليه بين آثار الغساسنة في حوران ؛ على قبر امرئ القيس بن عمرو من ملوك اللخميين وهو :

(في نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج وملك الاسدين ونزار وملكهم وهرب مذحجو عكدي الى اليوم وجاء يزجو في هيج نجران مدينة شمر وملك عدو ونزل بنيه الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بلبول بلسعد ذو ولده).

وتفسيره :

(هذه نفس امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلّه الذي أسر التاجَ وملك الأسدين ونزار وملوكهم وهرب مذحج إلى اليوم وحاز الظفر في أسوار نجران مدينة شمّر وملك معد ونزل بنيه الشعوب كله ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه حتى اليوم هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ كانون الثاني يكن أولاده سعداء)

فهذا النص يثبت صورة عن لغة الحيرة لا تقبل الشك ولكن هذه الصورة قريبة جداً من لغة قريش . ولعل هذا هو السبب الذى دعا الأستاذ أحمد أمين للشك بعروبة هاتين الامارتين فقال : « أكبر ظننا أن اللخميين والغسانيين كانوا نبطاً لا يمنيين ولا عربا خلصاً وأنه كان لهم شعرهم وآدابهم باللغة النبطية [1] .

ومهما يكن من أمر ؛ فلهاتين الامارتين فضل كبير على العقلية العربية ونهوض الشعر . فكان من آثارهم : الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وعلقمة والمرقش الاكبر والأعشى وحسان والنابغة أمير شعراء عكاظ .

النعمان بن المنذر

لا يمكن فهم النابغة واعتذار ياته حق الفهم ما لم نفهم النعمان ابن المنذر الذي قدمت هذه القصائد له .

تولى النعمان بن المنذر قيادة الإمارة عام (٥٨٠م) وهو شاب مكتمل الفتوّة واسع الطموح يتمنى لو يرفع نير الفرس عن رقبته . وتلفّت حوله فوجد رقاباً تشرئب من القبائل العربية وهي ترنو إليه بعين الانكسار كأنها تريد أن تقول له :

(١) فجر الاسلام ص ٢٨

أين ضعفنا من قوّة الفرس ؟! ولكنه لم ييأس بل اختط لنفسه سياسة التقرب من العرب ليكونوا له قوة وعوناً على إنماء الغرسة التي زرعها المنذر الثالث وقصّر عنها خلفاؤه . فقرّب أُمراء القبائل وزعماءهم وغمر شعراءهم بالعطايا الوفيرة والهبات ليكونوا له بوقاً سياسياً بين العرب وافتن في البذخ والترف ليغريهم بالنعيم في قربه حتى أكل صاحبه النابغة بصحاف الذهب والفضة من عطاياه . وكان يثير المناظرات بين الأمراء والشعراء في حضرته حتى تعلق به زعماء القبائل وأصبحوا ينظرون إليه كزعيم أكبر كلهم محتاجون إليه . وطار صيته في القبائل العربية فحاكوا حول شخصه القصص والخرافات ونسبوا إليه زهر الشقيق فقالوا شقائق النعمان وحكوا عن يومي بؤسه ونعيمه - مع أن لهذه القصة أصلاً يونانياً معروفاً — وعن الخطباء الذين أوفدهم إلى كسرى ... الخ ولكن يظهر أنه كان فتّاكاً غدّاراً بالمقرّبين إليه إذا أحسّ منهم مايثير شكوكه . فقد قتل ابن عمار نديمه [1] وحبس عديّ بن زيد [2] كاتبه وهمّ بالنابغة .. [3] وطارت أطماعه إلى كسرى فطلبه ففرّ في القبائل — وكان يعدّها لمثل هذا

(١) البيان والتبين
(٢) البيان والتبين
(٣) جميع كتب الأدب

اليوم — ولكن بناءه لم يكن قد اكتمل بعد — على ما يبدو — فلم يستطع أحد أن يحميه من كسرى فلجأ منه إليه فحبسه فمات في سجنه وقيل ألقاه بين أرجل الفيلة فهرسته هرساً عام (٦٠٢ م) وبالقضاء على النعمان ؛ قضى على إمارة الحيرة المستقلة ، وعين الفرس حاكماً فارسياً عليها يخضع له أمراء القبائل . وبقيت كذلك حتى اكتسحها العرب المسلمون عام ٦٣٣ م .

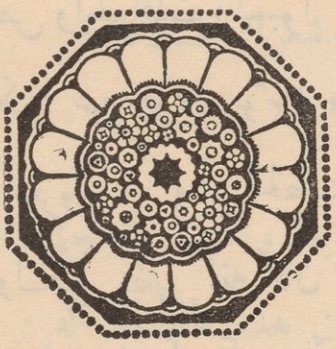

النابغة الذبياني

اختلف في لقب النابغة وتاريخ بدئه بالشعر وكنيته وقيمته في قومه وسبب فراره من الحيرة وبمن اتصل بهم من ملوك غسان وبطريقة رجوعه إلى النعمان . ولم يعيّن تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته. واختلف حتى في معلقته !! ولكن المشهور : أنه من قبيلة ذبيان . اتصل باللخميين واختص النعمان بمدائحه . ولكن لأمرٍ ما ؛ غضب عليه ففر إلى الغسانيين . ثم رضي عنه فعاد إليه ومات بعد موته بقليل . وأنه كان أمير شعراء عكاظ ... واشتهر باعتذارياته للنعمان . وأنه كان ذا مكانة سياسيّة يحسد عليها . وغرق في عطايا الملوك — والنعمان منهم بصورة خاصة — حتى أكل في صحاف من الذهب ... وسنمحص فيما يلي جميع هذه الأقوال :

أ : لقب النابغة

هو زياد بن معاوية ... بن ذبيان الملقب بالنابغة الذبياني .

قيل : إن لقب النابغة جاءه من قوله :

نأت بسعاد عنك نوى شطون فباتت والفؤاد بها رهين

وحلّت في بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شئون

وقيل : بل لأنه نبغ بالشعر بعد أن كبر واحتنك وفجأ الناس به . وهو زعم كسابقه لم يؤيده الدليل لأن في ديوانه من شعر شبابه ما يدعو للاعجاب والافتتان .

وقيل : لأن النبوغ هو التفجر والنبع ، وشعره كالنبع صفاءً وغزارة وقوة . . وهذا الزعم في نظري أقرب إلى التصديق من سابقيه . — ولو لم نرَ له هذا الديوان الضخم كسواه من الشعراء — والسبب في ذلك — على ما نرى — أنه لم يجمعه بنفسه فضاع أكثره . ويؤيد هذا الرأي ما ذكره القاموس من أن النوابغ من الشعراء عديدون فهم [1] :

١ً : زياد بن معاوية الذبياني « صاحب الترجمة »

٢ً : قيس بن عبد الله الجعدي

٣ً : عبد الله بن المخارق الشيباني

٤ً : يزيد بن أبان الحارثي وهو نابغة بني الديّان

٥ً : النابغة بن لأي الغنوى

٦ً : الحارث بن بكر اليربوعي

٧ً : الحارث بن عدوان التغلبي

٨ً والنابغة العدواني

---

(١) أنظر مادة نبغ في قاموس الفيروز آبادي

فكثرة تسمية النوابغ دليل على اشتهار هذا اللقب عندهم وإلباسه كل من تدفّق بالشعر لسانه . وعلى هـذا ؛ فاني أميل إلى الرأي القائل بأن لقب النابغة لبسه لقوة شاعريته وتفنّنه وتفوّقه .

٢ً : كنية النابغة

يكنى النابغة بأبي أمامة وأبي ثمامه وأبي عقرب . أسماء بنات له ولكنه اشتهر بأمامة أكثر ، وعلى هذا ذكره الاغاني بها [١]

٣ً : قيمته في قومه

في الأغاني [٢] : « إن النابغة أحد الأشراف الذين غضّ الشعر منهم » وفي الروائع [٣] « إنه نشأ في الوسط من قومه لا في الذروة من الشرف » . وكذلك اختلف سائر الرواة في قيمته الاجتماعية ، بعضهم يجعله في الذروة وبعضهم يحـط منه فكيف نوفق بين القولين ؟ . والذي عندي أنه نشأ في الوسط من قومه ولكنه ارتقى ذروة المجد بشعره وشخصيته الناميـة

(١) الاغاني جزء ٩

(٢) الاغاني جزء ٩

(٣) الروائع جزء ٣٠

فأصبح مطاع الكلمة في قومه نافذ الطلب عند الملوك يفكّ الأسرى ويعتذر للمذنبين ويتدخل في سياسة قبيلته والسياسة العامة ويحكّم في عكاظ فتضرب له القباب وينادم الملوك وترجى عنده الشفاعات فأمسى يقول بحق :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكّم في أموالهم وأقرّب

فلا معنى إذن لقولهم : (إن الشعر غض منه وطاطأ من إشرافه) وكيف يتفق هذا مع قولهم إنه كان يأكل في صحاف من الذهب والفضة وينادم النعمان ويتحكّم في أموال الغساسنة ؟!

٤ — سبب فراره من الحيرة

اختلف المؤرخون في سبب فرار النابغة من الحيرة لما همّ به النعمان فقال بعضهم :

ا : إنه كان عند النابغة سيف صافي الفرند استوهبه اياه النعمان فأباه فاضطغن النعمان لذلك وأسرّها في نفسه .

وهذا الرأي ظاهر البطلان لأن النابغة لم يصل إلى هذا الحدّ من البلاهة يعيش بنعمة النعمان ثم يمنع عنه شيئاً تافهاً .

ب : وقال غيرهم تزوج النعمان امرأة أبيه[1] المتجردة وكان

---

(١) قد نستغرب نحن الآن ذلك ولكن كانت عادة الزواج بامرأة الأب وبالأخت . وربما قديماً بالأم نفسها . كانت فاشية في العرب

يحبها كثيراً . لكنها لم تكن تميل إليه لقبح وجهه ودمامته بل ربطت بينها وبين نديمه المنخّل اليشكري علاقات غرام . عرّض بها في قصيدته الرائية المشهورة :

ولقد دخلت على الفتاة — الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترفل — في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت مشي القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفّست كتنفّس الظبي الغرير
وأحبّها وتحبني ويحب ناقتها بعيري . .

فمن تكون هذه التي ترفل في الدمقس وفي الحرير غير أميره أو عقيلة أمير؟!

قيل : دخل النابغة على النعمان يوماً وعنده المتجرّدة ـ وقد سقط نصيفها ـ فطلب إليه النعمان أن يصفها فقال قصيدته المشهورة:

من آل ميّة رائح أو مغتد عجلان ذا زادٍ وغير مزوّد

واستطال في وصفه الشهواني إلى أعضاء من جسمها ما كانت تجب له وتجاوز حدود الأدب فقفز في صدر النعمان شيء من النفور . وغار المنخّل اليشكري أن توصف عشيقته هذا الوصف العاري ، فقال للنعمان : لايحسن أن يصف ذلك إلا مجرّب . ووافقت هذه الكلمة هوىً من النعمان فتهدد النابغة وهمّ به فأنذره

عصام حاجب الملك بنذر الشر فترك كل ما يملك وفرّ هارباً .

وهذا الادعاء غير مقبول أيضاً ولا يقصد برفضه رفع تهمة العشق والدنس عن قصر النعمان، فالعشق يتفشى في قصور الملوك قبل أكواخ الصعاليك . ولكن لو كان هذا الحادث صحيحاً بتفصيله لعرّض به النابغة على الأقل في شعره ولو ببيت واحد فلم لم يفعل ؟!

وقصة المتجردة هذه تشبه قصة دوق وندسور في العصر الحاضر، فقد لغطت جرائد الدنيا بتعلق امبراطور انكلترا بالمسز سمبسون وتنازله عن عرش أكبر حكومة في العالم من أجلها بينما أن الحقيقة غير ذلك . وما اتخذت هذه القصة إلا تعمية وطمساً للعيون وستراً للحقائق .

م : وقيل : كان لمرّة بن سعد بن قريع سيف قاطع يقال له «ذو الريقة» من كثرة جوهره وفرنده . ذكره النابغة للنعمان فأخذه فوجد عليه القريعي ووشى به فكان ما كان من أمره .

ر : وقيل إن منافسيه أنشئوا على لسانه هجاءً فاحشاً للنعمان وأسمعوه إياه في فرصة فتور بينهما فوقعت عليه الواقعة . وقد قال بعضهم : إن الأبيات له حقيقة . وهي :

خبّروني بني الشقيقة مـا يمنع فقعاً بقرقر أن يزولا [1]
قبّح الله ثم ثنّى بلعنٍ وارث الصائغ الجبان الجهولا [2]
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو
ثم لا يرزأ العـدو فتيلا [3]

منافسة

الذي يصح عندي : هو مـا ذهب إليه بعض الكتاب المعاصرين من أن النعمان كان يتألم لمديح النابغة بني غسان أعداءه ومنافسيه على السيادة والسيطرة والشهرة في جزيرة العرب وقد تعدّد مديح النابغة لهم فكأنه يقوم لهم بدعاوةٍ ضده [4]

---

(١) بنو الشقيقة : حاشية النعمان . الفقع : الكمأة الرخوة . القرقر : الأرض الواطئة .

(٢) وارث الصائغ : هو النعمان لأن جده لأمه كان صائغاً بفدك أو يثرب .

(٣) يعرض بانكسارات اللخميين المتوالية أمام الغسانيين .

(٤) يؤيد ذلك كتاب النعمان إلى النابغة الذي يقول فيه :
« ولقد كان لك في قومك ممتنع وحصن . فتركته ثم انطلقت إلى قوم قتلوا جدي وبيني وبينهم ماعلمت » ... الخ .

وقول النابغة يعتذر :

ملوك وإخوان إذا مـا أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

فأضطغنها عليه وأسرّها في نفسه. وقد انتهز منافسو النابغة نهزة فتور بينه وبين مليكه (وربما كانت حادثة المتجرّدة من جملة الاسباب) وألقوا على مسامع النعمان هذا الهجاء المقذع. وأي شيء أشدّ على العربي من أن يوصم بأنه صائغ أو تاجر !! خصوصاً إذا كان ملكاً !. فتجمعت كل هذه الأسباب - وقد يملأ القطر الاناء فيفعم - فأفعمت نفس المليك حقداً وغلاً على شاعره وهمّ أن يلحقه بكاتبه عدي بن زيد أو بنديمه ابن عمار ففر الشاعر لايلوي على شيء.

٥ : النابغة في الشام

اختلف المؤرخون في الملكين الغسانيين الأخوين عمرو والنعمان، على أيّهما نزل النابغة ومن منهما كان السابق في الملك فذهب الوزير البطليوسي شارح الديوان إلى أن النعمان ملك أولاً ثم قتل فرثاه النابغة وانقطع إلى أخيه عمرو .. ويستدل من الأغاني بأن عمراً أسنّ بدليل أنه لما انشده البائية المشهورة « كليني لهم » التفت فإذا النعمان غلام حدث فقال مقطوعته فيه « هذا غلام حسن وجهه »[1] وتابعه على ذلك بعض

---

(١) هذا غلام حسن وجهه مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الاصغر والحارث الأعرج والأكبر خير الأنام
ثم لهند وهند فقد أسرع في الخيرات منهم إمام
خمسة أباء هم ما هم؟! هم خير من يشرب صوب الغمام

المعاصرين . وسكت بعض المؤرخين فلم يبد رأياً كصاحب شعراء النصرانية .

والذي أراه أن المقطوعة المنسوبة للنابغة بحق النعمان الغلام ، منتحلة ليس عليها طابعه الخاص ولا فيها نفسه ولذلك لا يصح الاعتماد عليها مطلقاً . ولكن مرثيته للنعمان بن الحارث يمكن أن تهدينا إلى شيء ففيها نفس النابغة الشيخ وشيبه الذي شمل رأسه يقول فيها :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل

وكيف تصابي المرء والشيب شامل

فهذه المرثية : تؤيّد رأي مؤرخي الفرنجة القائلين : بأن النعمان تولى الملك بعد أخيه عمرو عام ٥٩٧ وقتل عام ٦٠٠ إذ كان النابغة شيخاً أشيب . ولم يكن بالشيخ يوم نزل على عمرو ومدحه بالقصيدة البائية المشهورة . ومن هنا يتبين أن عمرو تولّى الملك قبل النعمان وأن النابغة نزل عليه ومدحه بهذه القصيدة .

٦ً : رجوع النابغة الى الحيرة

لما هرب النابغة من الحيرة لم يذهب رأساً إلى الغسانيين بل نزل في قومه قليلاً ثم ارتحل إلى آل جفنة في مشارف

الشام واتصل بعمرو والنعمان ولزمهما يمدحهما ويشيد بذكر بني غسان ويعرّض بانتصاراتهم وانكسارات اللخميين ويذكر يوم حليمة تصريحاً :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهنّ فلول من قراع الكتائب
تُورّثن من أزمان يوم حليمةٍ
إلى اليوم قد جرّبن كل التجارب

وشاعت قصائده في العرب فزاد حقد النعمان عليه وألمه منه وزاد إكرام الغسانيين له وهو ينتقل معهم في مرابعهم ومشاتيهم ويحضر حفلاتهم وينشر ذكرهم .. وبلغ من منزلته عندهم أن كان يستشفع للأسرى فتفك ويتوسط لقومه فيعفى عنهم . وما زال كذلك حتى قتل النعمان بن الحارث الغساني وتولى بعده حجر الثاني فلم يحفل كثيراً بشاعرنا . فاعتزل يتذكر النعمان بن المنذر وعطاياه ومجده عنده . وسعى ليرجع إليه وقدّم بين يديه قصائده الاعتذارية التي بها اشتهر وأصبح زعيم هذا النوع من الشعر حتى اليوم . فعفا عنه وعاد إليه الشاعر مكرّماً معزّزاً . ولرجوع النابغة روايات متعدده نحصها فيما يلي :

ا : قيل إن النعمان ظهر له ما كان مخفياً من أمر المتجرّدة واليشكري فقتلهما . وعرف أنه أساء إلى النابغة فكتب إليه يقول : (إنك لم تعتذر من سخطةٍ إن كانت بلغتك وكنا تغيرّنا لك عن شيءٍ مما كنّا لك عليه . ولقد كان في قومك ممتنع وحصن فتركته ثم انطلقت إلى قوم قتلوا جدي وبيني وبينهم ما قد علمت) وهذه الرواية ظاهر فيها التكلّف . فهي بعبارات المؤرخين أشبه . ولكنها على كل حال تصوّر نفس النعمان وغيرته من الغسانيين أصدق تصوير .

ب : وقالوا إن النابغة علم بمرض النعمان فقدم الحيرة ليتزود من رؤيته قبل موته وكان يحبه حباً جماً رغم تغيره عليه فوجد الملك مريضاً محمولاً بين الغمر وقصور الحيرة فخاطب حاجبه عصاماً قائلا :

ألم أقسم عليك لتخبرنّي أمحمول على النعش الهمام ؟!

وقيل : بل إنه قدم بناء على الكتاب الذي تلقاه من النعمان فوجده عَلَى هذه الحال .

ج : وقالوا إن حسان كان في قبّة مع النعمان فإذا رجل يرتجز :

أنام أم يسمع رب القبة يا أوهب الناس لعيسٍ صلبة

الواهب النوق الهجان الصلبه ضرّابة بالمشفر الأربّـة
ذات نجاءٍ في يديهـا جلبه في لاحبٍ كأنه الأطبّة ..

قال النعمان : ليس بأبي أمامه ؟ قالوا بلى . فأذن له واستنشده على رويّ الباء فأنشد القصيدة التي يقول فيها :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكّم في أموالهم وأقرّب

وهذه القصة ظاهر عليها الاختلاق فكأنها مصنوعة في القرن الثالث الهجرى بدليل قوله : (فاستنشده على رويّ الباء) وهذا النوع من الكلام العروضي انتشر بعد القرن الثاني الهجري وما كان العرب يفهمون ذلك من قبل .

ر : وقيل : إن النابغة استشفع برجلين من بني فزاره وكان بينهما وبين النعمان مودّة وتخـالل فضرب لهما قبة من أدم ولم يشعر بأن النابغة معهما . وكان يرسل اليهما بالطيب والألطاف مع قينة من إمائه فكانا يأمرانها أن تبدأ بالنابغـة فذكرت للنعمان ذلك ؛ وكان النابغة قد لقّنها قصيدته المشهورة :

يا دار ميّـة بالعلياء فالسّـند
أقوت وطال عليها سالف الأمدِ

وسألها أن تغنيه إياها إذا لعبت به الخمرة ، ففعلت . فلما سمعها الملك قال هذا شعر علويّ [1] هذا شعر النابغة . وخرج فعارضه

---

(١) علوي : نسبة إلى عالية نجد .

الفزاريان والنابغة بينهما وقد خضب لحيته فقال النعمان : « هي بدم أحرى » . فقال الفزاريان : « أبيت اللعن لا تريثت والعفو أجمل » فأمّنه . ثم استنشده ووهبه مئة من الإبل مع رعائها . وكان حسّان حاضراً فقال : « حسدته على ثلاثة لا أدري على أيتهن كنت أشد حسداً : على إدناء النعمان له بعد المباعدة ، أم على جودة شعره أم على مئة بعير من عصافيره أمر له بها ؟!

هذه القصة قد تكون أقرب جميع ما ذكر إلى الصحّة لان عليها مسحة بدوّية خالصة ولسنا نعرف مقدارها من الحقيقة لأن ابن قتيبة [1] ذكرها ولكن لم يسندها بسند قوي .

خلاصة

سُئل عمرو بن العلاء عن النابغة والنعمان : « أمن مخافته امتدحه وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك » ؟ فقال : « لا لعمر الله لا لمخافته فعل . أن كان لآمناً من أن يوّجه إليه جيشاً . وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة . ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره »

وعندي أن النابغة اعتاد الحركة والترف فلم تعد تعجبه حياة العزلة السياسية زمن حجر الغساني . فسعى حتى عاد إلى النعمان ليعود إلى البلاط كشاعر الملك وهو مركز سياسي

(١) الشعر والشعراء

ممتاز . راغباً في عطاياه وعصافيره وتوسّل إليه بقصائده حتى عرف منه اللين، فاستشفع إليه بصديقيه الفزاريين . والاستشفاع عادة بدويّة لا تزال إلى اليوم في الصحراء . وقصة كعب بن زهير مع النبي محمد شبيهة بها . وكأن النعمان كان يتمنّى رجوع النابغة إليه ليسكت بوقاً كبيراً من أبواق الغسانيين وينفخ فيه بلغته الخاصة . كانت الرغبة في العفو والصلح متقابلة من الاثنين معاً ولذلك سهلت العودة وانتعش من بين أثنائها المطويّة ذكريات الحب القديم .

ومن العجب أن ليس فيما بين أيدينا من شعر النابغة أقل تلميح لحادث رجوعه إلى النعمان . كأن جميع دموعه جفّت في اعتذاراته فلم تسحّ عيناه بدمعة من دموع الفرح بهذه العودة الباهرة . وكذلك لا ترى للنابغة قصائد كثيرة في النعمان مع أنه اختصه بمدحه وانقطع إليه .

٧ : متى ولد النابغة ومتى مات ؟

أما مولده فلم يعينه تاريخ . ويصعب كثيراً استقصاؤه والتحرّي عنه . ولكن المظنون أنه أدرك المنذر الثالث وخلفاءه وله قصيدة في مديح عمرو بن هند . وأما وفاته فيسهل تعيينها . إذ قيل إنه توفي في السنة التي مات فيها صديقه النعمان بن

المنذر وهي ٦٠٢ م أو بعدها بقليل : عام أو عامين . ولم يعرف عن شبابه شيء سوى ما ذكر في ديوان حاتم : أنه تزاحم حاتم والنابغه ورجل من الأنصار على ماويّة ؛ بالشعر والكرم . ففاز بها حاتم وفشل النابغة .

وأن أول شعر قاله إذ كان مع عمّه عند رجل ، فوضع الرجل كأساً في يده وقال :

تطيب نفوسنا لولا قذاها ونحتمل الجليس على أذاها

فحمي النابغة لذلك وقال :

قذاها أن صاحبها بخيل يحاسب نفسه بكم اشتراها

فإن صحت هذه القصة دلت على نفس شعرية سهلة يأتيها الشعر عفو البديهة . فبحق ما اشتهر النابغة بهذا اللقب .

٨ : معلقة النابغة

لقد غمر اختلاف الرواة من النابغة كل شيء حتى معلقته فقد ذكر التبريزي القصيدة الدالية :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقال إنها المعلّقة . وذكر أبو زيد القرشي في جمهرته القصيدة الرائية :

عوجوا فحيّوا لنعم دمنة الدار

ما ذا تحيّون من نؤي وأحجار

وقال إنها المعلّقة . ثم اختلف في عدد أبياتها وفي منتهاها أيضاً . وعلى كل حال فأية ما كانت المعلّقة منهما : فعليها طابع النابغة الخاص . وهذا الطابع يمثّل المذهب الشعري الذي ابتدأه أوس بن حجر في الجاهلية وانتهى بمسلم بن الوليد وجماعته من أرباب الفن الشعري ، وهم الذين اتخذوا الشعر فناً خاصاً وجوّدوه واعتنوا به كما يعتني المصور باللوحة ؛ فيسحب ريشته من هنا ويمدّها من هناك حتى تنطق بما نفسه من معانٍ فياضةً مصورة ومشذبّه . بل قل إن هذا الفن لم ينته بمسلم وأضرابه ؛ وإنما وصل إليهم مع الزمن — وقد تعاورته الأيدي — فهذّبوه وجاروا في تهذيبه تبعاً للحضارة وأناقتها وحوّروه تحويراً نطق باسمهم وأصبح عليه طابعهم الخاص وابتعد عن أصله وعن أستاذه الأول أوس بن حجر [1] بما استزادوا فيه من ألاعيب بديعية ولعب على الألفاظ ويمتاز هذا المذهب الشعري: بالتصاوير المادية ، كالصُوَر التي يعطيها النابغة في معلقته الدالية . من قصة سليمان وزرقاء اليمامة وأمواج الفرات . . وكالصُوَر التي

(١) الادب الجاهلي

قدّمها في المعلقة الرائية من تشبيه الناقة بالثور الوحشي وأمثال ذلك . ومن أشهر شعراء هذا المذهب : النابغة وزهير وابناه والحطيئة والأخطل ..

الشاعر السياسي :

ليس تهافت القبائل على النابغة وتنازع المملكتين غسان ولخم عليه لشعره فقط . فإن هناك كثيراً من الشعراء الذين عاصروه ؛ لم يستطيعوا أن يصلوا إلى هذه المنزلة التي تسنّم ذروتها بين رجال الحكم مدّة طويلة . ولا لأنه كان صدى الحوادث فقط . بل هناك أمر أبعد من هذا . فقد كان الشاعر زعيماً لحزب كبير في الصحراء يرجع إليه في الحوادث السياسية الكبرى ويخشى شيطانه السياسي والشعري معاً ، ويستعاذ من حزبه ، لأنه لم يكن يناوئ أعداءه بلسانه فقط بل بقوّته المادية أيضاً . ويظهر أنه كان على وفاق تام مع هذا الحزب حتى تزعّمه انظر إلى قوله :

حولي بنو دودان لا يعصونني وبنو بغيض كلهم أنصاري

وقوله :

أتخذل ناصري وتعزُّ عبساً أبربوع بن غيظ ؛ للمعنّ
فهم درعي التي استلأمت فيها إلى يوم النّسار وهم مجنّي

وقد كان يسيرهم على مشيئته فلا يخالفونه طاعةً وحباً :

وهم ساروا لحجر في خميسٍ وكانوا يوم ذلك عند ظنّي

وإذا هجا أعداءه السياسيين فإنه لايسبّهم ولا يشتمهم ولكنه يهزأ بهم ويخوّفهم بأنصاره ويعدّد رجال حزبه ويفتخر بقبائلهم وقواهم وأسلحتهم وخيولهم . . . شأن السياسي المفنّ والزعيم البارع .

على أن السياسة تتطلب منه أحياناً ليناً وبراعةً في استرضاء الناس خصوصاً حواشي الملوك ليكبت حسّاده ومنافسيه وينال مأربه منهم وليكون على حذر من غدر الملوك . وهذا ما يفسر لنا علاقته بعصام حاجب النعمان وتحذير هذا إيّاه يوم تغيّر عليه وليّ نعمته .

كان يدرك أن قوّته بقوّة حزبه . فكان يحافظ عليه محافظة شديدة . ومَنْ حزبه غير قبيلته ؟ وأحلافها ؟ المرتمين في ذلك الأتون اللاهب من المعارك المستديمة والغارات المتوالية بين المناذرة والغساسنة . وبين عبس وذبيان ، في حرب داحس والغبراء ، وسواها . ولم يكن للملكتين ولا لمضارب هذه القبائل حدود معروفة كما هي الحال اليوم بين الأمم المتمدينة وإنما كان الفاصل بين المملكتين : هذه الصحراء الممتدة بين

الشام والعراق تنزلها القبائل المختلفة إبّان اعشيشابها لترتعي فيها. والقبيلة الأقوى ، تحمي السهول الممرعة والوديان الخصيبة لنفسها. لكن البدوي لا يعرف للسلطة خضوعاً ولا يحتكم إلاّ للسيف، ثم إذا هو أقدم ، لا يبالي أن وقف الموت في طريقه أو المجد. لأن الصحراء لا تتّسع لهذا البحر الزاخر من الأنعام والمواشي خصوصاً في أيام الجدب والقحط ، فكان اختصامهم طبيعياً إذن على الماء والمراعي . وهذا ما كان يحدث بين قبيلته وآل غسان فتقع الحرب بينهما . وما كان النابغة يريد هذه الغارات . لكي يحتفظ بمكانته الحزبيّة عند آل جفنة . ومراراً كان يحذّر قومه من هذه المآزق . فأحياناً كانوا يسمعون له وأحياناً كانوا يعيّرونه خوفه وجبنه فيرد عليهم وينصح لهم :

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر ... وعن تربّعهم في كل اصفار
وقلت يا قوم إن الليث منقبض ... على براثنه للعدوة الضاري
وعيّرتني بنو ذبيان خشيته ... وهل عليّ بأن أخشاك من عار

على أنّه ما كان يتخلّى عنهم إذا وقعوا كما حدث في قصة وادي «ذي أقر» إذ حماه النعمان بن الحارث فرعاه قوم الشاعر غروراً و كان نبّههم إلى غلطهم فلم يبالوا به فأغار عليهم الغساسنة وأسروا منهم جماعة فشفع فيهم النابغة وخلّصهم . ولم

يكن يدافع عن قومه فحسب بل عن أحلافه أيضاً . فقد أغار يوماً بنو فزارة وبنو أسد على حدود الغسانيّين فظفر بهم الحارث وأسر منهم جماعةً فلجئوا إلى النابغة ليشفع بهم ففعل وخلّصهم . وله أسلوب في الشفاعة ممتاز فهو يستعطف الملك ويرقّق قلبه ولكنه يهدّده من طرف خفي بقوة قومه . وكذلك يفعل السياسي البارع :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته ... يريد بني حُنٍّ ببرقة صادر

تجنّب بني حُنٍّ فإن لقاءهم ... كريه وإن لم تلق إلا بصابر

هم منعوا وادي القرى عن عدوّهم ... بجمع مبير للعدو المكاثر

أتطمع في وادي القرى وجنابه ... وقد منعوا منه جميع المعاشر

والخلاصة : فقد كان النابغة السياسي كالخيزران : صلباً ليناً يشتد إذا كانت معه القوّة فيهدّد ويتوعدّ بشعره ورجاله :

فلتأتينك قصائد وليدفعن ... جيش إليك قوادم الأكوار

ويلين أشدّ لين إذا كان ضعيفاً :

ما قلت من سيّئ مما أتيت به ... إذاً فلا رفعت سوطي إليّ يدي

إذاً فعاقبني ربّي معاقبةً ... قرّت بها عين من يأتيك بالفند

أسلوب النابغة

يكاد أسلوب النابغة يكون واحداً في جميع شعره . فهو

دائماً يعتمد على الوصف المادي والقصصي (١). ولا يتّكئ على الخيال إلا قليلاً. حتى إن الخيال - وهو روح محض - يلبسه رداءً من المادّة يكاد القارئ يلمسه لمساً. وله في الوصف القصصي نَفَس (٢) طويل. وفي التصوير غريزة (٣) غريبة. يحوم حول المشبّه به وحده في أول الأمر ثم يتبسّط قليلاً قليلاً ويفنّد جميع جهاته ويستقصيه ولا يغادر دقيقة من دقائقه إلا يستوفيها حتى لا يترك فيه زيادة لمستزيد. ثم ينتقل إلى المشبّه فيربطه به ببيت أو بيتين فقط، ويقفز إلى فكرة أخرى. وكلما طرقته فكرة من الفكر، تصوّر لها للحال صورة محسوسة وبالغ في إظهارها وتنميقها كالرسام البارع. لا يكتفي بالخطوط العريضة منها فقط، بل يستطيل إلى أدق ما في الصورة من ألوان فيظهرها تامة كاملة جذّابة. أنظر إليه حين أراد أن يصف ناقته التي حملته إلى النعمان بن الحارث الغساني، لم يجد لها وصفاً غير أن يشبهها بالثور الوحشي ثم لم يكتف بذلك؛ بل صوّر لنا هذا الثور وقد أفردت عنه حلائله فأصبح أشدّ ما يكون نفوراً وخوفاً وذعراً. بات طول الليل إلى جانب شجرة من الأرطى يسفعه الهواء بالرمل والمطر، حتى إذا ظهر له الصبح ظهر معه صيّاد يسعى إليه بأكلبه، فراوغها مطرّداً. ثم انفتل إليها

فشكّ الأول بقرنه وأتبع الثاني به ففتح فيه جرحاً عميقاً بعيد القعر . ثم طعن الثالث ... ولحقته سبعة الكلاب الأخرى فما زال يشك الواحد منها تلو الآخر بقرنه حتى قتلها جميعاً وراح ينقضّ كالكوكب الدريّ مرحاً نشيطاً كأن هذه المعركة لم تؤثر فيه شيئاً . يصور النابغة هذه الصورة الطويلة العريضة بخمسة عشر بيتاً ثم يقول : هذا الثور يشبه ناقتي التي أركبها :

كأنما الرّحلُ منها فوق ذي جددٍ ذبّ الرياد إلى الأشباح نظّار (١)

مطرّدٍ أفردت عنه حلائله

من وحش وجرة أو من وحش ذي قار (٢)

باتت له ليلة شهباء تسفعه بحاصبٍ ذات إشعانٍ وأمطار (٣)

وبات ضيفاً لأرطاةٍ وألجأه مع الظلام إليها وابل سار (٤)

---

(١) الجدد : خطوط بيض وحمر ويربد بها ثور الوحش . الذبّ : الدفع . الرياد والارتياد : الطواف . وذب الرياد : أي ثور الوحش لأنه يرود هنا وهناك .

(٢) الحلائل : الزوجات . وجرة وذو قار : موضعان .

(٣) شهباء : ريح باردة وصقيع . تسفعه : تلفحه وترميه . الحاصب : الريح التي تحمل الحصى . الإشعان : ما تناثر من ورق العشب بعد يبسه .

(٤) الأرطاة : شجرة ثمرها كالعناب ، جمعها الأرطى . الوابل : المطر الكثير . الساري : ما جاء من المطر ليلاً .

حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته وأسفر الصبح عنه أيّ إسفار
أهوي له قانص يسعي بأكلبه عاري الأشاجع من قنّاص أنمار (١)
يسعى بغضف براها فهي طاوية طول ارتحال لها منه وتسيار (٢)
حتى إذا الثور بعد النفر أمكنه أشلى وأرسل غضفاً كلها ضار (٣)
فكرّ محميّةً من أن يفرّ كما كرّ المحامي حفاظاً خشية العار (٤)
فشك بالروق منها صدر أوّلها شك المشاعب أعشاراً بأعشار (٥)
ثم انثنى بعد للثاني فأقصده بذات ثغرٍ بعيد القعر نعّار (٦)
وأثبت الثالث الباقي بنافذةٍ من باسلٍ عالمٍ بالطعن كرّار (٧)
وظل في سبعة منها لحقن به يكرّ بالروق فيها كرّ إسوار (٨)

---

(١) الأشاجع : عروق في ظاهر الكف وهي تحمد في الرجال إذا كانت عارية أي لايسترها اللحم . أنمار : قبيلة من نزار معروفون بالصيد

(٢) الغُضف : الكلاب المسترخية الآذان : براها : أضرّ بها فبرى لحمها . طاوية : ضامرة البطن .

(٣) أشلي : أغرى .

(٤) محمية : مصدر حمى أي دفع ومنع .

(٥) الرّوق : القرن . المشاعب : النجار . الاعشار : القِدح أي سهم الميسر صار عشر قطع فشك النجار بعضه في بعض .

(٦) أقصده : أصابه . بذات ثغر : أي بطعنة فتحت فيه ثغراً . نعار : متفجر بالدم وله صوت .

(٧) أثبت : أي أثبت الكلب في مكانه . بنافذة : أي طعنة نافذة

(٨) الإسوار : القائد الشجاع الثابت على جواده .

حتى إذا ما قضى منها لبانته وعاد فيها بإقبال وإدبار[1]

انقض كالكوكب الدريّ منصلتاً

يهوي ويخلط تقريباً بإحضار[2]

فذاك شبه قلوصي إذ أضرّ بها

طول السرى والسرى من بعض أسفاري[3]

وكأنما أعجبته هذه الصورة فأعادها في القصيدة التي مدح بها النعمان بن المنذر واعتذر إليه . وصف بها الثور الوحشي والصياد والكلاب بأحد عشر بيتاً ثم قال : هذا الثور يشبه ناقتي التي تبلغني النعمان :

فعدّ عما ترى إذ لا ارتجاع له وانم القتود على عيرانةٍ أُجُدِ[4]

مقذوفةٍ بدخيس النحض بازلها له صريف صريف القعو بالمسدِ[5]

كأن رحلي وقد زال النهار بنا يوم الجليل على مستأنسٍ وحدِ[6]

---

(١) لبانته : حاجته .

(٢) منصلتاً : مسترسلاً . التقريب والاحضار : نوعان من السير

(٣) القلوص : الناقة الشابة . السرى : السير ليلاً .

(٤) انم : ارفع . القتود : الرحال . العيرانة : الناقة الصلبة . الأجد القوية .

(٥) الدخيس : المكتنز . النحض : اللحم . البازل : كبير السن . الصريف : الصوت . القعو : البكرة من خشب . المسد : الحبل .

(٦) الجليل : موضع . المستأنس : المتوحش . وحد منفرد .

من وحش وجرة موشيّ أكارعه
طاوي المصير، كسيف الصيقل الفرد (١)

سرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمالُ عليه جامدَ البرد
فارتاع من صوت كلاّب فبات له
طوع الشوامت من خوف ومن صَرَد (٢)

فبثّهن عليه واستمرّ به صُمع الكعوب بريئات من الحرد (٣)
وكان ضمران منه حيث يوزعه طعن المعارك عند المُحجَر النجُد (٤)
شكّ الفريصة بالمدرى فأنفذها شكّ المبيطر إذ يشفي من العضد (٥)
كأنه خارجاً من جنب صفحته سفّود شرب نسوه عند مفتأد (٦)
فظل يعجم أعلى الروق منقبضاً في حالك اللون صَدقٍ غير ذي أود (٧)
لما رأى واشق إقعاص صاحبه ولا سبيل إلى عقلٍ ولا قَودِ (٨)

---

(١) الأكارع : القوائم . الطاوي : الضامر . المصير : جمع مصران .
(٢) الصرد : البرد .
(٣) الصمع : محدد الأطراف . الحرد : الاسترخاء .
(٤) ضمران : اسم كلب . يوزع : يغري . المحجر : الملجأ . النجد : الشجاع .
(٥) الفريصة : أعلى الكتف وصفحة العنق . المدري : القرن .
(٦) السفود : قضيب من حديد رقيق يشك به اللحم حين يشوى
المفتأد : مكان الشيّ .
(٧) يعجم : يمضغ . الأود : الاعوجاج
(٨) واشق : اسم كلب . الإقعاص : القتل . العقل : الدية . القود : القصاص .

قالت له النفس : « إني لا أرى طمعاً وإن مولاك لم يسلم ولم يصد »

فتلك تبلغني النعمان إنّ لـه

فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد ...

وإذا أراد أن يصوّر كرم النعمان بن المنذر صوّر الفرات وقد فاض وانصبت فيه سيول وأنهار واصطخب فيه الموج وترامت به الرياح واعتصم النوتيّ بالخيزرانة تعباً مكدوداً من سرعة جريه وقوّة أمواجه ... ثم يقول : هذا النهر يشبه النعمان بالجود بل هو أقل منه :

فما الفرات إذا هبّ الرياح له ترمي أواذيّه العبرين بالزبد[1]

يمدّه كل واد مترعٍ لجب فيه ركام من البنبوت والخضد[2]

يظلّ من خوفه الملاّحُ معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنّجد[3]

يوماً بأجود منه سيب نافلةٍ ... الخ

هكذا يلذّ للنابغة أن يذهب في التصوير إلى أبعد حدّ.

أضف إلى ذلك لغة سهلة سلسة لا تعقّد فيها ولا تعاظل إلا بعض ألفاظ تظهر لنا في هذا العصر غريبة وما هي بالغريبة حقاً في زمانه . وإذا أردنا أن نفهم الشعر القديم خصوصاً الجاهلي

---

(١) الآذي الموج . العبران : الضفتان

(٢) البنبوت الخشخاش . الخضد : الشجر المتكسر

(٣) الأين : التعب . النجد : الجهد

منه والأموي ؛ يجب أن نسمعه بآذانهم ونستسيغه بأفهامهم لا أن نقرأه بعقول هذا العصر ونتبلّغه بألسنة هذا الجيل .

تلك هي الصفة التي امتاز بها أسلوب النابغة من بين الشعراء وقد قلّده بها بعض من أتى بعده كالاخطل والفرزدق وسنعرض لهذا البحث متى وصلنا إلى أثر النابغة في الشعراء

أما المواضيع التي طرقها النابغة فيمكن إجمالها في أربعة أبواب تقريباً :

١ً : شعره السياسي العام وما فيه من تأييد لقومه وأحلافهم وردّ على أعدائه وأعداء قومه .. وأظهر هذا النوع من ديوانه ، قصيدتان : الأولى يرد فيها على زرعة بن خويلد ويتوعّده ويخيفه بحلفائه . والثانية يرد فيها على عيينة ويعاتبه ويمدح أحلافه بني أسد .

٢ً : الشعر الذي خاطب به الملوك مدحاً ووصفاً . وأظهر ما في هذا الباب من ديوانه ؛ القصيدتان اللتان اشتهرتا كمعلقتين وقصيدته البائية التي امتدح بها عمراً بن الحارث . أما المعلّقتان فالواحدة منهما الرائية ؛ قالها في النعمان بن الحارث الغسّاني يستشفع . والثانية الداليّة ، قالها في النعمان بن المنذر اللخمي يعتذر .

٣ً : شعر الاعتذار وقد خاطب به كلّه النعمان بن المنذر .

يطلب منه العفو ويبرّئ نفسه من التهمة التي ألصقت به ، وأظهر ما في هذا الباب ؛ قصيدتان : بائية وعينية صوّر فيهما خوفه وآلامه ورهبته أصدق تصوير حتى قيل : أشعر الناس؛ النابغة إذا رهب .

٤ : شعر الغزل والرثاء والهجاء وما أشبه ، وإنما جمعناها كلها معاً لأنها تفيض من عاطفة شخصية لا علاقة لها بالجماعات . وأظهر ما في هذا الباب : وصف المتجرّدة . ورثاء النعمان بن الحارث . وهجاء عامر بن الطفيل . وسنعرض لكل ما قدّمنا بالتفصيل والتمحيص .

الشعر السياسي

١ً : الرد على زرعة :

لقي زرعة بن عمرو بن خويلد النابغةَ في عكاظ فأشار عليه أن ينصح قومه بالعدول عن محالفة بني أسد وكانت الحرب إذ ذاك على أشدّها بين عبس وأحلافها من جهة وذبيان وأحلافها من جهة ثانية . وكان بنو أسد مع بني ذبيان وهم من أشدّ العرب قوة وعدداً . فأبى النابغة أن يتركهم فتوعّده زرعة فقال النابغة هذه القصيدة يردّ عليه ويتهدّده بقوّته وقبائله . وهي على ثلاثة أقسام :

ا : الرد على زرعة

ب : تعديد قوات الحلفاء

م : وصف خيل الحلفاء

ا ً : الردّ على عيينة :

قتلت بنو أسد رجلين من بني عبس برجل قتل منهم فأراد عيينة نصرة بني عبس وإخراج بني أسد من حلف ذبيان فردّ عليه النابغة بهذه القصيدة وهي على ثلاثة أقسام :

ا : وصف الأطلال والديار

ب : عتاب عيينة

م : مديح بني أسد

عيينة :

غشيت منازلاً بعُرَيتنات فأعلى الجزع للحيّ المبنّ[1]

تعاورهن صرف الدهر حتّى غفون وكل منهمر مرنّ[2]

وقفت بها القلوص على كتابٍ وذاك تفارط الشوق المغنّي[3]

أسائلها وقد سفحت دموعي كأنّ مفيضهن غروب شنّ[4]

---

(١) عريتنات : اسم واد . الجزع : منعطف الوادي المشرف من الارض . المبنّ : المقيم

(٢) المرنّ : الذي يسمع له صوت ورنين

(٣) القلوص : الناقة الشابة . المغنّ المحزن

(٤) الغروب : مجاري الدمع . الشن : القربة البالية

بكاء حمامة تدعو هديلاً مفجّعة على فنن تغني (١)

ألكني ، يا عيين إليك قولاً سأهديه إليك ، إليكَ عني (٢)

قوافي كالسّلام إذا استمرت فليس يردّ مذهبها التظني (٣)

بهنّ أدينُ من يبغي أذاتي ، مداينة المداين فليدني (٤)

إتخذل ناصري ، وتعزّ عبساً ؟ أيربوع بن غيظ ، للمعني ؟ (٥)

كأنك من جمال بني أُقَيشٍ يقعقع خلف رجليه بشنّ

تكون نعامة طوراً ، وطوراً هويّ الريح تنسج كلّ فن (٦)

تمنّ بعادهم ، واستبق منهم ، فإنّك سوف تترك والتمنّي

لدى جرعاء ليس بها أنيس ، وليس بها الدليل بمطمئن (٧)

إذا حاولت في أسدٍ فجوراً ، فإنيّ لست منك ، ولست مني

---

(١) هديل : فرخ فقدته الحمامة على عهد نوح فهي لاتزال تبكيه!

(٢) ألكني : أبلغ عني . عيين : ترخيم عينية

(٣) السلام : الحجارة . المذهب : المسير . التظني : إعمال الظن

(٤) أدين : أدفع

(٥) يربوع بن غيظ : حليف للنابغة . للمعنّ : اللام للاستغاثة . والمعن الذي يتعرض لما لا يعنيه . أي ياربوع أعني على هذا الذي يتدخل فيما لا يعنيه .

(٦) معنى البيت : تدور كالنعامة الحمقاء طوراً . وطوراً داهية كالريح فتنسج كل فن من الخدع

(٧) جرعاء : الأرض الرمليّة . ومعنى البيت : صحراء تخيف الدليل فكيف بغيره

فهم درعي التي استلأمت فيها إلى يوم النسار ، وهم مجني[1]

وهم وردوا الجفارَ على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ. إني:[2]

شهدتُ لهم مواطنَ صادقاتٍ شهدن لهم بصدق الودّ مني

وهم ساروا لحجرٍ في خميس وكانوا يوم ذلك، عند ظني[3]

وهم زحفوا لغسانٍ بزحفٍ رحيب السرب أرعن مرجحنّ[4]

بكل مجرّب كالليث يسمو على أوصال ذيّالٍ رِفِنّ[5]

وضمّر كالقداح مسوّماتٍ عليها معشر أشباه جنّ

غداة تعاورته ثَمَّ بيضٌ دُفعن إليه في الرهج المكنّ[6]

ولو أني أطعتك في أمور قرعت ندامةً من ذاك سنّي

---

(١) استلأم : جعلهم لأمةً وهي الدرع . يوم النسار : يوم كان لسعد بن عمرو من تميم على هوازن . المِجَنّ : الترس

(٢) الجفار : ماء لبني تميم بنجد كانت عنده واقعة بين بكر وتميم . يوم عكاظ : يوم بين قريش وهوازن

(٣) حجر : قيل هو أبو امرئ القيس .

(٤) السرب : الصدر . أرعن : أحمق . مرجحنّ : يتمايل ويتثاقل

(٥) الذيال : طويل الذيل وكذلك الرِفِن

(٦) الرهج : الغبار . المكنّ : الساتر .

خطاب الملوك

ا : مدح النعمان بن الحارث وقد عدّ بعضهم هذه القصيدة من المعلقات . واختُلف في عدد أبياتها ومفتتحها . وهي تقسم إلى أربعة أقسام :

ا : مخاطبة الدِمن وآثار دار نعم

ب : وصف الناقة وتشبيهها بالثور الوحشي

ج : تقريع بني ذبيان لأنه نهاهم عن غشيان ذي أقر فعابوا عليه خوفه من الملك

د : ذكر الملك وما ساقه من القبائل لغزو ذبيان

تقريع بني ذبيان

لقد نهيت بني ذبيان عن أُقُرٍ ... وعن تربّعهم في كل أصفار[1]

وقلت يا قوم إنّ الليث منقبض ... على براثنه للعدوة الضاري

لا أعرفن ربرباً حوراً مدامعها ... كأنهن نعاجٌ حول دوّار[2]

ينظرن شزراً إلى من جاء عن عرضٍ ... بأوجه منكرات الرقّ أحرار

---

(١) أصفار : جمع صفر وهو شهر كان يحل في زمنه أيامَ الربيع

(٢) الربرب : القطيع من بقر الوحش أو الظباء . شبّه به النساء
دوّار : صنم كان يطاف حوله . يتصوّر في هذا البيت وما يليه حال نساء ذبيان إذا أُسرن واستبين

يذرين دمعاً على الأشفار منحدراً يأملن رحلة حصنٍ وابن سيّار [1]

وصف الملك وما ساق من القبائل لغزو ذبيان

ساق الرُّفيدات من جوشٍ ومن خردٍ وماشَ من رهط ربعيٍّ وحجّار [2]

قومَيْ قضاعة حلّا حول حجرته مدًّا عليه بسلاّف وأنفار [3]

حتى استقلّ بجمع لا كفاء له

ينفي الوحوش عن الصحراء جرّار

لا يخفض الرزّ عن أرضٍ ألمَّ بها ولا يضلّ على مصباحه الساري [4]

وعيّرتني بنو ذبيان خشيته وهل عليّ بأن أخشاك من عار

٢ : مدح النعمان بن المنذر والاعتذار إليه . وقد عدت أيضاً من المعلقات وتقسم إلى أربعة أقسام . هي :

ا : وصف الأطلال

ب : وصف الناقة وتشبيهها بالثور الوحشي

م : مدح النعمان وتشبيهه بسليمان في السيطرة والسعة وبزرقاء اليمامة في التروّي وسرعة الخاطر والبداهة وبعد النظر

---

(١) أي يتأملان بحصن وابن سيار ليفكا أسرهن .

(٢) الرفيدات : قبيلة من كلب . جوش وخرد : مكانان . ماشَ : خلط . ربعي وحجار : رجلان من قضاعة

(٣) قومي قضاعة : صفة لربعي وحجّار . السلاّف : مقدّمة الجيش

(٤) الرزّ : الصوت .

و : تبرير نفسه والثناء على النعمان وتشبيهه بالفرات في الوفرة والغنى ثم الاعتذار :

النعمان كسليمان :

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلاّ سليمان إذ قال الإله له قم في البريّة فاحددها عن الفند (١)
وخيّس الجنّ إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفّاح والعَمَد (٢)
فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وادّلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد (٣)
إلاّ لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد (٤)

هبات النعمان :

أعطى لفارهةٍ حلوٍ توابعها من المواهب لا تعطى على نكد (٥)

---

(١) الفند : الخطأ

(٢) خيّس : ذلل . الصُفاح : الحجارة المصفحة

(٣) ضمد : غيظ وحقد

(٤) خلاصة المقطع : أي لا تنزل في الخصومة إلى من هو دونك ولا تهتم إلا بالأكفاء

(٥) أعطى : أكثر عطاء . الفارهة : الناقة الكريمة . أي يعطي من غير بخل ولا منّ

الواهب المئة المعكاء زيّنها سعدانُ توضح ، في أوبارها اللبد[1]
والساحبات ذيول الرّيط فنّقها برد الهواجر ، كالغزلان بالجرَد[2]
والخيل تمزع غرباً في أعنتها
كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد[3]
والأدم قد خيّست فتلاً مرافقها مشدودةً برحال الحيرة الجدد[4]

طلب النزوي من النعمان :

واحكم كحكم فتاة الحيّ إذ نظرت
إلى حمامٍ شراع وارد الثمد[5]
يحفّه جانباً نيقٍ وتُتبعُه مثلُ الزجاجة لم تكمل من الرمد[6]

---

(١) المعكاء : الشداد . السعدان : نبت ذو شوك طويل تسمن عليه الإبل . اللبد : الوبر

(٢) الساحبات : الغادات . فنّقها : نعم عيشها . الجرد : المكان لانبت فيه . تظهر فيه الغزلان أكثر جمالاً

(٣) تمزع : تقمص وتستن . غرباً : نشاطاً . الشؤبوب : الدفعة القوية من المطر

(٤) الأدم : النوق البيضاء . فتلا مرافقها : قويّة . الحيرة عاصمة المناذرة مشهورة بصنع الرحال

(٥) فتاة الحي : زرقاء اليمامة . في خرافاتهم أنها كانت ترى على بعد ثلاثة أيام . شراع : مجتمعة . الثمد : الغدير

(٦) النيق : الجبل . مثل الزجاجة : عين صافية مثل الزجاجة

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقدِ
فحسّبوه فألفوه كما حسبت تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكمّلت مئة فيها حمامتها وأسرعت حسبةً في ذلك العدد (١)

بريء :

فلا لعمر الذي مسّحت كعبته وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير تمسحها ركبان مكّة بين الغيل والسّعد (٢)
ما قلت من سيّءٍ مما أتيت به إذن فلا رفعت سوطي إليّ يدي
إذن فعاقبني ربي معاقبةً قرّت بها عين من يأتيك بالفند
هذا لأبرأ من قولٍ قذفتُ به طارت نوافذه حرّاً على كبدي
أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زارٍ من الأسد
مهلاً فداء لك الأقوام كلهم وما أثمّر من مالٍ ومن ولد
لا تقذفنيّ بركنٍ لا كفاء له وإن تأثّفك الاعداء بالرفد (٣)
هذا الثناء فإن تسمع به حسناً فلم أعرّض أبيت اللعن بالصفدِ (٤)
ها إنّ ذي عذرة إلاّ تكن نفعت فإن صاحبها مشارك النكد

---

(١) خلاصة المقطع : كن حكيما مترويا كهذه الفتاة . رأت ٦٦ قطاةً فجمعت نصفها اليها وهو ٣٣ فكان المجموع ٩٩ . وحمامتها واحدة فيكون المجموع مئة . حسبت كل هذه الحسبة بدقة وروية ولم تغلط . فلا تغلط أنت في إسناد ذنب لي لم أرتكبه (٢) الغيل والسعد : مكانان بين مكة ومنى (٣) تأثف : تجمّع . الرفد : المعاونة
(٤) الصفد : العطاء .

٣ً – مدح عمرو بن الحارث وهي من أروع مانظمه النابغة تقسم إلى :

ا – وصف الهمّ والحزن

ب – وصف الغسانيين وأنهم يغزون بأنفسهم ولا يستعينون بأحلافهم لشجاعتهم

م – وصفهم في الحروب وأن الطيور تلحق بجيوشهم لتجزر من قتلى أعدائهم ووصف سيوفهم وضربهم

د : وصفهم في منازلهم وأنهم منعّمون آمنون لايلبسون النعال الصفيقة لأنهم يركبون الخيول فلا يمشون على الأرض . وفي هذا القسم وصف صريح للعادات في الأعياد وأنواع الملابس التي كانوا يلبسونها وكيف كانوا يعلّقونها على المشاجب وكيف كانت النساء والولدان يحيونهم في حفلاتهم ... وهذا القسم مهمٌّ جداً من الناحية التاريخية :

كليني لهمٍّ يا أَميمة ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ

عليّ لعمروٍ نعمةٌ ، بعد نعمةٍ ... لوالده ، ليست بذات عقارب

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت ... كتائب من غسان غير أشايب (١)

بنو عمه دنيا وعمرو بن عامرٍ ... أولئك قوم بأسهم غير كاذب

---

(١) غير أشايب : غير مختلطة بالغرب فهي كتائب غسانية صافية ويؤكد ذلك بالبيت التالي .

إذا ماغزوا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طيرٍ تهتدي بعصائب

جوانح قد أيقنّ أنّ قبيله إذا ما التقى الجمعان أولُ غالب

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

تُوُرِّثهن من أزمان يوم حليمةٍ إلى اليوم قد جُرّبن كل التجارب

تقدُّ السلوقيَّ المضاعف نسجه وتوقد بالصفّاح نار الحباحب (١)

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود والأحلام غير عوازب

للمناريخ :

رقاق النعال طيّبٌ حجزاتهم يحيّون بالريحان يوم السباسب (٢)

تحييهم بيض الولائد بينهم

وأكسية الإضريج فوق المشاجب (٣)

يصونون أجساماً قديماً نعيمها بخالصة الأردان خضر المناكب

حبوت بها غسّان إذ كنت لاحقاً بقومي وإذا عيّت عليّ مذاهبي

---

(١) السلوقي : الدروع المنسوبة إلى سلوق وهي من أجود الدروع . هذا البيت من المبالغات . يقول : هذه السيوف تقطع الدرع ولابسه وتخرطه حتى تصل إلى الارض فتقدح ناراً !!

(٢) يوم السباسب : هو عيد السعانين عند النصارى . أي كانت الرياحين تنثر أمامهم وهم يلبسون النعال الرقيقة دلالة على التنعم لأنهم يركبون الخيل فلا يحتاجون للنعال الصفيقة

(٣) الإضريج : الخزّ الأحمر . المشاجب : أعواد تنشر عليها الثياب كالمعروفة اليوم

قدّمنا فيما سبق ؛ الأقوال المتضاربة التي رواها المؤرخون في سبب غضب النعمان على النابغة . واعتقدنا هناك أن السبب الرئيسي : هو علاقة الشاعر بآل جفنه . ومهما يكن السبب . فإن النابغة يعتقد بنفسه البراءة مما ألصق به من التهم . وكانت هذه الفكرة تأكل في نفسه وتحزّ في قلبه وتقضّ مضجعه وتؤلمه أشدّ الألم وتؤرقه فتشرّد عنه الكرى . فيبكي لا بدمع عينيه بل بدم قلبه . ويعتصر منه هذا الألم المرمض شعراً رقيق الحسّ يصوّر نومه المشرّد وخوفه وبراءته وألمه حتى اشتهر وصف لياليه الأليمة فقيل : (بات بليلة نابغية) ولا نعلم شاعراً في الآداب العربية استطاع أن يصور رهبته واعتذاره كما استطاع النابغة . فهو زعيم الاعتذار بحقٍ منذ عرف التاريخ العربي حتى اليوم . وهو في اعتذاره ؛ يعظم النعمان كثيراً ويتذلّل له حتى يرقّق قلبه . ثم يدفع التهمة عنه بالتبرير مرّة وباليمين مرّة ويحاول أن يبرّئ نفسه ويرمي المنافسين بالكذب والتزوير : ـ فعل المحامي البارع في محكمة الجنايات إذ يدافع عن قاتل مجرم . والقصيدتان التاليتان تصوران ذلك أحسن تصوير .

١ً ـ القصيدة البائية . تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، وهي :

ا : وصف رهبته وخوفه والرد على الخصوم

ب : الاعتذار للذنب الذي تجنوّا به عليه ودفعه ؛ وهو مديحه آل غسان . فيقول : هل ألام على مدح من رفدني بعطائه وغمرني بنعمائه ؟! كلا . كذلك أنت تريد أن يعترف الناس بجدواك وإنك لا تؤاخذهم إذا مدحوك .

م : مديح النعمان وتشبيهه بالشمس تغمر الكواكب بنورها ثم يعود فيسترضيه بعد هذا التملّق .

رهبة وجزع :

أتاني — أبيت اللعن — أنك لمتني وتلك التي أهتمّ منها وأنصبُ
فبتّ كأنّ العائدات فرشنني هراساً به يعلى فراشي ويقشب (١)

تبرير باليمين :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلّغت عني خيانةً لمبلِغك الواشي أغش وأكذب

اعتذار :

ولكنني كنت امرءاً لي جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب

(١) العائدات : النساء اللواتي يعدن المريض . الهراس : نبت كثير الشوك . يقشب : يخلط .

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكّم في أموالهم وأقرّب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

عودة الى الخوف :

فلا تتركنّي في الوعيد كأنني إلى الناس مطليٌّ به القار أجرب [1]

النعمان شمس وضاءة :

ألم ترَ أن الله أعطاك سورةً ترى كل ملك دونها يتذبذب [2]
فإنّك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدمنهنّ كوكب

رجاء وتذلل :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لاتلمّه على شعث ، أيُّ الرجال المهذّب ؟! [3]
فإن أكُ مظلوماً ، فعبد ظلمته وإن تك ذا عُتبى فمثلكُ يعتب [4]

٢ : القصيدة العينية وهي تقسم إلى خمسة أقسام :

١ : بكاء على الأطلال

---

(١) تطلى الجمال الجرباء بالقار فلا يقربها أحد
(٢) سورة : منزلة . يتذبذب : يضطرب .
(٣) شعث : عيب .
(٤) يعتب : يعفو .

ب : وصف رهبته من وعيد النعمان وتشبيه نفسه بالسّليم[1] المعنىّ بالسم والأرق وخوف الموت

م : الرد على أعدائه الأقارع وإتهامهم بالغش والكذب والتزوير

ر : كأنما ضاقت به سبل البيان فلم يجد وسيلة لدفع التهمة إلا اليمين . فهو يحلف بالذاهبين إلى مكة للحج[2] أنه هو البريء وانهم المذنبون

ه : إظهار تخوّفه من عدم تصديق النعمان إياه . فيتملق إليه بتعظيم قوّته وأنه كالليل يدركه حيث كان فلا مفرّ منه إلا إليه .

جزع ورهبة :

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع
فبتُّ كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السمّ ناقع[3]

---

(١) العرب تسمي الملدوغ بالسليم ؛ أملا بشفائه . كما تسمي الصحراء المنقطعة بالمفازة ، والأعشى بالبصير تيمّناً وأملاً

(٢) الحج إلى مكة كان مشهوراً قبل الإسلام

(٣) ساور : لدغ

يسهّد من ليل التّمام سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع [1]
تناذرها الراقون من سوء سمّها تطلّقه طوراً وطوراً تراجع [2]

الخبر المخيف :

أتاني ، أبيت اللعن ، أنّك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع
مقالة أن قد قلتَ « سوف أناله » وذلك من تلقاء مثلك رائع [3]

أحلف :

لعمري وما عمري عليَّ بهيّن لقد نطقت بطلاً عليَّ الاقارع
أقارعُ عوفٍ لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادع [4]

كاذبون :

أتاك امرؤٌ مستبطن لي بغضةً له من عدوٍّ مثل ذلك شافع
أتاك بقولٍ هلهل النسج كاذبٍ ولم يأت بالحق الذي هو ناصع
أتاك بقولٍ لم أكن لأقوله ولو كبّلت في ساعديَّ الجوامع [5]

---

(١) التمام : الطويل . السليم : الملدوغ . المعنى : يساهر الملدوغ ويؤرّق بقعقعة حلي النساء لكي لا ينام خشية موته

(٢) تناذرها : أنذر بعضهم بعضاً

(٣) رائع : مخيف

(٤) تجادع : تشاتم

(٥) الجوامع : الأغلال

يمين آخر :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً وهل يأثمن ذو أمّةٍ وهو طائع ..؟[1]
لكلّفتني ذنب امرئ وتركته كذي العرّ يكوي غيره وهو راتع

قسم :

فإن كنت لا ذو الضغن عنّي مكذّب ولا حلفي على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشيء أقوله وأنت بأمرٍ لا محالة واقع
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
أتوعد عبداً لم يخنك أمانةً ويترك عبد ظالم وهو راتع
وأنت ربيع ينعش الناس سيبُه وسيف أُعيرَته المنيّةُ قاطع

شعر الغزل

لم يكن النابغة شاعر الوفاء في الحب فلم يتعلق قلبه بواحدة ولكنه كان شاعراً عميق الشعور يقع حيث يثيره الجمال كالنحلة تشتار الرحيق من الزهر . ثم لا يلبث أن يتحول قلبه إذا غابت معشوقته عن عينيه ويلتفت إلى سواها . فقد وقف على دار ميّة :

يا دار مية بالعلياء فالسند
وسأل أميمة أن تكلله همه :

---

(٧) ذو أمة : ذو دين

كليني لهمّ يا أميمة ناصب

وتألّم لفراق سعاد :

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما

وتذكر سعدى حين وقف على أطلال ديارها :

أسائل عن سعدى وقد قرّ بعدنا على عرصات الدارسبع كواملُ

وهاجه رسم ديار أسماء :

أهاجك من أسماء رسم المنازل

وأطلال ظلاّمة :

أمن ظلاّمة الدمن البوالي

وشكا من تدلل فطام :

أتاركة تدللها فطام

وتألم للرحيل إذ حان سفره ولم يودّع مهدراً

حان الرحيل ولم تودّع مهدراً - والصبح والإمساء منها موعدي

وهكذا يذكر النابغة محبوباته واحدة واحدة . وهو مولع بالغزل يقدّمه في أكثر قصائده يعبّر به عن خوالج نفسه في حينها وفي وصفه المرأة شيء من تعهر امرئ القيس . وإذا صدقت الأبيات المتعهرة التي تنسب إليه في وصف المتجردة ، والتي لانجيز لأنفسنا روايتها في كتاب مدرسي ، يكون قد أربى عليه ولا شك .

وخير القصائد التي تمثّل النابغة حق التمثيل ؛ قصيدته في وصف المتجرّدة . وهي تقسم إلى قسمين :

ا : ذكريات عن المحبوبات ميّة ومهدر وتألم للفراق من غير وداع ...

ب : وصف المتجردة : المقلة . النحر . القوام . البطن . بياضها . جسمها . تشبيهها بالدرّة والمرمر . ثغرها ... وأنه لم يذقه وإنما على السمع من النعمان وزعمه فقط ... ثم كلامها

المتجردة :

والبطن ذو عُكَن لطيف طيّه والنحر تَنفجه بثدي مقعد[1]
محطوطة المتنين غير مفاضةٍ ريّاً الروادف بضّة المتجرّد
قامت تراءى بين سجفي كلّه كالشمس يوم طلوعها بالأسعد[2]
أو درّة صدفيّة غوّاصها بهج متى يرها يهلّ ويسجد
أو دمية من مرمرٍ مرفوعة بنيت بآجر يشاد بقرمد
سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتّقتنا باليد
بمخضبٍ رخصٍ كأن بنانه عنمٌ على أغصانه لم يعقد

---

(١) عكن : طيات . تنفج : ترفعه عن الثوب .

(٢) السجف : الستر . الكله : ثوب يخاط كالكيس يتقى به من البعوض وقت النوم (ناموسيه) .

نظرتْ إليك بحاجةٍ لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العوّد
فبدت ترائب شادنٍ متربّب أحوى أحمّ المقلتين مقلّد
تجلو بقادمتي حمامة أيكةٍ برداً أسفّ لثاته بالإثمد[1]
كالأقحوان غداة غبّ سمائه جفّت أعاليه وأسفله ندي
زعم الهمام بأن فاها باردٌ عذبٌ مقبّله شهيٌّ المورد
زعم الهمام، ولم أذقه، أنه عذبٌ إذا ماذقته قلت ازدد
لو أنها عرضت لأشمط راهب يخشى الإله صرورةٍ متعبّد[2]
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشداً وإن لم يرشد ...

شعر الرثاء

للنابغة نوعان من الرثاء . الأول : مدح في صورة بكاء . أو هو وصف الحي فيما لو ترك الدنيا وتصوّر الفاجعة التي ستقع بعد وفاته . وهو أسلوب لاحظ فيه من الذوق واللطف . ولكنه ربما كان معروفاً في زمنه ومقبولاً . كقوله في النعمان بن المنذر أبي قابوس :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والبلد الحرام

(١) قادمتها الحمامة : يقصد بهما الشفتين . أسف : دهن . لثة : مغرس الأسنان . الاثمد : الكحل

(٢) الصرورة : في الجاهلية الذي لم يتزوج .

ونمسك بعده بذناب عيش أجبّ الظهر ليس له سنام

أو قوله في النعمان بن الحارث :

فأن يهلك النعمان تعرَ مطيةٌ ويلق إلى جنب الفناء قطوعها

وتنحط حصان آخر الليل نحطة تقضقض منها أو تكاد ضلوعها (١)

على إثر خير الناس إن كان هالكاً

وإن كان في جنب الفراش ضجيعها (٢)

والنوع الآخر : رثاء الميت والبكاء عليه وتذكر محاسنه ..

وأظهر قصائده في هذا النوع رثاء النعمان بن الحارث وهي تقسم إلى ثلاثة أقسام :

ا : وقوف على الديار البالية وتذكر أهلها

ب : وصف الناقة

م : وصف النعمان وأن ما عند النابغة من المال ؛ من هباته . ووصف الفاجعة في ملكه ... الخ

رثاء النعمان بن الحارث :

فلا يهنئ الأعداء مصرعُ ملكهم

وما اعتقت منه تميم ووائل

---

(١) تنحط : تزفر . الحصان : المرأة العفيفة .

(٢) معنى البيت : أن هذه المرأة العفيفة تتذكره في الليل فتبكي عليه وإن كان زوجها نائماً إلى جانبها .

وكانت لهم ربعيّة يحذرونها إذا خضخضت ماء السماء القبائل
يسير بها النعمان تغلي قدوره تجيش بأسباب المنايا المراجل (١)

تذكر عطاياه:

يقول رجال ينكرون خليقتي لعلّ زياداً ـ لا أبالك ـ غافل
أبى غفلتي أني إذا ما ذكرته تحرّك داء في فؤادي داخل
وأن تلادي إن ذكرت وشكّتي
ومهري وما ضمّت إليّ الأنامل (٢)
حباؤك والعيس العتاق كأنها هجان المها تحدي عليها الرحائل (٣)

عزاء:

فإن كنت قد ودّعت غير مذمّم أواسي ملك ثبّتته الأوائل (٤)
فلا تبعدن إن المنيّة منهلٌ وكل امرئ يوماً به الحال زائل
فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت فما في حياة بعد موتك طائل

---

(١) معنى المقطوعة: لا يسرّ الأعداء ولا تفرح تميم ووائل انها تخلصت من غزواته في كل ربيع بعد نزول المطر.
(٢) الشكة: السلاح
(٣) الحباء: العطاء. العيس: النوق. العتاق: الكريمة. هجان المها الظباء البيض.
(٤) الأواسي: الدعائم.

وقع الفاجعة :

فـآب مصلّوه بعينٍ جليّةٍ وغودر بالجولان حزم ونائل [1]

سقى الغيث قبراً بين بصرى وجاسم

بغيث من الوسمي قطرٌ ووابل [2]

ولا زال ريحان ومسك وعنبر على منتهاه ديمة ثم هـاطل

بكى حارث الجولان من فقد ربّه

وحوران منه موحش متضـائل

سجوداً له غسان يرجون أوبه

وترك ورهط الأعجمين وكابل [3]

الهجاء

لقد كان الهجاء في الجاهلية قليل الافحاش ولم يزد على تعيير الفرد أو القبيلة ؛ الجبن والبخل و ... الخ من الصفات التي كانت مذمومة لديهم . عَلَى أن النـابغة لم يـكتف بذلك

---

(١) مصلوه : أول من أوصل الخبر . الجولان : سهل ممرع مشهور غربي دمشق إلى الجنوب يبعد عنها مقدار ٣٥ كيلومتراً .

(٢) بصرى وجاسم : قريتان في حوران لاتزالان إلى اليوم وبصرى أشهر .

(٣) يصور مقدار الفاجعة : أن العرب والترك والروم وأهل كابل (عاصمة الأفغان) تألموا لفقده ونحن نشك في نسبة هذا البيت إليه !!

بل كان يتهكّم بعدوّه تهكماً خفياً لاذعاً . ولكنه لم يفحش القول قطعاً . وخير قطعة تمثله في ذلك؛ هجاؤه عامر بن الطفيل إذ وقعت بينه وبين بني بغيض من ذبيان واقعة كسر فيها عامر وقتل أخوه ويقال لها يوم حسي فاعتذر لانكساره بهجو بني ذبيان . فسأل النابغة : ماقلتم لعامر وما قال لكم ؟ فأنشدوه فقال : أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل هذا ولكني سأقول فيه . ثم أنشأ القصيدة التالية يتهكّم فيها بعامر بأن يعتذر لجهله وطول لسانه بشبابه ويأمل له الخير والتحلّم والعقل متى كبر وشاب أو شاب الغراب !! ..

فإن يك عامر قد قال جهلاً ... فإن مطيّة الجهل الشباب
فكن كأبيك أو كأبي براء ... توافقك الحكومة والصواب
فإنك سوف تحلم أو تناهى ... إذا ما شبت أو شاب الغراب
ولا تذهب بقولك طاميات ... من الخيلاء ليس لهن باب
فإن تكن الفوارس يوم حسي ... أصابوا من لقيّك ما أصابوا
فما إن كان من نسبٍ بعيد ... ولكن أدركوك وهم غضاب

هذا ؛ وإذا صحت المقطوعة المنسوبة إليه في هجاء النعمان — وقد تقدم ذكرها — يكون ممثلاً فيها للهجاء في عصره أتمّ تمثيل .

لقد كان جوّ الحيرة وجلّق العقلي أرقى بكثير من جوّ البادية وقد تأثر الشاعر قليلاً أو كثيراً بالحضارتين الفارسية والرومية وظهرت آثار هذه الانطباعات في شعره قصصاً . أصل بعضها يهودي أو مسيحي كقصة سليمان . وأصل الآخر يوناني كقصة الأفعى والأخوين الراعيين إذ عاهداها على الصحبة فكانت تطرح لهما كل يوم ديناراً فغرّ أحدهما الطمع فهمّ بقتلها ليستولي على كنزها فراوغته وفرّت بعد أن لدغته لدغةً مميتة وانقطعت عن أخيه . وبعد مضي زمن رآها فطلب إليها أن تعود لسابق عهدها فقالت له هيهات ؛ إني كلما رأيت جرحي تذكرت غدر أخيك فأتألم وكلما أبصرت أنت قبر أخيك تهمّ بالانتقام من قاتله :

فقالت له أدعوك للعقل وافراً ولا تغشينّي منك بالظلم بادره
فواثقها بالله حين تراضيا فكانت تريه المال غباً وظاهره
فقام لها من فوق حجر مشيد ليقتلها أو يخطئ الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه وللبرّ عين ما تغمض ساهره
فقال تعالي نجعل الله بيننا على مالنا أو تنجزي بي آخره

فقالت يمين الله أفعل إنني رأيتك غداراً يمينك فاجره
أبى لك قبر لا يزال مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاقره

ولم يقتصر تأثر النابغة على الصور فقط . بل تأثرت لغته بالحضارة والغنى فرقّت . واستعمل كلمات آرامية ويونانية وفارسية ككلمة « فرتنا » فإن أصلها يوناني (برتينوس) ومعناه الصبيّة الحسناء أو الكنز . والكلمات : سفّود . سباسب . نبراس . هراق . هيمن . . . الخ وكذلك تأثرت عقليته فترفّعت عن السخافات فهو لا يعتقد بالطيرة مثلاً ويعللها تعليلاً عقلياً :

يلاحظ طيرة أبداً زياد لتخبره وما فيها خبيرُ
تعلم أنه لا طير إلا على متطيّر وهو الثبور
بلى شيءٌ يوافق بعض شيءٍ أحايينا وباطله كثير

على أن هذا لا يمنع أن يكون تأثر بالصحراء أيضاً فقصة زرقاء اليمامة ووصف كلاب الصيد والثور الوحشي؛ عربية صحراوية . ولعل هذه الرقة والجزالة والتصاوير والتهاويل في شعره ميّزته عن سائر شعراء عصره فأمّروه في عكاظ .

تأثير النابغة

يظهر أن النابغة كان حلقةً من سلسلة من الشعراء شكلوا مذهباً خاصاً كما قدّمنا حتى توحّدوا في الصوَر والألفاظ [1]

فإذا قال أوس زعيم المذهب :

لعمرك إنا والأحاليف هؤلا لفي حقبة أظفارها لم تقلّم

قال زهير :

لدى أسدٍ شاكي السلاح مقذّف له لبد أظفاره لم تقلّم

وقال النابغة :

وبنو قعين لا محالة إنهم أتوك غير مقلّمي الأظفار

ولعلّ النابغة كان من أظهر تلاميذ أوس فقلّده مِنْ بَعْدِه الأخطل والفرزدق فاستعاروا تصاويره وألفاظه . ولا نطيل الشرح والمقارنة فعرض الصور إلى جانب بعضها بعضاً هو الشرح نفسه .

---

(١) الادب الجاهلي

قال النابغة :

فما الفرات إذا هبّ الرياح له
ترمي أواذيه العبرين بالزبد ..

(انظر صحيفة ٣٣)

وقال الأخطل :

وما الفرات إذا جاشت غواربه
في حافتيه وفي أوساطه العشرُ
وزعزعته رياح الصيف واضطربت
فوق الجآجيّ من آذيّه غـدُر
مسحنفر من جبال الروم يستره
منها أكافيف فيهـا دونه زور
يوماً بأجود منـه حـين تسأله
ولا بأجهر منـه حـين يجتهر

وقال :

كأنه مزبـد ريان منتجع
يعلو الجزائر في حافاته الزبـد
تظل فيه بنات الماء أنجيـةً
وفي جوانبـه الينبوت والخضـد

قال النابغة :

كأنما الرّحل منها فوق ذي جدد
ذب الرياد إلى الأشباح نظّار

(انظر صفحة ٣٥)

قال الاخطل :

كأنها برج روميّ يشيّده
لزّ بجص وآجر وأحجار
أو مقفر خاضب الأظلاف جاد له
غيث تظاهر في ميثاء مبكار(١)
فبات في جنب أرطاة تكفئه
ريح شآمية هبّت بأمطار
يجول ليلته والعين تضربه
منها بغيث أجش الرعد نيّار
حتى إذا انجاب عنه الليل وانكشفت
سماؤه عن أديم مصحر عار
آنس صوت قنيص إذ أحسّ بهم
كالجنّ يهفون من جرم وأنمار(٢)
فانصاع كالكوكب الدريّ ميعته
غضبان يخلط من معج وإحضار(٣)
فأرسلوهن يذرين التراب كما
يذري سبائخ قطن ندف أوتار(٤)
حتى إذا قلت نالته سوابقها
وأرهقته بأنياب وأظفار
أنحى اليمينّ عيناً غير غافلة
وطعن محتقر الأقران كرّار ..

---

(١) مقفر : الثور الوحشي . الميثاء : الارض السهلة . مبكار : باكرها المطر . (٢) جرم وأنمار : قبيلتان اشتهرتا بالصيد والقنص (٣) انصاع : أسرع . الميعة : أول الجري . المعج والاحضار : نوعان من السير .
(٤) السبائخ : القطع من القطن

قال النابغة :

كأنك شمس والملوك كواكب
إذ طلعت لم يبد منهن كوكب

ما قلت من سيء مما أتيت به
إذن فلا رفعت سوطي إليّ يدي

...

فما الفرات إذا هب الرياح له ...

(انظر صفحة ٤٤)

قال الفرزدق :

إلى بدر ليل من أمية ضوءه
إذا ما بدا يعشى له كل كوكب

...

فلا رفعت إن كنت قلت التي رووا
عليّ ردائي حين ألبسه يدي

...

ما النيل يضرب بالعبرين دارئه
ولا الفرات إذا آذيه زخرا
يعلو أعالي عانات بملتطم
يلقي على سورها الزيتون والعشرا
ترى الصراري والأمواج تلطمه
لو يستطيع إلى بريّة عبرا
إذا علته ظلال الموج واعتركت
بواسقات ترى في مائها كدرا
يستطيع ندى بشر ...

هذه المقارنة البسيطة تعطينا صورة جليّة عن تأثر الشعراء بطريقة النابغة وتتبّعهم خطاه وربّما إغارتهم على ألفاظه وأبياته عينها فكأنهم تعاونوا مع الزمن على طمس معالمه فلم يبق لنا من آثار أمير شعراء عكاظ إلا هذا الديوان الصغير .

ماخذ على النابغة

عاب الأقدمون على النابغة بعض الضعف في نسج أبياته سنجمل أهمها فيما يلي :

أ : الافواء

كقوله يصف النخيل

بزاخيةٍ ألوت بليفٍ كأنها عفاءُ قلاصٍ طار عنها تواجرُ
صغار النوى مكنوزة ليس قشرها إذا طار قشر التمر عنها بطائرِ

وقوله :

اني لأخشى عليكم أن يكون لكم
من أجل بغضائهم يوم كأيامِ
تبدوا كواكبه والشمس طالعة لا النور نور ولا الإظلام إظلامُ

وقوله :

زعم الغراب بأن رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغراب الأسودُ

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به إن كان تفريق الأحبّة في غدِ

وقوله :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتّقتنا باليدِ

بمخضّب رخصٍ كأن بنانه عنمٌ يكاد من اللطافة يعقدُ

ويقال إنه لم يجرؤ أحد على تنبيهه لذلك مهابة واحتراماً حتى دسّت إليه قينة غنّتة البيتين فمدّت (باليد) فأصبحت الكسرة ياءً . ومدت (يعقدُ) فأصبحت الضمة واواً . فقال : دخلت المدينة وفي شعري عاهة وخرجت منها وأنا أشعر الناس !!

٢ً : الابطاء : وهو إعادة لفظ القافية في قصيدة واحدة قبل أن يمضي عليها سبعة أبيات

٣ً : التضمين كقوله :

وهم وردوا الجفاء على تميمٍ وهم أصحاب يوم عكاظ انّي:

شهدتُ لهم مواطن صادقات شهدن لهم بصدق الودّ مني

٤ً : مبالغات غير معقولة كقوله :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله في وصف السيف :

يقد السلوقيّ المضاعف نسجه ويقدح بالصفّاح نار الحباحب

أي يقطع الدرع ولابسه ويشقه حتى يصل إلى الأرض فيقتدح ناراً ..!

وقوله :

فلو كفي اليمين نفتك خوفاً لأفردت اليمين عن الشمال

ولكن هذه المآخذ البسيطة لاتقدح في شاعريته الممتازة ولغته السمحة الرقيقة وهل خلا أحد من عيب ؟

دين النابغة

حاول الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه « شعراء النصرانية » أن ينصّر النابغة كما فعل بكثير من شعراء الجاهلية والإسلام . وادّعى لذلك أن النابغة ذكر الصليب في شعره وأنه ذكر الله مرات متعددّة وذكر الأنبياء كسليمان ... ولكننا لانرى هذه أدلة كافية فشوقي في العصر الحاضر ذكر المسيح صراحة كثيراً . وأثنى عليه وذكر أمّه مريم كذلك بالحسنى فهل يكون شوقي نصرانياً ؟ وبماذا نعلّل يمين النابغة بالكعبة وأوثانها ؟!

فلا لعمر الذي مسّحت كعبتـه

وما هريق على الأنصاب من جسد

والمؤمن العائذات الطير تمسحها ركبان مكة بين الغيل والسعد

على أن شكنا في دينه لايمنع أنه كان موحداً فذكره الله صراحةً على صورة الاعتقاد الصحيح يدل على تأثره بالتوحيد ولا غرابة في ذلك . فعقله لا شك أسمى من عرب البادية وهو قابل لهذه الفكرة السامية التي تتنزه عن الخضوع للأوثان والحجارة .

خلاصة

ليس في النابغة عمق فكر ولا فلسفة ولكن حركة نفس قويّة فقط فلم تؤثر المدنية تأثيراً عميقاً في عقله بدليل أن الصور التي نقلها، صور سطحية مغلوطة : كبناء تدمر بيد الجان مثلا . ولكنها رقّقت شعوره وأرهفت حسّه ونظمت أفكاره نوعا ما . فكان ألى جانب قلبه البدوي ذا عقل شبه مدني يفهم السياسة ويتأثر بالجمال .

مراجع هذا البحث

١ً — الديوان

٢ً — الأغاني

٣ً — العقد الفريد

٤ً — شعراء النصرانية

٥ً — الشعر والشعراء

٦ — جمهرة أشعار العرب

٧ً — الأدب الجاهلي

٨ً — عصر المأمون

٩ً — فجر الإسلام

١٠ — الطبري

١١ — ابن الأثير

١٢ — الروائع جزء ٣٠

١٣ — أدباء العرب

الفرزدق

تاريخ

كان العرب قبل الإسلام في فوضى قبليّة ، لا يتبعون سياسة واحدة ولا ديناً واحداً . وليس لهم آمال مشتركة لحياةٍ جامعة . ولا يفهمون العزّ إلا مقروناً بالقبيلة ، ولا السلطان إلا سلطان القوّة . يأكل بعضهم بعضاً فيسبي القوي مال الضعيف ونساءه ويقتل رجاله ... حتى جاء النبي محمد ﷺ بدين جديد وحّد به معبود الجزيرة كلها فاتحدت آمال العرب حول هدف أسمى وتناسوا الضغائن إلى حين . ولكن الطباع المغروسة في النفوس من أجيال طويلة لا يمكن أن تمحوها سنون قليلة ، مضت بين دهشة الجديد والإعجاب بالنبي وشخصه اللامع . فلم يكد يتحوّل عنهم ؛ حتى اختلفوا في من يتولّى الأمر بعده . وانقسموا إلى مهاجرين وأنصار . ثم انقسم الأنصار إلى أوسٍ وخزرج ... وتبوّأ الخلافة أبو بكر ؛ فإذا العرب في الجزيرة قد ارتدّوا عن الدين الجديد لأنهم لم يتعودوا الاتحاد العام والطاعة لحكومة . وضغا شاعرهم الحطيئة قائلاً :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لهفتي ما بال دين أبي بكر ؟!

أيورثها بكراً إذا قام بعده؟ فتلك وأيم الله قاصمة الظهر !!

وكان على أبي بكر أن يخمد ثورتين في آن واحد: الثورة الأولى هي حروب الردّة. والثورة الثانية هي الكامنة في نفس عليّ وأنصاره، ألمًا من حرمانهم من الخلافة وغيرةً من ابن أبي قحافة. فأخمد الأولى بسيف الله المسلول خالد بن الوليد. والثانية بتلاينه وشدّة ابن الخطاب. والتاريخ يحدثنا عن هذه وتلك أشياء كثيرة من مناقشات وملاحاة[1]. ثم توفّي أبو بكر بعد أن توطد الدين والأمن في الجزيرة بعض التوطيد. وجاء عمر فساق الجيوش إلى الشام والعراق ومصر ليلهي العرب عن المنازعات الداخلية بحروب خارجية. وطرد من الجزيرة كل من لم يدخل في الدين. فلم يجتمع بعده في الجزيرة دينان. وكانت الدولتان الفارسية والروميّة قد هرمتا وتقوّض فيهما الخلق الاجتماعي والسياسي. فدهمهما العرب فإذا هما تنهاران أمامهم كما ينهار البنيان المتداعي. ولم تتماسكا إلا بضع سنوات حتى انحنت بلدانهما أمام الإسلام، إما بالدخول في الدين أو بالجزية أو بالانكسار الحربي، وما يتبعه من استرقاق

---

(١) انظر كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة والفتوحات الاسلامية لزيني دحلان

الرجال وسبي الأموال والنساء . فذَلّ هؤلاء الموالي بعد عزّ وطأطئوا رؤوسهم خانعين وأخذتهم الدهشة ، فلم يستفيقوا حتى كان العرب — وهم مستعمَروهم بالأمس — سادة يحكمون في رقابهم وأموالهم ، أغنياء بعد فقر حتى منعهم عمر من اقتناء الضياع والزراعة لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم وما يملكون من عبيد وأموال ، كل ذلك يدفعه لهم من بيت المال [1] وقتل عمر بدسيسة من هؤلاء الموالي المتألمين على عزّهم السابق وحريّتهم الضائعة . وكانت الشورى وتولّي عثمان الخلافة ونقمة القرشيّين منه بصورة خاصة؛ لاختصاصه أقاربه بالوظائف الكبرى . ولعبت الدسائس دورها ، فقتل عثمان شرّ قتلة وبعج بطنه وشدخ رأسه وقطعت أصابع زوجه نائلة بنت الفراصة وهي تدافع عنه . فاتخذ معاوية قميصه الملطّخ بالدم وأصابع زوجه ؛ مثاراً لدموع أهل الشام وسخطهم على قتلته . وبايع الناس في الحجاز علياً ووقف معاوية يعارض ، فانقسم الناس إلى حزبين كبيرين : واحد يؤازر علياً وهم أهل العراق ، وآخر يشدّ ساعد معاوية وهم أهل الشام . ثم ثار طلحة والزبير وعائشة على عليّ ومعهم حزبهم من الحجاز فقضى عليهم عليّ في واقعة

---

(١) عصر المأمون جزء ١ صفحة ٢

الجمل . والتفت إلى معاوية . وكانت موقعة صفّين وحادث التحكيم فانقسم الناس إلى راضٍ به وكارهٍ له وانشق عن عليّ حزب شديد الوطأة على أخصامه هو حزب الخوارج . ولولا حادث التحكيم ؛ لغلب أحد الفريقين: عليّ أو معاوية . وانتهت الخصومات الحزبية والسياسية ولتغير وجه التاريخ الإسلامي بغير هذا الشكل الذي نقرؤه الآن .

ثم قتل عليّ واستتبّ الأمر لمعاوية بما اشتهر به من حنكة ودراية وسياسة مكيافيلية هائلة : يتألف الأحزاب بالمال وبالوعود وبالوظائف ثم يدسّ الدسائس ويحرّض ويقتل ويغتال إذا حزبه الأمر ! وسلّم الملك لابنه يزيد بعد موته فإذا العرب في أقصى فارس وخراسان وأرمينيه ومصر .. يسرف جندهم في الفتوح والقتال ويسرف أمراؤهم بالبذخ والترف والمال واقتناء الجواري والضياع .. ولكن الثورات لم تنقطع في داخل البلاد من الخوارج وشيعة عليّ وابن . الزبير فقضي على الشيعة بقتل الحسين وعلى الخوارج بملاحقتهم الدائمة . وعلى ابن الزبير بواقعة الحرّة وأتبعها من جاء بعده بهدم الكعبة وقتل ابن الزبير وصلبه . مما يحدثنا عنه التاريخ بالتفصيل [1] وأصبحت الأمّة

(١) ارجع لابن الاثير وابن قتيبة وزيني دحلان

منشقة عَلَى بعضها بعضاً أحزاباً تتقاتل وتتطاحن. كلٌّ منها يطمع بالملك! إذ تحوّلت الفكرة، في برهة الخمسين عاماً التي تلت الهجرة، من سياسة قبلية إلى فكرة أوسع وأضخم هي فكرة الملك الاسلامي الكبير. وأصبح مدار الألاعيب الساسة، هي الخلافة ومن هو أحقّ بها!! ولكل حزب مؤيدون وأنصار يعضدون فكرته ويدافعون عنها بالسيف تارة وباللسان تارة أخرى ولكل حزب مباديء وأهداف وأساليب خاصة تجول كلّها حول كرسي الخلافة. وتولّى الملك بعد يزيد ابنه معاوية الثاني أشهراً. كانت الدسائس فيها تحاك من كل طرف. ثم تمّت الغلبة لمروان بن الحكم شيخ قريش من بني أميّة والحال في البلاد الإسلامية: نصر على الحدود تتوالى حلقاته آخذ بعضه برقاب بعض.. وثورات داخلية هدّامة ودعايات شتّى!! ولولا حزمه وحزم ابنه عبد الملك بعده وأخذهم النّاس بالشدّة والصرامة وسياستهم بالقسوة: لما كان نصيبهم أقل من نصيب عمر وعثمان وعليّ والحسين. ولقد وقف عبد الملك مرةً على المنبر فقال: «من قال لي بعد موقفي هذا اتق الله ضربت عنقه» بهذا استطاع المروانيون أن يوطّدوا ملكهم على مضض من سائر الأحزاب. ولننظر الآن الى

دعاوي كل حزب وطريقته التي يتمسّك بها للوصول إلى كرسي الحكم

١ : **الحزب الشيعي** : يستند إلى قرابة عليّ من النبيّ وشجاعته ودفاعه عن الاسلام وأنه بحكم هذه القرابة الدمويّة والمصاهرة والروح والفقه .. أحقّ بالملك . وأولاده أحقّ من من أولاد أُميّة الحاكمين . وعلى هذا الأساس بويع للحسن وثار الحسين فقتل وتشتّت أنصاره وضيّق عليهم واشتدّ على من يعطف عليهم وقسي عليه حتى لم يعودوا يجرءون على الظهور فكانوا يخبتون حتى إذا وجدوا فرصة ؛ ثاروا . فيُقتلون من جديد حتى اضطرهم هذا الضغط إلى اتخاذ مبدأ التقيّة والتظاهر بغير ما يعتقدون ودسّ الدسائس والعمل سرّاً على كسب عطف الناس .. والضعيف المظلوم ؛ يجد تأييداً قلبياً في الناس[1] خصوصاً من الناقمين على الحزب الحاكم وهذا ما وجده الشيعة في الموالي الفرس حتى رفعوا دولة بني العباس بعد ذلك . ولقد بلغ من قسوة بني أميّة عليهم أن كانوا يتسامحون بلعنهم ، حتى على المنابر ! دعاوةً ضدّهم . وانظر إلى القصة التالية فإنها تريك مبلغ هذه القسوة واضحاً :

---

(١) لقي الحسين الفرزدق يوماً فسأله : كيف حال الناس ؟ فقال : القلوب معك والسيوف مع بني أمية والنصر عند الله !!

خطب عبد الله بن قيس الفهري عاملُ يزيد على المدينة فاطمة بنت الحسين فعزله يزيد وغرّمه ٣٠ ألف دينار وأمر بتعذيبه ! ! حتى رئي لفقره يسأل الناس وفي عنقه خرقة صوف ! !(١) . ولقد بلغ من عطف الشعراء عَلَى آل البيت أن كانوا يدافعون عنهم ويرفضون جوائزهم كما فعل الفرزدق يوم مدح زين العابدين بحضرة هشام . ويفضّلونهم على أنفسهم ويتألّمون لألمهم . يقول شاعرهم أبو الحسين الجزّار :

ويعود عاشوراء يذكرني رزء الحسين فليت لم يعدِ
ويداً به لشماتةٍ خضبت مقطوعة من زندها بيدي

٢ : **مذهب بني أمية** : يدّعون أنّ الخلافة وصلت إلى عثمان بطريق قانونيّة . ثم قتل عنها ظلماً ، فهم ورثته لأنهم أقرب الناس إليه . وهذا ما كان يردّده شعراؤهم بصورة خاصة ، ومن أراد أن يتملّقهم من شعراء الأحزاب الأخرى حتى شعراء الحزب الشيعي . فالفرزدق يردّد ذكر عثمان كثيراً في مدائح بني أمية ، انظر إلى قوله :

خلافةً لم تكن غصباً مشورتها أرسى قواعدها الرحمن ذو النّعم
كانت لعثمان لم يظلم خلافتها فانتهك الناس منه أعظم الحرم

---

(١) عصر المأمون جزء ١

٣ً : **الحزب الزبيري** : لم يكن يستند إلى إرث ولا إلى دعوى قرابة . بل إلى مكانة وشرف فقط . أليسوا من قريش وهي في ذروة العرب ؟ فلماذا يتحكّم بنو أميّة بالملك ويُقصَون هم عن الوظائف ؟ ! ويظهر أن هذا الحزب انتعش بعد مقتل الحسين إذ انضمّ إليه بعض الشيعة والموالي من الناقمين على بني أمية نكاية بهم . فقضى عليه الحجاج قضاءً سريعاً واجتثّه من أصوله . ولم يسمع له بعد ذلك حسيس . بل كان الشعراء يتحاملون عليه أحياناً إرضاءً لحزب بني أميّة ، طمعاً بما عندهم من دنيا . انظر إلى قول الفرزدق :

فالأرض لله ولاّها خليفته وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفسادِ الذي قد كان قام به كذّاب مكة من مكرٍ وتخريب (١)

٤ً : **حزب الخوارج** : انشق هذا الحزب عن عليّ بعد حادث التحكيم وحجّتهم : أنّ معاوية مغتصب لا تجوز طاعته وأن الخلافة لعليّ ولكنّه لما قبل التحكيم ؛ كأنه تنازل عنها وهي ثوب ألبسه إياه الله فخلعه . ولذلك تخلع الطاعة له . وأنه لاحكمَ إلا الله ! ! وانسحبوا إلى العراق . ثم انتشروا في الأحساء ونجد واليمامة . وأخذوا يمعنون تقتيلاً وتفظيعاً . وولّوا

---

(١) يقصد بكذاب مكة : عبد الله بن الزبير

عليهم أمراء منهم كانوا يسمّونهم (أمراء المؤمنين) . ويظهر أن الفطرة البدويّة لم يصقلها فيهم الإسلام وإنما أخذوه على ظاهره وآمنوا به إيمانا عميقاً من دون تفكير . وكانوا يقاتلون بشجاعةٍ نادرة ، حتى كادوا يوهنون ملك بني أمية — لولا الحجاج والمهلب بن أبي صفرة — وقد بقي هذا الحزب تخفق فيه الحياة رغم كثرة من قتل منهم حتى أواخر الدولة العباسيّة بل لا يزال منهم قِسم إلى الآن في البحرين من الخليج الفارسي وفي الجزيرة الخضراء من تونس .

. . .

تلك كانت حال الأحزاب أوائل دولة بني أميّة وعلى هذا انطلقت ألسنة شعرائها . فانتعش الشعر السياسي وأصبح الشاعر لا يمثّل قبيلةً واحدة فقط ، بل يمثّل حزباً كاملاً تنطوي تحته قبائل مختلفة . بل ربمّا هجا بطناً أو فخذاً من قبيلته في حزب معادٍ كالذي وقع بين جرير والفرزدق وكلاهما من تميم ! !

ولم تكن الحرب كلاميّة . ولم ينته الأمر عند السباب والشتائم . ولكن التاريخ يحدثنا عن كثير من حوادث الاغتيالات والثورات والانتقام والتشريد عن الماء [1] .

---

(١) انظر ابن الاثير ودحلان وديوان الفرزدق وجرير والنقائض

وكان من صالح الحزب الحاكم من أميّة ، أن يثير هذه الحرب بين الاحزاب ويهيج العصبية ليلهيهم عنه . شأن السياسي البارع ، يفرّق الأحزاب ليسودها جميعاً . وليكون كل منها محتاجاً إليه . انظر إلى سليمان بن عبد الملك وقد اجتمع عنده مرّةً الفرزدق وجرير وكثيّر وابن الرّقاع فاستنشدهم من فخرهم فبدرهم الفرزدق بقوله :

وما قوم إذا العلماء عُدّت عروق الأكرمين إلى التراب ..
بمختلفين إن فضّلتمونا عليهم في القديم ولا نقاب
ولو رَفع السحاب إليه قوماً علونا في السماء إلى السحاب

فقال لهم سليمان : لا تنطقوا ، والله ما ترك لكم مقالا ..

وما قصد سليمان بهذا إلا أن يؤرّث نار الحقد والبغضاء في قلوبهم بين بعضهم بعضاً وكلهم يمثل حزبه . وهذا ما يوضح لنا كثرة شعر الهجاء والإفحاش فيه وتسامح الحكومة والناس بسماع بذاءته وسقطه . فليس فيه تصاوير ولا أطاريف ولكنه سباب فاحش وألفاظ وقحة قذرة . وهذا ما يفسر أيضاً لنا دوام حرب التهاجي أربعين عاماً بين الفرزدق وجرير . يسند هذا جماعته وشعراؤه . ويسند ذاك جماعته وشعراؤه . ولعلّ هذا ما يفسّر لنا أيضاً : وضع أحد أصحاب الفرزدق جائزة قدرها

٤٠٠٠ درهم وفرس لمن يفضّل صاحبه على جرير ! وهو إنما يريد إسقاط الحزب المعادي باسقاط شاعره .

فالإسلام كما رأيت لم يستطع تهذيب العصبيّة وإصلاح النفوس البدوية دفعةً واحدة ، لأن العثرات السياسية كانت تقف في طريقه دائماً ، حتى الجيوش المحاربة لم تكن تستطيع التخلّص من النعرة العشائرية . فالفرد مازال ذائباً في عشيرته يعتزّ بها ويحامي عنها ويفخر بها ، انظر إلى قول سَلَمه بن زياد ابن أبي سفيان :

وإن تقهروني حين غابت عشيرتي فمن عجب الأيام أن تقهروا مثلي!

وإلى قصة ذلك الباهلي الذي لقيه الفرزدق في المربد يبيع نحياً من سمن فسامه الفرزدق فعرفه الباهلي ووهبه إيّاه على أن يهب له أعراض قومه فلا يشتمهم !! وإلى تلك المرأة الباهليّة — سوداء بنت العجيل — التي استوهبت الفرزدق أعراض بني الحَبَال فقال :

وهبت لسوداءَ الحَبَال فأصبحت

وقد عقلت مني سيورَ التمائم

أَلا يدل هذا على أن الشعور القومي المتّسع لم يشمل نفوس

الناس زمن بني أُميّه ؟ وأن عقليّتهم البدويّة لم تتغير إلا قليلاً !
وأن كبار الفقهاء لا يمثّلون الشعب . ولكنهم يمثّلون طبقة
خاصة فقط ، أما الذي يمثّل الشعب أصدق تمثيل . فهم الشعراء
وسنتناول الفرزدق منهم بالتحليل فإنه صورة للحياة الأموية
في الناس كما أن الحجّاج صورة صحيحة للحزب الحاكم

الفرزدق

اسمه همّام بن غالب بن صعصعة من دارم ثم من تميم . يكنى أبا فراس وهي من كنى الأسد . وأبا مكيّة نسبة إلى ابنة له ولدت من جارية سوداء . ولقّب بالفرزدق لجهومة وجهه وأثر من الجدري منطبع فيه . ولكن من أين جاءه هذا اللقب ؟ لقد اختلف في ذلك كما اختلف في معنى كلمة الفرزدق فقيل :

١ً : الرغيف الساقط في التنّور

٢ً : القطعة من العجين

٣ً : فتات الخبز

٤ً : الخبزة الغليظة التي تتخذ منها النساء الفتوتَ فتشربه

٥ً : إنه معرّب من (برزده)

٦ً : إنه منحوت من (فرز) و (دقّ)

ونحن نميل إلى الرأي الرابع بدليل ما جاء عن هشام الغزّي أنه اجتمع بالفرزدق في مجلس ، فتجاهله وقال من أنت : فقال : أما تعرفني ؟ !

قال : قلت لا

قال : أنا أبو فراس

— : ومن أبو فراس ؟

— : أنا الفرزدق

— : ومن الفرزدق ؟!

— : أو ما تعرف الفرزدق

— : أعرف الفرزدق أنه شيء تتخذه النساء عندنا بالمدينة تتسمن به وهو الفتوت

— : فضحك الفرزدق وقال : الحمد لله الذي جعلني في بطون نسائكم .

طفولة الفرزدق ونشوءه

لا نعرف شيئاً عن طفولة الفرزدق إلا نتفاً صغيرة لا تغني . ولذا لا نستطيع أن نعيّن عام ميلاده إلا بالتقريب . فقد ذكروا أن والده غالب قدم به على عليّ ابن أبي طالب عام الجمل (سنة ٣٦ هـ) وقال له : إن ابني هذا يقول الشعر ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً . فقال له عليّ : علّمه القرآن فهو خير له .

وقد شك بعضهم في هذه القصة إذ ذكروا أن أول شعر قاله :

شاهد إذا ما كنت ذا محميّة بـدارميٍّ أمّه ضبّـيّة

صمحمحٍ مثل أبي مكيّة

ومكية ابنته – فلم يعد قولهم (إن أباه لقي علياً) بالصحيح لأنه كان متزوجاً وله ابنة . على أن هذا الزعم ضعيف . لأن من عادة العرب أن يكنوا أولادهم وهم صغار . ولا تزال هذه العادة فيهم إلى اليوم ، ويتّبعها بعض المتأثرين بالآداب القديمة من الحضريّين أيضاً فيسمون أولادهم بأبي هاشم وأبي نوخه وما ماثل ذلك . فورود الأبيات المتقدّمة من شعر طفولته وذكر ابنته فيها ، لا يهدم قصة وروده على عليّ مع أبيه . بدليل أن كلمة عليّ أثرّت فيه وما زالت تعصف في دماغه حتى قيّد نفسه مرةً وعزم أن لا يفكّ القيد حتى يحفظ القرآن . وفي ذلك يقول :

ألا استهزأت مني هنيدة أن رأت

أسيراً يداني خطوه حلق الحجل

ولو علمت أنّ الوثاق أشدّه

إلى النار قالت لي مقالة ذي عقل

لعمري لئن قيّدت نفسي لطالما

سعيت وأوضعت المطيّة في الجهل

فإن يك قيدي كان نذراً نذرته

فما بي عن أحساب قومي في شغلِ

فعلى هذا ، يكون الفرزدق قد ولد في خلافة عثمان .

وذكروا أنه مات في خلافة هشام بعلّة الدبيلة [1] أو بذات الجنب ، وله فيه قصيدة يمدحه بها ويهنئه بالخلافة . ولا نرى له بعدها شعراً في خليفة . وهشام تولّى الملك عام ١٠٥ فالمسافة بين عام الجمل ٣٦ سنة هـ وهذه السنة ٦٩ عاماً وهو نفسه يقول في قصيدته بهشام إن عمره ثمانون عاماً

رمتني بالثمانين الدواهي وسهم الدهر أصوب سهم رام

فالفرق إذن أحد عشر عاماً ، فلا نظن قول ابن قتيبة — من أن الفرزدق مات وقد قارب المئة — بعيداً كثيراً عن الصواب . وإن كان قليل الحظّ من التحقيق العلمي [2] ويذكرون أنه مات حول ١١٠ — ١١٤

---

(١) الدبيلة دمّل كبير تظهر في الجوف فتقتل صاحبها غالباً

(٢) ذكر صاحب أدباء العرب ما يلي : خلافة هشام تبتدئ في السنة الخمسين بعد المئة للهجرة . فإذا كان الفرزدق في الثمانين من عمره كما ذكر في شعره ، فلا يصحّ أن تكون سنه قد نيفت على التسعين يوم وفاته . هذا إذا حسبنا أن القصيدة قيلت في السنة الاولى لخلافة هشام وأن الشاعر كان في الثمانين دون زيادة أو نقصان . وفي —

فالفرزدق إذن ؛ عاش مع الدولة الأمويه ومضى فيها ما يقارب القرن وعاشر عشر خلفاء منها [1] واطّلع على أسرار سياستها ومواضع القوّة ومطاعن الضعف ومصادر الدسّ منها أو ضدها فلا نعجب بعدُ ، أن يكون صورة صادقة لهذا المحيط يمثّل الشعب سياسياً أصح تمثيل .

نسب الفرزدق

يعود نسب الفرزدق إلى دارم ثم تميم . وتميم اعتدت

— أي حال . فأن الفرزوق لم يبلغ المئة . وإنما مات في التسعين أو أنه جاوزها قليلا .

مناقشة ردّ

هذا خطأ فاحش فلو فرضنا أن هشاماً تولى الملك (١٠٥) كما ذكر ؛ يكون عمر الفرزدق في ذلك أكثر من ١٢٥ عاما . ونظن أن الغلط جاءه من عدم تروّيه في التحقيق عن العام الذي تولّى فيه الحكم هشام بن عبد الملك ، فالصواب سنة ١٠٥ هجرية لا ١٥٠

(١) الخلفاء هم :

١ : معاوية بن أبي سفيان ٤١ - ٦٠	٦ : الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦
٢ : يزيد بن معاوية ٦٠ — ٦٤	٧ : سليمان بن عبد الملك ٩٦ — ٩٩
٣ : معاوية بن يزيد ٦٤	٨ : عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١
٤ : مروان بن الحكم ٦٤ — ٦٥	٩ : يزيد بن عبد الملك ١٠١ ١٠٥
٥ : عبد الملك بن مروان ٦٥ — ٨٦	١٠ : هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥

مرةً في الجاهلية على الحرم وفي الأشهر الحرم، فأجلتها العرب عن تهامه، وانتشرت بعدُ في بوادي اليمامة ونجد والبصرة. وينبغي أن لا يمرّ حادث اعتداء تميم على الحرم مرّاً سريعاً؛ لأن له أهميّته الكبرى من الناحية التاريخية. فهو يدلّنا دلالةً صريحة على عراقة هذه القبيلة في البداوة وبعدها عن العقل المدني الذي يخضع للقانون ويحترم الشعائر.

وقد أورثت القبيلة، طباعها البدويّة، لشاعرها الفرزدق. فجاء جافياً في طباعه، قاسياً في معاملاته، جريئاً في تطاوله، صحراوياً في لغته، بدوياً في معانيه لم يصقله الإسلام ولم يهذّبه الدين. وكان أبوه غالب مشهوراً بالكرم والعزّة وجدّه صعصعة عظيماً في قومه، ابتدع للشهرة طريقاً كريماً جداً. فقد اشترى أكثر من ٤٠٠ موءوده. فورث الفرزدق منهما حب الفخار والنجدة ولهذا كثر ذكرهما في شعره تعظيماً وتفخيماً:

وجدّي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد

...

نِعْمَ أبو الأضياف في المحل غالب

إذا لبس الغادي يديه من البرد

ولهذا كثر فخره على الناس وتطاولت غطرسته على الشعراء والملوك فمَنْ كقومه في الجاهلية عزةً وجفوة؟ يتطاولون حتى على الحرم!! ومن كأبيه الذي نحر مئة ناقة دفعة واحدة ليطعم الناس في يوم محل؟! ومن كجدّه يدفع من ماله ليحيي الموءودات من بنات الناس؟!

ولهذا كان منفوراً من الحزب الحاكم لأنّه كان كثير الادلال عليهم كثير الفخر أمامهم. فقد وقف مرةً على معاوية يطالبه بإرث فخاطبه بلهجة الأنداد وأربى عليه:

وكم من أَب لي يا معاويّ لم يكن
أَبوك الذي من عبد شمسٍ يقاربه
فلو كان هذا الأمر في جاهليةٍ
عرفت مَنْ المولى القليلُ حلايبه!

وما وقف ليمدح خليفة إلا دسّ فخره بنفسه وقومه في هذا المديح. ولذلك كان حظّه من الحزب الحاكم قليلاً. ولم يقرّبوه أحياناً إلا ليطأطئوا منه، وعاش عمره طريداً يحبسونه مرةً ويطلقونه أخرى شأن الحكومات المستبدّة في عصرنا الحاضر إذ تغلق الجرائد المعادية أو تعلّقها إلى أجل لتخفت صوت المعارضة وتخنقها.

وكان الشعر، كالصحافة اليوم، يدرّ الرزق على الشاعر وهو بالطبع أكثر ربحاً كلما كان أشدّ قرباً من حزب الحكومة، لأن المال والجاه والشهرة كلها عندها، ولهذا نرى الفرزدق قليل الغنى يقصد أبواب الملوك ويلحف بالسؤال ويصف فقره :

تسائلني ما بال جنبك جافيا
أهمٌّ جفا أم جفن عينك أرمد؟
فقلت لها ؛ لا بل عيال أراهم
وما لهم ما فيه للغيث معقد
فقالت أليس ابن الوليد الذي له
يمين بها الإمحال والفقر يطرد ؟..

ولكنه مع إقلاله كان ذا نفس متشعبة بالارستقراطية البدوية لا يلين ولا يستكين :

أما الملوك فإنا لانلين لهم حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

شباب الفرزدق

نشأ الفرزدق في البصرة، والبصرة سوق العرب ومعرضها بعد الإسلام تهوي إليها الناس للتجارة والمنافرة والمفاخرة وطلب اللغة والأدب والشعر . بل هي نقطة الاتصال بين البادية

وحاضرة العراق . فتأثّر الشاعر بهذه الحركة . وأكثر ما جذبه منها ؛ الفخر والمنافرة ، بحكم طبيعته وإرثه الاخلاقي والبدوي . فهاجى شعراء قومه أولاً فخشوا معرّة لسانه وهابوا سلاطته فتهور في هذا المزلق واستطال إلى سائر الناس حتى عرف بالهجو قبل كل شيء .

ومن كان مثله طويل اللسان يجرح شعور الناس ؛ لا يكون فيه شعور دقيق أو إحساس رقيق يعامل الناس بما يحبّ أن يعاملوه به . ولذلك كان فاحشاً قاسياً على المرأة يتذوّق لذتها الماديّة ولا يفهم روحها . ثم لا يلبث متى أشبع نهمه منها وروى ظمأه أن يلقيها كما تلقى الزهرة الذابلة في علبة الأقذار . ولهذا كثر عدد زوجاته ومن تسرّى بهن . ومع ذلك كلّه فكان لا يكتفي !! بل يمدّ يده إلى حيث طالت ويزني غير مستحيي ولا خجل . بل ربما أعلن ذلك في شعره صراحة ، بل ربما صرّح بأشياء ، عن زوجاته ، جنسية عميقة في الجنس لا نجيز لأنفسنا روايتها في كتاب مدرسي ، وهذه نتفٌ من حوادث نرويها بترفّق تتصوّرُ فيها هذه النفس النهمة : نزل مرّة على امرأة في المدينة فأحسنت ضيافته فراودها عن نفسها واشتهرت القصة فهرب من المدينة أو أُجلي عنها فقال فيه جرير :

وكنت إذا نزلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

ونزل مرةً في اليمامة فشرب حتى سكر فقال لصاحبه إن الغلمه قد آذنتني فأكسبتني بغيها، وألحّ عليه في ذلك، فذهب الرجل إلى القرية وقال: هل من امرأة تقبل [1] فان معي امرأتي أخذها الطلق، فبعثوا معه امرأة فأدخلها على الفرزدق وقد غطاه، فلما دنت منه واثبها ثم ارتحل

هكذا قطع مرحلة الشباب في فسوق عملي: سكر وخمر وزنا:

وأجانةٍ ريّا الشروب كأنها
إذا اغتمست فيها الزجاجة، كوكبُ
مختمةٍ من عهد كسرى بن هرمزٍ
بكرنا عليها والفراريج تنعب
سبقت بها يوم القيامة إذ دنا
وما للصبا بعد القيامة مطلب

وكان له في عفو الله رأي غريب: سأله رجل ألك هذا الرجاء وأنت تفعل ما تفعل؟

— فقال: أتروني لو أذنبت إلى والديّ أكانا يقذفاني في تنور وتطيب أنفسهما بذلك؟

---

(١) أي هل يوجد هنا امرأة قابلة (دابة).

— قال : لا . بل كانا يرحمانك

— فقال : أنا والله برحمته أوثق مني برحمتهما ! !

فلم يكن إذاً مؤمناً قويّ الايمان . ولم يؤثّر فيه الإسلام إلا تأثيراً ظاهرياً فقط . وليس ذلك عجباً . فإن الزمن الذي عاش فيه كان دور انتقال من جاهلية جهلاء إلى إيمان ونور . وهو يمثل هذا الانتقال تمثيلاً صحيحاً بحياته وشعره ولغته وأخلاقه .

زوجاته وأولاده

ليس من اليسير إحصاء زوجات الفرزدق . لا لكثرتهن بل إن التفريق بين التي بنى بها بناءً شرعياً ، والتي عاشرها معاشرة غير شرعية ؛ صعب جداً .

وقد تزوّج أحياناً بالنسيئة ! ! كجارية بني نهشل وبكاها لما ماتت وبكى ولدها وكان لا يزال حملاً في بطنها . ولم يعرف الذي بينهما أكان زنا أم زواج . ومن زوجاته :

١ً : النوّار ابنة عمه تزوجها خدعة : خطبها رجل من بني دارم فرضيت به . وأرسلت إلى الفرزدق ليتوكّل عنها في عقد النكاح فأخذ الوكالة علنيّة . وزوّج نفسه منها . فهربت منه إلى خولة زوج ابن الزبير ، فلحقها واسترضاها ، وعاشت معه ترضى عنه حيناً

وتخاصمه أحياناً ثم لم تزل ترققه وتستعطفه حتى أجابها إلى طلاقها واشترط عليها : ألا تغادر منزله ، ولا تمنعه من مالها ما كانت تعطيه قبلاً ! ! وله منها أولاد بل أكثر أولاده منها .

٢ً : جهيمة الأزديّة .

٣ً : طيبة . أمهرها له أبان بن الوليد البجلي .

٤ً : حدراء النصرانية أصدقها له الحجاج .

٥ً : رهيمة النّمرية . فركته فطلقها وهجاها . ويشك أنها هي جهيمة . ولكن الرواة صحّفوا اسمها .

٦ً : ظبية بنت ظالم من مجاشع . أمهرها له أبان بن الوليد البجلي . تزوج بها وقد أسن فعجز عنها ففركته ونشزت عنه .

٧ً : أم مكيّة وهي زنجية . وكان يكتني بابنتها إذا حمي الوطيس .

٨ً : جارية بني نهشل ويشك في شرعية زواجه منها

٩ً : سويدة وفيها يقول :

وان زعمت عرسي سويدة أنها سريع عليها حفظتي للمعاتب

...

وكان سيئ العشرة لأزواجه فاشتد كرههن له ، وبغضهنّ وفركنه ، ونشزن عنه ، هذه ابنة عمه النوّار ، التي قطع البيداء

لاحقاً بها ليسترضيها، يتزوج عليها، فإذا عاتبته هجاها أشد هجاء ومدح الجديدة !! يقول :

لجاريةٌ بين السليل عروقها ... وبين أبي الصهباء من آل خالد[1]

أحق بإغلاء المهور من التي ... ربت وهي تنزو في حجور الولائد[2]

..

ويقول :

لعمري لأعرابيةٌ في مظلةٍ ... تظلّ بأعلى بيتها الريح تخفق

أحبُّ إلينا من ضِناك ضفنةٍ ... إذا وضعت عنها المرواح تعرق[3]

بل لم يكتف بلسانه وإنما كان يتطاول عليها أحيانا بيده فيضربها ويعذّبها، والرواة يحدثون : أنه نزل بها في بني سعد فكان يضربها وتشتمه وتقول : (يابني فقيرة) فيضربها فستغيث فلا يغيثها أحد، حتى أغاثها ابن عم لها يقال له كُداد فهجاه الفرزدق وذكر الحادثة :

مالكدادٍ ثكلتني أمّي ... يعدو عليّ بعمودٍ ضخم

وكنت جار البيت وابن العم ... .

---

(١) السليل وأبو الصهباء أخوان : أولاد قيس بن مسعود

(٢) يعرّض بأم النوار وكانت سُرية

(٣) الضناك : المكتنزة اللحم الثقيلة . الضفنة : القصيرة الحمقاء .

فلا نستغرب الآن ، إذا كانت هذه معاملته لابنة عمّه التي تغزّل بها فيما مضى وأحبّها أن يكون على سائر زوجاته أشدّ قسوة .

أولاده

قيل إنه كان له خمس بنات أو ست لم نعرف منهن إلا مكيّة وأما أولاده ، فقد ذكروا أسماء بعضهم كحُبَطة ولُبَطَة وسُبَطَة وزاد بعض الرواة رُكَضة وزَعمة وكُلَطَة وجُلَطَة .. وقالوا إنهم كلهم من النوار . ولم يعرف له عقب من الذكور إلاّ من لبطة . وكان شاعراً . ولم يخلّف لأولاده مالاً كثيراً بل خلف لهم جاهاً استطاع به لبطة أن يستقري التغلبيين فوهبوه مائة ناقة إكراماً لأبيه .

والمتأمل في أسماء أولاده ؛ يرى الذوق البدوي الجافي واضحاً فيها . ويظهر أنه لم يحسن تربيتهم فكانوا له عاقّين ينهرونه ويجذبونه وقد ذكر ذلك في شعره . عاتبهم وهجا بعضهم كلبطة إذ يقول له :

أأن أرعشت كفا أبيك وأصبحت
يداك يدي ليث فإنك جاذبه

رأيت تباشير العقوق هي التي من ابن امرئ ما إن يزال يعاتبه

ولما رآني قد كبرتُ وأنني
أخو الحيّ واستغنى عن المسح شاربه
أصاخ لغربان النعيّ وإنه
لأزورُ عن بعض المقالة جانبه

على أنه قد بكى بعضهم إذ فقدهم ورثاهم ولكن رثاءه كان جاف العاطفة لاينمّ عن أي حب أبويّ .

الفرزدق السياسي

كان الشعر صنعة تدرّ الرزق والشاعر صحيفة الحزب السيّارة والمديح نوع من الدعاوة الإيجابية والهجاء نوع من الدعاوة السلبية . وكان الناس يهتمون لأحاديث الشعراء ويتناشدون قصائدهم في مجادلهم ، ويتعصّب كل فريق لشاعره . أما الفرزدق - وهو من أكبر صحف ذلك الزمان إن صحّ لي هذا التعبير - فلم يستطع أن يكون مع الحزب الحاكم ، مؤيداً له ، ناشراً مبادئه ، عاملاً على الدعاوة له ، كالأخطل . لأن قبيلته لم تكن قريبة من الحزب الحاكم . فهل كان علوياً أو زبيرياً أم خارجياً أم مرجئاً أم ماذا ؟!!

الحق أنه يصعب تحقيق هذه العقدة ولكننا نحاول . .

١ : أما الخوارج فلم يتعرّض لهم . ولكنّه مدح من حاربهم

كالحجاج والمهلب . وما تطاوله لهجائه بعد ذلك إلا إرضاءً لسليمان بن عبد الملك .

ب : وأما الزبيريّة فقد سبّها علناً . ولكن كان ذلك بعد القضاء على الحزب الزبيري . وفي قصيدته التي يمدح بها الحكم الثقفي : ابن عم الحجاج وصهره وعامله على البصرة . والحجاج كما نعلم عدوّ الزبيرية رقم واحد والقاضي على آخر نفس من أنفاسها هدم الكعبة وصلب زعيمها عبد الله . فشتمُ الزبيرية بعد القضاء عليها ليس إلا من باب مجاملة الحزب الغالب . يقول :

فالأرض لله ولاّها خليفته ... وصاحب الله فيها غير مغلوب

بعد الفساد الذي قد كان قام به ... كذّاب مكة من مكر وتخريب

ونحن نعلم أن عبد الله بن الزبير لم يكن كذاباً — وإن كان بخيلاً على الشعراء — وليس هو الذي خرب الكعبة ، بل الذي هدمها بالمنجنيق هو الحجاج عامل بني أميّة . فما معنى هذا التحامل ووصم ابن الزبير بالكذب ؟! إنا مهما تحرينّا ، لا نجد لذلك سبباً إلاّ إرضاء آل الحجاج وبني أميّة من باب الكذب على الأموات !!

م : وأما الشيعة فالشريف الرضيّ ، يحاول أن يزجّ الفرزدق في جملة شعرائهم والمنافحين عنهم . ويذكر الرواة

قصة وقوفه أمام هشام وإنشاده القصيدة الميمية المشهورة في مدح زين العابدين[1]:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحرم

غير أن هذه القصيدة مختلف في صاحبها وفي من قيلت له[2]، ولو فرضنا أنها صحّت منه في زين العابدين، لاتكون

---

(١) سبب إنشاد هذه القصيدة فيما يدّعون أن هشاماً كان على كرسي عالٍ يشاهد الزحام حول الكعبة وتهافت الناس على تقبيل الحجر الأسود. وقد حاول أن يصل إليه فلم يقدر. وبينما هو كذلك إذ انفرجت الناس فجأة وانشقت طريق لعلي بن الحسين فجاء حتى قبل الحجر وعاد. فسأل واحد من أهل الشام هشاماً عنه. فقال: لاأعرفه. استصغاراً لأمره ولكي لا يلفت أنظار من حوله إليه. فأخذت الحمية الفرزدق فقال: أنا أعرفه ثم وقف وأنشد هذه القصيدة.

(٢) قال السندوبي في شرح البيان والتبيين ما يلي:

هذا الشاعر مختلف فيه وفي هذه الابيات فمن الناس من يرويها للفرزدق في علي بن الحسين. ومنهم من يرويها لداود بن سالم في ختم ابن العباس. ومنهم من يرويها للحزين في عبد الله بن عبد الملك وهو عند عبد العزيز بن مروان في مصر. ومنهم من يرويها لخالد بن يزيد مولى ختم فيه... والذي صح عند ابي الفرج أن الأبيات

في كفه خيزران . . . . . و

يغضي حياء . . .

للحزين . والبيت:

يكاد يمسكه . . .

لداود بن سالم في ختم بن عباس .

دليلاً على علويّته ، لانّا لانجد في ديوانه قصيدة علوية سواها بينما نجد أكثر من خمسين قصيدة في الأمويّين وعمّالهم ، فكيف نوفّق إذن بين هذا ورأي الشريف الرضي ؟! ..

ر : وأما الحزب الأموي ، فإنا نجد له فيه خمس ديوانه تقريباً . وكثيراً من المطوّلات في مدح عبد الملك والوليد وسليمان وهشام . ولكن لا نلمس في مديحه عاطفة ولا حباً فمن أي الأحزاب هو إذن ؟

الذي يصح عندي أنه لم يكن منتمياً إلى حزب معين بل كان يتّجه مع المعارضة حيث اتجهت لا يقودها ولا ينفخ في نارها وما مدائحه في بني أمية إلا نوعاً من الملق السياسي غير أن هذا الملق لم يكن يفيده فقد سجن مرات متعددة وفرّ من وجه زياد بن أبيه وكان أشد العمّال عليه . وله فيه قصائد من الهجو الشديد تزيد على عشرة . وكان يعرّض به دائماً ويسبّه في كل مناسبة .

فإذا هجا جريراً تذكر زياداً بشتيمة :

وقبلك ما أعييت كاسرَ عينِه زياداً فلم تقدر عليّ حبائلُه

وإذا رثى مسكينٌ الدارميُ زياداً ؛ هجاه الفرزدق وإذا ذكره بعد موته ؛ قال إنه جيفة :

أبلغ زياداً إذا لاقيتَ جيفتَه أن الحمامة قد طارت عن الحرم

ويسجد حين يبلغه موت زياد لأنه بقي طريداً عن البصرة حتى موته ... الخ لقد كان زياد عليه أشدّ العمال قسوةً حتى قطعه خوفاً . وزياد كما نعلم عامل بني أميّة الأول وموطّد ملكهم . فلم يكن الفرزدق إذن أموياً ولا منتمياً إلى أيّ حزب معين . ولكنه مع الضعيف المظلوم . والعلويون ظُلموا وأُوذوا كثيراً وعُذّبوا حتى رقّت لهم قلوب الناس وعطفت عليهم شفقةً ورحمةً . فقصيدة الفرزدق في ابن الحسين لم تكن إلا وليدة عاطفة موقّتة عارمة ، عصفت في نفسه برهةً من الزمن فأنشدها بحماسة ؛ استغلّ بها العلويون اسم الشاعر أيّما استغلال . ثم لم تلبث هذه الثورة أن تلاشت بين ذهب الأمويّين وبطشهم فعاد يضرب على وترهم وينشد أغانيهم .

كان الأمويون يستندون في حقّ تملّكهم إلى مقتل عثمان ، ويثيرون هذه الفكرة دائماً كلما خمدت . وكان الشعراء يعرفون ذلك منهم ويرددونها دوماً لأنها النغمة المستحبّة لديهم . ولهذا نرى الفرزدق يكثر من ذكر عثمان ويؤيد حق الأمويين به :

هو السيف الذي نصر ابنَ أروى

به مروانُ عثمانَ المصابا

مهاجرين رأوا عثمان أقربهم إذ بايعوه لها والبيتِ والطور
فلن تزال لكم والله أثبتها فيكم إلى نفخة الرحمن في الصور

عثمان إذ ظلموه وانتهكوا دمه صبيحة ليلة النحر

ونحن نعلم أن هذه الفكرة لايقبلها العلويون بل يحاربونها بشدّة . وقد ردّدها في أكثر من عشرين قصيدة . فهل يعقل بعد هذا أن يكون علوياً محضاً ؟ الحق إن رأينا الذي قدمناه فيه هو الرأي الأقرب إلى الصواب - إن لم يكنه - فالفرزدق معارض ، ولكنه لايتقيد برأي حزب معين . بل ينصر الضعيف أياً كان . ويحارب الظالم ويتطاول عليه ويغمز من جانبه مهما يكن شأنه وحوله وطوله . يؤيد ذلك بعض ماورد عنه أنه كان يهجو ابن هبيرة إذ كان والياً على العراق :

تفهّق بالعراق أبو المثنى وعلّم أهله أكل الخبيص

فلما عزل وسجنه خالد القسريّ مدحه وهجا خالداً وعرّض بأمه النصرانية :

فقد حبس القسري في سجن واسط
فتى شيظمياً ما ينهنهه الزجرُ
فتى لم تربّيه النصارى ولم يكن
غذاء له ؛ لحم الخنازير والخمر

وكذلك ردّه الجائزة التي قدمها لهزين العابدين لما بلغه مديحه إياه أمام هشام بالقصيدة الميمية ، ردّ الجائزةَ وقدرها (٤٠٠٠) درهم وأرسل إليه يقول : إنما مدحتك بما أنت أهله لاطمعاً بجدواك

على أنه كان يمالئ القوة أحياناً ويتملق لها بشكل أقل ما يوصف به أنه ملق سياسي . وذلك بهجو المعارضين حتى ولو كان له فيهم أماديح سابقة فقد مدح الحجاج في حياته ورثاه بعد موته . ولما اعتلى سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة وكان يكره الحجاجَ فشتّت شمل آل بيته وعزل عمّاله ونكل بهم ؛ ظاهره الفرزدق في هذه النزعة الانتقامية وهجا الحجاج وتحامل عليه ولما ليم في ذلك اعتل بعذر واهٍ جداً إذ قال : « نكون مع الرجل ما كان الله معه ، فإذا تخلّى عنه ، تخلينا نحن عنه أيضاً » وهذه القصّة تدلنا كما رأيت على لون واضح من ألوان السياسة زمن بني أمية .

وكان الأمويون أنفسهم يخافونه ويخشون لسانه كما تخاف الحكومة الصحف المعارضة فتسترضيها أحياناً . والتاريخ يحدّثنا أن مروان بن الحكم لما كان عاملاً على المدينة وبلغه أن الفرزدق يشرب الخمر ويدخل على القيان وينشد الشعر ؛ طرده من المدينة بتحريض أهلها . ولم يجرؤ أن يحدّه الحدّ الشرعي

كما طلبوا منه . بل قال لهم : أكتب إلى عاملي أن يحدّه ويحبسه . ثم راجع مروان نفسه فبعث وراءه بمئة دينار وراحله إسكاتاً للسانه وخوفاً من هجائه [1]

شعر الفرزدق :

شعر الفرذق نموذج كامل للّغة الامويّة والعقلية الاسلامية صدر دولة بني أميّة . ولهذا لم يخرج موضوع شعره عن الهجاء والمديح والغزل والفخر — إلا قليلاً — تلك المواضيع البدويّة التي قال فيها الجاهليون ، ولم يزد عليها إلا ألفاظاً إسلامية قليلة : كالإسلام والخلافة والله وإمارة المؤمنين وما شابه ذلك .

ولقد عرف له القدماء ذلك فقال أبو عمرو بن العلاء :

« لم أر بدويّاً أقام في الحضر إلا فسد لسانه . غير روبة والفرزدق . » فهو يقرّ معنا بالنفس البدويّة التي يحملها الفرزدق بصراحة . وإذا أراد الخوض في موضوعٍ ما فإنه يتناوله رأساً في أكثر الأحيان ، لا يوطئ له بمقدمة غزلية أو تذكارية للدمن والأطلال والأحبّة . ولا يطيل كثيراً إلا في النقائض أو المدائح الكبرى . وقد سئل عن ذلك مرةً فقال : إنها أسير في المحافل . فهو يقتصرها عمداً لتنبثّ في صدور الناس وتنتشر

---

(١) ابن خلكان

في سمرهم ومجادلهم . وها نحن نحلل المواضيع التي نظم فيها واحداً واحداً

١ً : الهجاء

هجاء الفرزدق ؛ عليه طابع خاص لايشابهه فيه شاعر من شعراء اللغة العربية . فهو زعيم هذه الطريقة من الهجاء . ولو كان في هذا النوع مجال للفخر ، لكان له ولا شك . ولكنه فخر منقلب على قفاه يتدنّى به ويسفل ؛ حتى يدرك الحضيض من البذاءة والوقاحة . يستعمل ألفاظاً غاية في القذارة ويتطاول إلى أعراض المهجوّ فيسبّ الأُمّ والأب والأخت والزوجة والقبيلة سباً قبيحاً جداً ، ويمزج هذا السب بالفخر فيتعالى بنفسه وشعره وقبيلته إلى السماء ، ويضع نفسه في موضع يتضاءل دونه المهجوّ حتى تحسبه قد انحجر في نافقاء خلد ، خجلاً واستحياءً . ويعدّد أيام قبيلته وانتصاراتها وزعماءها وشعراءها ويقرن ذلك بمخازي المهجو وانكسارات عشيرته وأيامه السود ويحشوه بالشتائم حشواً . بل يقذفها في وجهه قذفاً قاسياً ويوئله أشدّ ألم ، حتى يبكيه . ولذلك كانوا يخشون سلاطة لسانه ومعرّة مقوله فيتحاشونه . ولم يثبت له إلا جرير . على مافيه من عفة وأدب بالقياس إليه ، بل لقد كان جرير نفسه ـ وهو الذي تحمّل هجاءه أربعين سنة ـ

يتألم منه أحياناً ويسبّه . يحكى أنه لما بلغه هجاؤه فيه ، بأنه يترك زوجه الشرعية ويقارب الأتان ، حتى غارت زوجته منها . . قال : (ويل له ابن الفاعلة) . . وكان الهجاء عنده سباب وشتائم ، وهو لايفهم للهجاء معنى إذا لم يكن كذلك .

وسنورد الان شيئاً من هذا الهجاء . على أن ما سنذكره لا يمثلة تمثيلاً صحيحاً لأنه لا سبيل إلى نشر أهاجيه القويّه الصحيحة في كتاب مدرسي كهذا ، ونحيل من يريد التوسع إلى ديوانه ونقائضه ، ففيها الشيءُ الكثير الكثير . ولم يتحرّج الناشر هناك عن ذكر حتى مالا يجوز ذكره .

قال يهجو الشاعر الأصمّ الباهلي وكان قد هجاه كثيراً

أكان الباهليّ يظنَ أني ... سأقعد لايجاوزه سبابي ؟

لقد هتك المحارمَ باهليّ ... يجسّ لأمّه ركب الحقاب؟

أباهل أي محكمة أحلّت ... لكم أخواتكم تحت الثياب!!

أباهل أين منجاكم إذا ما ... ملأنا بالملوك وبالقباب :

تهامةَ والبطاحَ إذا سددنا ... بخندف من تهامة كلّ باب

وهل لأبيك من حسب يسامي ... ملوك المالكين ذوي الحجاب؟

وقال يهجو قيساً :

ترى كل بيتٍ تابعاً لبيوتنا ... إذا ضربت بالأبطحين قبابُها

إذا لبست قيسٌ ثياباً سمعتها ... تسبّح من لؤم الجلود ثيابُها

وقال يهجو الأصم الباهلي الشاعر :

لعمرك إني والاصمّ وأمّهِ ... لفي مقعدٍ في بيتها متقاربِ

تقول وقد ضمّت بعشرين حولَه: ... ألا ليت أنّى زوجة لابن غالب

لأرشف ريحاً لم تكن باهليّة ... ولكنها ريح الكرام الأطايب

بنو دارم كالمسك ريح جلودهم ... إذا خبثت ريح العبيد الأشايب

أباهل إن الماء ليس بغاسلٍ ... مخازي عنكم عارها غير ذاهب

وإن سبابيكم لجهلٌ وأنتم ... تباعون في الأسواق بيع الجلايب

وقال يهجو جريراً :

جزعتَ إلى هجاء بني نمير ... وخلّيتَ استَ أمّك للرماةِ

وتمسي نسوةٌ لبني كليب ... بأفواه الأزقّة مقعيات

يبعن فروجهن بكلّ فلس ... كبيع السوق خذ منيّ وهات

كبرن وهنّ أزنى من قرود ... وأبخس من نساءٍ مشركات

وقال يهجو جريراً :

ألم تر أنا بني دارمٍ ... زرارةُ منّا أبو معبد

ومنا الذي منع الوائدات — وأحيا الوئيد فلم يوأد

وناجية الخير والأقرعان — وقبر بكاظمة المورد

فذاك أبي وأبوه الذي ... لمقعده حرَمُ المسجد

أَلسنا بأصحاب يوم النسار — وأصحاب أَلوية المِربَد
أَلسنا الذين تميمٌ بهم تسامى وتفخرُ في المشهد
أَيطلب مجدَ بني دارم عطيةُ كالجُعَل الأسود
سأرميهِ — ولو جعلت في اللئام وردّت إلى دقّة المحتد —
كليباً . فما أوقدت نارها لقدح مغاضٍ ولا مرفد
ولا دافعوا ليلة الصارخين — لهم صوت ذي عزّة موقد
فهذا سبابي لكم فاصبروا على الناقرات ولم أعتد

. . .

ولعل هذا التطاول منه إلى قذف النساء جعل تلك المرأة الكلابية التي هجا قومها ؛ تعوذ بقبر أبيه لكي لا يذكرها في شعره فقال :

عجوز تصلّي الخمس عاذت بغالبٍ
فلا والذي عاذت به لا أضيرها

. . .

٢ : المديح

كان المديح نوعاً من الدعاوة الحزبية ينال عليه الشاعر أجراً يختلف مع مقداره وقوّته وشهرته والحاجة إليه . ولقد مدح الفرزدق خلفاء بني أميّة وعمّالهم ونال من عطاياهم

وجوائزهم كثيراً . مع أن مدحه لم يكن عن إخلاص وحب كمدح جرير أو الأخطل . ولم يخرج في أسلوبه المدائحي عن الجاهليين — إلا قليلاً — فهو يقدّم القصيدة بالغزل أو ذكر الديار . ويذكر ناقته وما قاست من مشاق وما قطعت من فلوات ثم يؤيّد حزبهم وفكرتهم كحقّ إرثهم في الخلافة بعد مقتل عثمان ... ثم يذكر أهله وكيف فارقهم في جدب وقحط وحاجة ويسترفد العطاء صراحةً . وهو فيما بين هذا وذاك ؛ يحشو المديحَ فخراً وتعاظماً حتى يختلط عليك المديح بالفخر . على أنه قد لا يطلب لنفسه أحياناً . ذهاباً منه مع التفاخر والتعاظم . بل يطلب لسواه ، ويذكر آلامهم ويستعدي الممدوح على فقرهم .

وفي ذكر بعض المقطعات فيما يلي شواهد ، قال يمدح هشاما ويحشو هذا المديح بالفخر :

ولو أنني استطيع سعياً سعيته ... إليك وأعناقِ الهديّ المقلّد

خليفة أهل الأرض أصبح ضوءه ... به كان يهدى للهدى كلّ مهتدِ

فإن أمير المؤمنين محيطة ... يداه بأهل الارض من كل مَرصد

فلست أخاف الناس ما دمتَ سالماً ... ولو أجلب الساعي عليّ بجسّدي

سيأبى أمير المؤمنين بعدله ... على الناس والسبعين[1] في راحة اليد

---

(١) هما سبع السموات وسبع الأرضين .

ولا ظلم ما دام الخليفة قائماً هشامٌ . وما عن أهله من مشرّد

وسارٍ قتلت الجوع عنه بضربةٍ أتانا طروقاً بالحسام المهنّد

على ساق مقحادٍ جعلنا عشاءَه شطائب من حرّ السنام المسرهد (١)

وطارق ليلٍ قد أتاني وساقَه إليَّ سنا ناري وكاب معوّد .. الخ

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك :

ستحملنا إليك مبلغاتٌ . يطأن دماً . مكدّحةُ الظهور

بنات الداعريّ إذا تلاقت عراهـا وهي جائلة الضفور (٢)

على المتردّفات بكل خرق نحائر كل منتجر منير (٣)

فمـا بلغت بنا إلاّ جريضاً على الأعجاز تردف كل كور

بلغن ومخهن مع السلامى بكلّ نجاء صادقة الضرير (٤)

وأشلاء لناجيـةٍ تركنا عليها العاكفات من النسور

كأن ركابنا في كل فجٍ إذا دبّ الكحيل من الغرور (٥)

---

(١) المقحاد : عظمية السنام . الشطائب : المشرح طولاً . المسرهد : السمين .

(٢) الداعري : نسبة إلى داعر نوع من كرام الابل .

(٣) المتردفات : الراكبات . الخرق : الصحراء المنقطعة . النحائر : الطرق الواضحة . المنتجر : الطريق المطروق .

(٤) صادقة الضرير : أي قوية على السير .

(٥) الكحيل : القطران . الغرور : مثاني الجلود . أي سال العرق مع القطران .

نعام رائح في يوم ريح وليست في أخشتها بعير (١)
ولكن ينتجعن بنا فراتاً ونيلاً يطموان على البحور
هما في راحتيك إذا تلاقى عبابهما إلى حلب غزير
بهم ثبتت رحى الإسلام قسراً وضرب بالمهندة الذكور
توارثها بنو مروان عنه وعن عثمان بعد ثأى كبير

وقال يمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي عهد هشام:

إلى خير مأتى يطلب الناس خبره إليه من الآفاق مجتمع الركب
إلى باب من لم نأت نطلب غيره بشرق من الارض الفضاء ولا غرب

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك:

أغث مضراً إن السنين تتابعت عليها بجزٍّ يكسر العظم جازره
وهم حيث حلّ الجوع بين تهامةٍ وخيبر والوادي الذي الجوع حاضره
وهمّت بتذبيح الكلاب — مِنَ الذي
بها — أسدٌ إذ أمسك الغيث ماطره ...
ألا كل أمر يا بن مروان ضائع
إذا لم تكن في راحتيك مرائره
أغثني بكنهي في نزار ومقبلي
فإني كريم المشرقين وشاعره

(١) أي ليست كعير القافلة محملة للتجارة ولكنها تحملنا خصوصاً وحدنا إليك.

وما زلت أرجو آل مروان أن أرى

لهم دولةً والدهر جمٌّ دوائره

لدن قتل المظلوم أن يطلبوا به ومولى دم المظلوم منهم وثائره[1]

وكان ملحفاً بالسؤال أحياناً لا يستحي أن يطلب من الكرام وهم في السجن ، دخل مرةً على سلم بن زياد بن أبيه وهو مسجون وشكا إليه قلة المال في يده وطلب منه فأعطاه. وجاء المدينة مرةً في عام جدبٍ فقال الناس لعمر بن عبد العزيز — وكان واليها — أعطه شيئاً لا يلحف على الناس بالطلب فإنهم في ضيق فأعطاه . ثمّ روئي على باب أحد السراة يمدحه طالباً . ومدح مرة آل المهلّل فقال :

.. على ذي منادٍ تعرف العيس متنَه

كما تعرف الأضياف آل المهلل

فلمّا لم يعطوه شيئاً ؛ هجاهم فقال :

ألا قبح الله القلوص التي سرت

برجلي إلى خصيان آل المهلّل

بني أم عيلانٍ كأن لحاهم

مخالي شعير علّقت فوق أبغل

---

(١) المظلوم : هو عثمان بن عفان

وهكذا كانت مدائحه لا تدل على نفسه أبداً فقد هجا هشاماً ثم مدحه لما صار خليفة . وهجا ابن هبيرة ثم مدحه . وكثير غيرهم . فلا أهاجيه تدل على كرهه الدائم ولا أماديحه تدل على حبّه الطويل . ولكنه كان امرءاً عصبي المزاج يتأثر بسرعة حباً أو غضباً فيصوّر نفسه في وقتها ذلك فقط . اللهم إلا أهاجيه التي ذهبت مع عمره ورددها طول حياته كهجائه لجرير مثلا .

ولم يمدح أحداً خالصاً لوجه الحبّ ، إلا علي بن الحسين ، زين العابدين ، بالقصيدة الميمية المشهورة ، وقد شُك في كثير من أبياتها لأن أسلوبها اللين السلس بعيد جداً عن أسلوب الفرزدق القاسي الصلب ، ولأن كثيراً من أبياتها روي لغيره ومهما يكن من أمرٍ فلا يبعد أن يكون بعضها أو جلها له خصوصاً إذا علمنا أنه ارتجلها ارتجالاً بحماسة وقوة إيمان تظهر جلية في ترداده كلمة (هذا) وفيها ما فيها من تعظيم وتوقير وإليك منها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم[1]

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العلم

---

(١) البطحاء : الأرض المنبسطة . ويقصد بها هنا مكة

هذا ابن فاطمةٍ إن كنت جاهله بجدّه أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

كلتا يديه غياثٌ عمّ نفعهما يُستوكفان ولا يعروهما عدم (١)

سهل الخليقة لا تخشى بوادره يزينه اثنان: حسن الخلق والشيَم (٢)

ماقال: لا، قطّ · إلا في تشهده

لولا التشهد؛ كانت، لاءه · نعمُ

إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا، ينتهي الكرم

يكاد يمسكه عرفانَ راحته ركنُ الحطيم إذا ماجاء يستلم (٣)

الله شرّفه قِدماً وعظّمه جرى بذاك له في لوحه القلم

مشتقّةٌ من رسول الله نبعته طابت مغارسه والخيمُ والشيَم (٤)

من معشرٍ حبهم: دينٌ، وبغضهم: كفرٌ، وقربهم: منجًى ومُعتصم

مقدّم بعد ذكر الله ذكرهم في كل بدءٍ ومختوم به الكلم

إن عدّ أهل الثقى كانوا أئمتهم

أو قيل: من خير أهل الأرض؟ قيل: هُمُ

---

(١) يستوكف: يستقطر

(٢) البوادر: الغضب

(٣) الحطيم: جدار من جدر الكعبة

(٤) النبعة: شجر تصنع منه أجود القسي · الخيم: الأصل

الفخر :

نشأ الفرزدق في قبيلة قوية الشكيمة أبيّة اعتدت في الجاهلية على الحرم ولم ترع لدين الناس حرمة . ولاما تواضعوا عليه من عبادة ، وكذلك كانت في الإسلام ، وورث المجد من طرفيه من قِبَل أبيه وأمّه ، فجدّه صعصعة محيي الموءودات وفد على النبي فأسلم وقصّ عليه ما فعل فمدحه . وأبوه غالب المشهور بكرمه . وقد نحر في يوم واحد مئة ناقة — وكان الفرزدق طفلاً — فكان يردُّ عليه النوق ويقول له : يا أبت اعقر . وأمُّه لبنة أخت العلاء بن قرظة الشاعر . وأم أبيه ليلى بنت حابس [1] أخت الأقرع بن حابس المشهور بالشجاعة والجود وورث الشعر عن جدّه صعصعة وعن خاله العلاء . فلم لايفخر ولا يشمخ بأنفه على الناس ، في عهدٍ كان المجد الإرثي ؛ كل المجد ، والفخر بالجدود ؛ كل الفخر . فهو يفتخر بدارم ثم بتميم ثم بمضر ، يقول :

فهل ضربة الرومي جاعلةٌ لكم أبا عن كليب أو أبا مثل دارم

...

(١) هناك اختلاف في اسم أمه . فبعضهم يعدها لبنة كما في الاغاني وبعضهم يعدها ليلى كصاحب معاهد التنصيص

أتوعدني قيس ودون وعيدها ثراء تميم والعوادي من الأسد

...

إذا مضر الحمراء حولي تعطّفت عليّ وقد دقّ اللجام شكيمي

أبت أن أسوم الناس إلا ظلامةً وكنت ابن مرغام العدوّ ظلوم

ويفتخر بنفسه وبشعره :

فكيف تردّ ما بعمان منها وما بجبال مِصر مشهّرات[1]

غلبتك بالمفقّئ والمعنّى وبيت المحتبي والخافقات[2]

وقد لا يرى أحداً فوقه أو فوق قومه، حتى الخليفة، فإنه لا يعده أكثر من كفء. تلاحى مرةً وجريراً عند يزيد بن عبد الملك فقال الفرزدق : أمّا بك يا عيار بني كلب ؟ فلا. ولكن إن

---

(١) يقصد بذلك قصائده التي انتشرت واشتهرت وسارت من عمان إلى مصر

(٢) المفقئ : يشير به إلى قوله من قصيدة :

ولست وإن فقأت عينك واجداً أبا عن كليب أو أبا مثل نهشل

المعنّى : يشير إلى قوله من قصيدة :

وإنك إذ تسعى لتدرك مجدنا لأنت المعنّى ياجرير المكلفُ

بيت المحتبي : يشير إلى قوله من قصيدة :

بيتا زرارةُ محتب بفنائه ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشلُ

والخافقات يشير إلى قوله من قصيدة :

وأين تقصي المالكان أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

شاء صاحب السرير ؛ فلا والله مالي كفء غيره !

وسأل الفرزدق يزيد بن عبد الملك عن طفلة كانت بين يديه يشمها : ماهذه ياأمير المؤمنين ؟

– فقال بنيّة

– قال الفرزدق : إن يكن دارمٌ يضرب فيها فهي أكرم العرب !!!

ولعل هذه العنجهيّة البدويّة غُرست في نفسه منذ الطفولة يدلنا على ذلك قصيدته التي قالها وهو غلام يرعى لأمّه غنماً فأغار الذئب عليه فأخذ كبشاً . ولما رجع إليها ، لامته على تقصيره . فوجد للذئب عذراً ووصفه بالحزم وقال عن نفسه إن همتّه فوق الرعي . فهو يرنو إلى الأمور العظام :

تلوم علي أن صبّح الذئب ضأنها
فألوى بكبشٍ وهو في الرعي راتع
وقد مرّ حولٌ بعد حولٍ وأشهرٌ
عليه ببؤس وهو ظمآن جائع
فلما رأى الإقدام حزماً . وإنّه
أخو الموت من سدت عليه المطالع
أغار على خوفٍ وصادف غِرّةً
فلاقى التي كانت عليها المطامع

وما كنت مضياعاً ولكنّ همّتي
سوى الرعي مفطوماً وإذ أنا يافع
أبيتُ أسوم النفسَ كلَّ عظيمةٍ
إذا وطوئت بالمكثرين المضاجع

ويُكثر في فخره من تعداد أسماء أجداده ومجدهم وأيامهم ويعيدها في كل قصيدة حتى لتحسب الفخر قد طما على كل عاطفة فيه، ويكرّرها لدى كل مناسبة حتى لتستطيع أن تعد الأسماء حين يبدأ بسردها قبل أن تقرأها . كحابس ودارم ونهشل وغالب ... الخ . وهو يفتخر بمضر لأن النبي منها ولذلك فقبيله في الذروة من الشرف . ويذكر النبي في كثير من المناسبات ويعظّمه ثم يفتخر به :

ومنّا رسول الله أُرسل بالهدى وبالحق جاءت باليقين نوادره

والخلاصة فإنه لايجد منفذاً للفخر إلا طلبه، ولا درجة للتعاظم إلا ارتقاها، حتى بلغت به درجة الوقاحة : يحكى أنه دخل على بلال بن أبي برده وأنشده قصيدة يقول فيها :

فإن أبا موسى خليل محمد وكفّاه يمنى للهدى وشمالها

فقال له ابن أبي بردة : هلكت والله يا أبا فراس .

فارتاع الفرزدق وقال : كيف ذاك ؟!

– قال : ذهب شعرك . أين مثل شعرك في سعيد وفي العباس بن الوليد .. وسمى قوماً غيرهما ..

– فقال له الفرزدق : جئني بحسب مثل أحسابهم حتى أقول فيك كقولي فيهم .

– فثار أبو بلال غضباً حتى دعي له بطشت فيه ماء بارد غمس يديه فيه ليسكن ثائره .

ويرى العرب خير الخلق وأرفع الناس . وأما الموالي والعلوج فليسوا في الطبقة الثانية بعد العرب ، ولكن في الطبقة الخمسين لذلك يجب أن لايقتصّ من العربي الصريح إذا قتل مولى من الموالي . كما يجب أن يهمل المولى من القصاص لأنّه دون موضع الخصومة . يقول :

هم كرهوا القصاصَ من الموالي وهم قصوّا الصريح من الصريح

فهذه الارستقراطية المتعجرفة ؛ هي التي كرّهت بني أميّة به ونفّرتهم منه وأقصته عن مال الحكومة وجاهها . ولكنه مع ذلك كان يثب إلى الشهرة وثباً ، بل كانت الشهرة تزحف إليه خاضعةً راضية .

شعر الغزل :

لم يعرف الحب الصافي إلى قلب الفرزدق سبيلاً قطعاً

لأنه لم يكن ينظر إلى المرأة نظرة احترام وتقديس ، بل كان يحتقرها أشد احتقار ويراها لا ترتفع عن درجة قضاء الشهوة للرجل والحمل فقط ، لم يكن إذن يكره المرأة ولكن كان يشتهيها شهوة قاتلة طوّحت به في كثير من الأوقات وعرّضته لمآزق حرجة ، فكان يوصّل حباله ويتدلىّ من علوّ ثمانين قامة ليزني :

هما دلّتاني من ثمانين قامةً
كما انقضّ بازٍ أقتم الريش كاسره

ويتعرض لمضيفته فيراودها عن نفسها فتكون هذه الحادثة سبباً في نفيه عن المدينة . ويحتال مرةً بحيلة حبلى تلد كما فعل في اليمامة . وكان يجد المرأة حراماً أطيب منها حلالاً . تزوج كثيراً من النساء ولكن لم يكتف بهن بل تعرّض لجاراته حتى شكته إحداهن للنوار وانّه يلاحقها بوعدٍ . فقالت لها : واعديه واعلميني . ففعلت ؛ وفي الوقت المضروب استقبلته المرأة وقادته إلى حجرة وأطفأت السراج . وبعد أن انتهى سمعها تقول له : يا عدوّ الله يا فاسق ! فعرف فيها صوت النوّار - إذ كانت المرأة قد اختفت وراء سجف بعد أن أطفأت السراج وظهرت زوجهُ النوار مكانها - وعرف أنه خُدع فقال لها :

وانت هي ؟ ! يا سبحان الله ما أطيبك حراماً وما أرداك حلالاً !!

ولا يرى مركباً في الدنيا يعجبه كمركب بين دملوج وخلخال مع شدة إعجابه بركوب الخيل .

وما أرى ـ ور كوب الخيل يعجبني ـ كمركبٍ بين دملوجٍ وخلخال

فهو إذا أظهر التألم في غزله ؛ فإنما تقرضه الشهوة لا الحب ولم يتخذ الغزل فناً قائماً بذاته كما فعل عمر بن أبي ربيعة بل كان يتخذه واسطة لافتتاح قصائده في المديح والهجاء وسوى ذلك . بلى هناك قصيدة واحدة فقط أنشأها على طريقة الوصف القصصي ذكر فيها مغامرةً من مغامراته الغرامية إذ ارتقى بالحبال إلى معشوقته ؛ والأبواب دونها مغلقة وزوجها نائم ، يصف لنا كل ذلك وصفاً متقناً مطولاً حتى إذا وصل إليها يصف تمتّعه بها ببيتين ، فقط ثم ينزل بعد أن يسألها كيف النزول ويرتبك فتدليه عَلَى الحبل كما صعد . والقصيدة لاتدل على عاطفة سامية أبداً ولكنها تدل على شهوة آكلة وغريزة جنسية نهمة وإليك قسماً منها :

يتكل على الله ويفسو !!

وجونٍ عليه الجصّ فيه مريضة ... تطلع منه النفس والموت حاضره

حليلة ذي ألفين شيخ يرى لها ... كثير الذي يعطى ؛ قليلاً يحاقره

نهى أهله عنها الذي يعلمونه ... إليها وزالت عن رجاها ضرائره

فما زلت حتى أصعدتني حبالها ... إليها وليلي قد تخامص آخره

فلما اجتمعنا في العلالي بيننا ... ذكي أتى من أهل دارين تاجره

نقعت غليل النفس إلا لبانةً ... أبت من فؤادي لم ترمها ضمائره

فلم أر منزولاً به بعد هجعةٍ ... ألذّ قرىً لولا الذى قد نحاذره

أحاذر بوابين قد وكلا بها ... وأسمر من ساج تئط مسامره

فقلت لها كيف النزول فإنني ... أرى الليل قد ولّى وصوّت طائره

فقالت أقاليد الرتاجين عنده ... وطهمان بالأبواب كيف تساوره

أبالسيف أم كيف التسني لموثق ... عليه رقيب دائب الليل ساهره

فقلت ابتغي من غير ذاك مجالة ... وللأمر هيئات تصاب مصادره

لعل الذي أصعدتني أن يردني ... إلى الأرض إن لم يقدر الحين قادره

فجاءت بأسباب طوال وأشرفت ... قسيمة ذي زورٍ مخوف تراتره

أخذت بأطراف الحبال وإنما ... على الله من عوض الأمور مياسره!

فقلت اقعدا إن القيام مزلّة ... وشدا معاً بالحبل أني مخاطره

إذا قلت قد نلت البلاط تذبذبت ... حبالي في نيقٍ مخوفٍ مخاصره

منيف ترى العقبان تقصر دونه ... ودون كبيدات السماء مناظره

فلما استوت رجلاي بالأرض نادتا ... أحيٌّ يرجّى أم قتيل نحاذره

فقلت ارفعا الأسباب لا يشعروا بنا ... وولّيتُ في أعجاز ليل أبادره

هما دلّتاني من ثمانين قامةً كما انقضّ باز أقتم الريش كاسره

فأصبحتُ في القوم الجلوس وأصبحت

مغلقة دوني عليها دساكره

وباتت كدوداة الجواري · وبعلُها كثير دواعي بطنه وقراقِره

ويحسبها باتت حَصاناً وقدجرت لنا بُرَتاها بالذي أنا شاكره

فيارب إن تغفر لنا ليلة النقا فكل ذنوبي أنت يارب غافره!؟

وهذه القطعة تشبه مغامرات عمر بن أبي ربيعة وامرئ القيس ونحن لانشك فيها كثيراً لعلمنا بفسوقه وبمغامراته · ولكن أسلوبها جاف غليظ لايشبه شعر التشبيب والحب في شيء ·

وكان هو يعرف من نفسه ذلك ويُقرّ به · لذلك قال : ما أحوج جريراً إلى صلابتي لعفافه وأحوجني إلى رقّته لعهري!

شعر الرثاء :

الفرزدق ؛ بدويّ العاطفة قاسيها · يفهم الحياة كأنها طريق يتّصل أوله بظلام القوة الأزلية في الرحم · وآخره بظلام الأبدية في القبر . فلا يرى في الولادة إلا أشياء طبيعية غاية في البساطة لا تفرح ولا تسرّ ، كما أن الموت شيء عاديّ طبيعي لا يُبكي ولا يُوئلم ، لذلك لا ترى له في الولادة شعراً ، وأمّا في الرثاء فليس له عاطفة تشعر بالبعد الأبدي والسفر اللانهائي

في الموت ، لذلك لا ترى له شعراً رثائياً رقيقاً أبداً . وما كان الرثاء إلا نوعاً من فنون الشعر فقط عليه أن لا يقصّر فيه .

انظر إلى رثائه أولاده وأباه وهم ـ أقرب الناس إليه ـ إنك لن تجد فيه عاطفة الأبوة ولا البنوّة واضحة . كان ينظر إلى أولاده كما ينظر التاجر إلى تجارته إذ يأمل منها الربح ، فهو يربّيهم ليدفعوا عنه المشاغبين إذا كبر ويقودوا له البعير إذا أسنّ :

ولكنهم ريحان قلبي ورحمة من الله أعطاها مليك العواقب
يقودون بي إن أعمرتني منية وينهون عني كل أهوج شاغب

وينظر إلى زوجته المفقودة نظرة احتقار ، وبدلاً على أن يشيّعها بدمعة ، يلحقها بوصمة احتقار ويمتنع عن زيارة قبرها ويراها أقل من أن يضيع وقته بالوقوف على قبرها لحظة يسأل الله لها الرحمة ، لأنها أهون مفقود :

ولست وإن عزّت علي بزائر تراباً على مرموسة قد تضعضعا
وأهون مفقود إذا الموت ناله على المرء من أصحابه من تقنّعا[1]

ولما ماتت النوار لم يستطع رثاءها بشيء يناح به عليها فبكاها النوائح بشعر جرير ، وكان ذلك أشدّ عليه من القتل لغيرته وحسده ، ويروي ابن نباته الثقفي أن الفرزدق أنشده قصيدته التي يرثي بها ابنه ، فلما انتهى إلى قوله :

---

(١) تقنع : لبس القناع . ويقصد به المرأة لانها هي التي تتقنع

بفي الشامتين الصخر إن كان مسنّي

رزية شبلٍ مخدر في الضراغم

قال : يايحيى أرأيتَ ابني ؟

— قلت : لا

— قال : والله ما كان يساوي عباءته .

فانظر إلى هذه العاطفة الجامدة وهذه الابوّة التي لاترى في الولد روحا وريحاناً . ولكنها تنظر إليه كالبضاعة المعروضة في السوق : ينتقدها الشاري ويساوم عليها ويقدر أنها لاتساوي أكثر من عباءة ؟ ! !

جرير والفرزدق :

لم يشتهر في تاريخ الآداب العربية حرب كحرب جرير والفرزدق فقد بقيا يتهاجيان ويتشاتمان أربعين عاماً لم يخمل أحدهما الآخر . والناس فريقان يتعصّب كل فريق لصاحبه ويدافع عنه ويضع الجوائز لمن يرفع صاحبه ويسب شاعر الفريق الآخر . ولقد بلغ من شهرة هذه الحرب أن كانت حديث المجتمعات دائماً يهتمّون لها ويثيرون بحثها ويختصمون من أجلها . ولم يكتفوا بالواقع فقط ، بل كانوا يضيفون إليه ما يصوّر لهم الخيال ويزينونه بقصص ربما ليس لها أصل . وبين هذين الفريقين

حزب متوسط يعتقد أن شيطان الشاعرين واحد وأن لكل منهما امتيازاً خاصاً . فهما معاً كفرسي رهان يجريان في قَرَنٍ واحد ولا يتسابقان :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلو الكلام ومرّه لجرير

وكانا إذا التقيا في مجلس ؛ تغطرس الفرزدق وافتخر بآبائه وغمز من جرير فلا يجيبه أكثر الأحيان . قيل لقي الفرزدق جريراً محرماً فقال : أفسدت على ابن المراغة حجّه . ثم جاءه مستقبلاً فجمزه بمشقصٍ كان معه ثم قال :

إنك لاق بالمشاعر من منى فخاراً فخبرني بما أنت فاخر ؟

فقال جرير : لبّيك اللهم لبّيك ولم يجبه !!

ولما قدم الفرزدق الشامَ قال له جرير : — وكان هناك — ما ظننت أنّك تقدم بلداً أنا فيه !!

فقال الفرزدق : إني طالما خالفت رأي العجزة .

ولقد حاول مرةً سليمان بن عبد الملك أن يصلح بينهما فقال لجرير مالك وللفرزدق .

قال جرير : إنه يظلمني .

فقال الفرزدق : رأيت آبائي يظلمون آباءه فسرت فيه بسيرتهم .

قال سليمان : إنكما لا تصطلحان أبداً .

ومع أن الفرزدق كان يسبّه أفظع سب ويشتمه ويسميه كلباً وخنزيراً ودنيئاً ووضيعاً وابن المراغة و ... الخ كان جرير لا يتدانى إلى مثل هذا السبّ كثيراً . بل كان يصيبه بعروبته وبصراحته ويعدّه هجيناً فيثور عليه الفرزدق ويسبّه ويفتخر عليه بعائلته وأبيه . ولمّا كان كلا الشاعرين من تميم ؛ فقد كان الفرزدق يجمع كل المحاسن في بني مجاشع ودارم من تميم . ويسوق كل المخازي والأيام السوداء إلى كليب قبيل جرير وهي من تميم أيضاً . ثم يمدح بني تغلب لأن الأخطل منهم وهو الشاعر الذي أعانه على جرير . في كل هذا وذاك لا يخرج جريراً من عائلته إلا ليصيبه بعرضه ويعيده إليها بعد أن يصيبها بأخلاقها وعرضها ونسائها يقول :

وما يغدو عزيز بني كليب ليطلب حاجةً إلاّ بجار

وإنك إذ تسعى لتدرك دارماً لأنت المعنّى يا جرير المكلّف

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فإنك كلب من كليب لكلبة غذتك كليب في خبيث المطاعم

لولا فوارس تغلب ابنة وائل نزل العدو عليك كل مكان

إن الأراقم لن ينال قديمها كلبٌ عوى متهتّم الأسنان

أما جرير فلم يكن ينزل إلى هذه الدركة . ولكنه كان ينتقم منه أحياناً بالعفو عنه . حبسه مرةً خالد القسري عامل العراق فشفع فيه جرير وأخرجه من السجن . وقد سئل جرير لِمَ يشفع له ؟ فقال إنه أذلّ له ! !

ولما مات رثاه فقال :

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاسٍ تعلّت
هو الواقد الميمون والراتق الثأى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلّت

وليس معنى هذا الرثاء إقراراً له بالفضل عليه أو بتقدمه ؛ ولكن سكون الموت أخرس لسانه وترك فراغاً كبيراً فخلا الجو من المنافسة وماتت الأحقاد .

وكان سبب التهاجي بين الشاعرين أن جريراً هجا غسان السليطي الشاعر فأخمله . فاستعان عليه بالبعيث المجاشعي ، فعرّض بجرير فهجاه فخاف والتجأ إلى قوم جرير . وقال : ياقوم عجلتم عليّ .

— فقالوا : بلغنا عنك أمرٌ فإن شئت قلت كما قلنا وإن شئت صفحت .

— قال : بل أصفح ! ثم جاورهم ثلاث سنين وارتحل عنهم راضياً . وقدم على مجاشع ، وسُئل عن بني الخطفي قوم جرير

فاثنى عليهم . ولكن النساء قبّحن رأيه وسفّهنه وأنشدنه قول جرير السابق فيه . فأخذته الحميّة وهجا بني كليب ، فقالت بنو كليب لعطاء بن الخطفي :

— اركب إلى بني مجاشع واستنهم عن أنفسهم فقد قالوا كما قيل لهم . ولكن البعيث — وقد أخذته العزّة الجاهلية — أبى إلا هجاءهم فالتحم وجريراً بهجاء آلمه فيه جرير ، فالتجأ إلى الفرزدق . واستعان عليه بنساء مجاشع فقلن له — وقد قيّد نفسه ليحفظ القرآن — :

— قُبّحتَ من شاعر قوم ، هتك جريرٌ عورات نسائك وأنت ساكت ؟ ! فهاج الفرزق وحميت فيه العصبيّة فهجا البعيث لتقصيره في هجاء جرير فسقط . ثم قال :

ألا استهزأت مني هنيدة أن رأت أسيراً يداني خطوه حلق الحجل
أتتني أحاديث البعيث ودونه زرودٌ فشامات الشقيق من الرمل
أنا الضامن الراعي عليهم وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

ولجّ الهجاء بينهما أربعين سنة لم يخمده إلا الموت . فكان أحدهم ينشئ القصيدة فينقضها الآخر فيجيبه الأول وهكذا وقد جمعت نقائضهما وطبعت في ليدن فجاءت بجزئين ضخمين نجد فيهما كثيراً من أخبار الشاعرين ومن كان له علاقة بهما .

ويجب أن لا نمرّ بهذه القصة عرضاً ، بل أن ننظر فيها بإمعان لأنها تعطينا صورة صحيحة عن العصبيّة القبليّة والعزّة الحزبية في زمن بني أمية ، لأن الشاعر لم يكن يمثل نفسه فيها فقط ، بل إن القبيلة كلّها تشترك معه في هجائه أو مديحه ويركب بعض زعمائهم إلى بعض ليتهادنوا بعد التهاجي ! !

الفرزدق ينحت من صخر

قال مالك بن الأخطل وقد أرسله أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق . فسأله عنهما فقال : « جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر » والفرزدق نفسه يقول : (أنا عند الناس أشعر العرب . ولربما كان نزع ضرس أيسر عليّ من أن أقول بيت شعر) . وراجت هذه الفكرة في كتب الأدب وشاعت . ولكن ما نوع هذا الصخر الذي ينحت منه الفرزدق وما مداه ؟ هذا ما لم يفسره أحد تفسيراً مدرسياً واضحاً أبداً وسنحاول فيما يلي توضيح هذه الفكرة :

لم يكن الفرزدق شاعراً ملهماً يعتصر الفكرة من نفسه ويختلسها من قلبه ، بل كان صدى للمحيط يتناول الفكرة منه فجة فيخمّرها وينحت منها تمثالاً يقدّمه للناس صورة عما سمعوا وعما رأوا . فهو كخزّان الماء العالي تتجمع فيه مياه الينبوع

رويداً رويداً ومتى ، امتلا يفرغ؛ مافيه من الماء ذاته بعد ترويقه وركود مافيه من حثالة وتراب . بل هو كصحف هذا الزمان فيها المقالات السياسية التوجيهية وفيها الأخبار المحلية وكلها منتزعة من المحيط . وللفرزدق كثير من الشعر الذي يصحّ أن نطلق عليه اسم — أخبار محليّة — لست أدري إذا كانت تصح لي هذه التسمية ، فهي جديدة من نوعها أقذفها غير مبالٍ لأني اعتقدت بها بعد البحث وإليك مثالاً منها : قال في عبدالرحمن ابن الأشعث :

وهم مئتا ألف ولا عقل فيهم ولا رأي من ذي حيلةٍ لو تفكرا
رأى طبقاً لا ينقضون عهودهم لهم قائد قدّامهم غير أعورا
وهيمان لو لم يقطع البحر هاربا أثارت عجاجا حوله الخيل عثيرا
وزهران ألقى في دُجيل بنفسه مُنافقها إذا لم يجد متعبرا
وما تركت رأساً لبكر بن وائل ولا للكيزيّينَ إلا مكوّرا
وأفلت حوّاك اليمانين بعد ما
رأى الخيل تردي من كميت وأشقرا
رأيت ابن أيوب قد استرعفت به
لك الخيل من خمسين ألفاً وأكثرا

...

فهذه القطعة ألا نستطيع أن نضع لها عنواناً

ضخماً في صحيفة سيارة وفي صدر الأخبار المحلية هكذا :
(أخبار ابن الأشعث) أو (معركة بين الثائرين والحكومة)
أنظر إلى البيت الأول والأخير من هذه المقطوعة وأمعن
الفكر في ذكر عدد الثائرين وعدد جيش الحكومة . ثم
انظر فيما بين هذا وذاك صورة هربهم ووقوعهم في البحر ..!!
ألا يصح أن نسمي هذا الشعر أخباراً محلية ؟ . ألا ترى أن
هذا النظم منتزع من قلب البيئة مستلهم من نفس المحيط ؟
وأن ليس للشاعر إلا فضل نظم الخبر نظماً في وزن وقافية
بدلاً من أن يرسل إرسالا كنثرٍ عادي ! ! ولم يكن لديه
خيال بارع ولا تصاوير جيدة وقليلاً ما تقع في ديوانه على
مثل قوله :

أما العدوّ فإنا لانلين لهم حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

أو قوله :

تنفي يداها الحصا عن كل هاجرةٍ نفيَ الدراهم تنقاد الصيارف

وهو مع جماله التصويري ، تشبيه مادي ليس فيه خيال
عميق .

فعلى هذا ؛ كان في شعر الفرزدق كثير من الحوادث
والقصص (والأخبار المحليّة) وأسماء الأشخاص . فهو يحاول أن

ينحت من هذه الحوادث شعره نحتاً . أنظر إلى القطعة التالية ألا ترى أنّا نستطيع أن نعدها قائمة أسماء فقط :

دعمن بحاجب وابني عقالٍ وبالقعقاع تيّار الفرات
وصعصعة المجير على المنايا بذمّته وفكّاك العناة
وصاحب صوأرٍ وأبي شريح وسلمى من دعائم ثابتات
بناها الأقرع الباني المعالي وهوذة في شوامخ باذخات
لقيط من دعائمها ومنهم زرارة والندى والمكرمات
وبالعمرين والضمرين نبني دعائم مجدهنّ مشيّدات

ففي ستة أبيات ؛ حشا ثلاثة عشر اسماً حشواً . زجّاً في النظم زجاً ودفعها في الوزن دفعاً . فجاءت صلبة قاسية لاتشعر معها بروح شاعرية مطلقاً . هذان نوعان من صخور الفرزدق التي ينحت منها شعره . على أن هناك نواحي أخرى أشد وأصلب تجعل شعره من النوع الكرانيتي « granite » الصواني لا من النوع الكلسي الطريّ « calcaire » ذلك أنه يستعمل التراكيب المرصوصة والألفاظ الصلبة أو الغريبة أو عسرة الفهم أو التي لها معنيان : يترك القريب ويقصد البعيد . وقد يتطاول على النحو أو الصرف ولا يبالي مشقّة النحاة وعذابهم في تعليل ما يقول .

ولنعرض بعض أقواله ففيها مقنع ودليل :

قال في الحجاج :

هو الشهاب الذي يرمى العدوّ به والمشرفيّ الذي تعصى به مضر

ويقصد بكلمة (تعصى) : أي تستعمل السيف عصا !!

ويقول في بني مروان :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمته إذ هم قريش وإذ مامثلهم بشر

يقصد بذلك معنى طويلاً جداً . وهو : كان ملك العرب في الجاهلية لغير قريش وسائر مضر وكانوا أحقّ به لفضلهم على جميع البشر فقد أصبحوا والإسلام والملك فيهم فعاد إليهم ماخرج منهم .

وقوله :

إذن لتغالت بالفلاة ركابنا إليك بنا يخدين مشياً عشنزرا

وقوله :

تبكي البغايا ورجلا كل فاجرةٍ والزنكلنك على قبر ابن روّاد

وقوله :

حرب ومروان جدّاك اللذا لهما من الروابي عظيمات الجماهير

يقصد بالجماهير ؛ الروابي الرملية الضخمة .

وقوله :

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمّه حيٌّ أبوه يقاربه

وقوله :

وعض زمانٍ يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجرّف

وقوله :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

ويكثر من استعمال الكلمات: حراجيج . دهمج . (عَ الماء) بدلاً من: على الماء . محدرجة . قراسيات . معلهج . عوهج . مطرخمّ . نبيّ (ويقصد بها المكان المرتفع) جرنبذة . دلنظى . . .

وقد يشير أحياناً إلى حوادث تاريخية ووقائع لا يمكن تفسير البيت بدون معرفتها . ولذلك يعسر كثيراً فهم المراد الحقيقي مما يقصد . لأن كثيراً من الحوادث مجهولة ؛ تماماً لا نعرف عنها شيئاً . وهو يشير إليها كأنها مشهورة جداً .

ويظهر أن داء الغرابة والتقعّر كان فاشياً في أدباء ذلك الزمان فشوّاً هائلاً فتزعمه الفرزدق وحمل علمه . يؤيد ذلك ماروي عن السيّد الحميري ـ وكان شاعراً علوياً رقيقاً ولكن ضاع أكثر شعره لأن فيه إفحاشاً في بعض الصحابة وأزواج النبي ـ سئل مرةً عن هذه الرقّة في شعره فقيل له : ما لك لا تستعمل

من الغريب في شعرك ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء . قال : لأن أقول شعراً قريباً من القلوب يلذّه من سمعه خير من أن أقول شيئاً متعقداً تضل فيه الأوهام [1] والذي نعتقده ، أن احتياج الفرزدق للفخر الدائم في كل قصيدة جعله يتخيّر هذه الألفاظ الصلبة والتراكيب الصخرية . انظر إلى قوله :

حراجيج بين العوهجي وداعر تجرّ حوافيها السريحَ المقدّدا

ألا تحتاج في تفسيره إلى نصف ساعة تضيع بين قواميس اللغة وكتبها ؟!! ثم لاتخرج من هذا النصب المضني والسياحة الطويلة في معاجم اللغة على معنى كبير ولا صورة مشرقة ! ولهذا قالوا : لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة !!

شعر الوصف

شعر الوصف ؛ قليل جداً في ديوان الفرزدق . إنك لا تقع إلا عَلَى أبيات متفرّقة لاتؤدي شيئاً . وقصائده الوصفية محدودة . أشهرها اثنتان . الأولى وصف تسلّقه الجبال إلى معشوقته ـ وقد مرّت ـ والثانية وصف الذئب . وقد اشتهرت هذه القصيدة . وكثرت المقارنة بينهـا وبين قصيدة البحتري وقصيدة الشاعر الفرنسي الفرد دوفيني . والذي نراه ؛ أنه لاتمكن المقارنة بين

(١) البيان والبيتين شرح السندوبي جزء ٢ صفحة ١٣٥

هذه القصائد الثلاثة مقارنة صحيحة . فكل شاعر منهم نظر إلى ناحية . فالفرزدق خلق من الذئب شبحاً عاقلاً ودعاه إلى طعامه واتخذ ذلك وسيلة للفخر [1] . والبحتري وصف الذئب الجائع وصفاً دقيقاً ثم صوّر المعركة التي قامت بينهما ، ثم تغلّبه عليه واشتواء شيء من لحمه والتبلّغ به . فكأنه يرمز بذلك إلى قانون تنازع البقاء وحق القوّة وقوّة الحق . أما الفرد دوفيني ؛ فيصوّر لنا العظمة الصامتة في موت الذئب وسكون أعصابه ومقابلته الأمور العظام والدواهي الكبيرة بنفسٍ أعظم وقلب أقوى . فكأنه يصور لنا العظمة والتعالي . وإليك وصف الذئب للفرزدق :

وأطلس عسّالٍ وما كان صاحباً دعوت لناري موهناً فأتاني
فلما أتى ؛ قلت : أدن دونك . إنني وإياك في زادي لمشتركان
وبتّ أقدّ الزاد بيني وبينه على ضوء نارٍ مرةً ودخان
وقلت له ؛ لما تكشر ضاحكاً — وقائم سيفي في يدي بمكان —
تعشّ . فإن عاهدتني لاتخونني نكن مثل من — ياذئب — يصطحبان
وأنت امرؤ — ياذئب — والغدر كنتما
أخيّين كانا أرضعا بلبان

---

(١) وللفرزدق قصيدة ثانية سينية يصف بها الذئب لاتخرج في معناها عن هذه بل تكاد تكون واحدة حتى بألفاظها .

ولو غيرنا نبهت تلتمس القِرى ورماك بسهم أو شباة سِنان

وكلُّ رفيقي كلِّ رحلٍ - وإن هما

تعاطى القنا قوماهما - أخوان

هذا وقد أكثر من وصف الشيب وكبر السن ولكن ليس في وصفه صورة جديدة تسترعي الاهتمام.

تأثر الفرزدق بالمحيط الاسلامي:

لم يكن تأثر الفرزدق عميقاً بالمحيط الإسلامي، مع أنه عاش في البصرة. والبصرة مركز الحركة الثقافية صدر الدولة الأموية. بل ظل بدوياً في أخلاقه وحياته ولغته وشعره. تحرّ جميع ديوانه وراجع جميع أخباره؛ فإنك لا تقع إلاّ على قليل جداً من العادات الاجتماعية التي كانت فاشية في عصره كختن النساء مثلاً في قوله:

وما وجعت أزديّةٌ من ختانةٍ ولا شربت من جلد حوبٍ معلّب

أما ألفاظ: الدين كالله والنبوّة والخلافة.. فكثيرة. وهو يعيّر بالكفر ويفتخر بالإسلام ويعتز بالدين، لكن هل كان ذلك عن اعتقاد عميق وإيمان صريح يا ترى؟!

يقول:

قوم أثيبوا على الإحسان إذ ملكوا

ومن يد الله يرجى كل تثويب

ومنا نبيُّ الله يتلو كتابه ... به دوّخت أوثانها ويهودها

وما بات من قوم يصلّون قبلةً ... ولا غيرهم إلا قريش تقودها

وكيف يؤم المسلمين وأمّه ... تدين بأن الله ليس بواحد

بنى بيعةً فيها الصليب لأمّه ... ويهدم من كفرٍ بناء المساجد (١)

من هنا نلاحظ أن الفرزدق لا يمثل عصره إلا من الناحية السياسية فقط وأما الناحية الاجتماعية والعادات فلا سبيل إلى دراستها في شعره مطلقاً .

تأثر الفرزدق بالشعراء السابقين وتأثيره في المتأخرين :

لقد كان الفرزدق نسيج وحده في شعره . لديباجته ديباجة خاصة لا يشاركه فيها شاعر آخر . فلا سبيل إذن لتشبيهه بشاعرٍ ما ؛ لتقريب تصويره . على أن في بعض أشعاره صوراً وقصصاً وجدت عند غيره ممن تقدمه حتى بألفاظها . وله صورٌ وقصص وجدت عند سواه ممّن تأخّر عنه حتى بألفاظها تقريباً . وقد تقدّم في البحث عن النابغة شيءٌ منها . وها نحن أولاء نعرض قسماً آخر بكل اختصار فعرضه وحده يغنينا عن الشرح :

---

(١) يعرض بخالد بن عبد الله القسري وكانت أمه نصرانية .

قال امرؤ القيس :

فعادى عداءً بين ثور ونعجة
دراكا ولم ينضح بماءٍ فيغسل

قال الأعشى :

كن كالسموءال إذ طاف الهمام به
في جحفل كهزيع الليل جرّار
أذ سامه خطتي خسف فقال له :
قل ما تشاء فاني سامع حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما
فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له :
اقتل أسيرك إني مانع جاري
فاختار أدراعه كى لا يسب بها
ولم يكن عهده فيها بمختار

قال النابغة يصف ناقته بالثور الوحشي (تقدم ذلك في بحث النابغة)

(انظر صفحة ٤٠ و ٤٢)

قال الفرزدق :

فعاديت منها بين تيس ونعجة
ورويت صدر الرمح قبل عنائها

قال الفرزدق :

وفاء أخي تيماء إذ هو مشرف
ينادبه مغلولا فتى غير جأنب
أبوه الذي قال اقتلوه فإنني
سأمنع عرضي أن يسب به أبي
فأدى إلى آل امرئ القيس بزه
وأدراعه معروفة لم تغيب

***

وقال الفرزدق بعد سبعة أبيات شبه بها ناقته بنعجة وحشية فقدت ابنها ثم وجدت آثار دمائه وقد اعتدى عليه وحش :

فراحت كالشهاب رمى عشاء
به الغلمان تقتحم الخبارا
فتلك كأن راحلتي استعارت
قوائمها الخوانف والفقارا

قال عمرو بن كلثوم :	قال الفرزدق :
لنا الدنيا ومن أمسى عليها	لنا دون من تحت السماء عليهم
ونبطش حين نبطش قادرينا	من الناس طرّاً شمسها وبدورها
ملأنا البر حتى ضاق عنا	أخذنا بآفاق السماء عليهم
وماء البحر نملؤه سفينا	لنا برّها من دونهم وبحورها
قال امرؤ القيس وطرفة :	قال الفرزدق :
وقوفاً بها صحبي عَلَيّ مطيهم	وقوفاً بها صحبي علي كأنني ..
قال النابغة :	قال الفرزدق :
الواهب المئة المعكاء زينها	الواهب المئة المعكاء والغررا
قال النابغة :	قال الفرزدق :
رقاق النعال طيّب حجزاتهم	إني من القوم الرقاق نعالهم

وبلغ من تأثيره في بيئته أن أصبحت لبعض أوصافه شهرة خاصة تغني الإشارة إليها عن ذكرها . كوصف الريح مثلاً [1]

---

(١) دخل الفرزدق على سليمان فاستنشده فقال يفتخر عليه :

وركبٍ كأن الريح تطلب عندهم ... لها ترةً من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الليل وهي تلفّهم ... إلى شعب الأكوار من كل جانب
إذا استوضحوا ناراً يقولون ليتها ... — وقد حضرت أيديهم — نار غالب

فتجهم وجه سليمان واستنشد نصيباً الشاعر الأسود فمدحه فتهلل وجهه وقال للحاجب : ياغلام ، أعط نصيباً (٥٠٠) ديناراً وألحق الفرزدق بنار أبيه .

وريح تضلّ الروح عن مستقره وتستلب الركبان فوق الركائب
فلو إنها ريح الفرزدق لم يكن لها ترةٌ من جذبها بالعصائب

وهل وصف البحتري للذئب إلا فكرة الفرزدق تحوّلت إليه فصاغها على قالبه ؟

على أن الشعراء الذين قلدوا الفرزدق قلائل جداً . وليس وجود هذه الأفكار عند من تقدّمه أو من تأخر عنه دليل على سرقتها . كلا بل هي أفكار شائعة نسجها كثير من الشعراء فاختلفت الصيغة ولكن الفكرة واحدة . وله كثير من الأبيات المشهورة التي يسمونها المقلدّة مثل :

وكنا إذا الجبّار صعّر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

ما أخذ على الفرزدق

أخذ القدماء على الفرزدق بعض هنات أخلاقية كجبنه [1] وعنجهيته واغراقه في الفسوق حتى في مدينة الرسول . وبعض هنات أدبية كتطاوله على الصرف والنحو وبعض الإيطاء والتضمين

(١) من ذلك أن اثنان من الشرطة وهما من قومه ؛ أبصراه في زقاق مسدود فأراد أحدهما السخرية به فجمز الفرس عليه ففر هارباً وقد عثر بذيل عباءته فتمزقت ، فضحكا منه كثيراً ولم يكن جوابه إلا أبيات هجاهما بها .

والمبالغة وإغارته على الشعراء وسرقة أبياتهم علنا ورغما . يسمع البيت الجيّد فيقول لصاحبه : أتتركه لي أم تترك عرضك؟! فيضطر المسكين لتركه خوفاً من لسانه فيدسه الفرزدق في قصيدة من قصائده وينسب بعد ذلك إليه .

فقد أخذ من الشمردل البيت :

وما بين من لم يعط سمعاً وطاعةً وبين تميم غير حزّ الغلاصم

ومن ابن ميادة البيتين :

لو ان جميع الناس كانوا بربوةٍ وجئت بجدّي ظالم وابن ظالم
لظلّت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

وأبدل دارماً بظالم فصار البيت : « وجئت بجدي دارم وابن دارم » وهو من أسير أبيات الفرزدق

ومن جميل بثينة البيت :

ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

ومثل هذا كثير ومن مبالغاته قوله :

ولو أن عصفوراً يمدّ جناحه على طيٍّ في دارها لاستظلت

أبوك الذي تستهزم الخيل باسمه وإن كان منها سير شهرٍ مطرّد

ومن إقوائه :

لو أنّ أشيم لم يسبق أسنّتنا وأخطأ الباب إذ نبراتنا تقدُ

إذن لوافق مسعوداً وصاحبه كلاهما خارج الأعفاج والكبدِ

ومن تضمينه :

يجود . وإن لم ترتحل يابن غالب إليه . وإن لاقيته فهو أجودُ
من النيل . إذ عمّ المنار غثاؤه ومن يأته من راغب فهو أسعد

إلى أسد سارت برحلي وخاطرت عوادي من غلب يكاد زئيرها:
تصدّع منه الأرض وهي صحيحة إذا سمعته أو تقالع قورها

ملحمة الفرزدق

تبلغ هذه القصيدة ١٢١ بيتاً ومن قرأها فكأنما قرأ الفرزدق كله واطلع على جميع نواحيه الخلقية والأدبية والشعرية . مطلعها :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف
وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

ولما كانت طويلة جداً بل هي من أطول قصائده تقريباً نكتفي بتلخيصها ونحيل من يريد التوسع في درسها على النقائض أو الديوان :

وتقسم هذه القصيده إلى ستة أقسام كما يلي :

١ً — غزل (١ — ٣١)
٢ً — شكوى (٣٢ — ٣٣)
٣ً — وصف الناقة (٣٤ — ٤٣)

٤ً — وصف الشتاء المجدب
وفخره باطعام الناس (٤٤ — ٥٩)
ووصف الطعام والآكلين

٥ً — فخره بقومه (٦٠ — ١٠٣)

٦ً — هجاء جرير وسب نسائه (١٠٤ — ١٢١)

آخر ايام الفرزدق

عاش الفرزدق قرابة قرن ، شهد فيه الثورات والدعاوات السياسية والدينيّة والحروب الداخلية والخارجيـة ، وأكثر من عشر خلفاء . فامتلأت نفسه من الحياة وتكشّفت له بحلاوتها ومرارتها وخيرها وشرّها من كل نواحيها . فلم يعد يبالي بها وبالناس وأصابته نوبات زهـد كما تصيب المريض نوبات الحمى ولكن سرعان ما كان يرجع إلى فسوقه ليتمتع بالحياة إلى آخر نقطة منها . يدلّنا على ذلك تزوّجه بظبية وقد أسنّ فعجز عنها !! كأنما فيه شره للنساء واللذة . يريد اقتحام بابها واحتساء كأسها حتى الثمالة . وقد تاب مرةً وأصلح وهجا ابليس أبا الشرور والغواية وذهب إلى الحسن البصري فقيه البصرة وقاضيها وقال له : إني قد هجوت إبليس فاسمع :

— فقال الحسن : لاحاجة لنا بما تقول

— قال لتسمعن أو لأخرجنّ فأقول : إن الحسن ينهى عن هجاء ابليس !!

— قال الحسن : اسكت فإنك عن لسانه تنطق . فانظر إلى مقدار هذه التوبة وتعجب !!

ويقال إنه كان في الصحراء فأصابته الدبيلة فجاء البصرة ووصف له الكيّ والنفط شراباً فسقوه فقال : أتعجلون عليّ شراب أهل النار في الدنيا ؟! وأوصى بعتق عبيده بعد موته وقال وهو يجود بنفسه :

أروني من يقوم لكم مقامي إذا ما الأمر جل عن الخطاب
إلى من تفزعون إذا حثوتم بأيديكم عليّ من التراب

فقال له بعض عبيده : إلى الله . فأمر ببيعه قبل وفاته وأبطل وصيّته فيه !!

تلك كانت حياة الفرزدق وعلى هذه الصورة مات حول عام ١١٠ — ١١٤ هجرية

مراجع هذا البحث

١ — الديوان ٢ — النقائض ٣ — الكامل للمبرد ٤ — معجم ياقوت ٥ — ابن خلكان ٦ — معاهد التنصيص ٧ — عيون الاخبار ٨ — نهج البلاغة ٩ — الطبري ١٠ — العقد الفريد ١١ — الاغاني .

الحجّاج

— قال لتسمعن أو لأخرجنّ فأقول : إن الحسن ينهى عن هجاء ابليس !!

— قال الحسن : اسكت فإنك عن لسانه تنطق . فانظر إلى مقدار هذه التوبة وتعجب !!

ويقال إنه كان في الصحراء فأصابته الدبيلة فجاء البصرة ووصف له الكيّ والقيظ شراباً فسقوه فقال : أتجعلون عليّ شراب أهل النار في الدنيا ؟ وأوصى بعتق عبيده بعد موته وقال وهو يجود بنفسه :

أروني من يقوم لكم مقامي إذا ما الأمر جل عن الخطاب
إلى من تفزعون إذا حثوتم بأيديكم عليّ من التراب

فقال له بعض عبيده : إلى الله . فأمر ببيعه قبل وفاته وأبطل وصيته فيه !!

تلك كانت حياة الفرزدق وعلى هذه الصورة مات حول عام ١١٠ — ١١٤ هجرية

مراجع هذا البحث

١ — الديوان ٢ — النقائض ٣ — الكامل للمبرد ٤ — معجم ياقوت ٥ — ابن خلكان ٦ — معاهد التنصيص ٧ — عيون الاخبار ٨ — نهج البلاغة ٩ — الطبري ١٠ — العقد الفريد ١١ — الاغاني

مكتبة الجامعة الإسلامية - غزة

تاريخ

معاوية الثاني :

لم يمضِ على تولية معاوية بن يزيد الخلافة أشهراً ؛ حتى نودي في دمشق : « الصلاة جامعة » . فاحتشد الناس في المسجد يتشاورون ويهجسون إلى بعضهم بعضاً متسائلين : هل من ثورة جديدة بعد قتل الحسين ؟ ! هل داهمنا عبد الله بن الزبير من الحجاز ؟ ! هل هاجمنا الخوارج من الجزيرة ؟ . ماذا في الجوّ ياترى ؟ ! ! . وفجأة ظهر على المنبر ؛ الخليفة الشاب معاوية الثاني ، وعلى وجهه أمارات الحزن العميق والألم الهادىء . وأشار بيده ليتكلم فساد الجمعَ سكوتٌ رهيب . فصاح :

« أيها الناس : إن جدّي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحقّ به منه لقرابته من رسول الله ﷺ وهو عليّ بن أبي طالب . وركب بكم ما تعلمون ، حتى أتته منيّته فصار في قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بخطاياه . ثم تقلّد أبي الأمر ؛ فكان غير أهل لذلك . وركب هواه . وأخلفه الأمل . وقصر به الأجل وصار في قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه » . .

ثم بكى حتى جرت دموعه على خدّيه فجرت بين الناس موجة همسات ووشوشات وتسائل : ما بال الخليفة يبكي ؟ ! ماذا يقصد بهجو أبيه وجدّه على المنبر ؟ ! ولكن الخليفة قطع هذه الهمسات فصاح :

« إنّ من أعظم الأمور علينا ؛ علمنا بسوء مصرعه . وبؤس منقلبه وقد قتَل عِترةَ رسول الله وأباح الحرم وضرب الكعبة . وما أنا بالمتقلّد ولا بالمتحمّل تبعاتكم فشأنكم وأمركم والله لئن كانت الدنيا خيراً ؛ فلقد نلنا منها حظاً . ولئن كانت شراً ؛ لكفى ذريّة أبي سفيان ما أصابوا . ألا فليصلّ بالناس حسان بن مالك . وشاوروا في خلافتكم رحمكم الله . »

ضجّت دمشق لهذا التنازل الفجائي . وشاع الخبر في الولايات فنامت سطوة بني أميّة وقويت شوكة الكارهين لحكمهم أو الطامعين في الرئاسة . ومن كان ضلعه مع الزبير وجد الفرصة سانحةً لمبايعته . فطرد أهل خراسان والبصرة والكوفة ولاتهم من قبل الأمويين . واستولى مصعب بن الزبير على العراق باسم أخيه عبد الله . ووثب المختار الثقفي بالكوفة . وامتدت سلطته إلى الشمال بحجة الثأر من قتلة الحسين . ودمشق في غليان وبحران من الفوضى يحكمها الضحاك بن قيس وكيلاً عن

الخليفة المعتزل ريثما يتمّ أمر المسلمين على حاكم . وضج بنوا أميّة لهذه المفاجأة وخافوا أن يفلت الحكم من أيديهم . فعرضوا على معاوية أن يولّي أخاه خالداً فقال : « والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا أتقلد وزرها » فتشاوروا فيما بينهم وأجمعوا على عقد مؤتمرٍ في الجابية حضره مروان بن الحكم وأولاده وحسّان بن بجدل أمير فلسطين وعبيد الله بن زياد أمير البصرة ... وكان على الضحّاكِ حاكم دمشق أن يحضره ولكنّه تخلّف عنه لأن هواه كان مع ابن الزبير وعزم على دعوته إلى دمشق والمناداة به خليفةً . وكذلك فعل النعمان بن بشير عامل حمص وزفر بن الحارث رئيس القيسية في قنّسرين والجزيرة . ولكن الأمويين سبقوه فنادوا بمروان خليفة ، على أن يلي العهد بعده خالد بن يزيد . ثم عمرو بن سعيد بن العاص . إرضاءً لكل فروع بني أمية وأحلافهم وسائر أحزاب دمشق وتزوّج مروان أم خالد اكتساباً لودّ بني كلب .

مروان

رجع مروان من الجابية ببني قومه وبني كلب إلى دمشق (عام ٦٤ هجرية) فإذا الضحّاك قد استخلف عليها وانسحب ببني قيس إلى مرج راهط شرقي دمشق . فسار إليه والتحم

بموقعةٍ فاصلة تشتّت على اثرها بنو قيس واستحكم بعدها العداء الخالد بين بني كلب (من قبائل الجنوب) وبني قيس (من قبائل الشمال) . وكان عبد الله بن زياد قد فتح له دمشق فاستقر فيها. ونظر مروان ، فإذا العراق والحجاز واليمن ومصر وفلسطين في قبضة ابن الزبير . وخراسان أعلنت شبه استقلال وقر قيسا والجزيرة في يد القيسيين . والكوفة في يد المختار الثقفي . فتوجّه نحو مصر وخلّصها وعيّن ابنه عبد العزيز عليها . وأرسل مع هذه الحملة جيشاً إلى الحجاز ليلهي ابن الزبير عن الشام فتشتت في (الربدة) ولم ينج من جنده إلا قليل بينهم شاب أخفش دقيق الجسم كان يحمل العلم . فلما رأى السلامة في الفرار ألقى العلم وولّى لايلتفت إلى ورائه . واشتهر هذا الشاب النحيل بعد مدة باسم (الحجاج) وكان له شأن أي شأن في سياسة الدولة الأموية

عاد مروان إلى دمشق فإذا عمرو بن الأشدق يحاول الوثوب بها فتخلّص منه . وعزل خالداً عن ولاية العهد وعين ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز . ومات وفي نفسه ألم أن لم يستطع القضاء على ابن الزبير الذي طرده من الحجاز يوم أعلن استقلاله فيه

عبد الملك

تولّى الخلافة عام ٦٥ وعيون الطامعين بالملك تحوم حوله لتتسقّط منه غرّة . وأخذ على نفسه تنفيذ برنامج والده والقضاء

على أعدائه واحداً واحداً . سار إلى قنّسرين للقاء زفر . وما كاد يخرج من دمشق ؛ حتى ثار فيها عمرو بن سعيد بن العاص فأسرع بالعودة إليه وقتله . ثم أعاد الكرّة إلى قنّسرين وصالَحَ زُفر زعيم القيسيّة الجبار فأمن جانبه . والتفت إلى العراق فقتل مصعب بن الزبير واستولى على الكوفة والبصرة . ولكنه خسر قائده الباسل عبيد الله بن زياد . ورجع إلى دمشق يفكّر في اتمام البرنامج بفتح الحجاز مركز الثورات القرشيّة . وجلس يوماً يشاور أصدقاءه في أمر ابن الزبير فقال له هذا الشاب الذي رأيناه في (الربذة) جندياً فرّاراً : « أنا له يا أمير المؤمنين فلقد رأيت في منامي أني سلختُه من جلده وقطعت رأسه » . فنظر إليه عبد الملك نظرة المتفحّص . وكأنما أدرك فيه سرّاً من أسرار العبقريّة الحربية والجبروت !! فجهزّه في ألفين وحمّله أماناً لعبد الله بن الزبير يسلمه إياه إذا أطاع ودخل في الجماعة وإلا فالسيف . .

أرسل عبد الملك الحجاجَ إلى الحجاز عام ٧٠ هجرية والتفت إلى الخوارج في الجزيرة والعراق واليمامة . يناضل هنا ويناضل هناك ليعيد مجد بني أُميّة الذي هدمه معاوية الثاني بتنازله عن الملك . ذلك المجد الذي تعب ببنائه معاوية الداهية ويزيد سنين عديدة ، فقوضه معاوية الثاني بدقيقتين .

الحجاج

نشأته :

ولد الحجاج في الطائف من ثقيف عام ٤١ هجرية على الأرجح . وثقيف قبيلة ذات منعة وشوكة في الجاهلية اشتهر منها (أبو مسعود الثقفي) حتى ورد ذكره في القرآن الكريم بقوله : (لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم) واشتهر منها في الإسلام المختار الثقفي الذي بايع ابن الزبير ثم وثب بالكوفة واستقل بها وقاتل مصعب بن الزبير عنها حتى قتل . والطائف ؛ المدينة التي آذت النبيّ وأغرت به صبيانها فرموه بالحجارة حتى أدموا كعبيه . وامتنعت عليه بعد الفتح وقاومته .

هذه القبيلة الجافية ؛ هي التي أنبتت الحجاج ، وهذا البلد الجاسي هو الذي ربّاه وأنشأه طموحاً مقداماً صلباً يركب المخاطر لمعالي الأمور باسماً مرحاً كالشبل البطر ..

نشأ الحجاج بن يوسف في الطائف فاتخذ التعليم مهنةً يدرّس صبيان ثقيف القرآن ومبادئ القراءة والكتابة والحساب كمشائخ الكتاتيب في زماننا .

ولعلّه اشتغل في الصباغة قبلها أو بعدها بقليل لكننا لانعلم عن شبابه الأول أكثر من ذلك .

ويختفي عنّا ثم يظهر في موقعة الحرّة عام ٦٣ هجرية مع أهل المدينة ضدّ بني أميّة ولكنّه هرب من وسط المعمعة تاركاً أباه يقاتل وحده ثم نراه جندياً في جيش مروان عام ٦٤ يقاتل ابن الزبير في الربدة وينهزم مع المنهزمين بعد أن يلقي العلم ويفرّ هارباً جزعاً .

ولا نعلم عنه بعد ذلك إلاّ أنه التحق بشرطة (أبان بن مروان) عامل فلسطين ثم (بروح بن زنباع) الجذامي مدير شرطة عبد الملك بن مروان ووكيله . ونراه في الجيش الذاهب لقتال زفر بن الحارث القيسي في قنّسرين يحمل إليه رسالة عبد الملك ويفاوضه بالصلح [1] .

---

(١) يذكر الرواة أن الحجاج ولي على تبالة - بلدة في اليمن - ولا يحددون الزمن بالتدقيق ولكنهم يحدسون بأن ذلك كان على عهد عبد الملك . وقبل اتصاله بروح بن زنباع ... وقبل أن يصل إليها قيل له : قد بلغت تبالة بعد طول السير ياحجاج . فقال أين هي . قيل هي وراء هذه الأكمة . فقال أف لبلدة تسترها أكمة . ثم رجع من فوره ، ولم يدخلها . فقالوا في الأمثال : أهون من تبالة على الحجاج .

ونحن نشك في ذلك لأن اليمن كانت في تلك البرهة بيد ابن الزبير —

وفي هذه الاثناء؛ يشكو عبد الملك لروح سوء طاعة جنده وأنهم لا يرحلون برحيله إذا نهض ولا يقيمون إذا أقام ! ! فقال له روح : إن في شرطتي رجلاً صلباً لا يبالي ، لو قلّدته أمر هذه الجند لأرحلهم برحيلك وأنزلهم بنزولك . فقال عبد الملك : عليَّ به . وولاّه أمرهم .

الحجاج وروح :

تقلّد الحجاج قيادة الجيش الإدارية . فأطبق فمه وهزّ ساعده ، فإذا في كفّه سوط يتلوّى كالأفعى على جلد المتخلّفين ويلسعهم لسعاً . فهابوه جميعاً وانتظم أمر مسيرهم ونزولهم كما يشتهي الخليفة . إلاّ أن خاصّة روح بن زنباع ما كانوا ينظرون إليه أكثر من زميل ، بل ربما أقل من ذلك لذا لم يهتمّوا بأوامره كثيراً فهدّدهم بلسانه للمرة الأولى حرمةً لرئيسه بالأمس (روح بن زنباع) فلم يعيروه التفاتاً . وجاء فرآهم يوماً يأكلون وقد سار الجيش وارتحل .

— ثم لو فرضنا أنها كانت بيد بني أمية فهل لها من طريق إلا من الحجاز؟ والحجاز بيد ابن الزبير !.. وأغلب الظن ـ إذا صدقت القصة ـ أن يكون ذلك واقعاً بعد فتح الحجاز . فربما كافأه عبد الملك بها فلم ترضه فعوضه ذلك بمكة .

وعلى كل حال فمناقشة ذلك تطول وما أظن أنا واصلون إلى الحقيقة بعد طول العناء .

— فقال لِمَ لم ترتحلوا مع جند أمير المؤمنين ؟

— فقهقهوا ضاحكين سخرية به واستخفافاً وقالوا : انزل يا ابن اللخناء فكل معنا .

— قال : هيهات ! ! ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وأمر بفساطيطهم فأحرقت وطُوِّفوا بالعسكر تشهيراً لهم وإرهاباً لمن تحدثه نفسه بعدم الطاعة .

فلما علم روح بهذه الجرأة والتطاول عليه ؛ ذهب إلى عبد الملك شاكياً باكياً وقص عليه الحادث فقال عبد الملك : عليّ به . وسأله : أأنت فعلت ذلك يا حجّاج فتطاولت على وكيل الخليفة وآذيت خاصّته .

— قال الحجاج : لست أنا الذي فعل !

— إذا لم تكن أنت فمن ؟ !

— قال الحجاج : أنت فعلت ذلك يا أمير المؤمنين ! ! إنما يدي يدك وسوطي سوطك . وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين وعوض الغلام غلامين . ولا يكسرني فيما قدّمني له .

— فأطرق عبد الملك قليلاً ثم قال : سننظر .

ومنذ ذلك الوقت أحسّ عبد الملك بقوّة الحجاج واكتشف

فيه سرّاً من أسرار الادارة والدهاء . واصطحبه في حملته على مصعب في العراق واتخذه رسولاً إلى زفر بن الحارث ، يتوسّط للصلح ، ولكن من يدٍ عليا . فذهب وفاوضه مفاوضة الآمر للمأمور . ولما حضرت الصلاة ذهب الوفد الذي جاء فيه فصلّى مع زفر . أما الحجاج ؛ فقد امتنع واعتزل القيسيين فصلّى وحده . فسئل عن السبب فقال : لا أصلي وراء خارج على أمير المؤمنين عاصٍ عليه . وبلغت هذه الكلمةُ عبد الملك ؛ فارتفع في نفسه منزلةً وقدراً . وأدرك إخلاصه للبيت الحاكم فأدناه وقرّبه .

وكان الحجاج لا يدّخر مناسبة يستطيع بها أن يبرهن على تعلّقه بالبيت المالك إلا اكتسبها ولا يجد فرصةً يظهر فيها إخلاصه لعبد الملك إلا اهتبلها . لهذا اتكل عليه في غزو الحجاز مع ما عرف من شدة عبد الملك ورغبته بمباشرة الحروب بنفسه ليقوّي معنويات جنده ويراقب الحركات عن كثب .

الحجاج في الحجاز

سار الحجاج إلى الحجاز فنزل الطائف أولاً : بلد قبيلته ومنبت طفولته ومنشأ أحلام شبابه الأول . ولعلّه اختارها منزلاً للأسباب التالية ، أو لأحدها :

١ً – الطائف ؛ منازل أهله . فوجوده بينهم يقوّي معنوياته ويحفظ له خط التراجع فيما لو كسر أمام ابن الزبير

٢ً – وجوده مع ألفي جنـدي فقط في أرض عدوّه ؛ مغامرة وجرأة . فلعلّه بنزوله بين قومه يحمل بعضهم على التجند معه عصبيّة ونكايةً بقريش فيكثر عدد جيشه والعزّة للكاثر

٣ً – ولعلّ الدافع ، معنوي صرف ، وهو التباهي أمام عشيرته . ألم يكن عندهم شيخ كتّاب ؟ ألم يكن عندهم صبّاغاً ؟ وأين الصباغة وتعليم الصبية من إمارة الجيش ؟!

بقي الحجاج مدة يناوش جنـد ابن الزبير في عرفة حتى جسّ نبضه وسبر غوره وعرف ضعفه فاستأذن عبد الملك بحصار مكة واستمدّه فأمدّه بخمسة آلاف . فحـاصر مكة ونصب المنجنيق على جبل أبي قبيس المشرف عليها وضرب الكعبة فهدّمها وكان الوقت وقت حج فضجّ الحجاج فتوقّف ريثما انقضى الموسم وأعاد عليها الكرّة وشدد الحصار حتى شحّ الطعام على أهل مكة ، فخرجوا إليه مستأمنين . وقتَل ابن الزبير وقطع رأسه فأرسله إلى عبد الملك وصلب الجثّة وأبى أن ينزلها حتى تستشفع لها أمّه أسماء بنت أبي بكر الصدّيق . فأبت ذلك . وتفسخت الجثة وأنتن ريحها فثار الناس إلى أسماء فمرّت تحت المصلوب

وقالت : أما آن لهذا الفارس أن يترجّل ؟ فعدّ الحجاج ذلك منها طلباً وأنزل الجثة . وبذلك قضى على دولة ابن الزبير ودان الحجاز والعراق واليمن وجزيرة العرب كلها لحزب أميّة . فقدّر عبد الملك هذا القائد الشجاع بتوليته مكة ثم المدينة . فسارَ في أهل الحجاز سيرَ الجبار العاتي لا يضع السيف إلا ليرفع العصا حتى طاطأ من إشرافهم . ولم يبال قربهم من الرسول ، أو يرعَ جوارهم قبره أو يكرم صحبتهم ونصرتهم . ولقد بلغ من عسفه أن ختم عَلَى أيدي بعض الصحابة بالرصاص . فضجوّا ولكن بخضوع واستسلام وشكوه لعبد الملك متضرّعين فأعفاهم منه ونقله إلى العراق عاملاً ممتازاً وأطلق يده بقمع الفتن وإرسال الزحوف . ويظهر أنه فارق الحجاز كارهاً لأهله فقد حمد الله أن خلّصه منهم .

العراق والخوارج

بعد أن تمّ الأمر لمعاوية ؛ عيّن زياداً على العراق ومنحه سلطةً واسعة في تتبّع الاحزاب المعارضة وإفنائها . فاشتد على حزب عليّ فأخمده . وعلى الخوارج فكاد يبيدهم فالتجئوا إلى ابن الزبير يعينونه ويستعينون به على الحزب الحاكم . ولما مات يزيد وسكنت غلواء بني أمية قليلاً عرضوا فكرتهم السياسية عَلَى ابن الزبير

ليكونوا معه أبداً ، فرفضها بإباء !! فلما استيئسوا منه خرج بعضهم إلى اليمامة والبعض الآخر إلى العراق بقيادة نافع بن الأزرق وأخذوا يعيثون في الأرض يستحلون الدماء ويسلبون الأموال ويكفّرون المسلمين ويعتدون على الأطفال في حجور أمهاتهم وعلى النساء فيبعجون بطونهن ... وهاجموا المدن الكبرى وصاروا من البصرة على مرحلتين يوم وفاة يزيد . فقاومهم البصريون والتحموا في (دولاب) بموقعة كثر فيها القتلى من الطرفين وقُتِل يزيدُ قائد الخوارج وابنُ كريز قائد البصريين وفرّ الجيش البصري . والتجأ أهل البصرة إلى (المهلب بن أبي صفرة) ليقودهم ؛ فردّ الخوارج عنهم وما زال يحاربهم طول حياته زمن الفوضى وزمن حكومة المختار الثقفي وزمن حكومة ابن الزبير وزمن حكومة الأمويين في ولاية بشر بن مروان . ثم في ولاية الحجاج . وما زال الخوارج يقاومونه في كل مكان فإن عجزوا انسحبوا إلى مكان حصين ليستريحوا قليلاً ويعاودوا الكرة بجرأة نادرة وشجاعةٍ فائقة لم يذكر التاريخ لها مثيلاً حتى ضجّ الناس منهم وركبهم الخوف والجزع . فكان يكفي أن يشار إلى خارجي في الطريق حتى يفرّ المئات من وجهه مستنفرين . وبلغ من شدّتهم أنه كان يهجم الفرد منهم على عشرات فيولّون

أمامه كقطيع من الغنم أمام ذئب كاسر . بل أعجب من ذلك كانت نساء الخوارج يهاجمن الجيش فيردنه خاسراً . ففي موقعة آسك ردَّ أربعون خارجياً ، فقط ، ألفين رداً شنيعاً . وفي ذلك يقول شاعرهم :

أألفا مؤمنٍ فيما زعمتم ويقتلهم بآسك أربعون

وكم مرةٍ دخلوا البصرة والكوفة حتى في زمن الحجاج وضربوا قصر الإمارة بالعمد فآذوه . وصلّت مرةً (غزالة) امرأة شبيب الخارجي في مسجد الكوفة ركعتين قرأت فيهما سورتي البقرة وآل عمران ! ! ولما مات قطري بن الفجاءة أميرهم وجد معه ١٢ امرأة من أحسن النساء وجهاً وأشدّهن في الحرب بأساً ! ! ..

. . .

تلك كانت الفوضى السياسيّة في العراق لما وُلّي الحجاج عليها . أما الفوضى الأخلاقية فحدّث عنها ولا حرج . فقد بلغ من جرأة فسّاق البصرة زمن زياد أن كانوا يقبضون على المرأة في الطريق ويسمحون لها أن تنادي ثلاثة أصوات فإن أجابها أحد ؛ أطلقوها . وإن لم يغثها أحد ؛ حلّت لهم [1] ؟ ! .

---

(١) البيان والتبيين جزء ٢ صفحة ٤٨ . حاشية السندوني

وأما التعدّي على أموال الناس واللصوصية وقطع الطرق ونبش القبور فأكثر . انظر إلى قولهم يمدحون مدير شرطة الحجاج فإنك تستنتج منه صورة صحيحة لحال العراق الأخلاقية لا شك فيها . قال الشعبي : (فو الله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله . كان لا يحبس إلا في دين . وكان إذا أُتي برجل نقب على قومٍ ؛ وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره . وكان إذا أُتي برجلٍ نبّاشٍ حفر له قبراً ودفن فيه حياً . وإذا جيء برجل قاتل بجديدة وأظهر سلاحاً قطع يده . فربما أقام أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد ...)

هذه الفوضى السياسية والشواذ الأخلاقية والانهيار الاجتماعي جعل الولاة يقسون على العراق قسوةً جبّارة لا رحمة فيها ولا شفقة . أضف إلى ذلك الرغبة في توطيد الملك والضغط على الأحزاب ، المخالفة للحزب الحاكم ، وإخبات نَفَسها وإخضاعها للملكية المستبدّة ، بعد أن كانت قبلية مستقلّة . وليس من اليسير تحويل مجرى السيل الاجتماعي من بداوة مطلقة إلى عبودية مطلقة ..

. . .

جاء عام ٧٥ هجرية والحجاج في الحجاز يقتل وينفي ويظلم

ويجور ، حتى على الصحابة ، في سبيل توطيد ملك بني أميّة في الحجاز ، حتى ضجروا منه وشكوه للخليفة . واتفق في تلك الاثناء ، أن مات بشر بن مروان عامل العراق ، والحال كما تقدّم وصفها . فلم يجد عبد الملك بدّاً من انتقاء الحجاج لهذا المنصب ، لما خبره فيه من شدّة وبطش وعزم وإخلاص لشخصه ولعرشه .

ركب الحجاج واثني عشر رجلاً من خلصائه النجائبَ إلى الكوفة . يخترق الصحراء صامتاً مفكراً ، بعد أن ودّع الحجاز أسوأ توديع ، وحمد الله على خلاصه منه ومن أهله . وعدّ ثلاث السنوات التي قضاها فيهم نقمةً من الله وحساباً .

الحجاج في العراق :

وصل الحجاج الكوفة فدخل المسجد وصعد المنبر متلثماً . ونودي في البلد : « الصلاة جامعة » فتوافد الناس إلى المسجد زرافات ووحداناً يرمقونه بنظر شزر ويظنونه أحد الخوارج لأنهم اعتادوا مثل هذه المفاجئات منهم . فرعبوا منه في بادئ الأمر وهو صامت يفكر بالعراق وفوضاه . وتضارب آراء أهله ، حتى كأن كل فرد منهم أمة وحده ، له آراؤه وتاريخه وأحلامه وطموحه . وفي هذا المجتمع المائج تجمعت فيه رسوب مختلفة

لأحزاب متباينة دينية وسياسية وثقافية وعِرقيّة . ففيهم العربي الخالص والمتأثر بالفرس والحرّ والعبد والهجين . وفيهم الزبيري والمرواني والعلوي والتّواب والخارجي والسنيّ والكيساني والمختاري والسبئي والمرجئ . وفيهم من يميل إلى الأزارقة أو النجدية أو البيهسية أو الأباضية أو الصفرية .. من مذاهب الخوارج ...

كل حزب سياسي أو ديني ، بل كل فكرة مضت على العراق منذ عهد الفتح حتى عهد الحجاج ؛ تركت رسوبها فيه فجاء من هذه الكتلة البشرية المختلطة ؛ مولود مشوّه عجيب الخلقة ، رائع المنظر ، مخيف المخبر .

جالت كل هذه الأفكار في نفس الحجاج وهو على المنبر ينظر إلى الناس بحدّة وينظرون إليه بجزع . وما كادوا يعلمون أنه عامل الأمويين عليهم حتى همّوا بحصبه — وتلك عادتهم في الولاة ليرهبوهم !! — فنهض الحجاج كالفهد وحسر لثامه وصاح :

أنا ابن جلا[1] وطلاّع الثنايا[2] متى أضع العمامة تعرفوني[3]

أما والله إني لأحتمل الشرّ بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله ؛ وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ! وإني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى : قد شمّرت عن ساقها فشمر .

هذا أوان الشدّ فاشتدّي زيم[4]

قد لفّها الليل بسواقٍ حطم[5]

ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزّار على ظهر وضم[6]

...

قد لفّها الليل بعصلبيّ[7] أروع[8] خرّاج من الدّوي[9]

مهاجرٍ ليس بإعرابيّ

---

(١) ابن جلا : المشهور والنابه .

(٢) الثنية : الطريق الوعرة في الجبل والذي يصعدها يكون قويّاً .

(٣) البيت ؛ لسحيم من قصيدة مشهورة .

(٤) زيم : اسم فرس أو ناقة .

(٥) السواق الحطم : الشديد .

(٦) الوضم : الخشبة التي يقطع عليها الجزار اللحم .

(٧) العصلبي : الشديد .

(٨) أروع : ذكي .

(٩) الدوي : المفازة المهلكة .

قد شمّرت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وترٌ عُرُدٌّ مثل ذراع البكر أو أشد
لابدّ مما ليس منه بدٌّ

إني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساويء الأخلاق ماأُغمزُ تغماز التين ولا يُقعقعُ لي بالشنّان [1] ولقد فُررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجربت مع الغاية، إن أمير المؤمنين نثر كنانته ثم عجم [2] عيدانها فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مَكسِراً فوجّهني اليكم، فإنكم طالما أوضعتم [3] في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغيّ، أما والله لالحونّكم لحوَ العصا [4] ولأعصبنّكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل [5] «فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» وإني والله لا أعد إلا وفيت ولا أهُمُّ إلا مضيت ولا أخلق إلا فريت! فإياي وهذه

---

(١) الشنان: قربة جافة يقعقع بها خلف النوق لتنفر عن الماء.
(٢) عجم: عضّ ليجرب المقاومة.
(٣) أوضع: أسرع.
(٤) لحا العصا: قشرها.
(٥) غرائب الإبل تضرب بشدة وقسوة لتنفر عن الماء نكاية بأصحابها

الجماعات وقال وقيل وما تقول ! وفيم انتم وذاك ! أما والله لتستقيمنَّ على طريق الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شغلاً في جسده ! مَنْ وجدت بعد ثلاثة من بعثِ المهلَّب سفكت دمه وأنهبت ماله) .

. . .

ولم ينهِ الخطبة ؛ حتى كان الحصى قد تساقط من الأيدي والقلوب واجفة والعيون شاخصة إليه ! فالتفت إلى غلامه فقال :

ياغلام ! اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين

فقرأ غلامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؟ من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى مَن بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم »

فلم يقل أحد شيئاً .

فغضب الحجاج وقال : أكفف ياغلام ، ثم التفت إلى الناس فقال : (يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا يردُّ أحدٌ منكم عليه السلام ؟! أما والله لأؤدبنّكم غير هذا الادب) وعاد إلى غلامه فقال : اقرأ ! فما وصل القاريء إلى قوله : سلام عليكم ، حتى دوى في المسجد من أقصاه إلى أقصاه صوت الجميع : « وعلى أمير المؤمنين السلام »

هكذا أعلن الحجاج ولايته على العراق بين التهديد والوعيد وأبلغهم الأمر ليلتحقوا بالمهلب وليقمعوا ثورة الخوارج الذين أهلكوا الحرث والنسل في العراق وفارس، ونزل عن المنبر فأتاه رجل بابنه وقال: أصلح الله الأمير، إن ابني هذا أنفع لكم مني وأنا في هذا البعث، ولكني كبير عليل وابني هذا أنسب مني، فقال نعم، ثم قيل له إن هذا عمير بن ضابىء البرجمي مِنْ قَتَلَةِ عثمان فأمر به فرُدَّ فقال له: أيها الشيخ؛ ألست القائل:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله!!

هلّا بعثت سواك يوم الدار، إن في قتلك صلاح المسلمين أيها الشيخ. وأمر جلّاده فقطع رأسه، وبينا هم كذلك، سمع ضجةً خارج المسجد فسأل عنها فقيل: هؤلاء البراجمة جاءوا يثأرون لعمير، فقال: أتخفوهم برأسه! فلما ألقي بين يديهم ولّوا الأدبار هاربين!!

وما مضت ثلاثة أيام؛ حتى كان البعث قد اكتمل ولم يبق في الكوفة رجل يستطيع حمل السلاح إلا التحق بالمهلب. وبذلك قضى عَلَى الفوضى في الكوفة وألهى الناس بالحرب فتخلّص من فسادهم. يقول شاعرهم:

تجهّز وأسرع فالحق الجيش لا أرى
سوى الجيش إلاّ في المهالك مذهبا
فما إن أرى الحجاج يغمد سيفه
مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيبا
تجهز فإما أن تزور ابن ضابئ
عميراً . وإما أن تزور المهلبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه
رآها مكان السوق أو هي أقربا !!

...

وفي آخر عام ٧٥ هجرية خرج الحجاج إلى البصرة فتهدّد وتوعّد وألحق الناس بالمهلب . وجاءه رجل يعتذر بمرض فضرب عنقه . فخاف الناس ولم يبق من عسكر المهلب أحد بالبصرة إلا لحق به ...

هكذا استطاع الحجاج أن يقود العراق بقبضة من حديد ولكن هل استقامت له الأمور كما يهوى ؟!

الثورات في العراق

ثورة ابن الجارود

إن العراقيين بما ركّب فيهم من إباء بدويّ واستغراق في الفوضى زمناً طويلاً ، لا يمكن أن يخضعوا للحجاج بالسهولة التي يتصورها . لذلك وقفوا يتحيّنون الفرص للثورة . واتفق أن أنقص الحجاج أعطياتهم التي تسامح لهم بها بشر بن مروان . فنصحه ابن الجارود بردّها فلم يفعل . فائتمر به سرّاً وآزره زعماء العراق الذين اضطهدهم الحجاج وكسر شرّه نفوذهم ، وثاروا ثورة هائجة عام ٧٦ هجرية ليخرجوه من العراق . فصمد لهم وشتّت شملهم وقبض على زعماء الثورة فقطع رؤوسهم وأرسلها إلى المهلب ليعرضها على جنده كي يعتبر بها من تحدثه نفسه بالنكوص .

ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة

كان مطرف عاملاً للحجاج على المدائن أيام ثورة شبيب الخارجي على الحجاج . فدعا شبيباً إليه وتباحثا أربعة أيام ؛ لم يتفقا خلالها على شيء . وكان مطرف يكره الحجاج لظلمه . فدعا خلصاءه واستشارهم في الأمر . فخوّفوه الحجاج إن

علم بقصته مع الخوارج . فجمع أهله وسار إلى همدان . وكان أخوه عاملاً عليها للحجاج فأمدّه بالرجال والسلاح سرّاً . وثار على الحكومة عام ٧٨ هجرية يخلع الملك والحجاج ويدعو الناس إلى كتاب الله وسنة نبيّه والشورى . فقاتله عدي بن زياد عامل الريّ وقتله . وبقتله قضي على مجد أبناء المغيرة في العراق .

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث :

بعد ثورتي ابن الجارود ومطرف واستكانتهما للقسوة الفظيعة التي عامل الحجاج بها الثائرين . خضع العراق خضوع الليث المكبّل في قفص . لا يئنّ ولا يزأر . وسكن سكون الجبار أمام الفوادح . وخشي الحجاج أن يدمدم هذا الهدوء فيوقعه في فتنة . لذلك نراه عام ٧٩ هجرية — وقد وفّق بإخضاع الثورات وكسر الخوارج وقتل زعمائهم — يفكّر بإلهاء الناس بالزحوف والحروب الخارجية . فجنّد جيشاً بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث — وهو زعيم متغطرس من زعماء العراق — أراد أن يعلّمه الطاعة . فسار إلى طخارستان — نسميها اليوم افغانستان — وكان ملكها (رتبيل) قد تمنّع عن دفع الجزية التي عليه . فلما سمع بقدوم جيش المسلمين ؛ أرسل يعتذر ودفع ما عليه فأبى ذلك عليه القائد ابن الأشعث ودخل بلاده وأوغل

فيها حتى أصاب منها مغانم كثيرة . ثم توقّف وأرسل يخبر الحجاج بذلك . فغضب وأرسل إليه كتاباً يأمره فيه بمواصلة الجهاد . وألحقه بكتاب ثان فثالث يقول له فيه : « إن مضيت لما أمرتك ؛ وإلاّ فأخوك اسحق بن محمد أمير الناس » فأثّرت هذه الكلمة في نفس ابن الأشعث . فجمع الناس وخطبهم خطاب الناصح الأمين وحرّضهم على قتال عدو الله الحجاج واتّفق مع رتبيل على صلح ورجع إلى الحجاج ! وكان جيشه قرابةَ مئة ألف . وانضم إليهم من العراق مئة ألف أخرى . فقاتلوا الحجاج وأجلوه عن البصرة . وبويع لابن الأشعث فيها . ثم اشتد القتال واستمرّ إلى عام ٨٢ هجرية حيث نرى ابن الأشعث يدخل الكوفة ويبايع له فيها . مع أنه كان منهزما في (يوم الزاوية) قبلها . ثم نرى الحجاج يلتقي مع الثائرين وجهاً لوجه في يوم (دير الجماجم) وقد استمدّ عبدَ الملك فأمدّه بجند الشام . واشتدت المعركة فَهُزِم ابن الأشعث وفرّ إلى طخارستان والتجأ إلى حليفه رتبيل فتقرّب هذا برأس الثائر إلى الحجاج . وبهذه الثورة المنكسرة ؛ قضى على آخر أملٍ للعراقيين بالاستقلال عن بني أُميّة ، وألهاهم الحجاج بصورة مستمرّة في حرب الخوارج داخلاً والتوغل في بلاد الترك

والأرمن والهند والسند والصين خارجاً ، ومن كبار قواده قتيبة بن مسلم فاتح الصين والمهلب بن أبي صفرة فاتح الترکستان ومحمد بن القاسم فاتح السند ، ويزيد بن المهلب متمّم فتوحات أبيه ، واستقرّ الحجاج يحكم نحو نصف المملكة الإسلامية يولّي ملوكاً ويعزل ملوكاً ، يهدم عروشاً ويهدي صوالجةً وتيجاناً ؛ وتحت يديه القواد العظام كالمارشالية والجنرالية في هذا الزمن ، بقي كذلك في العراق عشرين سنة حتى وافاه الأجل عام ٩٥ هجرية ، بعد أن ثبّت أركان العرش الأموي ووطّد أسسه وحمى حماه ، فإذا كان لبني أميّة ملك فالفضل للحجاج ، وإذا كان لبني أميّة ذكر في التاريخ ، فالفضل للحجّاج .

علاقة الحجاج بعماله

كانت خطّة الحجاج في سياسته مركزية متسلسلة . يطيع الخليفة طاعة عمياء ويطالب مرءوسيه بالطاعة نفسها . فهو يتداخل في شؤونهم تداخلاً غريباً كأن يكتب للقائد بلقاء عدوّه في مكان ووقت يعيّنه لهما . والويل للمخالف ! فأقل جزاء تهديد وسباب !! مع أن الحاضر يرى مالا يرى الغائب . وأغرب من ذلك أن يكتب إلى قتيبة ـ وقد عجز عن فتح بخارى ـ يطلب منه صورة البلد فيطلّع عليها ويأمره باختراقها من مكان يعينه

له . على أن بعض القواد كانوا يجابهونه بقسوة . فقد كتب إليه المهلب مرةً يقول : (وزعمت أني إن لم ألقهم ـ الخوارج ـ يوم كذا في مكان كذا أشرعت إليّ صدر الرمح . فلو فعلت لقلبت إليك ظهر المجن والسلام) . ولعلّ المهلب لم يكتب إليه ألاّ بعد أن أضجره بآرائه السخيفة من الوجهة الحربية . انظر إليه يكتب إلى سعيد بن الجزل وهو يقاتل الخوارج : « أن يطلبهم طلب السبع ويحيد عنهم حيدان الضبع !! » فأي رأي حربيّ في هذا الكلام الفارغ ؟! ولعل المهلّب لم يجرؤ عليه إلا لما له من المنعة في قومه . وهذا مادفع الحجاج إلى السكوت عنه حتى مات . ثم طلبِ أبنائه وتعذيبهم بعد موته ـ وكلهم شجاع وقائد مشهور ومحترم في جيشه وعشيرته ـ حتى ثار عليه يزيد بن المهلب .

علاقة الحجاج بالبيت المالك

إن هذه التقلّبات السياسية الفجائية التي توالت على الأمة الإسلامية مدى قرن تقريباً ؛ ذهبت حروبها وثوراتها بكثير من الرجال والعظماء كعمر وعثمان وعليّ والحسين وابن الزبير . كما إنها خلقت كثيراً من الرجال ظهروا على مسرح السياسة لم يكونوا قبلها شيئاً مذكوراً كالمختار الثقفي وقتيبة ومحمد بن

القاسم وموسى بن نصير والحجاج وروح بن زنباع . وكانت خطة ملوك بني أميّة، خلق الرجال من قلب الشعب. لكي يكون عاملهم دائماً مديناً لهم فلا يفكّر بالاستقلال عنهم . مثال ذلك أن الحجاج لما فكّر بعزل آل المهلب عن خراسان، كتب إلى عبد الملك بذلك فقال له: سمِّ لي مكانهم . فسمّى له الحجاج: «مجاعة التميمي» فكتب له عبد الملك يقول: (إن سوء رأيك الذي دعاك إلى فساد آل المهلب؛ دعاك إلى تسمية مجاعة . وهو رجل من تميم في شرف وعزّ ومنعة . فابغني رجلاً أقلّ منه عشيرة وأغمض منه بيتاً . وليكن صارماً ماضياً لأمري) فسمّى له قتيبة الباهلي

والحجاج يعرف أن دوام مجده متعلق بدوام مجد بنى أميّة لذلك كان لايني في تشييد مجدهم . انظر إليه يقتل فقيه العراق الأكبر سعيد بن جبير لأنه قدّم بيعة ابن الأشعث على بيعة عبد الملك، ولا يبالي غضب مسلمي الأرض في سبيل إرضاء مليكه، ولذلك أورثه عبد الملك للوليد فيما أورث من ملك وأوصاه به . وكان يقول: (إن الحجاج جلدة مابين عيني وأنفي) وكان الحجاج يكتب إليه في كل عمل جرى أو يريد أن يجريه، حتى في الأمور التوافه؛ ويخلص له أشد إخلاص، ويضرب الجزية على الذميّين الذي أسلموا ليزيد في الخراج،

ويرضي الملك بزيادة الوارد! على أن عبد الملك كان يغمز من جانبه أحياناً ليجرّب إخلاصه فيكتب إليه كتاباً كلّه شتم ولعنات ويطلب إليه التنحّي عن العمل، فيتذلّل له الحجاج ويلاينه ويستعطفه مثال ذلك: كتب له عبد الملك مرة مايلي: (وقد كنت أشركتك فيما طوّقني الله حمله فدللت منه على الحزم والجد في إماتة بدعة وإنعاش سنّة، فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها حتى صرت حجة العائب وعذر اللاعن والشاهد القائم. فلعن الله أبا عقيل وما نجل: فألأم والد وأخبث نسل، وما الطائف منا ببعيد إذ كنتم بين حاضر وناقل وماتح في الفلوات القفرة. فاستخرجك أمير المؤمنين من أعوان روح ابن زنباع وشرطته وأنت يومئذٍ على معاونته محسود، فقرعت صفاتنا وهتكت حجبنا، فاعتزل عمل أمير المؤمنين واظعن عنه باللعنة اللازمة والعقوبة الناهكة) .. فأجابه الحجاج: (لعبد الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، المؤيد بالولاية، المعصوم من خطل القول وزلل الفعل. من عبدٍ اكتنفته الذلّة ومدّ به الصغار إلى وخيم المرتع ووبيل المكرع. فواغوثاه باستعاذة أمير المؤمنين من رجيم إنما سلطانه على الذين يتولونه، وما جهل أمير المؤمنين أن متابعة روح بن زنباع؛ طريق إلى الوسيلة

لمن أراد فوقه . وأن روحاً لم يلبسني العزم الذي به رفعني أمير المؤمنين عن خوله .. والأمر إلى أمير المؤمنين عَزَل أم أقرّ . وكلاهما عدل متّبع وصواب معتدل ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله) . ولقي عبد الملك الحجاج — وكان على بغلة — فترجّل الحجاج ومشى في ركاب الخليفة . فجعل عبد الملك يخبّ براحلته . والحجاج يركض وراءه كالتبع ، وسئل في ذلك فقال : أخذته العزّة فأحببت أن أُطاطئ منه وأذلّه !!

تلك كانت علاقة الحجاج بالخليفة لأنه آمره . وأما علاقته بسائر أمراء البيت المالك ؛ فلم تكن على ما يرام كأنه لا يرى لأحد عليه حقاً غير آمره فقط ، فمثلا : كان سليمان بن عبد الملك — إذ كان ولياً للعهد — يكتب للحجاج بأمور فلا ينظر في كتبه . فغضب وكتب إليه كتاباً يتهدّده به قال فيه : (وأيم الله لئن أمكنني الله منك لأدوسنّك دوسةً تلين منها فرائصك . ولأجعلنّك شريداً في الجبال تلوذ بأطراف الشمال . ولأعلقنّ الروميّة الحمراء بثدييها ، فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كان بي وبك مدّة أتعلّق بها ..)

فكتب إليه الحجاج : (لعمري إنك لصبيٌّ حديث

السن تعذر بقلّة عقلك وحداثة سنك . جمعت أموراً ؛ دلّك فيها الشيطان على أسوأ أمرك . فكان الجفاء من خليقتك والحمق من طبيعتك . وأما قولك : لو ملّكك الله ، لعلقت زينب ابنة يوسف بثدييها فأرجو أن يكرّمها الله بهوانك . وأن لا يوفّق ذلك لك .

كتبت إليّ والشيطان بين كتفيك؛ فشرّ محلّ على شرّ كاتب تحلّب فوك للخلافة . فأنت شامخ البصر طامح النظر ؛ إنها نعمة أسأل الله أن يلهمك فيها الشكر . مع أني أرجو أن ترغب فيما رغب به أبوك وأخوك فأكون لك مثلي لهما . وإن نفخ الشيطان في منخرك فهو أمر أراد الله نزعه عنك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك . ولعمري إنها النصيحة فإن تقبلها فمثلها قُبل وإن تردّها عليّ اقتطعتها دونك ؛ وأنا الحجاج ! !)

ففي كتاب الحجاج سطوة وغرور يتهدّد وليّ العهد ولا يبالي . بينما نراه يتذلل لأخيه الخليفة ولأبيه من قبله . وهذه العلاقة السيّئة بينه وبين سليمان كانت تخيف الحجاج كثيراً فيدعو الله أن يميته قبل توليته الخلافة وجعلته مرةً يجزع أشد جزع حينما علم بحادثة إغماء الوليد يوم ظُنَّ أنه مات . وهذا مايفسّر تشتيت شمل أهل الحجاج وعماله وأنصاره وتعذيبهم في خلافة سليمان بن عبد الملك . وقد نستنكر نحن الآن تعذيب

الناس وإرهاقهم لغير ذنب . غير أن هذه العادة كانت فاشية في زمنهم بل كانوا يستطيلون إلى الولاة فيعذّبونهم أو يحبسونهم هذا موسى بن نصير عذّبه سليمان لأنه استعجل فحمل الهدايا لأخيه الخليفة مع أن سليمان رجاه أن يتأخر ريثما يموت أخوه وكان مريضاً فلم يفعل ! ! . وهذا يزيد بن المهلب عُذّب وشُرّد لأن الحجاج لا يريده فقط . وهذا خالد القسري عزله هشام وعين مكانه ابن عم الحجاج (يوسف بن عمر الثقفي) فعذبه حتى مات بين يديه كما مات من قبل بلال بن أبي برده . . وغيرهم كثير . أفلا يحقّ للحجاج بعد هذا أن يجزع إذا مات الوليد وتولّى سليمان ؟

نفاق الحجاج للخليفة

كتب الحجاج للوليد ، بعد موت أخيه محمد بن يوسف أمير اليمن ، يقول : (وجد في تركة أخي ١٥٠ الف دينار فإن تكن من حلّ ، فرحمه الله . وإن تكن من خيانة ؛ فلا رحمه الله !!) فكتب إليه الوليد يقول : (إن أخاك محمداً أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له) ثم أمره أن يترحّم عليه .

وابتنى الحجاج وعبد الملك بابين لمسجد فنزلت صاعقة فأحرقت باب عبد الملك فغار من الحجاج وحسده فكتب إليه الحجاج يقول : (إنما مثل أمير المؤمنين ومثلي كمثل ابني آدم إذ قربا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر)

وقد ظنّ بعضهم أن كتابته لعبد الملك عن الباب أو كتابته للوليد عن تركة أخيه نفاق منه ليظهر صدقه وأمانته أمامه . ولكن لو علم أن الحجاج وهو نصف امبراطور ، مات ولم يخلّف إلا سلاحه وبعض مئات من الدراهم الفضة لناله العجب وأيقن أن عمله هذا لم يكن إلا عن إخلاص حقيقي للبيت المالك لا نفاق فيه ولا رياء .

علاقة الحجاج بالشعب

جاء الحجاج الحجاز فكمعه بالشدّة حتى أباد الحزب الزبيري وعفى على آثاره . أنظر إليه وقد أراد الحج فاستخلف ابنه محمداً على المدينة ؛ صعد المنبر وقال : (أيها الناس . إني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابني محمداً هذا . وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله ﷺ في الأنصار . أن رسول الله ﷺ أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، ألا وإني قد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم . ألا وإنكم ستقولون بعدي . لا أحسن الله له الصحابة . ألا وإني معجل لكم الإجابة : لا أحسن الله عليكم الخلافة) .

ثم جاء العراق وقد ترسّب فيه — كما قلنا — شيء من كل مذهب وأثر من كل حزب ، فكيف نريد منه أن يسوسهم باللين والحسنى وقد أوضعوا في الفتنة وأغرقوا في الخروج ؟ !

كانت هذه الشدة التي أخذهم بها طبعية إذن ! فإمعانه في التقتيل والتشريد والحبس والتفظيع كالعملية الجراحية التي لا بدَّ منها لتخليص المريض المشرف . وكان يساعده على هذه القسوة ما ورثه عن قبيلته وعائلته من الفظاعة في الجاهلية والإسلام . فأخوه والي اليمن وابن عمه يوسف بن عمر قاتل خالد القسريّ ؛ مثال من الحجاج المنتقم الحقود الطموح . ويظهر أن هذه الشدة التي أخذ العراق بها ، لم يكن سابقاً فيها . فقد تقدّمه زياد فقتل على الظنّة بل أسرف في القتل والتشريد فلماذا نسي الناس زياداً لما جاء الحجاج ؟

كان الحجاج دائم العبوس لكي تبقى رهبته في النفوس وكان كالذئب يحب الولوغ بالدم ولا يتأثر . قيل إنه قتل بعد موقعة دير الجماجم أحد عشر ألفاً بعد أن أمّنهم وأحصي من قتلهم صبراً فكانوا ١٢٠ ألفاً ومات في حبسه ٥٠ ألف رجل و ٣٠ ألف امرأة حتى أصبح الناس في زمنه ولا حديث لهم في مجادلهم ومتاجرهم ومساجدهم ، إلا قولهم : من قُتل أمس ومن صُلب ومن جُلد ومن قُطع ؟ !

وإذا أسرف الحجاج بسياسة الشدّة والقمع ، فإنما هو آلة من آلات بني أُمية يدير خطة مدبرة ويتمشّى على سياسة

مرسومة واضحة الخطوط قلّد فيها يزيد قاتل الحسين ، وعبد الملك القائل : « أيها الناس تريدون أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا تسيرون بسيرة الشعب الذي كان زمن أبي بكر وعمر ؟! والله من قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا » . وزياد ابن أبيه ، أول من قتل على الظنّة والحصين بن نمير ، هادم الكعبة ... وإذا كان في خطب الحجاج تهديد وشتائم فإنما هو مقلد لعتبة ابن أبي سفيان ، أخي معاوية عامل مصر وزياد وعبد الملك ... والذي يؤخذ عليه فقط ، هو إسرافه في هذا التقتيل والتشنيع كأن يسمر الجندي الفارّ من الجيش ويتركه يتلوّى في الشمس جوعاً وعطشاً حتى يموت .

إنه في مدى العشرين عاماً التي قضاها في العراق أذلّ العرب ، وهم الأباة وعوّدهم الخضوع ، وهم الأحرار . وقتل قلوبهم قبل أجسامهم فعلّمهم التزلّف والخوف . ولكنه قضى بعمله هذا على مركز الفتنة في الإمبراطورية الإسلامية ووحدها جميعاً حول قطب واحد . أنّى التفتّ تتوجّه إليه . هو الخليفة وخير ما يقال في هذا الباب : هو قول الحجاج نفسه إذ سأله الوليد أن يصف سيرته فقال : « إني أيقظت رأيي ، وأنمت هواي . وأدنيت السيد المطاع في قومه . وليت الحرب بالحازم

في أمره وقلّدت الخراج ؛ الموفّر لأمانته . وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً ، أعطيته حظاً من لطيف عنايتي ونظري . وصرفت السيف؛ إلى المريب المسيء . والثواب ؛ إلى المحسن البريء فخاف المريب صولة العقاب . وتمسك المحسن بحظه من الثواب » .

كرم الحجاج :

يذكرون من كرم الحجاج أنه كان يقيم كل أمسية من رمضان ، ألف خوان على كل خوانٍ عشرة ألوان من الطعام وسمكة مشوية وأرزة بسكّر ؛ يقعد على كل خوان عشرة أنفس ، ثم يحمل بينهم في محفّة ويقول : يا أهل الشام اكسروا الخبز لئلا يعاد لكم . وكان يقيم خمس مئة خوان مثل هذه كل أمسية من غير رمضان ويحكى أنه لما دخل المدينة فرّق في أهلها عشرة آلاف دينار وقال : « أتيناكم وقد غاض الماء لكثرة النوائب فاعذرونا » فقال رجل : لا عذر الله من يعذرك وأنت أمير المصرين وعظيم القريتين (مكة والطائف) فقال : صدقت واقترض أموالاً من التجار فكان شيئاً عظيما . . يذكرون هذه القصص وأمثالها ليستدلّوا بها على كرم الحجاج ولكنا لا نرى له في ذلك ابتداعاً ولا كرماً . فقد سبقه

عبد العزيز بن مروان والي مصر فكان ينصب كل يوم ألف خوان حول داره . ومئة جفنة تفرّق في القبائل .

وكتب مرةً عامل خراسان أميه بن عبد الملك إلى أبيه يقول : (إن خراج خراسان لا يفي بمطبخي)

ويذكر التاريخ أن يوسف بن عمر عامل العراق بعد خالد القسري كان يقيم كل يوم خمس مئة خوان ! ! . . وأمثال هذه القصص كثير يبرهن لنا أن عادة إطعام الطعام ؛ كانت طبعية في زمنهم تأليفاً لقلوب الناس وتحبباً إليهم . وما خرج الحجاج عن هذه القاعدة التي رسمها مروان ومعاوية من قبله بتأليف العامة بالطعام ، والزعماء بالمال . خصوصاً إذا علمنا أنه كان يخاطب عسكر الشام الذين لهم الفضل الاكبر في كسر ثورة ابن الأشعث واخضاع العراق لأوامره . وأن مال الدنيا الشرقيّة كلها كان يجبى إليه . فهو في سيره هذا ؛ لا يخرج عن الخطة السياسية المقرّرة في قصر دمشق . يقدّم الطعام بالشمال ويضرب بالسيف في اليمين ! ولو كان غير الحجاج هناك لاتبع الخطة نفسها تقريباً .

أخلاق الحجاج :

سأل عبد الملك الحجاج عن عيبه فتلكأ عليه فأبى إلا أن يخبره فقال : (أنا حديد حسود حقود لجوج ذو قسوة)

لم يخطئ الحجاج بوصف معايبه أبداً . وهل يعرف نفس الانسان أكثر من نفسه ؟ . ولكنه قصّر فنسي واحدةً من الصفات البارزة فيه بروزاً واضحاً . هي أنه مجمع متناقضات ويمكن تملّقه كالطفل . فبينا تراه جباراً عظيما يغلي حقداً وغضباً وسيفه يتلهف للقتل . إذا هو هادئ ضاحك كالطفل الصغير ، هذه صفة غريبة فيه ولكنها ظاهرة فيه ظهوراً لايحتمل الشك . وإليك بعض قصص من سيرته تثبت ذلك :

الحجاج وعديل العجلي

كان بين الحجاج وبين عديل بعض الأمر فتوعّده الحجاج بالقتل فقال عديل :

أخوّف بالحجاج حتى كأنما ... يحرّك عظيم في الفؤاد مهيض

ودون يد الحجاج من أن تنالني ... بساطٌ لأيدي العملات عريض

ثم ظفر به الحجاج فقال : ياعديل هل نجّاك بساطك العريض؟ فقال أيها الأمير أنا الذي أقول فيك :

ولو كنت بالعنقاء أو بأسومها ... لكان لحجاج عليّ دليل

خليل أمير المؤمنين وسيفه ... لكل إمام مصطفى وخليل

بنى قبّة الإسلام حتى كأنما ... هدى الناس من بعد الضلال رسول

فتهلل وجه الحجاج وقال له : اربح نفسك واحقن دمك وإياك وأُختها . فقد كان الذي بيني وبينك أقصر من أبهام الحبارى !

الحجاج والعنكي

كان الحجاج يستثقل زياد بن عمر العتكي . فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك ـ والحجاج حاضر ـ قال زياد : (يا أمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذي لاينبو وسهمك الذي لايطيش وخادمك الذي لاتأخذه فيك لومة لائم) . فلم يكن بعد ذلك أخفّ على قلبه منه !؟

على دين يوسف

جلس الحجاج لقتل أسرى ثورة ابن الأشعث وكان يسأل الرجل أن يقرّ بالكفر ثم يجدد إسلامه فإن فعل نجا . وجيء إليه بأسير فقال الحجاج . مانظن أن هذا الشيخ يقرّ بالكفر . فقال الرجل أعن نفسي تخادعني ياحجاج ؟ وأنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون !! لو كان شيء أكثر من الكفر لرضيت به !! فضحك وخلّى سبيله !! وأُتي إليه بآخر فقال : على دين من أنت ؟

— قال : عَلَى دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين

— قال : اضربوا عنقه !!

ثم جيء بآخر فقال له : على دين من أنت ؟

— قال : عَلَى دين أبيك الشيخ يوسف .

— قال : أما والله لقد كان صوّاماً قوّاماً . خلوّا عنه !!

الحجاج والمرأة

تعجب المرأة بالرجل الصلب الجبـار لأنه يمثل الرجولة كاملة . وهي في أعماق نفسها تنظر إلى النسل [1] . ولكنهـا تحب الاستئثار بهذا الرجل . وأن يكون لها بكل قلبه وبكل نفسه وكل وقته . فهل يتاح لها ذلك دائماً ؟! النساء الغريبات عن الحجاج كنّ معجبات به . ولكنه لم يكن مرتاحاً في حياته الزوجية . فقد تزوج عدداً من النساء وطلّق عدداً . وكان ينظر إلى المرأة كأنها آلة للنسل فقط . قيل : دخل يوماً على عبد الملك فدعاه إلى شراب فقال الحجاج : (اعفني يا أمير المؤمنين فإني أنهى أهل عملي عنه . وأكره أن أخالف قول العبـد الصالح : (ولا أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) .

— قال عبد الملك : أنه نبيذ الرمان ، يشهّي الطعام ويقوّي الباه

---

(١) البحث موسع بسيكولوجياً وأدبياً في كتاب (**الغريزة الجنسية**) لمؤلف هذا الكتاب .

– قال الحجاج : ليس حراماً ما حلّله أمير المؤمنين ! ! وأمّا أنّه يشهي الطعام فو الله لوددت أن هذه الأكلة تكفيني حتى أموت ، وأما أنه يزيد في الباه فحسب الرجل أن يصرع في الشهر مرّة) .

إن هذه القصة على كل ما تدل عليه من دهاء وعفاف فإنها تنمّ لنا عن رأي الحجاج بالمرأة صريحاً . فهو يراها أهلاً لأن تكون : « ريحانة لا قهرمانة » ولم يعرف عن الحجاج مدى حياته أنه صبا إلى خمرة أو تعلّق بحسناء أو مالَ إلى غادةٍ لعوب . ومن كان همّه في المجد ؛ حنّطه بالدم لا بالدموع وزيّنه بالجماجم . وتطرّب بصليل السيوف لا برنّات القُبَل .

دهاء الحجاج :

سأل الحجاج يوماً قاتل الحسين : كيف قتلته ؟ ! قال : دسرته بالرمح دسراً ثم هبرت رأسه بالسيف هبراً ... فقال الحجاج : « إنهما لا يجتمعان في النار » فأرضى بهذه الجملة أهل الشام وأهل العراق .

ولقي الحجاج مرةً عبد الله بن ظبيان قاتل مصعب بن الزبير واقفاً أمام بيته ، فابتدره قائلاً : هل واجهت يزيد ابن أبي مسلم (كاتب الحجاج الخاص) قال : لا . قال اذهب إليه

فإن عهدك على الريّ معه . قال عبد الله : فذهبت فإذا ليس عنده خبر فعلمت أن الحجاج لما رآني قرأ مافي نفسي وعلم بما نويت من قتله لأنه كان منفرداً . فصرفني بهذا الوعد المطمع .

وأمثال هذه القصص كثير تدل على ذكاء خارق ودهاء ممتاز جداً يوضّح لنا ناحية من نفس الحجاج العبقري . فقد كان هذا الرجل باقعةً عجيباً . أينما خبرته ؛ وجدت الذكاء ولمست الدهاء . وبذلك استطاع أن يبقى عشرين عاماً عاملاً لبني أمية لم يعزل ولم يتبدّل . مع شدة عسفه وظلمه وشكوى الأرض منه وضجر السماء .

الحجاج الخطيب

كانت الخطابة معروفة في الجاهلية ولكنها لم تكن فاشية هذا الفشوّ الذي رأيناه في الإسلام ولعلّ أهم العوامل الباعثة على خلقها وانتشارها ، إثنان :

١ً – الأحداث السياسية والاجتماعية والثورات وتشكل الأحزاب بحركة مستمرّة مدى قرن كامل بصورة لم يسبق لها مثيل في أمة من الأمم . وكل حزب محتاج إلى خطيب يضرّم النفوس ويذكي المشاعر ويلهب الحماسة ويدفع الذمّ ويعتذر للانكسار ويقرع الحجة وينشر الدليل ...

٢ً : تحريض الإسلام على الخطابة بأن جعلها ركناً من أركان صلاة الجماعة والجمعة والدعوة إلى الدين . و كانت المساجد منتدى الناس ومجدلهم ومحاكمهم ومدرستهم ومجتمعهم . تعرض فيها الآراء وتناقش . وتبث الدعاوات وتحارب البدع وتتلى الأوامر .. ولهذا كثر عدد الخطباء كثرة عظيمة . بل لم يكن أمير أو ملك إلاّ وهو يستند على الخطابة كما يستند على السيف واشتهر من الخطباء بعد الخلفاء الأربعة معاوية وسحبان وعبد الملك وزياد والحجاج وقطريّ ونافع وطارق . .

أما الحجاج؛ فلم يكن طويل النفس في الخطابة كسحبان ولكنه كان أشدّ وأرصنَ . يقف متلثماً أكثر الأحيان ويبدأ خطابه بصوت هادئ يكاد لايسمع . ثم مايزال يرتفع صوته تدريجاً ويعلو رويداً رويداً حتى تأخذه الحماسة ، فيقذف يده قذفاً ويقرع بجرسه ونبراته أقصى المكان فيهز السامعين ويأخذ عليهم تفكيرهم ويستأثر بحواسهم ويملك لبّهم فينقادون إليه صاغرين . قال مالك بن دينار : (سمعت الحجاج يخطب ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق) وهو يكثر من الاستشهاد بالآيات والشعر لشدّة تأثيرها في النفوس . بل ربما خطب خطبة كلها شعر لغيره

لأنه لم يكن شاعراً طبعاً ، كما فعل يوم رستقباذ إذ خطب بأبيات سويد اليشكري :

رب من أنضجت غيظاً قلبه قد تمنى لي موتاً لم يطع
ساءَ ما ظنّوا وقد أبليتهم عند غايات المدى كيف أقع ..

أسلوب الحجاج :

كان الحجاج معلّماً في بدء حياته يعلّم القرآن . والشعرُ تابع له من تفسير أو شرح . فأثرت فيه هذه الصنعة وطبعته على قالب المعلمين طول حياته . فهو يكلّم الناس بلهجة الآمر دائماً ويكثر الاستشهاد بالآيات وبالشعر ، فتأتي محكمة التنزيل في خطبه ، تكاد إذا زعزعت منها حرفاً تهتزّ وتضطرب . وجملُه على الأكثر قصيرة مقتضبة يتّزن فيها النغم الصلب اتزاناً موسيقياً ويندفع فيها المعنى مرصوصاً قويّاً . فيه صورة من خشونة البداوة وقسوة الحكم وجفوة الإباء والغشم . ويظهر أنه لم يتأثر بالحياة الحضرية كثيراً من ناحية الأسلوب اللغوي . لأن ثقافته لم تخرج عن الصحراء إلا بمظاهرها فقط . أما فصاحته واقتناصه المعاني وتلاعبه بالألفاظ فأشد عجباً . حتى شهد له أكبر القدماء العالمين . قال أبو عمرو ابن العلاء : «لم أرَ قرويين أفصح من الحسن البصري والحجاج» . ومما يزيد الإعجاب

بقوة بداهته ؛ أن أكثر خطبه كان يرتجلها ارتجالاً . سمع مرةً خارج المسجد تكبيراً فغضب وقال : « يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق . إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب . ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب . وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف فتنة . أي بني اللكيعة وعبيد العصا وبني الإماء . والله لئن قرعت عصا لاتركنّكم كأمس الدابر » . فهذه القطعة ؛ بقطع النظر عما فيها من بذاءة ، كانت مقبولة في زمنهم . هل تستطيع مهما أوتيت من فصاحةٍ أن تبتدىء مثلها أو تستبدل فيها جملة مكان جملة . ثم يبقى فيها هذا الجمال المركب تركيباً هندسياً متناسقاً كأنما هو قطعة من جبروت ! ! ثم انظر إلى الكتاب الآتي أرسله إلى جماعةٍ من تميم قطعوا الطريق على السابلة . لا شك إنه تروّى في تنميقه ليغني بأحرفه القليلة عن جنده الكثير . هل ترى من فرق في الأسلوب بين هذا الكتاب المروّى فيه وبين تلك الخطبة المبتدهة ؟ ! :

« من الحجاج بن يوسف . أما بعد فإنكم استخلصتم الفتنة فلا عن حق تقاتلون ولا عن منكر تنهون ، وأيم الله إني لأهمُّ أن يكون أول ما يرد عليكم من قبلي ؛ خيل تنسف

الطارف والتالد وتدع النساء أيامى والأبناء يتامى والديار خرابا والسواد بياضاً ، فأيما رفقة مرّت بأهل ماء ؛ فأهل ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير إلى الماء الذي يليه ، تقدمة مني اليكم والسعيد من وعظ بغيره والسلام)

وقد رويت له خطب كثيرة جداً في كل مناسبة تتصل بالسياسة والثورة والحرب ، وأكثرها قصيرة ولكنها جميعاً متماسكة ومعانيها تكاد لا تخرج عن فكرة محدودة معروفة . كأنما يكرّر هذه المعاني في كل مناسبة ليطبع النفوس عليها وتصبح عادية لديهم ، وهذا من الفصاحة والقدرة الفائقة في اللغة . يستعمل الألفاظ المختلفة لمعنى واحد ويكرره في كل مناسبة بألفاظ غير الأولى ، خلا جملٍ محدودة كقوله : (يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق لاحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل)

وهو يحاول تقليد الأسلوب العربي ويعتزّ به ويتفاخر ويقدّر الفصحاء لأنه يرى الفصاحة ميزةً وفخراً ، قيل : ضرب الحجاج أعناق أسرى فلما قدموا إليه رجلاً ليضرب عنقه قال: (والله لئن كنّا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو ؟ فقال

الحجاج : (أفٍ لهذه الجيف ، أما كان فيها أحد يحسن مثل هذا) وأمسك عن القتل .

ولما أرسل إليه ابن عمه الحكم جريراً قال له الحجاج : (بلغني أنك ذو بديهةٍ فقل في هذه الجارية ـ وكانت قائمة على رأسه ـ فقال فيها جرير أبياتاً أعجبته فأهداه الجارية . وكان يعطف على الشعراء والأدباء كثيراً وقد تقدم في بحث الفرزدق أنه أمهره مرةً أو مرتين وخير قطعة تمثل الحجاج أتم تمثيل من حيث نفسه وأسلوبه ولغته ، خطبته التي ارتجلها بعد موقعة دير الجماجم .وسنعرض لها فيما بعد . وكان يميل أحياناً للتظرف باستعمال الكنايات والمجاز أو بالسجع واستعمال الألفاظ الفارسية . ولكن ذلك قليل جداً كقوله يسأل عن رجل يدير له الشرطة في العراق قال : دلوني على رجلٍ أوليّه الشرطة . فقيل له : أي الرجال تريد ؟ فقال : « أريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، لا يحنق في الحقّ على حرّة ، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة » .وكتب مرّة لأحد عمّاله : « إبعث إليّ بعسل من عسل خُلاّر من النحل الأبكار . من الدستفشار . الذي لم تمسّه النار » .واستعمال الألفاظ الفارسية – على ما يبدو لي – كان فاشياً بينهم بسبب

إيغال الزحوف في بلاد الفرس . واختلاط الجنود العربية بهم وتماسهم معهم بالسياسة والحرب والسبي والسكنى والزواج والتسرّي والاستخدام . هذا قتيبة بن مسلم ربط خيوله مرّة في روضة فقيل له : هذه روضة تغالى يزيد بن المهلب في أثاقتها لتكون بهجة النفوس وريحانة الخواطر ، تربط بها الخيول لتخربها ! ! فقال : (إن إبا يزيد بن المهلب كان « بستان بان » وأما ابي فكان « أشتربان ») أي : كان أبو يزيد بستانياً وأبي جمّالاً ! فاستعمال الأمراء العرب ألفاظاً فارسية — وهم ممثلو العروبة والحكم العربي — يدلنا على تأثرهم بالجوّ الفارسي ، ولكن هذا التأثر كان محدوداً زمن الحجاج . ولذلك لم نقع له على كثير من أمثال الدستفشار وأشتربان

خطبة دير الجماجم :

التحم الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث في ثمانين وقعة مدى ستة أشهر واستعان عليه بجند استقدمهم من دمشق ؛ إلى أن تغلّب عليه أخيراً في يوم دير الجماجم وقضى على ثورته وشفى غليله منه . ولكنه لم يشف أوار نفسه المضطرم غيظاً وحنقاً من أكابر العراق وفقهائه الذين آثروا ابن الأشعث ونصروه فصعد المنبر وقال :

يا أهل العراق، إن الشيطان قد استَبْطَنَكُمْ فخالط الدم والعَصَبَ والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف. ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرّخ، فحشاكم نِفاقاً وشقاقاً وأشعركم خلافاً، أخذتموه دليلاً تتبعونه وقائداً تطيعونه ومؤامراً تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجركم إسلام أو ينفعكم بيان! ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم للغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ؟! وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لِواذاً وتنهزمون سراعاً! ثم يوم الزاوية وما يوم الزّاوية! بها كان فشلكم وتنازُعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونُكوص وليكم عنكم إذ وليّتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى إعطانها، لايسأل المرء عن أخيه ولا يَلْوى الشيخ على بنيه حتى عضّكم السلاح وقصعتكم الرماح، ثم يوم دَير الجماجم وما يوم دير الجماجم! بها كانت المعارك والملاحم بضربٍ يُزيل الهامَ عن مَقيله ويذهل الخليل عن خليله.

يا أهل العراق، الكَفَرَاتِ بعد الفَجَرَاتِ، والغَدَرَات بعد الخَتَرَات، والنّزْوَةَ بعد النزوات! إن بعثتكم إلى ثغوركم

غَلَبْتُمْ وخُنْتُم ، وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نافقتم ، لاتذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة ، هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاوٍ أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع ! إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه ورحبتموه ..؟! يا أهل العراق ، هل شَغَبَ شاغبٌ أو نَعَبَ ناعِبٌ ، أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره يا أهل العراق ، ألم تنهكم المواعظ ، ألم تزعجكم الوقائع ..!؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال :

يا أهل الشام ، إنما أنا لكم كالظَّليم الرامح عن فراخه ، ينفي عنها المدر ويباعد عنها الحجر ويكنّها من المطر ويحميها من الضِّباب ويحرسها من الذئاب ! يا أهل الشام ، أنتم الجنَّةُ والرِّداء وانتم العُدة والحِذاء .

ونستطيع بعد تلاوة الخطبة أن نتذكر قول القرآن (يوم يفرُّ المرء من أخيه . وأُمّه وأبيه وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه) حين تقرأ للحجاج (لايسأل المرء عن أخيه . ولا يلوي الشيخ على بنيه) . وأن تتذكر قول القرآن (وأما من خفّت موازينه . فأُمّه هاوية . وما أدراك ماهيه ؟! نار حامية !) حين تسمع للحجاج قوله : (ثم يوم الزاوية . وما يوم الزاوية ؟ ثم يوم دير الجماجم . وما دير الجماجم ؟!) .

ونستطيع أن تمضي في المقارنة على هذا النحو حتى تعيد كل جملة من جمله إلى أصل منبعها من القرآن .

أثر الحجاج :

الحجاج شخصية قويّة جداً . طبع العصر على غراره فنسب العصر كله إليه . وقد كثر في عهده وبعده مديحه وهجاؤه وكان موضوعاً للناس مدى حياته كلها وبعدها إلى الآن . واختلف الناس فيه بين مادح وقادح . ومعدّد مزاياه ومعدّد مساوئه ، والحكم عليه ، أو له ؛ ليس بالأمر اليسير . ومهما كان من أمر فلا يمكن أن ننسى بأن له أسلوباً قائماً بذاته لا نستطيع أن نسميه بأكثر من أسلوب الحجاج . أغرق أناس في كرهه وهجوه ولكنهم لم يسبّوه على طريقة الفرزدق . وأقصى ما قيل فيه قول بعضهم :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر

يعرّض بخبز مشائخ الكتاب إذ يكون على أشكال مختلفة . كل رغيف من بيت تلميذ (وكليب هو اسمه إذ كان صغيراً) .

وأغرق أناس في مدحه فرفعوه إلى منبر العظماء الخالدين

ولنذكر بعض أعماله التي خلد بها ونترك الحكم بعد ذلك حراً :

١ً — تجديده بناء الكعبة بعد قتله ابن الزبير .

٢ً — بناؤه مدينة واسط ليبعد عن شغب الكوفيين وفتنة البصريين وخصها بالجنود الشامية كما خصهم بطعامه فكان ينشر لهم كل يوم في رمضان ألف خوان وفي غير رمضان خمس مئة خوان . وصرف على بناء المدينة وقصر الإمارة (٤٣) مليون درهم .

٣ً — حفر الترع والأنهر في العراق للريّ كالنيل والزاب .

٤ً — تمصيره مدينة النيل على النهر المعروف باسمها (غير نيل مصر طبعاً) .

٥ً — هو من أول سيّر السفن المضبّرة المسمّرة في البحر . غير ذات الجآجيء لتسهيل التجارة البحرية والإيغال بها في البحور .

٦ً — هو أول من ضرب دراهم عليها : (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) نشراً للتوحيد ودعاوة له .

٧ً — هو الذي أوعز بتنقيط الأحرف العربية دفعاً لما يحصل من عدم تنقيطها من التباس .

٨ً — هو الذي بعث الجيوش إلى الشرق فأوغلت في بلاد

الوثنية حتى الصين والهند والتركستان وكردستان وأرمينية ونشرت التوحيد والأمن والمساواة وقضت على الارستقراطية الإقطاعية .

٩ً — هو أول من اتخذ المناظر في الإسلام بين واسط وقزوين ترى نارها ليلاً ودخانها نهاراً يتخابرون بهما على طريقة مورس المعروفة الآن .

١٠ً — هو أول من نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية فأكمل تعريب الدولة رسمياً في العراق وفارس .

ولكنهم يذكرون إلى جانب هذه الأعمال العظيمة ظلماً رهيباً وقسوةً وحشيّة . يقتل على التهمة ويحبس على الظنة في سجون مكشوفة في الصيف والشتاء ويحشر النساء والرجال معاً . وليس في حبسه بيوت خلاء فكانت تنتشر منها روائح كريهة جداً وربما مات بعضهم متأثراً بمرض ناتج عن هذه القذارة فلم يبالِ به وقد عرضت السجون بعد موته فإذا فيها ٣٣ ألف رجل لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب . وفيهم أعرابي أخذ وهو يبول فى مدينة واسط فلما أطلق قال :

إذا نحن جاوزنا مدينة واسطٍ خرينا وبلنا لا نخاف عقابا

يقال إنه مرّ يوماً بالسجن فاستغاث السجناء به فقال : اخسئوا فيها ولا تكلمّون .

ولو عرضنا هذه الأخلاق على مصوّر وطلبنا منه أن يصوّر لنا الحجاج لجاءنا بصورة عجيبة التركيب بديعة التصوير: لها رأس أسد وعينا ذئب وأُذنا ثعلب وفم لبوءة ومخالب نمر وجسم ضبع . عليها جميعاً عمامة من خزٍ أخضر وكساء من حرير . وخلفها جلاد وأمامها جثة بلا رأس [1] .

آخر أيام الحجاج :

كتب الحجاج إلى قتيبة عام ٩٤ هجرية يقول : أراني قد قطعت ثلاثة وخمسين عاماً ومن قطع خمسين سنة فإنه لا شك واصل إلى المورد .

وخطب مرةً وذكر القبر وما زال يقول : إنه بيت الغربة . إنه بيت الوحدة .. حتى بكى وأبكى .

وكأنما اشتد به تقريعُ وجدانه على ظلمه وعسفه في آخر أيامه فكانت تصيبه نوبات من الزهد فيردد ذكر القبر بندمٍ شديدٍ حتى يَبكي ويُبكي . ولم يطل عليه ذلك حتى أُصيب

---

(١) انظر بحث شبه الإنسان بالحيوان بالشكل والطباع . موسعاً في كتاب « الكشاف » للمؤلف .

بالسرطان أو بالزمهرير فكانت الكوانين تجعل تحته تحرق جلده وهو لا يحس بها ، دام هذا النزع خمسة عشر يوماً ثم توفي ودفن في واسط وعفي على قبره ، فأخذ الناس يهنئ بعضهم بعضاً ويسجدون لله شكراً ويدعي كثيرون ويقسمون أنه الآن حطبةٌ في جهنم يحترق ويتألمّ . .

وبلغ الخبر الوليد في دمشق فخرج حاسراً ونعاه إلى الناس نادياً وابتسم سليمان ابتسامة الشماتة .

وقيل إنه سُمِعَ في قبره صراخ بعد دفنه فركب كاتبه الخاص يزيد بن أبي مسلم في عسكر الشام وسمعه فقال : « يرحمك الله يا أبا محمد فما تدع القراءة حتى وأنت ميت » وأغلب الظن — إذا صدقت هذه القصة — أنه أدرك بأن الحجاج دفن حياً وأراد أن يتخلص منه فابتدع هذه الدعوى الطريفة ! هكذا قضى الجبار ، لم تسعه الدنيا فآواه قبر .

مراجع هذا البحث

١ً – الكامل للمبرد

٢ً – البيان والتبيين

٣ً – الفتوحات الاسلامية لدحلان

٤ً – الإمامة والسياسة

٥ً – الكامل لابن الأثير

٦ً – الأخبار الطوال للدينوري

٧ً – الحجاج لأبي النصر

٨ً – خطط الشام

٩ً – تاريخ الولاة

١٠ – وفيات الاعيان لابن خلكان

١١ – عصر المأمون

١٢ – الطبري

١٣ – الملل والنحل للشهرستاني

١٤ – الفخري للطباطبائي

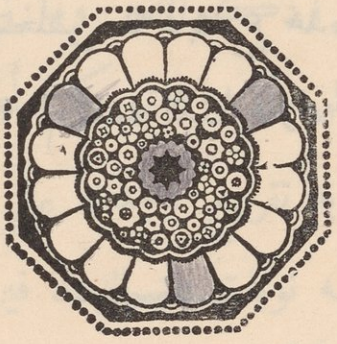

عبد الحميد

مراجع هذا البحث

١ – الكامل للمبرد

٢ – البيان والتبيين

٣ – الفروسية

٤ – الإمامة والسياسة

٥ – الكامل لابن الأثير

٦ – الأخبار الطوال للدينوري

٧ – المجاج لأبي العبر

تاريخ

الدواوين

كانت حياة الجاهلية بسيطة غاية في البساطة . فجاء الإسلام فركّبها وعقّدها . كانت الحياة بدويّة قبليّة لاتكلّف فيها ولا تنوّق . فجاء الإسلام فوحّدالعرب حول قطب واحد هو الخليفة ثم ضمّ إلى جناحيه كل من قال : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) من غير العرب ، فاشتبكت العلاقات العقلية والنفسية والعرقية والاقتصادية . وكان يزداد تعقّدها كلما أوغل المسلمون في الفتح والأسر والسبي . لأن ذلك يستتبع حساب السبايا والخراج ومسح الأراضي ومكاتبة دائمة بين العمال والخليفة من جهة . وبين الحكومة الإسلامية وسائر الشعوب المحكومة أو التي لاتزال في حرب ؛ من تهديد ومهادنة ومصالحة وموادعة وما أشبه ذلك . ثم تظهر هناك مكاتبات شخصية ومراسلات عائلية بين الجند وأهلهم في الأمصار . كل هذا لم يكن معروفاً في الجاهلية ؛ وكان الخليفة مركز هذه الدنيا الإسلامية كلها يطلع على الصغيرة والكبيرة ويكتب بيده ويملي على كاتبه .

ولكن هذا الاتساع المفاجئ العظيم أعجز الخليفة عن كتابة كل شيء بيده فاضطر إلى استخدام جماعة يجمعون الرسائل الواردة كلها ويقدمون للخليفة خلاصة كل واحد ، ويتلقّون منه جوابه شفهياً فيكتبونه ويعيدونه له ليوقّع عليه .. والجماعة التي تقوم بهذا العمل ؛ يطلق عليها اسم (الديوان) وأول خليفة أسس الدواوين هو عمر بن الخطاب الذي اتخذ ديواناً للجيش يدوّن فيه أسماء المقاتلة وأنسابهم وأعطياتهم .. والمغانم .. ثم دار الزمن وآل الأمر إلى معاوية . واتسعت رقعة المملكة الإسلامية . وكثر اتصال المسلمين بالأمم المتحضرة كالروم والفرس ، فاستتبع هذا الاتساعُ اتساعَ العمل في الدواوين أيضاً . فزاد معاوية ، ديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الرسائل . وكل واحد من هذه الدواوين يوضّحُ اسمُه عمله ، وكان ديوان الخراج يكتب بالرومية في الشام وبالفارسية في العراق وبالقبطيّة في مصر حتى حوّل زمن عبد الملك إلى العربية ، وسيأتي ذلك

وما يهمنا من هذه الدواوين في بحثنا ؛ هو ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء .

نطور الانشاء :

النثر الفني والكتابة الأدبية ، بالمعنى الذي نفهمه اليوم ؛

لم يكن له وجود في الجاهلية ولا في أوائل الإسلام . أي إن هذا التأنق والتنميق واختيار الألفاظ وصقل الاسلوب وتخيّر المعاني . إلى غير ذلك من مظاهر الحضارة العقلية ؛ لم يكن معروفاً لديهم . وإنما كانت رسائلهم صورة للّغة التي يتفاهمون بها ، موجزة مقتضبة العبارات لا تزويق فيها ولا تنوّق وكانوا يستفتحونها بقولهم : (باسم الله الرحمن الرحيم) ويبدءونها بقولهم : (من فلان إلى فلان . سلام عليك) . وأكثر ما تقال هذه للمسلمين - أو (سلام على من اتبع الهدى) - وأكثر ما تقال هذه لغير المسلمين - ثم يتبعونها بقولهم : (أما بعد) ثم يتخلّص بعدها إلى الغرض المطلوب ، ويختم عادة بقولهم : (والسلام عليكم ورحمة الله) (للمسلمين) أو (والسلام على من اتبع الهدى (لغير المسلمين) أو يفتتحونها بقولهم : (سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد) . . . الخ والضمائر فيها لم تكن تستعمل إلا لما وضعت له ، فضمير المفرد للمفرد مهما علا شأنه وارتفعت منزلته . وضمير الجماعة للجماعة فقط ، لا كما هي الحال عندنا ؛ نخاطب المفرد بيصغة الجماعة تعظيماً وتفخيماً ، لأن هذا من آثار الحضارة وإلا يغال في الترف العقلي والتهذيب الاجتماعي ولنأت بأمثلة على ذلك ؛ فإن المثال العملي خير دليل . وأقرب

الأمثلة إلى الصحة ؛ هي الرسائل التي اشتهرت عن النبي ﷺ وخلفائه .

١ — كتاب النبي الى المقوقس :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط

السلام على من اتبع الهدى . أما بعد :

فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم . يؤتك الله أجرك مرّتين فإن توليّت : فعليك إثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

٢ — كتاب النبي الى خالد بن الوليد

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد

سلام عليك . فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو

أما بعد :

فإن كتابك جاءني من رسولك يخبرني فيه أن بني الحارث ابن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم

إليه من الاسلام وشهدوا أن لا إله الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن قد هداهم الله بهداه . فبشرهم وأنذرهم وأقبِل وليُقبل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

٣ — عهد أبي بكر الى عمر

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة . في الحال التي يؤمن بها الكافر ويتّقي بها الفاجر . إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّ وعدل ، فذلك علمي به . وإن جار وبدّل ، فلا علم لي بالغيب . والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب . وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون .

٤ — كتاب من عمر بن الخطاب الى بن العاص

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك أما بعد : فقد بلغني أنه فشتْ لك فاشيةٌ من خيل وإبل وبقر وعبيد ، وعهدي بك قبل ذلك ولا مال لك فاكتب إليّ من أصلِ هذا المال .

٥ — جواب عمرو بن العاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لعبد الله أمير المؤمنين . سلام عليك . فإني أحمد اليك

الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد : فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية من مال فشا لي . وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي . وإني أُعلم أمير المؤمنين أني ببلدٍ ؛ السعر فيه رخيص . وإني أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس . وفي رزق أمير المؤمنين سعة . ووالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك . فأقصر أيها الرجل . فإن لنا أحساباً هي خير من العمل لك . إن رجعنا إليها عشنا بها . ولعمري إن عندك من لا يذم معيشته ولا تذم له . وإن كان ذلك لم يفتح لك قفلاً ولم يشركك في عمل .

٦ — كتاب عثمان الى علي يوم الدار

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين . وطمع فيّ من لم يدفع عن نفسه . ولم يغلبك مثل مغلّب . فأقبل إليّ صديقاً كنت أو عدوّاً .

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل

وإلاّ فأدركني ولمّا أمزق

. . .

إنه بتأمل الرسائل المتقدمة ؛ يلاحظ فيها الإيجاز والصراحة

والاقتصار على ما يفيد الغرض من غير تطويل ولا اطناب ولا تزويق . فلا سجع فيها أو مبالغة ولا مجاز أو غرابة . كأنها صورة للغة المخاطبة والتفاهم . وكان مدار النثر الفني هو الرسائل من هذا النوع فقط . لا وصف فيها للطبيعة أو لخوالج النفس أو لتأمل العقل أو لسرح الروح . كأنما تُرك كل ذلك للشعر .

ثم تطورت الحياة ، وازداد انغماس الناس بالترف والحضارة والتأثر بمدنية الفرس والروم ، فتعلم بعض العرب اللغات الأجنبية ، وأجاد بعض الموالي اللغة العربية ، فاستخدموا في دواوين الإنشاء . وأخذوا يعتنون بتجويد الرسائل تنافساً بين بعضهم بعضاً واكتساباً لعطف الرؤساء واجتذاباً لودّهم . وكانت الحكومة الأموية عربيةً صرفة ، تمثل العروبة في كل ناحية من نواحيها : الخلفاء والأمراء والولاة كلهم يشجعون على الفصاحة والبيان . فجرى كتاب الدواوين في هذا المضمار وقطعوا شوطاً طويلاً جداً في زمن قصير . وأصبحت الكتابة الديوانية والرسائل الحكوميّة ، مثالاً طيباً جداً للنثر الفنيّ . تقرؤه بشغف وإعجاب يلذّك منه هذا الجمال المتناسب والتناسق المنتظم ، كأنك تقرأ قطعة أدب فنيّة كاملة . وتنوّعت فنون الكتابة فصار من أغراضها الوصف والتأمل ومعالجة الأمور الاجتماعية والسياسية

والاقتصادية . ولكن كانت هذه الأغراض متفرّقة ؛ فجمع شعثها كاتب كبير من كتاب الدولة الأموية ووجهها في طريق التأنق الفنيّ فأصبحت من بعده طريقاً للتفوّق في الذوق الاجتماعي والسياسي ، ذلك الكاتب الكبير الذي طبعها بطابعه الخاص وحمل لواءها للمجد ، هو عبد الحميد الكاتب .

تطور الكتابة الخطية والدواوين :

الكتابة تتبع الحضارة ، فالأمة البدوية ؛ لا كتابة لها ؛ لأنها لا حضارة لها . وهذا ما كان عند العرب . فقد كانوا في جزيرتهم لا يعرفون الكتابة، إلا ما كان من أمر التبابعة في اليمن والمناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام لأخذهم من الحضارة بنصيب . أما في الحجاز ؛ فإنهم لما اتسعت تجارتهم . واتصلت سياستهم بالروم والفرس؛ اضطروا لتعلّم الكتابة . وأول من تعلّمها في مكة ؛ حرب بن أميّة جد معاوية . أخذها عن أهل الأنبار أو الحيرة وعلمها أبناءه . ثم لما جاء الإسلام وكانت موقعة بدر ؛ فكّ النبي كلّ أسير بتعليم عشرة من صبيان المدينة . وحضّ على تعلّم الكتابة، فانتشرت انتشاراً سريعاً . واستخدم النبي كتّاباً للوحي ، وحضّهم على تعلّم لغات أخرى إلى جانب اللغة العربية فأجادها بعضهم بسرعة عجيبة . ثم

استخدم الخلفاء والأمراء في دواوينهم كتاباً . وكانوا يدرّون عليهم أخلاف الرزق ويغدقون عليهم آيات الاحترام ، فتنافس الناس في هذه الصنعة أيّما تنافس . وركضوا في مضمارها ركضاً حثيثاً حتى وصلوا إلى القمة في زمن قليل ؛ ما نظن أن له مثالاً في تواريخ الأمم الأخرى . غير أن الكتابة لم تسرع سرعتها العجيبة ؛ إلاّ بعد أن نقلت الدواوين إلى اللغة العربية من الرومية والفارسية والقبطية زمن عبد الملك والوليد . نقلها في الشام ؛ « أبو ثابت سليمان » نكاية برئيس الديوان « سرجون الرومي » . ونقلها في العراق ؛ « صالح مولى تميم » — زمن الحجاج — نكاية برئيس الديوان (زاد إنفرّوخ) الفارسي . وقد بذل له الفرسُ مئة ألف درهم على أن يظهر العجز فلم يفعل . وأدرك معاصروه قيمة هذا العمل العظيم في الكتابة فكان عبد الحميد الكاتب يقول : (لله در صالح . ما أعظم منّته على الكتّاب) .

وكان الخط من دون نقط فكان يعسر أحياناً قراءة الرسالة على وجهها الصحيح . وقد يحدث أحياناً التباس مضحك[1]

---

(١) مثال ذلك مايحكى أن امرأة جاءت الفرزدق فقالت : لقد استجرت بقبر أبيك غالب ، وهذه حصيات منه . فسألها وما شأنك ؟ قالت إن تميم بن زبد أمير السند ، خرج بابن لي معه ، ولا عائل لي سواه —

إلى أن جاء نصر بن عاصم الليثي . ويحيى بن يعمر العدواني فوضعا النقط — بأمر الحجاج — ورتبا الحروف على هذا الترتيب المعروف اليوم وألغيا الطريقة الأبجدية ، فساعد ذلك الكتابة أيّما مساعدة .

هكذا جاء عبد الحميد فوجد الجوّ مستعداً لقبول التطوّر وألفى كل موادّه الأوليّة مهيأة ، فربط بعضها إلى بعض وركّب منها هذا المخلوق الجميل ؛ النثر الفني الممتع . وحمل علمها فإذا الكتّاب كلهم يتبعونه من غير تردد .

— فقال : ما اسم ابنك . قالت : خنيس . فكتب الفرزدق لتميم قصيدة يقول فيها :

كتبت وعجلت البرادة إنني ... إذا حاجة حاولت عجّت ركابها
تميم بن زيد لاتكوننّ حاجتي ... بظهرٍ فلا يعيا عليك جوابها
فهب لي خنيساً واحتسب فيه منّةً ... لحوبة أمٍّ ما يسوغ شرابها

فلما ورد الكتاب على تميم سأل كاتبه : أتعرف الرجل ؟ . قال كيف أعرف من لم ينسب إلى أم ولا أب ولا قبيلة . ولا تحققت اسمه أهو خنيس أم حبيش أم غير ذلك !! فقال : أحضر كل من يرسم اسمه على هذا الشكل . فأحضرهم فإذا هم أربعون رجلاً فأعطى كل واحد مايتسفّر به وقال : اقفلوا إلى أبي فراس .

إن هذه القصة بقدر ماتعطينا صورة عن قيمة الفرزدق ، تعطينا كذلك صورة عما يصيب الرسائل من التباس إذا لم تكن منقوطة . وليست قصة إحصاء اليهود بأقل منها التباساً !!

عبد الحميد

مولده ونشأته

عبد الحميد بن يحيي العامري بالولاء [1] ولد في سنة يجهلها التاريخ تمام الجهل وفي بلدة لا يعرفها، قيل في الشام . وقيل في الأنبار . كما أن العرق الذي يرجع إليه؛ مشكوك فيه أيضاً قيل إن جدّه من سبي القادسية . فقد يكون فارسياً وقد يكون عربياً والحقيقة لا تزال غامضة .

أما حياته الأولى؛ فأكثر إبهاماً وغموضاً . وكل ماعرف عنه؛ أنه كان معلماً بالكوفة يعلّم الصبيانَ القرآن والخط . وقد تنقل في القرى يعلّم الصبيان ليعيش . فحياته الأولى كما ترى حياة فقرٍ وشظف وتعب ، إلاّ أن همته أبت عليه هذا العمل البسيط ، فاحتال حتى توصّل إلى الأمراء والخلفاء ونال أكبر الحظوة عند مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية . ولكن الحظ

---

(١) اختلف في نسبه اختلافاً كلياً فبعضهم يعده عامرياً بالنسب ويرجع بنسبه إلى عامر بن لؤي . وبعضهم يقول : إن أباه يحيي ؛ كان مولى للعلاء بن وهب العامري . فهو عامريٌ بالولاء . والذي ذكرنا هو أقرب للصواب .

التعيس — على ما يظهر — لم يرد أن يفارقه طول حياته . فلم يبتسم له زمناً يسيراً إلا ليعبس في وجهه زمناً أطول . ومميته على شكل من أفظع الأشكال .

اتصاله بالخلفاء :

أما اتصاله بالخلفاء فالشك فيه عظيم قيل : كتب لعبد الملك وسمّاه : عبد الحميد الأكبر ، وجعله كاتباً لابنه يزيد وقيل : كتب للمنصور زمن دولة بني أمية ولسليمان بن عبدالملك وقيل كتب لهشام . وفي رسائله رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر عامل اليمن ، ولكن الذي لا اختلاف ؛ فيه أنه كان كاتباً لمروان بن محمد ، وأنه اتصل به حين كان عاملاً على أرمينية ، ثم انتقل معه إلى دمشق لما بويع له بالخلافة .

فإذا صحّت هذه الروايات ؛ يكون مولد عبد الحميد : زمن معاوية أو يزيد ويكون قد عمّر طويلاً واتصل بمروان بعد أن حنكته التجارب . وشيّبته الأيام . وعلّمته الحوادث . وأطلع على تقلّبات السياسة . وتقلّب في فقر وسعادة ؛ حتى استطاع أن يمتلك قلب مروان الشاب ويخدمه خدمةً مخلصة حكيمة . فلم يجد الخليفة البائس فيه ، إلاّ عالماً محنكاً مجرّباً لاغنى للدولة عنه .

وكاتباً أريباً حصيفاً يستند عليه في الملمّات ويستغني بمقالاته عن سيوفه .

اتصاله بمروان :

لا نعلم كيف اتصل عبد الحميد بمروان . ولكن الذي لا شك فيه؛ أنه كان كاتبه الخاص في أرمينية . يعتمد عليه كصديق مخلص . ولما جاء الخبر مروانَ ؛ أن الشام قد بايعته خليفةً . وأن عليه أن يركب إليها مسرعاً ليستلم عرشه ؛ سجد لله شكراً وسجد معه أصحابه نفاقاً أوحباً . إلا عبد الحميد !! فقد ظلّ واقفاً مبهوتا كأنما صبّت عليه مصيبة موئلة !! فرفع الخليفة العتيد رأسه إليه متعجباً وقال :

— مالك لا تسجد يا عبد الحميد كما سجد الناس ؟

— قال : علام أسجد ؟ !

— علام تسجد ؟ !

— نعم . علام ؟ ! أعلى أن كنت بيننا فطِرتَ عنّا ؟ !

— فخفق قلب الخليفة العتيد له حباً وإعجاباً وقال : إذن تطير معي .

فوقع عبد الحميد شاكراً لله وقال : الآن طاب السجود ومنذ ذلك الحين لم يفترقا حتى الموت .

اخلاص لمروان :

ثار أبو مسلم الخراساني على مروان فقتل عمّاله وكسر جيوشه وهزمه في مواقع متعدّدة . وتفرق الناس عنه فلم يجد بدّاً من الهرب . وكان عبد الحميد لا يفارقه أبداً ، وفيما هما منهزمان أمام الرايات السود . يستخفيان تارة ويظهران طوراً قال مروان : (إني أشفق عليك أن تموت بسببي وإن هؤلاء القوم محتاجون لأدبك . وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظن بك فاستأمن إليهم وأظهر الغدر بي فإن استطعت أن تنفعني في حياتي ، وإلاّ ؛ لم تعجز عن حفظ حُرَمي بعد مماتي .

— فقال عبد الحميد : ومن لي بأن يعرف الناس بأن هذا رأيك:

أُسرُّ وفاءً ثم أُظهر بغضةً فمن لي بعذرٍ يوسع الناس ظاهره

لا والله . إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي . ولكني أصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك .

وذنبي ظاهر ، لا شك فيه لمبصره . وعذري بالمغيب

فلم يزل معه حتى قتلا . وهذا وفاء خالص لا شائبه فيه ولا رياء .

موته :

روي لموت عبد الحميد أقوالٌ شتّى . بعضها قريب من العقل وبعضها لو أضيف إلى قصص ألف ليلة وليلة لامتاز عنها بخياله الأسطوري . وها نحن نجملها كلها :

١ً : قيل تخلّف بمصر بعد مقتل مروان واستتر فدلّ عليه صالح بن علي فقتله . وقيل كان اختفاؤه بكنيسة بوصير .

٢ً : وقيل ؛ اختفى بالجزيرة فقبض عليه وأرسل إلى السفّاح فسلّمه إلى مدير شرطته عبد الجبار ، فقتله ، بأن كان يحمي له طشتاً بالنار ويضعه على رأسه حتى مات .

٣ً : وقيل ؛ استخفى عند صديقه ابن المقفع بالجزيرة (وقيل بالبحرين) فدخلت عليهما الشرطة وقالوا : أيّكما عبد الحميد ؟ ! فجعل كل واحد منهما يقول أنا . مخافةً على صاحبه . ثم قال عبد الحميد : إن لكل واحدٍ منا علامات فوكّلوا بنا بعضكم وليذهب منكم جماعة يسألون عنا . وهكذا ميّز من صديقه ابن المقفع فأُخذ وقتل على يد عبد الجبار .

٤ً : وقيل ؛ قبض على جماعة مروان . وفيهم عبد الحميد والمؤذن البعلبكي وسلاّم الحادي . وهمّ السفّاح أن يقتلهم جميعاً .

فقال المؤذن : استبقني يا أمير المؤمنين فإني مؤذن منقطع النظير .

– قال ما بلغ من مقدرتك ؟

– قال : ادع جاريةً تصبُّ الماء على يديك . وأشرع بالآذان فتذهل عنك وأنت الخليفة وتلتفت اليَّ .

فجرب ذلك فنجح . فاستبقاه السفاح وأجازه ! !

وقال السلاّم : استبقني يا أمير المؤمنين فإني حادٍ منقطع القرين .

– قال وما بلغ من حدائك ؟

– قال : تدعو بإبلٍ عطاش لثلاث . ثم تعرضها للماء فأحدو فتنقطع عن الشرب وتستمع اليَّ .

وجرّب ذلك فنجح . فاستبقاه وأجازه .

وقال عبد الحميد : استبقني يا أمير المؤمنين فإني كاتب منقطع المثيل وأنا فرد الزمان بالكتابة والبلاغة .

– قال السفّاح : ما أعرفني بك . أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل وعملت لنا الدواهي ! ! وأمر به فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه . وقيل سلّمه لعبد الجبار فكان يحمي طستاً ويضعه على بطنه حتى مات .

مناقشة :

أما قصته مع ابن المقفع فبعيدة عن الواقع وأن كانت قريبة من العقل ، إذ لهـا مثيل بكعب بن مامة الإيادي والنميري[1] . إذ فضله على نفسه وسقاه ماءه ومات هو عطشاً . ولكن موضع الشك فيها :

١ً : اختلاف الرواة في المكان الذي وقعت فيه الحادثة .

٢ً : جهل الرواة حال القويّ الظافر أمام الضعيف المغلوب . إنه لا ينتظر حتى تعلّم له العلامات وهو واقف في بيت الظنين .

وأما قصته مع سلام والمؤذن فخياليه أسطورية ظاهر فيها التعمّل والتكلّف . والأقرب إلى الصواب : أنه قتل مع مروان في بوصير ، إما في المعركة أو بعد أن استخفى في الكنيسة عام ١٣٢ هجرية .

أخلاقه :

لم يُؤثر عن عبد الحميد أنه صبا إلى خمرة أو تعلّق بمجون . بل كل ما ذكر عنه ؛ صون في الاخلاق وعفّة في النفس وترفّع عن الدنايا وإخلاص لإخوانه ومعاشريه ورئيسه . وهذا قوله

---

(١) ارجع للعقد الفريد والأغاني

لمروان – وقد شفعه بالفعل وأكدّه بالصبر – ألا يدلّ على خلق عالٍ ونفس سامية رفيعة وأدب جمّ ؟ ويمكن النفوذ إلى خلقه النبيل وقلبه الطيب من رسالته إلى الكتاب حيث يوصيهم بمكارم الأخلاق والفضيلة كأنه يضع لهم دستوراً في النبل .

فبمنه :

اتفقت كلمة الأولين على أن عبد الحميد رئيس الطبقة الأولى من الكتاب الفنيين . ولكنا لا نرى له من الآثار ما يدعم هذه الشهرة الفائقة التي اكتسبها مدى قرون . وإن كان فيما بقي ؛ ما يرفعه إلى طبقة الكتاب الممتازين . وأغلب الظن أن آثاره عفيت زمن العباسيين طمساً لآثار بني أميّة وادعاها غيره . قال في العقد الفريد :

(عبد الحميد أول من فتق أكمام البلاغة وسهّل طرقها وفكّ رقاب الشعر) . وقال ابن خلكان إن رسائله الف ورقة . فأين هي الآن ؟ ! وكان له من القيمة في زمنه ما جعل أبا مسلم الخراساني يمتنع عن قراءة رسالته ويحرقها لئلا يطلع عليها جنده فتؤثر فيهم .

يقول الرواة : إن عبد الحميد كتب إلى أبي مسلم الخراساني كتاباً على لسان مروان يستميله به وقال له : قد كتبت كتاباً

لو قرأه بطل تدبيره . إن قرأه خالياً نخب قلبه . وإن قرأه في ملأ من أصحابه ثبّطهم وخذلهم . فإن قرأه فذاك . وإلا فالهلاك ! .

ثم حمّل الكتاب على جمل تعظيماً له وتفخيماً . فلما وصل إلى أبي مسلم ؛ أشفق أن يؤثر فيه أو في جنده ، فأحرقه للحال . وكتب على جذاذه منه لمروان :

محا السيف أسطار البلاغة وابتحى
عليك ليوثُ الغاب من كل جانب
فإن تقدموا نعمل سيوفاً شحيذة يهون عليها العتب من كل عاتب

عناصر ثقافته :

نشأ عبد الحميد معلماً يدرس القرآن وما يتبعه من كتابة وشعر ، فانطبعت صوره في نفسه انطباعاً قوياً ، ثم التحق بسالم مولى هشام وكاتبه الخاص . وصاهره . وكان سالم يجيد اللغة اليونانية وقد ترجم منها كتاب (رسائل أرسطو إلى الإسكندر) وطالت صحبة عبد الحميد له فتأثر بعلمه وعقله الفلسفي تأثراً قوياً ظهرت آثاره في اتزان إنشائه وتساوق جمله وارتباط أجزاء رسائله وتماسكها ، بعد أن كانت قبله قليلة الارتباط خصوصاً في الجاهلية ، وأوائل الإسلام ، إذ لم

تكن أحياناً أيّة رابطة بين الجملة والتي تسبقها أو التي تليها . حتى لو بدّلت مواضع الجمل لما أثرّ ذلك في القطعة ، أو لكان تأثير هذا التبديل ضعيفاً جداً . واطلع عبد الحميد على ما ترجم إلى زمنه من الكتب في الصناعة والفلسفة — وإن كانت قليلة — وكثرت أسفاره واختلاطه بالناس من طبقات شتى ، في مختلف أدوار حياته . فأكسبه ذلك اتساعاً في الثقافة والمخيّلة ؛ ظهرت آثاره واضحة جداً في رسالته التي كتبها على لسان مروان إلى ولي عهده . ثم إن سكناه في الكوفة زمناً . وكانت محتشد العلماء والأدباء والنحاة والفقهاء ؛ مكّنته ولا شك من الاختلاط بهم والاستفادة منهم .

فعناصر ثقافته إذن ؛ مختلفة ومتعدّدة . ولكن العنصر القويّ الغالب عليها جميعاً ؛ هو العنصر الإسلامي . ويظهر أن عبد الحميد كان يحفظ القرآن وكثيراً من الاحاديث وأشعار العرب وكلام الأئمة . لأنا نرى ذلك منثوراً في تضاعيف رسائله يوشيها كالزهر النضر في روضة بهيجة . وهو الذي يقول : (مكّنني من البلاغة حفظ كلام الأصلع) يعني علي بن أبي طالب .

أسلوبه :

أسلوب عبد الحميد خلاصة للعصر الماضي كلّه . منذ تولّي معاوية حتى مقتل مروان . تجمعت فيه رسوب العناصر الثقافية والأدبية جميعاً . وظهرت على لسانه وبين شقّي يراعه ماءً سلسالاً . ألفاظه موافقة لمعانيه . ومعانيه طبق ألفاظه . يطيل ويقصر على مقتضى الحال ولكن لا يشتط . ينثر الآيات والأحاديث في تضاعيف سطوره فلا تشعر بها . ولكن لا يستشهد بالشعر غالباً إلا إذا نثر معناه نثراً فلا تحس به إلاّ إذا كنت له حافظاً واعياً . ويطيل التحميدات في رسائله المطولة حتى تبلغ صفحة أو أكثر بعد أن كانت في أوائل الإسلام جملةً قصيرةً لا تزيد على قولهم : « أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو » ويطيل المقدمات ليبني عليها النتائج بطريقة منطقية، متأثراً فيها بسالم أستاذه، ناقل الرسائل الفلسفية لأرسطو . ويطيل الخواتيم ليركّز فيها معاني القطعة المتقدمة كلها .

أما المواضيع التي طرقها ؛ فمتعدّدة لا شك في ذلك . غير أن آثاره الباقية بين أيدينا ، قليلة جداً مع الأسف!! أشهرها أربع رسائل . كل واحدة منها في موضوع خاص قائم بذاته . وبعض نثارات صغيرة غاية في الإبداع . تختزل حتى تصل رسالته

إلى عشر كلمات فقط . فتظن أن قوته كلها في الاختصار وبراعته كلّها في الايجاز وحده . كرسالته على لسان مروان إلى العامل الذي أهداه عبداً . أو كوصيته إلى أحد الأمراء بحامل كتابه إليه . . ويطيل حتى تبلغ رسالته مئة صفحة من حجم هذا الكتاب فتظن أن براعته كلها في الاطناب ، وإبداعه كله في الاسترسال وحده . كالكتاب الذي بعث به على لسان مروان إلى ولي عهده . وإذا أطلت النظر في إيجازه وإطنابه ؛ أخذك العجب من هذا القلم المتفنّن وهذا اليراع الساحر . وقد يعتمد في إطنابه على الجمل المترادفة يسوقها خلف بعضها بعضاً ، كحبّات اللؤلؤ نظمت في سلك . هذا الترادف هو مُبدعه وموحيه إلى من أتى بعده من الكتّاب . وسيأتي بحث ذلك . وقد يكون من الخير الآن أن ندعم هذه المدعيات بأمثلة من رسائله :

١ — أهدى أحد العمال إلى مروان عبداً أسود فاستثقل هذه الهدية وأمر عبد الحميد بإجابته عليها فكتب :

أما بعد : لو علمت عبداً أقلّ من واحد . ولوناً شرّاً من الأسود ؛ لبعثت به ، والسلام .

٢ — كتب إلى أحد الأمراء يوصيه برجل فقال :

حقّ موصل كتابي عليك ؛ كحقّه عليّ . إذ جعلك موضعاً

لأمله . ورآني أهلاً لحاجته . وقد أنجزت حاجته فصدّق أمله .

٣ — كتب إلى أهله وهو منهزم :

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور . فمن ساعده الحظ فيها ؛ سكن إليها . ومن عضّته بنابها ذمّها ساخطاً عليها وشكاها مستزيداً لها . وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحلبناها . ثم جمحت بنا نافرة . ورمحتنا موليّة . فملُح عذبها وخشن لينها . فأبعدتنا عن الأوطان وفرّقتنا عن الإخوان فالدار نازحة . والطير بارحة . وقد كتبتُ والأيامُ تزيدنا منكم بعداً . وإليكم وجداً . فإن تتمّ البليّة إلى أقصى مدّتها ، يكن آخر العهد بكم وبنا . وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدوّنا ؛ نرجع اليكم بذلّ الإسار . والذلّ شرٌّ جار . نسأل الله تعالى الذي يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء ؛ أن يهب لنا ولكم إلفةً جامعة ، في دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان . فإنه ربّ العالمين وأرحم الراحمين .

٤ — أمثلة من ترادفه :

١ : من رسالة يصف بها الصيد :

وإني أخبر أمير المؤمنين إلى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثقف الضواري . أكرمها أجناساً وأعظمها أجساماً ، وأحسنها

ألواناً ، وأحدّها أطرافاً وأطولها أعضاءً . قد ثقّفت بحسن الأدب وعوّدت شدّة الطلب وسبرت أعلام المواقف ، وخبرت المجاثم . مجبولةً على ما عوّدت . ومقصورةً على ما أدّيت . ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة ، من الشهريّة الموصوفة بالنجابة والجري والصلابة ..

ب : من رسالة في الشطرنج :

قد أبان لهم (الرسول) موبقات الأعمال ومفظعات الذنوب ومهبطات الأوزار وظلم الشبهات . وما يدعو إليه نقصان الأديان وتستهويهم به الغوايات . وأوضح لهم أعلام الحق ومنازل المراشد وطرق الهدى وأبواب النجاة ومفالق العصمة . غير مدّخر لهم نصحاً . ولا مبتغٍ في إرشادهم غنماً . فكان مما قدّم إليهم فيه نهيَه . وأعلمهم سوءَ عاقبته . وحذّرهم إصره وأوعز إليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً . الاعتكاف عَلَى هذه التماثيل من الشطرنج . والمواصلة عليها ، لما في ذلك من عظيم الإثم . وموبق الوزر . مع مشغلتها عن طلب المعاش . وإضرارها بالعقول . ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع المسلمين .

٥ — تحميدات :

١ : الحمد لله الناصر لدينه وأوليائه وخلفائه المظهر للحق

وأهله والمذل لأعدائه وأهل البدعة والضلالة . الذي لم يجمع بين حقّ وباطل . وأهل طاعة ومعصية . إلاّ جعل النصرة والفلج والعاقبة لأهل حقّه وطاعته . وجعل الخزي والذلة والصغار على أهل الباطل والخلاف والمعصية . حمداً يتقبّله ويرضاه ويوجب به لأمير المؤمنين وأهل طاعته الزيادة التي وعد من شكره . والحمد لله على ما يتولى من إعزاز أمير المؤمنين ونصره وإفلاجه وإظهار حقّه ، على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلاف عليه من سطواته ونقماته وبأسه . فيما ولي أمير المؤمنين من موالاة من والاه وعداوة من بغى عليه وعاداه . لا يكله في شيء من الأمور إلى نفسه . ولا إلى حوله وقوّته ومكيدته . فإنه لا حول ولا قوّة لأمير المؤمنين إلا به .

أما بعد . . . . .

ب : الحمد لله العليّ مكانه . المنير برهانه . العزيز سلطانه . الثابتة كلماته . الشافية آياته . النافذ قضاؤه . الصادق وعده الذي قدر على خلقه بملكه . وعزّ في سماواته بعظمته . ودبّر الأمور بعلمه وقدّرها بحلمه . على ما يشاء من عزمه . مبتدعاً لها بانشائه إياها . وقدرته عليها . واستصغاره عظيمها . نافذة إرادته فيها ، لا تجري إلا على تقديره . ولا تنتهي إلاّ إلى تأجيله .

ولا تقع إلاّ على سبق من حتمه . عَلَى كل ذلك بلطفه وقدرته ، وتصريف وحيه . لا معدل لها عنه . ولا سبيل لها غيره . ولا علم أحدٌ بخفاياها ومعادها إلا هو . فإنه يقول في كتابه الصادق: (وعنده مفاتح الغيب ...) إلى آخر الآية ...

أما بعد . . . . .

وله تحميدات أُخرى يبلغ بعضها ثلاث صفحات من هذا الكتاب ! ! وهذا النوع من الأسلوب الإنشائي ، لم يكن معروفاً زمن الخلفاء الراشدين . ولا صدر الدولة الأموية . وقد تقدّم في هذا البحث أمثلة عن كتابات الخلفاء الراشدين . وفي بحث الحجاج أمثلة من الكتابة صدر الدولة الأموية في الرسائل التي تبودلت بين الحجاج وعبد الملك وسليمان [1] . وبالأطلاع على هذه السلسلة من المراسلات والكتب منذ النبي إلى زمن عبد الحميد ؛ يلاحظ التطوّر واضحاً فيها . ويظهر بكل جلاء أن هذا التطور كان بطيئاً مدى سبعين عاماً تقريباً كأنه يتحفز للوثوب . ثم قفز بعد تعريب عبدِ الملك والحجاجِ الدواوينَ ، قفزةً واسعة وبسرعة هائلة حتى وصل إلى مداه زمن عبد الحميد . ولهذا قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

---

(١) انظر صفحة ١٨٩ — ١٩٠ — ١٩١

آثار عبد الحميد :

الذي بقي لنا من آثاره الكبرى : أربع رسائل . كل واحدة منها في موضوع . عدا التحميدات والرسائل الصغيرة المنثورة هنا وهناك في كتب الأدب المتفرقة . ورسائله المشهورة هي :

١ً — وصف الصيد . يصف فيها لأمير المؤمنين يوماً قضاه بالصيد مع أصحابه . ولا نعرف قبلها رسالةً في هذا النوع من الوصف على هذه الطريقة الطريفة وبهذه الديباجة الناعمة . ولكن آثار التكلف فيها ظاهرة . كأنه تعمد تزويقها وتنميقها لتكون قطعة فنيّة كلوحة الرسام . وتبلغ الرسالة نحو ست صفحات من هذا الكتاب .

٢ً — رسالة في الشطرنج . كتبها على لسان أمير المؤمنين إلى أحد العمال ـ وقد انتشرت في ولايته لعبة الشطرنج ـ يظهر فيها روحه الديني جلياً واضحاً . وتبلغ نحو ست صفحات من هذا الكتاب .

٣ً — رسالة مروان إلى ولي عهده محمد ، يوم أرسله لقتال الضحاك بن قيس الخارجي . تبلغ هذه الرسالة نحو مئة صفحة من هذا الكتاب . حشا فيها النظريات السياسية والاجتماعية

والحربية بصورة مدهشة على طريقة النصيحة . وإنما هي رسم خطة معقولة جداً لحكم الناس . وقيادة الجند واختبار الأعوان . وانتقاء العسس والجواسيس . ومواضع الحط والإقامة والرحيل والقتال . وبهذه الرسالة يظهر طول نفس عبد الحميد وسلاسة يراعه وديباجته المصقولة وأسلوبه الممتاز الذي استحق به عن جدارة، لقب أمير الكتّاب . وكنت اريد أن أقوم بمقارنة بينها وبين كتاب « الأمير » لمكيا فيلي . وأنا أول من تنبّه لهذه المقارنة — على ما أعتقد — غير أني أخشى أن يطول البحث كثيراً وليس هذا مكانه . على أنها ستنشر حتماً وقريباً، في الكتاب الذي سأصدره عن عبد الحميد .

٤ً — رسالته إلى الكتاب . تبلغ نحو عشر صفحات من هذا الكتاب . تظهر فيها نفسه الطيبة المخلصة كما يظهر فيها أن صناعة الكتابة أصبحت صناعة فنية قائمة بذاتها . لها قواعد وأصول معلومة ومواضعات خاصة . وهو يقرّر بها هذه الأصول كأنما يضع دستوراً لنقابة الكتاب — إن جاز لي هذا التعبير — فعبد الحميد بهذه الرسالة أول من نبّه لوجوب تأليف نقابة للكتاب في اللغة العربية . دستورها ؛ الإخلاص والأخلاق الحسنة ودعامتها الدين والتضحية . وهو إذ يخاطب الكتاب لا

يقصد إلا كُتّاب الدواوين . لأنه لم يكن معروفاً غيرهم حين ذاك . ونحن نعتقد أن الفكرة السائدة في هذه الرسالة ؛ ليست مبتكرة . ولكنها من موحيات البيئة والعصر . إذ سبقه زياد بن أبيه فوضع الخطوط العريضة لهذا الدستور بقوله : « ينبغي أن يكون في الكاتب خمس خلال : بعدُ غور وحسن مداراة وإحكام للعمل . وأن لا يؤخر عمل اليوم لغد » . . وما زالت هذه الفكرة تتطور حتى وصلت إلى عبد الحميد موسعّة بخطوطها الدقيقة فأنشأ هذه الرسالة وجمع بها فكرة عصره . وتحوي الرسالة الفكر الآتية :

١ً – تصنيف الناس إلى طبقات وأن الكتاب في الذروة

٢ً – فضل الكتاب على الناس والحكام وأن بيدهم مقاليد الأمور وأن ليس للحكام غنىً عنهم ولا تسير أمور الدولة إلا بهم .

٣ً – أخلاق الكتاب ؛ يجب أن تكون رفيعة : عفاف . صدق . إخلاص . حفظ للنعمة . رعاية الحاكم ونصحه . . .

٤ً – على الكاتب أن يجيد حفظ القرآن والحديث وكلام العرب وأشعارهم . وأيام العرب والعجم والحساب . . .

٥ً – عود إلى الأخلاق والتحابب في الله والتواصي بين

الكتاب والتعاون . كالأخذ بيد الضعيف الواني واحترام الكبير وتوقير الصغير . وهنا تظهر فكرة النقابة للكتّاب[1] .

٦ً - يقرر أن الكتابة طريق الوزارة فليحكم الكاتب بالعدل إذا ولّي . ولينظر في أمور الناس بالصدق والأمانة والإخلاص .

٧ً - يقرر أن السياسة باللين واللطف خير من الشدة والعنف

٨ً - التواضع والتدبير . وقد أطال في هذا القسم حتى حتى بلغ ثلاث صفحات تقريباً .

مختار من الرسالة الى الكتاب :

... فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات . أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة . بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها . وبنصائحكم ؛ يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم . لا يستغني الملك عنكم . ولا يوجد كافٍ إلا منكم . فموقعكم من الملوك ؛ موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأعينهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون ...

---

(١) استعملت كلمة النقابة . لا لأني لم أجد سواها . بل لأن الفكرة التي يقصدها عبد الحميد ؛ تنصب تماماً في قالب هذه الكلمة . وهي واضحة لا لبس فيها .

إياكم والكبر والسخف والعظمة . فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة . وتحابّوا في الله عزّ وجل في صناعتكم . وتواصوا عليها بالتي هي أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم. وإن نبا الزمان برجل منكم ؛ فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره . وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه ؛ فزوره وعظّموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته ...

ناثر عبد الحميد :

كانت الرسائل بين الملوك والعمال والرعية ؛ على غاية من البساطة . يخاطب فيها الفرد مهما عظم ، بصيغة المفرد . ولا يحاول فيها التنميق مطلقاً . بل يُكتَب المراد بأوجز عبارة وأخصر أسلوب . حتى جاء الوليد . فأمر أن لا يخاطب الملوك كما تخاطب السوقة . فكثر التعظيم والتفخيم تبعاً لارستقراطية الخليفة . ولكن هذه الموجة ؛ اصطدمت بزهد عمر بن عبد العزيز وبساطة الوليد بن يزيد فعادا بها إلى عهد السلف . غير أنها ثارت من جديد بعدهما وتلقفها الكتاب ؛ فاستزادوا فيها على طريقة التعظيم الفارسية من مخاطبة الفرد بصيغة الجمع والدعاء له والإطالة في ذلك ... وجاء عبد الحميد فجمع أفكار عصره وحمل لواءها فتبعه الكتاب من

بعده يحتذون حذوه بالتحميدات والاطناب والترادف فكان من مريديه الذين تبعوا طريقته : سهل بن هارون والجاحظ وابن العميد بل إن تحميداته الطويلة مشت على رقاب القرون حتى وصلت إلينا ، فقضى عليها الجيل الناشئ . وبلغ من انتشار طريقة عبد الحميد وبعد صيته ، أن كان الكاتب المجيد بعده يتشبّه به تفاخراً . فيقولون : « فلان يكتب مثل عبد الحميد » يريدون التعظيم والمبالغة . وكثر ترداد اسمه على ألسنة الشعراء توقيراً وتعظيماً . يقول البحتري :

وتفنّنت في الكتابة حتى عطّل الناس فنّ عبد الحميد

ولا تمكن المقارنة الصحيحة بينه وبين غيره من الكتاب لأن آثاره التي وصلت إلينا قليلة . ولكن يكفي أن نختم البحث بكلمة القدماء فيه : بدئت الكتابة بعبد الحميد . وختمت بابن العميد .

مراجع هذا البحث

١ — صبح الأعشى
٢ — البيان والتبيين
٣ — عصر المأمون
٤ — رسائل البلغاء
٥ — العقد الفريد
٦ — الطبري
٧ — كتاب الصناعتين
٨ — الأغاني

ابونواس

بروى

تاريخ

كانت موقعة القادسية ، خاتمة الوهم السياسي الضخم المسيطر في جزيرة العرب . وبدء انهيار دولة الأكاسرة . فسرعان ما خضعت بلاد فارس للدين الجديد واستولى البداة على ملكهم وساسوهم في عقر دارهم سياسة الفاتح الغالب ، وإن آخوهم في الدين . وأصاب الفرس الدهشُ مما رأوا ومما سمعوا ؛ فوجموا عصراً مبهوتين لا يدرون ما يفعلون . وعاشت الدولة الأموية ؛ عربية في كل جارحةٍ من جوارحها ، وكل ناحية من نواحيها السياسية والاجتماعية والأدبية . فتداخل العنصر العربي في حياة الأعاجم الخاضعين . واستعرب منهم جماعة فتعلّموا اللغة والأدب . وظهر منهم شعراء وكتاب ممتازون : كالشاعر اسماعيل بن يسار والكاتب سالم مولى هشام . وحاول الفرس في عهد هذه الدولة أن يمتدوا إلى السلطان والحكومة والسيطرة ؛ فكمعتهم الهيبة العربية . وحاولوا الشغب وتلبّسوا له بلباس الدين والتشيّع حيناً وبالثورة الصريحة حيناً آخر ، فأبادتهم الجيوش العربية . ولما عجزوا عن هذه وتلك . ورأوا أنهم أصغر من أن يمدّوا

أيديهم ، مدّوا لسانهم . وأخذوا يستصغرون العرب ويدسون عليهم الدسائس ويهجونهم ويفضلون الفرس بأشعارهم وكتبهم . ولكن كان ذلك قليلاً ونادراً ومستتراً . وبلغ من محاولتهم مرةً ؛ أن وقف اسماعيل بن يسار يمدح الخليفة هشام ، وأنشده قصيدة يتمدح فيها بالفرس ، فغضب هشام . وأمر غلمانه أن يغطّوه بالبركة حتى كادت نفسه تزهق . وأُخرج وهو على آخر نفس ، فلم يعد سواه يجرؤ على هذا التطاول . ثم لما رأوا أن هذا أيضاً لا يجديهم نفعاً ولا يعيد لهم السلطة والحكومة ؛ مدّوا أيديهم سراً للعباسيين ، وساعدوهم بالرجال والمال والسلاح . وقاتلوا في صفوفهم . فقاد أبو مسلم الخراساني الثورة ، والتحم في موقعة الزاب مع جيش مروان وغلبه ، فكانت هذه الموقعة رجع صدى لموقعة القادسية وغلبةً للفرس على العرب . واستوزر العباسيون الفرسَ واستعملوا رجالهم على الولايات وقدّموهم على العرب ، فانكمش هؤلاء في جزيرتهم ، أواخر الدولة العباسية بعد نضالٍ عنيف ومنافسة مستمرة في الدين والأخلاق والعادات والسياسة واللغة والاجتماع .

حاول الفرس في أوائل الدولة العباسية أن يستعجلوا الاستبداد بالملك ، فنكل بهم الخلفاء العباسيون وقتلوا أبا مسلم

الخراساني وأبا سلمة الخلاّل . ثم نكبوا البرامكة، فأقتصر الفرس بعدها عَلَى الدسائس السياسية والدسّ على لغة العرب وآدابهم وتاريخهم ودينهم ونشر الفسوق بأنواعه واباحة الخمرة والمرأة . وساعد على هذا ؛ رواجُ سوق الجواريـــ وانتشار كتب الفلسفة اليونانية والهندية واطلاع الناس عَلَى أنواع العلوم . ففسدت الأخلاق ونصلت الصبغة الدينية عن النفوس وتدهور الناس في هذه الهوة لا مستأنين ولا مترفقين . يتبعون أبا نواس وشيعته وهو يرقص أمامهم ويغنيهم بألحان الخمرة ويجذبهم بسحره الخلاب ليرميهم في قعر الهوّة ، كما يقود الولدُ الخبيثُ الشيخَ الكفيف إلى حفرة من الوحل والقذر ليرميه ويسخر من لحيته الملوّثة بالطين المنتن .

غير أن هناك أناساً محافظين على الأخلاق العربية والدين الحقيقي ؛ هالهم ما رأوا من انجذاب الناس إلى هذا السراب الخادع وأيقنوا أن وراءه تفسّخ الدولة والوبال المؤلم ؛ فرفعوا علم المعارضة وأخذوا ينصحون الناس بالوعظ الديني تارة وبالشعر تارة أخرى ويزينون لهم العمل الصالح ويرغبونهم في التقى والصلاح ويزهدونهم في الدنيا . وزعيم شعراء المعارضة ؛ هو أبو العتاهية .

فإذا قال أبو نواس :

إنما العيش سماع وُمدام ونِدام
فإذا فاتك هذا فعلى العيش السلام

قال أبو العتاهية :

سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
بين عيني كل حيّ علَم الموتِ يلوح
كلنا في غفلة والموت يغدو ويروح
نحْ على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح
لتموتنّ وإن عمرّ — ت ما عمرّ نوح

وكان هذان الحزبان — إن صح التعبير — في حرب دائمة تشتغل فيها الحماسة والإخلاص للمبدأ وتستخدم الدسائس أحياناً فتفوز هذه مرةً وتلك أخرى . فيقتل بشار لزندقته ويحبس أبو نواس لتهتّكه . ثم تقوى الإباحة ، فيستمع الرشيد لأبي نواس يمدح الخمرة أمامه مصدّراً بها مديحه . ويجالس الشاعرُ الماجنُ الأمينَ ، في مجالس لهوه الخاصة . ويشاطره السرور على الخمرة والغلمان .

فأبرز مظاهر العصر العباسي إذن ، هو هذه المنافسة الحادّة بين العرب والموالي . بين الدين والفسوق . بين الأخلاق الرفيعة

والإباحة . بين العنصر المغلوب على أمره والعنصر الغالب . بين المرأة الحرّة والجارية . وأولاد هذه وأولاد تلك ...

الجواري :

إن غلبة الجيوش الإسلامية على أكثر الممالك بالسيف ؛ أحلّت لهم نساءهم وأولادهم . فاسترقّوهم وتهادوهم كما تتهادى التحف والنفائس . وراجت سوق الرقيق ؛ ففشا التسرّي بالنساء من شعوب مختلفة فشوّاً هائلاً . حتى نافست الجارية المملوكةُ المرأةَ الحرّةَ في سيادة منزلها ؛ لما لها من جمال جذّاب . ثم هي لا تشترى إلا بعد فحص جسمها وعقلها وعلمها . فتغالى النخّاسون بتعليمهن كما تغالوا بأثمانهن . يعلمونهن الغناء والرقص والأدب والشعر ومبادئ العلوم والفلسفة والمناظرات والآداب الاجتماعية . . فتهوي اليهنّ قلوب الرجال إعجاباً وحباً . ويدفعون أثمانهن عن رضى ، مهما غلا وسعرهنّ . ولم يكن للجواري هذه المنزلة في زمن الأمويّين . ومع هذا فقد تسرّى الخلفاء بهنّ وولدن بعض الخلفاء ، كالوليد بن يزيد ، فإن أمّه أَمَةٌ فارسية اسمها شاهسفرم . ومروان بن محمد ؛ أمّه أَمَةٌ كردية .

أما في زمن العباسيين فقد استطاعت السراري أن تتغلّب حتى في هذه الناحية . فكان أكثر الخلفاء العباسيين الأول ؛

أولاد إماء . فالمنصور ؛ أمّه أمةٌ بربرية اسمها سلاّمة . والهادي ؛ أمّه سبيّة من خرشنة اسمها خيزران . والرشيد كذلك ابنها . والمأمون ؛ أمّه أمةٌ اسمها مراجل . والمعتصم ؛ أمّه أمةٌ اسمها ماردة . والواثق ؛ أمّه أمةٌ اسمها قراطيس . والمتوكل ؛ أمّه أمةٌ اسمها شجاع .

وليس هذا فقط . بل لقد تجاوز الخلفاء حدّ المعقول في التسرّي وحشد الجواري . قيل كان للرشيد ألفان وللمتوكل أربعة آلاف من المغنيات والخدمة في أحسن زيّ وأجمل ثياب محلاة بأنواع الجواهر ! !

ولم يقتصر الأمر على الخلفاء . بل تعدّى الأمر البيتَ المالك إلى الشعب ، لأن الناس على دين ملوكهم . فكثرت الجواري والتزوج بالأجنبيات وتولّد منهن ومن الصرحاء ؛ جيل جديدٌ فيه أثر من كل دم ونبضةٌ من كل عرق ، وما يتبع هذا من الآثار العقلية والنفسية والأدبية . فكان منهم العلماء الفطاحل . والشعراء المبدعين . والنحاة العظماء . والفقهاء البارعين . كما كان منهم الفسّاق والمجان والخلعاء والمستهترين . واختلط هذا بذاك ، فنشأ جيل جديد مختلط التركيب متباين الأخلاق . وتضاءل العرق العربي الصريح

فضعفت العصبيّة العربية فيه . وقويت كلمة الشعوبيين والموالي ، فأخذوا ينظرون إلى الصحراء نظرة ازدراء واحتقار .

الموالي

كان العرب في الجاهلية ينظرون إلى الفرس والروم نظرة الضعيف إلى القويّ . فيها احترام ورهبة . وفيها حقد وخوف . وما كانوا يظنون أنهم سيغلبون على ملك هاتين الأمتين في يوم من الأيام . ولذلك افتخروا بيوم ذي قار وعدّوه نصراً عظيماً . فلما جاء الإسلام وانتقل إليهم إرث الدولتين فجأة ، بصورة يكاد لا يقبلها العقل لسرعتها ، أخذهم العجب . وراحوا يفخرون عليهما فخر السيد على المسود . وينظرون للشعبين نظرة احتقار ويسمّونهم الموالي . وكان أُمراء بني أُمية وخلفاؤهم ، يعاملونهم معاملة ليس فيها تساوٍ حقيقي ، مع إن الإسلام يجمع العربي وغير العربي . ويقول الحديث : (إنما المؤمنون إخوة) ويقول : (لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى) . فكان الحجاج يسم النبط بشرط جلدهم . وفي ذلك يقول الشاعر في مولى :

لو كان حيّاً له الحجاجُ ماسلمت صحيحةً يده من وسم حجّاج

ووالي المدينة ابراهيم بن هشام يفرّق بين المولى وزوجته

العربية ويضربه مئتي سوط ويحلق رأسه ولحيته وحاجبيه . لأنه تمادى فتزوج عربية وهو غير كفء لها !!

وكان العربي إذا مشى في السوق وهو يحمل شيئاً ورأى مولى ، دفع الحمل إليه ليحمله فلا يتردّد خوفاً !!

وهشام يغطس اسماعيل بن يسار بالبركة لافتخاره بالعجم . . دامت هذه الحال ، والموالي يسكتون على مضض . إلى أن جاءت الدولة العباسيّة - وقد نهضت عَلَى أعضاد الموالي - فحمتهم ورفعتهم وقدّمتهم فتطاولوا . . . كانوا أيام بني أُميّة يطلبون التساوي بالعرب فقط . فأصبحوا لايكتفون إلا بالسلطان . ولما دفعهم الخلفاء العباسيون عن السلطة الفعلية ؛ أخذوا يسبّون العرب ويهجونهم ويؤلفون الكتب في مثالبهم ويفضلون النار على دينهم هكذا من لم يستطع أن يمدّ يده ، يمدّ لسانه على حدّ القائل :

وإذا النذل لم يوفّق لطعنٍ مدّ بالهجو مِقولاً سبّابا

يقول بشار :

إبليس خير من أبيكم آدم فتنبّهوا يا معشر الفجّار
إبليس من نارٍ وآدم طينة والطين لايسمو سموّ النار

ويقول أبو نواس :

إذا ما تميمي أتاك مفاخراً

فقل : عدّ عن ذا ؛ كيف أكلك للضبّ ؟

تفـاخر أبناء الملوك سفـاهةً

وبولك يجري فوق ساقك والكعب ؟!

على أَن العرب لم يذلّوا بسرعةٍ . بل مازالت قيمتهم قويّة تنازع الشعوبيةَ السيطرةَ وتغلبها في السياسة أكثر الأحيان . وهـذا مادعا الموالي أن ينتسبوا للعرب لينالوا بذلك حظوة وليكتسبوا قوةً وفخراً ومكرمة . فأبو مسلم الخراساني يصطنع نسباً عربياً يسند به مركزه السياسي . وأَبو نواس يحاول ذلك مراراً فيفشل ، فينتمي بالولاء إلى عرب اليمن !! . ويكثر في هذا العصر الانتماء إلى العرب حتى يفتضح ويصبح موضع سخرية وهزءٍ أَحياناً . يقول بشار في رجل يدّعي النسبة العربية :

إرفق بعمروٍ إذا حرّكتَ نسبتَه فإنّه عربيٌّ من قوارير

إذن ؛ كان الولاء صفـةً أخرى من صفات هذا العصر .

ولكن ماذا يفهم من كلمة مولى على التدقيق الصحيح ؟!

في الجاهلية : كان يفهم منها : القريب والغلام والرقيق العتيق ينتسب إلى من أَعتقه . وفي الإسلام ؛ لما فتحت الجيوش المسلمة بلاد الأعاجم ، لم تعرف ماذا تسميهم . فلجأت إلى الآية : (فإن لم تعلموا آباءَهم ؛ فإخوانكم في الدين ومواليكم) فسموهم الموالي . أي إخواناً في الدين . ثم توسعوا في المعنى فأصبح كل

رجل يُسْلِمُ على يد رجل عربي؛ ينتمي إليه ويسمّى «مولاه» فيحميه ويدافع عنه . وأصبح يفهم من كلمة «مولى» معنى آخر لا أخوّة فيه . أصبحوا ينظرون إلى الأعاجم كطلقاء . كأن استرقاقهم كان في أيديهم يوم افتتحوا بلادهم فأعتقوهم !! . وفي هذا المعنى احتقار لاشك فيه . لهذا كان الموالي يتألمون ويسرع أحدهم إلى رجل قوي أو قبيلة محترمة يصبح مولى لها ليحتمي بها .

وفي زمن العباسيين ؛ ظهر نوع آخر من الولاء يسمى (ولاء الاصطناع) وهو أن يتخذ الخليفة قوماً من الأعاجم ، يجري عليهم الأرزاق ويحاربون معه ويحافظون عليه كبني برمك وبني نونجت .. وقد اتخذ البرامكة من أهل خراسان جنداً ضموهم للخليفة بالولاء ، وسموهم (العباسيّة) . بلغ عددهم (٥٠٠) ألف رجل . وبهذا ازداد نفوذهم ودخلوا في وظائف الدولة . فكانت أكبر الوظائف محبوسة عليهم تقريباً ، كالوزارة مثلاً . بينما كانوا في زمن بني أمية بعيدين عنها . ودخلت المرأة الأعجمية إلى البيت فسيطرت الجارية الأعجمية على قلب الرجل العربي ، بل دخلت بيوت الخلفاء فكانوا أولادها كالهادي والرشيد والمأمون .

بغداد :

كان العراق زمن الأمويين : منبع الثورات والفتن، حتى أُرهق عذاباً وضغطاً . ولما استولى العباسيون ، تابعوا خطة الضغط قليلاً زمن السفّاح والمنصور وقتلوا المعارضة بالسيف ، حتى استكان لهم الناس ، فرفعوا عنهم القتل وأباحوا لهم الحياة الحرّة ، يصرّحون بكل ما يعتقدون — إلا ما يتعلق بسياسة الدولة — فانطلقوا يلهون ويفكرون ويتفلسفون . وأصبح العراق ملتقى العروق المختلفة من الشعوب المتباينة . ومهوى طالبي اللهو والثروة والمجد والشهرة . فتوافد إليه الطامحون من كل طرف ونزله الطامعون من كل جهة ... وبنيت بغداد . فإذا كل هذه الصور تتركز فيها وتتمازج تمازجاً قوياً . ويزداد عدد نفوسها حتى يبلغ المليونين تقريباً . وتنصبُّ أموال الدولة كلها في خزينة الخليفة . وأكثر الخلفاء ؛ تولّوا الملك شباباً . فساعدهم سكون الدولة ووفرة المال؛ على التلذّذ بحياة الدّعة والترف . فبذخوا وأسرفوا في البذخ . ووهبوا الشعراء والمغنين والعلماء ؛ المال والجواري والخيول . فنشط الفن والعلم وازداد عدد الشعراء والمغنين والعلماء . وكثرت الترجمة . وافتنّ الناس في السرف، على دين ملوكهم . وأصبحت بغداد ، كعاصمة من

العواصم الأوروبية اليوم ؛ فيها من كل فنّ طرف . فيها الصلحاء والعلماء والشعراء والمترفين والحانات والخمر والمال . وفيها كذلك الفقراء والبؤساء واللصوص والشطّار . يروي الطبري وابن خلدون : « أن فسّاق الحربية (محلة ببغداد نسبت إلى عبد الله صاحب حرس المنصور) آذوا الناس ببغداد والكرخ إيذاءً شديداً . وأظهروا الفسقَ وقطعَ الطريق وأخذَ الغلمان والنساء من الطرق » . كشيكاغو اليوم ؛ فيها إلى جانب عظمتها الحضارية التي لا تجارى ؛ لصوصٌ وعصابات تخيف الناس وتتسلط على أموالهم وتنشر الفزع بينهم وتخطف أولادهم . أو كباريز ؛ فيها أكبر الجامعات وفيها أكبر محلات الفسق والفجور . وأشهر مومسات الدنيا . وكلٌ يراها من الجهة التي تروق له . ويرتشف الحياة التي تعجبه ، فبعضهم يراها جنّة . وآخرون يرونها جحيماً فبينما يقول أبو النواس :

وقائل هل تريد الحج قلت لهم ... نعم إذا فنيت لذات بغداد

يقول آخر :

بغداد دارٌ طيبُها آخذٌ ... نسيمها منّي بأنفاسي
تصلح للموسر لا لامرئٍ ... يبيت في فقر وإفلاس
لو حلّها قارون ربّ الغنى ... أصبح في همّ ووسواس
حورٌ وولدان وكل ما ... تطلبه فيها . سوى الناس ! !

هكذا كانت بغداد مجمع المتناقضات. يأتي المال فيها بطرفة عين . ويذهب بطرفة عين .. يهب الخليفةُ المالَ لبيت شعر جيد ويصادر المال ويقطع الأعناق لكلمة نافرة أوجملة نابية .ونكبات الوزراء المتوالية في هذا العصر؛أكبر دليل . حتى كان الوزير إذا استدعي في غير الوقت الرسمي لِصَرح الخليفة ؛ يغتسل ويلبس الكفن ويحمل دمه على كفّه، ولا يظن إلا أنه مقتول . أما الخمر والحانات ودور الفحش والفجور النسائية والغلمانية فيظهر أنها لم تكن علنيّة صريحة . بل كانت تستخفى عن عيون الشرطة وتبتعد في ظاهر المدينة على بعد فراسخ أحياناً . يحدثنا أبو نواس في خمرياته عن شيءٍ من هذا ؛ إذ قرع الباب على الخمّار بالليل، فظنه بعض الشرطة السرّية يقول :

... إلى بيت خمّارٍ ودون محلّه قصورٌ منيفات لنا ودروبُ
ففُزّع من إدلاجِنا بعد هجعةٍ وليس سوى ذي الكبرياء رقيب
تناومَ خوفاً أن تكون سعاية وعاوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار ذعره وأيقن أنّ الرحل منه خصيب

في هذا المحيط المختلط، من شعوب شتى . وأفكار مختلفة . وثقافات متباينة . وأوضاع سياسية واجتماعية ودينية وأخلاقية مضطربة ؛ ولد أبو نواس .

القديم والجديد :

هذا التطور العظيم الذي طرأ على الأمة الإسلامية في العصر العباسي . وهذه الحريّة الفكرية الطليقة التي أباحتها الحكومة لكل ناحية من نواحي التفكير — غير الأبحاث السياسية — أطلق الألسنة بشعر من نوع جديد لا عهد للقدماء به ولا يعرفونه . انطلق الشعر يصف الخمرة والمرأة والغلام بصراحة . ويتحامل على الشعر القديم والعادات القديمة ويصوّرها أشنع تصوير . بل ربما تطاول المجّان إلى أكثر من ذلك . إلى الدين نفسه فقلّت قداسته في نفوسهم . وكثر عدد الخلعاء الماجنين والفساق كثرة فاحشة . فإذا عَدَدت بشاراً وأبا نواس قطبي هذه الحركة ؛ وجدت طواف الشعراء حولها يتزايد ويكثر . وعددتَ : مسلم بن الوليد والعباس بن الأحنف وحماد عجرد ووالبة ابن الحباب والواسطي والرقاشي والخليع والوراق والخياط ووجدت بينهم بعض الشاعرات كعنان مثلاً . يجتمعون على اللذة ويتناشدون إليها بالشعر . فإذا حضرت الصلاة؛ ضيّعوا صوت المؤذن بقرع الأقداح . أو قاموا إلى الصلاة سكارى يتمايلون!! وقد أمّهم مرةً أحد الندماء وهم في مثل الحال التي وصفناها فغلط ، فقال أبو نواس :

أكثر يحيى غلطاً في: قل هو الله أحدْ

وقال العباس بن الأحنف:

قام طويلاً ساهياً حتى إذا أعيا سجد

وقال الحسين الخليع:

يزحر في محرابه زحير حبلى بولد

وقال مسلم:

كأنما لسانه شدّ بحبلٍ من مسد

وهذه الحريّة جعلتهم لا يبالون بالإباحة أحياناً. فيقول أبو نواس:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهر

أو يقول:

يا أحمد المرتجى في كل نائبةٍ
قم سيدي: نعصِ جبّار السماوات

غير أن هذا الحزب المستهتر المتجدد الذي يمثله أبو نواس لم يكن طليقاً أبداً. بل هناك قسم من الناس ما زال محافظاً شديد المحافظة، أخذ يحارب هذه البدع بقسوة. وكان الخلفاء — مع ما هم عليه من حرّية — لا يستطيعون التظاهر بالطلاقة

الكافية . بل كانوا يتظاهرون بالتشيّع للقديم ويقسون على هؤلاء المتجدّدين أحياناً . فقد مات بشار تحت العصا . وسجن أبو نواس مراراً وطال سجنه . لكن مع هذا كان شعرهما ينساب إلى المجتمعات بقوّة عجيبة . فيروى على ما فيه من فحش في القول والتصوير . لأن الشاعرين لم يكونا يعفّان عن كل ما يروي لهما من وصف . كان فسوقهما وجماعتهما إذن؛ فسوقاً نظرياً وعملياً بآن واحد . غير أن بشاراً ؛ كان أقرب إلى الطبيعة من أبي نواس . ذاك شبب بالنساء . وهذا تعلّق بالغلمان قولاً وفعلاً . ومن يلتفت إلى ديوانه يشاهد عجباً .

ولا يجب أن ننسى بأن هذا التجدد في القول والعمل وهذه الصراحة والحرّية ؛ لم تتولد في زمن العباسيين وحدهم . وإنما ولدت في الدولة الأموية عَلَى يدي الوليد بن يزيد الخليفة الخليع صاحب بركة الخمر والشعر الغزلي الرقيق ؛ ويفعت عَلَى يدي بشار . واستكملت صباها على يدي أبي نواس . فإذا كان بشار جسراً بين القديم والجديد ؛ فأبو نواس؛ تخطى هذا الجسر وحمل علم الجديد على الضفة الثانية من نهر الحياة . وسار به شوطاً بعيداً . وهو نفسه يقرّ بذلك ويعترف للوليد بالأستاذية . وربما أغار على كثير من معانيه . ويقرّ بشار كذلك مثله . فعصرنا الذي

نؤرخه إذن ؛ عصر حرّية وصراحة في القول والفعل . عصر شك في القديم . يراد به هدمه وتجديده . ولكن هل وفق المجددون إلى هدمه كله كما يشتهون ؟ . إنا لا نرى ذلك فقد بقيت أوزان الشعر وقوافيه ومواضيعه ؛ كما هي لم يتغير فيها إلا طريقة التصوير . ما زال المديح والهجاء والغزل . ولكن تغير فيه الطريق الفني للتعبير . فقد رقّت ألفاظه وحسنت تعابيره وتلطّفت معانيه ، وأصبحت أقرب للحضارة من البادية . وقلّت العيوب الشعرية كالإقواء والتضمين وأصبحت القصيدة شبه وحدة . لا تنافر فيها ولا وثب في انتقال الموضوع من غزل إلى مديح أو هجاء . وتوسّع الغزل فأصبح باباً كاملاً ، يقصد لذاته . ودخلت ألفاظ الفلاسفة ومعانيهم في الشعر . وقلّ وصف النوق . وكثر وصف الحدائق والفلك والخمرة والحانة والنساء والغلمان .

إذن ؛ كان الشعر العباسي محافظاً من حيث الألفاظ والأسلوب والوزن والقافية . ومتجدداً من حيث المعاني والأفكار

وقضية القديم والجديد قانون طبعي يصيب كل شيء في الحياة المادية والمعنويّة . لأن التبدل والتغيّر من شأن الطبيعة فمن كان يظن أن أبا جعفر المنصور ذلك الخليفة المتعصب الذي يكسر الطنبور على رأس غلام سمعه يغني للجواري ثم

يبيعه . يكون حفيده وحفيدته ؛ مغنيين مشهورين في الغناء وحده ؟! وهما : ابراهيم بن المهدي وعليّة بنت المهدي ! من كان يظن أن العادات الفارسية والبيزنطية التي ذابت في العادات العربية زمن بني أُمية ؛ تعود إلى الظهور حتى تذوب العادات العربية فيها زمن العباسيين . وتدخل قصور الخلفاء فيشربون الخمرة ويعاشرون النساء والغلمان ويستكثرون من الجواري إلى ما فوق الحد المعقول ويفرّقون بين الناس بازيائهم ويجلس المأمون يقبل التهاني والمعايدة بعيد الفرس المشهور (النيروز) كأنه عيد عربي اسلامي ؟! الحق : إذا كان العرب سيطروا على الاعاجم والفرس بصورة خاصة ، سياسياً وديناً ولغةً ، فنفذوا فيها جميعاً إلى قلوبهم ؛ فقد سيطرت العادات والاخلاق الفارسية على الدولة العربية . وانتشر فيها النرد والشطرنج وتربية الحمام ومهارشة الكلاب والديوك ولعب القمار . وفشا النقش والتصوير على الأكسية والمطارف والكئوس والجدران . يتمثل كل هذا بشعر بشار وأبي نواس . فترى الطرديات ووصف الزهور والبساتين وكئوس الخمر المصورة ... هكذا كانت المقارضة بين السيطرة العربية والعادات الفارسية ؛ مقارضة عادلة، من حيث طبيعة الحياة ؛ بين الغالب والمغلوب .

ابو نواس

مولده :

هو الحسن بن هانئ (أوهني) وأمه جلبّـان . أبوه من دمشق كان في جند مروان بن محمد آخر ملوك بني أميّـة . انتقل إلى الأهواز للرباط فيها ؛ فتزوّج أمّه جلبـان . وهي أهوازيّة . فولدت له الحسن وأولاداً آخرين ، عرف منهم أبو معاذ ثم مات عنها وعمرُ الحسنِ عامـين ، فانتقلت به إلى البصره وأسلمته إلى عطار يبيع البخور لتنتفع بأجرته . وتعيل نفسها وأولادها .

اتفقت كل الكتب الادبية على أن هانئ مـات وعمر ابنه الحسن سنتان فقط . ولكن هناك عبارة وردت في عصر المأمون لا أدري من أين نقلها ، تثير الشك في صحّة هذه الدعوى يقول : « ثم جلس أبو نواس إلى الناشيء الراوية ، فقرأ عليه شعر ذي الرّمة ، فأقبل الناشيء على أبيه هانئ وقال له : إن عاش ابنك هذا وقال الشعر : ليقولنّه بلسان شتوم »[1]

(١) عصر المأمون جزء ٣ صفحة ٢٠٧

إذن كان الحسن صبياً يوم مات والده !! لانه لا يعقل أن يتعلم ابن سنتين الشعر ويجيد حفظه وروايته .

ونحن نشك في هذه الرواية .ونعتقد مع الكثرة من المؤرخين بأن في هذه العبارة شططاً .

طفولته وشبابه :

الحسن – كما رأيت – نشأ في بيئة خيّم عليها الفقر والبؤس ، وكان يرى آثار النعمة على زبائن العطار ، لأنه مختص ببري البخور ، وأكثر من يحرق البخور المبريّ ؛ هم الطبقة الراقية ، فيطمح إلى مثل هذه النعمة ، وكيف الطريق اليها مع هذا الفقر ؟ هناك سبل سهلة للوصول إلى الثروة المفاجئة ، هي عطايا الملوك وهبات الخلفاء ، وللوصول إليها نهجان : سياسي وأدبي ، أما السياسي ؛ فصعب المرتقى لأنه يحتاج إلى سلّم حزبي أو قبيلة صعبة الشكيم ، وأنى للأهوازي الفقير هذا ؟! وأمّا الأدبي ؛ فقوامه : لسان شحيذ وشعر صقيل ، وهذا يتيسر كل ذكي الفؤاد من أي طبقة ، اتخذ الحسن سبيل الشعر والأدب فكان ينتهز الفرص من الدكان ، فيفرّ إلى المسجد ، فيجلس إلى علماء اللغة والأدب والشعر ، يتلقى عنهم ، ويحاول نظم الشعر ،

ويهمل عمله الرئيسي أحياناً كثيرة ، فيناله التقريع واللوم . وربما أكثر من ذلك ، من أمّه والعطار .

وباتصاله مع الطبقة الراقية في الدكان والشباب المترفين من زبائنها — والمترفون أقرب إلى الفسوق من الفقراء — طُبع في نفسه شيءٌ من حب اللهو . ولكن كان هذا اللهو — مع الأسف — إفساداً لأخلاقه وواسطة لرميه في هوّة من الانحطاط عميقة وهو جميل الصورة حلو البديهة لطيف النكتة . وفي لسانه لثغة محبّبة تزيد في تعلّق الفاسقين به وميلهم إليه . فكانوا يستأجرونه نهاراً بدينار ، إذا أرادوا الخروج إلى نزهة ، فيبقى معهم إلى المساء يسقونه الخمر فيسقيهم بهيمية . وكانت العادة الغلمانية قد فشت في العراق فشواً هائلاً جداً ، وسقط الحسن فيها واشتهر وأخذ يعبُّ من كأس الفسوق حتى التخى ، وكأنما لم يكفِ الأيام ما رمته به . حتى أرادت أن تحمله إلى القعر وتحسّيه كأسها السافلة حتى الثمالة ، فعرّفته إلى والبة بن الحباب الشاعر الماجن الفاسق ، فأغراه بالخروج معه إلى الكوفة ، ليخرّجه على الشعر ، ومنّاه الأماني . وكان الحسن قد سمع بشهرته وتولّع به فصحبه إلى الكوفة . وهناك اتصلت أواصر الصحبة بينه وبين فسّاقها الخلعاء وأستاذهم والبة ، فعكف على اللذة الدنيئة

والخمرة ؛ يعبّ فلا يرتوي وكانت الكوفة ، منتدى العلماء والأدباء والشعراء . يهوون إليها من كل جانب . والحركة العلمية على أشدّها . فلم يضيع الحسن الفرصة . بل تعرّف إلى أساتذة اللغة والأدب . ودرس عليهم ، حتى استجاد نظامه . وأدرك أن علمه باللغة لايتمّ ؛ حتى يخرج إلى الصحراء ويتلقى اللغة عن أهلها . فاستأذن استاذه والبة الأسدي أن يرفقه بوفد بني أسدٍ إلى باديتهم ، ففعل . وبقي سنة مع هؤلاء البداة يعيش عيشتهم ويتلقى لغتهم . وعاد إلى الكوفة ؛ ففارق استاذه والبة وانطلق إلى البصرة يستتم علومه . ودرس الفقه والحديث والنحو ، فاستكمل عناصر اللغة كلها . وتمكّن من البلاغة والبيان الأفصح . وأيقن أن باستطاعته الآن أن يغامر في سبيل الثروة ، فارتحل إلى بغداد وسنّه حول الثلاثين وهو يقول :

سأبغي الغنى إما جليس خليفةٍ يقوم سواءً . أو مخيفَ سبيل

فهو يطمع إلى الثروة ويختار لها أخصر الطريقين : أما جليس خليفةٍ . وإما قاطع طريق!! .

نسبه :

لم يعرف على التحقيق ، هل كان أبو نواس عربياً أم مولى؟ . وإن كان أبوه من جند الشام في خوزستان . وهو نفسه يخفي

نسبه . قيل : لئلا يسبّ به . سأله الخصيب عن نسبه فقال : (أغناني أدبي عن نسبي) وهجا البصريين فانتمى إلى دمشق وقال :

وإن أكُ بصرياً ؛ فإن مهاجري دمشقُ . ولكن الحديث شجون

فأي شجون في حديثه عن نسبه ؟ ! و كانت المنافسة قائمة بين المضريّة والقحطانية ، فانتسب إلى المضريّة ، لأن قريشاً منها والخليفة منها ليعتزّ بها . فلما نفته مضر ؛ هجاها وهجا قريشاً ، يقول :

إن قريشاً إذا هي انتسبت كان لها الشطر من مناسبها

إن فاخرتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من مكاسبها

وانتمى بعدها إلى اليمن . وانتسب إلى قبيلتي حاء وحكم يقول :

وقال أمن تميم ؟ قلت : كلا ولكني من الحيّ اليماني

فزجره يزيد بن منصور الحميري خال المهدي . وقال له :

— أنت خوزي فمالك ولحاء وحكم .

— قال : أنا مولى لهم .

فتركته اليمانية وقال بعضهم لبعض : (إنه ظريف اللسان غزير الكلام ، فدعوه . وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكايد عنا ويهجو النزارية) . و كان كما قالوا . وأربى عليه . فلم يهج النزارية فقط . وإنما تطاول إلى العرب كلهم فهجاهم وسخر منهم وهزأ بهم .

فسجنه الرشيد لذلك . ولكنه لم يتب إلا ليعود لما كان عليه من كُره العرب والتطاول عليهم بكلام بذيء ولسان قذر .

كنيته :

قيل : كان للحسن ذؤابتين تنوسان على صفحتي خديه فسمى من أجلهما : أبا نواس . وقيل : بل كان لأستاذه الراوية الشهير خلف الأحمر ، ولاء في اليمن . فقال له : لو اكتنيت بأسماء الذوين أقيال اليمن ! وعرض عليه جملة من أسمائهم : (ذو جدن . ذو يزن . ذو كلاع . ذو نواس ...) فاختار ذا نواس . وسمي من ذلك الحين بأبي نواس .

مولده ووفاته

اختلف في مكان مولده أهي الأهواز أم خوزستان أم البصرة؟ . ولكن الأكثر أنه ولد في الأهواز . واختلف كذلك في سنة مولده فقيل : سنة ١٣٦ هجرية و ١٤٥ هجرية و ١٥٠ . ولكن الأرجح ؛ أنه ولد سنة ١٤١ هجرية . واختلف أيضاً في سنة وفاته فقيل سنة ١٩٥ هجرية و١٩٦ هجرية و ١٩٨ هجرية و ١٩٩ هجرية و ٢٠٠ هجرية ولكن الأرجح أنه توفي سنة ١٩٩ أو ٢٠٠ أي : بعد مقتل الأمين بعام أو عامين .

في بغداد :

قدم أبو نواس بغداد، وفي نفسه أمل بالثروة وطموح إلى الغنى . وأمامه طريقان، فاختار الطريق السلميّة واتصل بأولاد المهدي، فكان لا يُرى إلاّ معهم . ثم اتصل بالقاسم بن الرشيد وحاول أن يستفيد من البرامكة فنافسه على هذه المنزلة أبان الشاعر ولم يمكنّه منهم فهجاه وهجاهم . وكان أكبر همّه أن يتّصل بالخليفة . فيقدم إلى بابه يتسقط أخبار القصر الداخلية وينظمها شعراً ويبعث بها إلى الرشيد . حتى توصّل إليه . فمدحه ونفق عنده ونال جوائزه وأصحبه ابنه الأمين ليعلّمه الغريب والشعر . وكان الأمين جميل الصورة فتعلق به أبو نواس طمعاً وحباً، وصحبه حتى قتل .

أخذ الشاعر جوائز الخليفة، فلم يصنها، ولم تمسك يداه هذا المال الوفير، إلا ليخرج من القصر فينفقه عَلَى إخوان الحانات قطربُّل وكُلْواذ وسواهما . ويمضي أيامه مابين يومٍ إلى شهر لا يخرج من حانة، إلا إلى حانة . ولا يصحو من سكرٍ، إلا إلى سكر جديد . وحوله الشعراء الفساق أمثال : والبه وحمّاد عجرد ومسلم بن الوليد والفضل الرقاشي ومطيع بن أياس والحسين الضحّاك . . . وحولهم غلمان وغانيات كما هي حال الخمارات (والبارات)

في عصرنا الحاضر .. ينفقون المال على اللذة من غير حساب . ويسرفون في اللهو والشراب والفسوق من غير حساب . حتى إذا نفض الكف من دراهمه عاد إلى القصر فاستوهب المال ورجع إلى الحانة . واشتهر عنه ذلك في بغداد . وغلب صيته سائر الشعراء . وانتشر شعره على لسان البرّ والفاجر والقينة والحرّة فتحاشى الرشيد أن يجعله شاعر الخلافة ، فكان يقرّبه حيناً ويزجره أحياناً . ويسجنه ثم يستتيبه . وهكذا دواليك . انظر إليه يصف حياته في بغداد :

الورد يضحك والأوتار تصطخب والناي يندب أحيانا وينتحب
والقوم إخوان صدقٍ بينهم نسب من المودّة ما يلقى به نسب
تراصفوا درة الصهباء بينهم وأوجبوا لنديم الكأس ما يجب
لا يحفظون على السكران زلّته ولا يريبك من أخلاقهم ريب

في مصر

كأن الدنيا ضاقت بأبي نواس لأمرٍ ما . وفي وقت لم يعينه التاريخ بالضبط . وقد سمع بكرم الخصيب عامل مصر ؛ فقصده ونال منه على ما يقولون ٣٠٠٠ دينار صرفها في عام واحد على ضفاف النيل . والحّ على الخصيب بالطلب وهو يقول :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقّا فكلاكما نهر

فردّه الخصيب بلطف ، لأن مثل هـذا الإسراف ؛ لا تـكفيه خزينة الدولة . فغضب ورجع إلى بغداد يهجوه ويشتمه وهو يقول:

خبز الخصيب معلّق بالـكوكب يُحمى بكل مثقّف ومشطّب
جعلَ الطعامَ على بنيه ؛ محرّمًا قوتاً . وحلّله لمن لم يسغب
فإذا هم نظروا الرغيف تطرّبوا: طربَ الصيام إلى أذان المغرب

وكان إذا سئل كم أعطاك الخصيب ؟ يقول : مئة دينار !

كانت هذه الرحلة في زمن الرشيد من غير شك . لأنا نعلم أن الرشيد غضب عليه لقوله في الخصيب ومصر :

فإن يك باق إفك فرعون فيـكم
فإن عصا موسى بـكفّ خصيب

وزعم أنه يتهـكم بموسى النبي فأمر بقتله فـاستشفع فيه صديقه الأمين وأطلقه .

مع الأمين

كلف الرشيدُ الـكسائيَ النحوي بتأديب الأمين . وأرفقه بأبي نواس ليخرّجـه في الغريب وفنون الشعر . وكان الأمين صبياً غراً جميل الوجه حسن الصورة ، فاشتهى أبو نواس أن يقبّله !! فسأل الـكسائي أن يسمح له بذلك فأبى . فألحّ عليه أبو نواس وصنع هذين البيتين وأوهمه برفعهما إلى الخليفة :

قل للإمام جزاه الله صالحةً لا يجمع الله بين السخل والذيب
السخل غرٌّ . وهم الذيب غفلته والذئب يعلم ما في السخل من طيب

فجزع الكسائي وقال لأبي نواس : لا بدّ من الحيلة . تغيّب أياماً . ثم عدْ كأنك قادم من سفر ، فأعانقك ويعانقك الأمين فتقبّله . وهكذا كان ! !

هذا أول اتصال الشاعر بالأمين . ثم لما تولّى الخلافة بعد أبيه ؛ احتجب عن الناس وقرّب أبا نواس وانغمس بين جواريه وغلمانه ؛ يتقلّب على بساط من الزهور . وحوله غلمان وحور . يحتسي الخمرة ويستمع إلى انشاد الشاعر وأطاريفه وفكاهات القيان وأغاني الندمان . فشاع ذلك في المدينة وتلقّفته آذان منافسه المأمون في خراسان ؛ فأخذ يقوم بدعاوة منظمة ضدّه . ومن جملة دعاويه ؛ إنشادُ شعر أبي نواس الفاسق ، أمام الناس . ويقول المنشد: إنه سمير الخليفة في بغداد ونجيّه ، فيهيج الناس عليه . وتردّد صدى هذه الدعاوة في قصر الأمين وبين أساطين الدولة ؛ فأشاروا عليه بإبعاد هذا النديم فسجنه على رءوس الاشهاد . ولكنه لم يستطع عنه صبراً فأخرجه ومنعه من شرب الخمر وذكرها في شعره . فكان يصطبر حيناً ويثور أحياناً . فيشربها وينشد الشعر صريحاً تارةً ومعمّىً تارةً أخرى . على طريقة بشّار يوم منع

من التغزل . يتغزل كما يهوى ؛ ثم يقول : هـذا الذي منعني عنه الخليفة :

غنّنا بالطلول كيف بلينا ... واسقنا نعطك الثناء الثمينا
فإذا ما لمستها فهباءٌ ... يمنع الكفّ ما يهيج العيونا
وغزالٍ يديرها ببنان ... ناعمات يزيّد العسر لينا
ذاك عيش لو دام لي غير أني ... عفته مكرهاً وخفت الأمينا!!

والأمين يحبسه تارةً ويطلقه أخرى . ويقرّبه وينادمه ويرفع منزلته حتى كانت تمرّ به قواد الجيش وكبار رجال الدولة وهو مضطجع فلا يتحرك لهم ولا يقبض رجله ! !

قضى كذلك في صحبة الأمين خمس سنوات ذاق فيها أفاويق النعيم كما يهوى . يسجن فلا يعذّب ويقرّب فلا يطرب ولما طال سجنه مرةً قال :

يارب إن القوم قد ظلموني ... وبلا اقتراف معطّلٍ حبسوني
ما كان إلاّ الجريُ في ميدانهم ... في كل خزي . والمجانة ديني
أما الأمين فلست أرجو دفعه ... عني . فمن لي اليوم بالمأمون

فبلغت أبياته المأمون فقال : والله لئن لحقته لأغنينّه غنىً لا يؤمله .

ثم قتل الأمين سنة ١٩٨ هجرية وأعلنت خلافة المأمون

في بغداد — وإن بقي هو في خراسان بعد مقتل أخيه ست سنوات — فهل نرى الشاعر تقرّب منه أو حاول ذلك ؟ لا ! ولعلّ له أسباباً كثيرة أهمها :

١ً — وفاؤه للأمين وحزنه عليه

٢ — المأمون جديّ . ولا يستطيع الشاعر أن يعيش إلا ماجناً ، فلا يمكن أن ينال الحظوة عنده مثلما نالها عند الامين

٣ — تشيّع أهل خراسان وتشدّدهم في قبول المغفرة . وهو على الضدّ من ذلك . له أمل كبير بعفو الله يقول :

لاتحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً

فإن حظركه في الدين إزراء

لغته وثقافته

رأيت أن العراق في العصر الثاني كان موئلاً لكل ثقافات الدنيا ، تجمعت فيه واختلطت . وتأثر بها الشعراء فأصبحت أفكارهم تعبّر عن عصرهم . وهذا مانراه في أبي نواس ، فإنه مثال صادق لهذا العصر المتمازج . ترى فيه : شعر البادية جلفاً جافياً فيه ألفاظ جاسية غريبة جداً كما في رثائه لأستاذه خلف . أو في طردياته . وتراه أرق من ذلك قليلا . ولكنه صورة للقديم حين يخاطب المحافظين في اللغة والعادات والدين والشعر كما في مدحه الرشيد

والفضل ابن الربيع والعباس بن عبيد الله بن أبي جعفر كأنك تقرأ فيه شعر الفرزدق أو جرير . وتراه يرقّ في غزله ومجونه ووصفه ؛ حتى يشابهَ الماء صفاء ورونقاً وليونةً . لاتجد فيه لفظاً نافراً أو تركيباً معقداً . بل كأنه نثر منظوم أو شعر منثور . وترى فيه الفاظ الفلاسفة حيناً وتعابير الحانات حيناً آخر .

وبالجملة فقد انقادت إليه اللغة طائعةً مختارة يصرّفها كيف يشاء . وهو فيما بين هذا وذاك ؛ صادق اللهجة يتصوّر في شعره عصره كلّه أتمّ تصوير . ويظهر أن الشعر ؛ أصبح في زمنه فناً يقصد لذاته وصنعةً تمارس بالتمرين كسائر الصنعات . لها طرقها وأساليبها . لاشعوراً طبعياً غير مهذب بفنّ ولا مشذّب بتعليم ، كما كان في الجاهلية أو صدر الدولة الأموية . يحدثون : أن أبا نواس استأذن خلفاً في نظم الشعر فقال : لا آذن لك حتى تحفظ ألف مقطوع للعرب . فغاب عنه مدة وحضر إليه فقال : قد حفظتها . وبقي أياماً ينشده منها . ثم سأله أن يأذن له في نظم الشعر فقال خلف : لا آذن لك حتى تنساها . قال : هذا صعب فإني قد أجدت حفظها . قال لا آذن لك . فذهب إلى بعض الديرة وخلا بنفسه زمناً حتى نسيها . فعاد إليه فقال : قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط . فقال له ، الآن فانظم الشعر !!

إن هذه القصة على ما يظهر فيها من علائم الوضع ؛ تعطينا صورة عن طريقة تعلم النظم ومعاناته .

ومهما يكن شأنها ؛ فإن أبا نواس متأثر - لا شك - بكثرة ما وعى وما حفظ . نشاهد ذلك في اقتباساته الكثيرة من شعر غيره ولنأت بأمثلة :

وكل ما بين هلالين لغيره قد ضمّنه في شعره :

كلما أسقاك غنّى (كل ضيق لانفراج)

ومسمعةٍ إذا ما شئت غنّت (متى كان الغلام بذي طلوح)

فجاء بها تخبّ كماء مزنٍ وأنشأ منشداً شعر امتداح

(أتصحو بل فؤادك غير صاح عشيّة همّ صحبك بالرواح)

(ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح)

حتى تغنى وقد مالت سوائقه (يا دير حنّة من ذات الأكيراح)

فقال هات أسقني واشرب وغنّ لنا

(يا دار شعياء بالقاعين فالساح)

وهو نفسه القائل : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب ، منهن الخنساء وليلى . فما ظنّك بالرجال ؟ ! وإني لأروي سبع مئة أرجوزة ما تعرف ! ؟

الثورة على القديم :

كانت في أبي نواس شعوبية قويّة . بل قل إنها كره للبادية العربية وميل إلى الحضارة الفارسية . فإذا قال امرؤ القيس

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ..

قال أبو نواس مستهزئاً به :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ماضرّ لو كان جلس

اترك الربع وسلمى جانباً واصطبح كرخيّةً مثل القبس

وإذا وصف الشعراء الأطلال والمنازل سخر منهم وهزئ بهم فقال :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرمِ

دع الأطلال تسقيها الجنوب وتبكي عهدَ جدّتها الخطوبُ

دع الربع ماالربع فيك نصيب وما إن سبتني زينبٌ وكعوب

ولكن سبتني البابليّةُ إنها لمثلي في طول الزمان سلوب

دع عنك لومي فإن اللوم اغراءُ وداوني بالتي كانت هي الداء

لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلةٍ كانت تحلّ بها هند وأسماء

عاج الشقيّ على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمّارة البلد

يبكي على طلل الماضين من أسدٍ لادرّ درّك قل لي من بنو أسد

ومن تميم ومن قيس ولفّهما ليس الأعاريبُ عند الله من أحد

لاجفّ دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلبُ من يصبو إلى وتد

دع ذا ـ عدمتك ـ واشرب بها معتقةً صفراء، تفرق بين الروح والجسد

من كفّ مضطمر الزنار معتدلٍ كأنه غصن بانٍ غير ذي أود

أما رأيت وجوه الارض قد نضرت

وألبستها الزرابي، بثرة الأسد ؟ !

حاك الربيع بها وشياً . وجلّلها بيانع الزهر؛ من مثنى ومن وحد

واستوفت الخمر أحوالاً مجذمةً وافتر عيشك عن لذاتك الجدد

فاشرب وجد بالذي تحوي يداك لها لاتذخر اليوم شيئاً خوف فقرِ غد

لو كان لومك نصحاً كنت أقبله لكنّ لومك موضوع على الحسد

فهو يتحامل على القدماء وعلى الشعراء المقلّدين ويقول لهم :

ألا تنظرون إلى ما حولكم ؟ أنتم في مدينة وربيع وحضارة ونعيم فلماذا تقلّدون القدماء بوصف الديار والأطلال والإبل والشياه ؟ وإذا كان لا بد من وصفها فالأجدى ؛ وصف أطلال الشرب والخمرة كقوله :

ودار ندامى عطّلوها وأدلجوا بها أثرٌ منهم جديد ودارسُ

مساحب من جرّ الزِقاق على الثرى وأضغاث ريحان : جنيّ ويابس

حبست بها صحبي وجدّدت عهدهم وإنّي على أمثال تلك لحابس

على أن أبا نواس وإن تحامل على القدماء بشدّة ؛ فقد اضطر أحياناً لتقليدهم . فوصفَ الأطلالَ والناقةَ وصدّر بها مديحه ؛ فأجاد الوصف إجادة لا تقلّ عن الجاهليّين . ولكن لمن ؟ للمحافظين لا شك كالرشيد وامراء البيت المالك ، ليُري المتعصبين ؛ أنه لا ينكر القديم عن جهل ؛ ولكن عن علم عميق ولشعوبيته وحبّه الجديد ؛ نعى على كل قديم حتى الدين فقال:

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدي: نعص جبّار السموات

أطيب اللذات ماكان جهاراً بافتضاح

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهر

وقائل هي تريد الحج قلت له نعم . إذا فنيت لذّاتُ بغداذ

ويفتتح قصائده حتى أمام الخليفة الرشيد والأمين بوصف الخمرة بدلاً من وصف الأطلال والشاء . وقد شهدوا عليه مرةً أنه شرب في يوم مطير فوضع قدحه تحت السماء فوقع فيه المطر . فقالوا له ما تصنع بذلك ويحك ؟ قال : أنتم تزعمون أنه ينزل مع كل قطرة مَلَكٌ . فكم تراني أشرب من الملائكة !؟ وقد كان أحياناً يضع الأحاديث المكذوبة في شعره ؛ تندّراً وتماجناً ، فيغيظ المحدثين ويتهكّم بهم . يقول مثلاً :

ولقد كنا روينا عن سعيد عن قتادة
عن سعيد بن المسيب أن سعد بن عبادة
قال من مات محباً فله أجر شهادة

كان أبو نواس يتحامل على القديم بكل ما فيه . ويثور ثورةً جامحة في شعره وطرز حياته ، ليجبر من حوله على هذه الحياة ويجرّهم إلى الاعتراف بالتطوّر الواقع . وسنراه بعدُ مجدداً في كل ناحية من نواحي شعره .

شعر الخمر :

وصف القدماء الخمرة . ولكنهم لم يتجاوزوا في ذلك ؛ وصف شربهم بالقداح الكبيرة والصغيرة . وأنهم إذا شربوا يكونون أكثر بذلاً للمعروف وحفاظاً للعفة والعرض . وأنهم إذا اسكروا شعروا بالعظمة ... وما ماثل ذلك من الأفكار الماديّة . ويمتدون بها إلى التمدّح والفخر يقول المنخل :

ولقد شربت من المدا مة بالكبير وبالصغير
فإذا سكرت فانني رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

ويقول عنترة :

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي . وعرضي وافرٌ لم يكلم

وأكثر من وصف الخمرة في الجاهلية : الأعشى وعديّ ابن زيد العبادي . ووصفهم ؛ لا يخرج عن هذه المعاني كثيراً .

وجاء الإسلام ؛ فهدأ وصف الخمرة إلا بعض نفثات كانت تسمع من أبي محجن الثقفي[1] وأضرابه وهم قليل .

يقول أبو محجن :

إذا متُّ فادفنّي إلى أصل كرمةٍ تروّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة . فإنني أخاف إذا ما متُّ ؛ ألاّ أذوقها

وفي صدر الدولة الأموية ، تردد ذكرها على لسان الشاعر النصراني الأخطل القائل :

إذا ما صديقي علّني ثم علّني ثلاث زجاجات لهنّ هديرُ
خرجت أجرُّ الذيل تيهاً كأنني عليك أمير المؤمنين أمير

وفي أواخر الدولة الأموية أفشى الخليفة الوليد ؛ وصف الخمر والغناء والشرب وما يتبعه . وجدّد فيه قليلاً . ولكنه لم يخرج كثيراً عن اتخاذ الخمرة وسيلةً للتمدح يقول :

اصدغ نجيّ الهموم بالطرب وانعم عَلَى الدهر بابنة العنبِ

---

(١) شاعر فارسٌ شجاع أدرك الجاهلية والإسلام ، نفاه عمر لوصفه الخمرة ؛ فهرب إلى القادسية وأبلى فيها أحسن البلاء فأطلقه سعد بن أبي وقاص

فقد تجلّت ورقّ جوهرُها حتى تبدّت في منظرٍ عجب
فهي بغير المزاج، من شرر وهي لدى المزج سائلُ الذهب
في فتيةٍ من بني أميّة أهل المجد والمأثرات والحسب
ما في الورى مثلهم · ولا بهم مثلي · ولا منتمٍ لغير أب

وجاء أبو نواس في العصر الثاني وفي زمن بني العباس : عصر التجدد والتطوّر · فلم يكتف بما وضعوا · بل وصف الخمرة بأشكالها وطعومها وكئوسها والشرب والندامى والخمارات وفعل المسكر وسبّح باسمها وقدّسها وتسلّح بها ضد الهموم واستخرج منها صورةً ماديّةً يخاطبها وتخاطبه · واشتهر في هذا التجديد حتى قيل : وصفُ أبي نواس للخمرة ؛ لو سمعه الحسنان (الحسن البصري وابن سيرين فقيهان مشهوران) لهاجرا إليها وعكفا عليها ·

الحق : لقد اتخذ أبو نواس الخمرة عروس شعره وفنّه يسبّح باسمها كما يسبّح المؤمنون بأسماء الله الحسنى · يقول :

أثنِ على الخمر بآلائها وسمّها أحسن أسمائها

ويعتكف لأجلها أياماً وأسابيع في الحانات والبساتين · ويصف تأثيرها فيه وفي أصدقائه · ويرفع من شأنها ويدافع

عنها ويضع دستوراً للندامى والشرب كأن الخمرة العنصر الأول في حياة هذا الشاعر الماجن وشعره .

ووصف الخمرة عند أبي نواس على ثلاثة أنواع :

١ً : وصفٌ أعجبَ القدماءَ وراقهم فغنوا به وحفظوه . كوصف الدنان والكئوس وخطاب الخمرة وخطبها من الدهقان وتزويجها بالماء ومدح شاربها ووصف قدمها وأنها قد شهدت عصر نوح ولم تطبخ على النار ومغالاته في ثمنها لجودتها ...

٢ — نوع أُعجب القدماء به وما زال يعجب المعاصرينَ . إما لجودة لفظه وحسن سبكه . أو لبراعة تصويره ودقة معانيه وحركته . كوصفه الندامى والسكران وآثار الشرب ...

٣ — وهناك نوع ثالث يصح أن نسميه شعر التاريخ، لأنه يصف الخمارات وأنواعها وعددها وكيف كان يذهب وأصحابه إليها ... الخ وإليك نماذج من كل نوع :

نماذج على النوع الاول :

عقد نطاح على الخمرة :

ياخاطب القهوة الصهباء يمهرها بالرطل يأخذ منها ملأه ذهبا
قصّرت بالراح فاحذر أن تسمّعها فيحلف الكرمُ أن لايحمل العنبا
إني بذلت لها لمّا بصرت بها صاعاً من الدرّ والياقوت ما ثقبا

فاستوحشت وبكت في الدنّ قائلةً يا أمّ ويحك؛ أخشى النارَ واللهبا

فقلت : لا تحذريه عندنا أبداً

قالت: ولا الشمس . قلت: الحرّ قد ذهبا

قالت : فمن خاطبي هذا ؟ فقلت : أنا

قالت : فبعليَ ؟ قلت : الماء إن عذبا

قالت : لقاحي ؟ قلت : الثلج أبرده

قالت : فبيتي ؟ فما استحسن الخشبا

قلت : القنانيّ والأقداح ولّدها

فرعون . قالت : لقد هيّجت لي طربا

لاتمكنّني من العِربيد يشربني

ولا اللئيم الذي إن شمّني قطبا

ولا المجوس ، فإن النار ربّهم

ولا اليهود . ولا من يعبد الصلبا

ولا السفال الذي لا يستفيق . ولا

غرّ الشباب . ولا من يجهل الأدبا

ولا الأرذال . إلا من يوقّرني

من السقاة . ولكن اسقني العربا

يا قهوةً حرّمت إلا على رجل

أثرى ؛ فأتلف فيها : المال والنشبا

نماذج على النوع الثاني :

سكران :

ومستطيل على الصهباء باكرَها ... في فتيةٍ باصطباح الراح حذّاقِ
فكل كفٍّ رآه ؛ ظنّه قدحاً ... وكل شخص رآه ؛ قال : ذا ساق

صوم !!

منع الصوم العقارا ... وزوى اللهو فغارا
وبقينا في سجون ... الصوم للهمّ أُسارى
غير أنا سنداري ... فيه من ليس يدارى
نشرب الليل إلى ... الصبح صغاراً وكبارا
نتغنّى ما اشتهيناه ... من الشعر جهارا
اسقني حتى تراني ... أحسب الديك حمارا !!

سكران :

فقام وقمت من أخوين · هاجا ... على طرب · وليلهما بهيمُ
أجرّ الزقّ وهو يجرّ رِجلاً ... يجور به النعاس ويستقيم

لوم واغراء :

دع عنك لومي · فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء ، لا تنزل الأحزان ساحتَها ... لو مسّها حجرٌ ؛ مسّته سراء
قامت بإبريقها - والليل معتكرٌ - ... فلاح من وجهها في البيت ؛ لألاء

فأرسلت من فم الإبريق صافيةً كأنما أخذها بالعين ؛ إغفاء
رقّت عن الماء حتى ما يلائمها لطافةً . وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً ؛ لمازجها حتى تولّد أنوارٌ وأضواء
دارت على فتيةٍ دار الزمان بهم . فما يصيبهمُ إلا بما شاءوا
لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلةٍ كانت تحلّ بها هندٌ وأسماء
فقل لمن يدّعي في العلم فلسفةً حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء[1]
لا تحظر العفو إن كنت امرءً حرجاً فإن حظركه ؛ في الدين إزراء

مغامر :

سأشربها صرفاً وإن هي حرّمت فقد طالما واقعتُ غير محلّل

شفاء :

فتمشّت في مفاصلهم كتمشّي البرء في السقم

نماذج على النوع الثالث :

الطريق الى الخمارة :

طرقتُ صاحبَ حانوتٍ بهم سحراً
والليل منسدل الظلماء كالساج
لمّا قرعتُ عليه البابَ أوجلَه وقال بين مُسرّ الخوفِ والراجي

---

(١) يعرض في هذا ؛ بالنظام المتكلم المعتزلي المشهور الذي يدعي أن صاحب الكبيرة مخلد في النار

من ذا ؟ فقلت : فتى قادته لذّته فليس عنها إلى شيءٍ بمنعاج
افتح . فقهقه من قولي . وقال : لقد هيّجت خوفي لأمرٍ فيه إبهاجي
ومرّ ذا فرحٍ ، يسعى بمسرجةٍ فاستلّ عذراء لم تبرز لأزواج
مصونةً حجبوها في مخدّرها
عن العيون لكسرى صاحب التاج
يديرها خنثٌ في لهوه دمثٌ
من نسل إذّ بنِ ذو قرطٍ ودوّاج
يزهي علينا بأنّ الليل طرّته والشمس غرّته واللونَ للعاجِ

عائد

فجاء بها تجدو بها ذات مزهر يتوقُ إليها الناظرون . ربيبُ
وأقبل محمودُ الجمال مقرطقٌ إلى كاسها ؛ لاعيبَ فيه . أريبُ
يشم الندامى الوردَ من وجناته فليس به غير الملاحة طيب
وغنّ لنا صوتاً بحسن ترجّع : (سرى البرق غرّبنا) فحنّ غريب
ومن كان منّا عاشقاً ؛ فاض دمعه وعاوَدَه بعد السرور ؛ نحيب

خمارات

قالوا : تنسّك بعد الحج . قلت لهم:

أرى وأرجو وأخشى طيرنا باذا

ما أبعد النسك عن قلب تقسّمه
قطربلّ فقرى بنّي فكلواذا

ما شئت من بلدٍ دانٍ منازهه
لكنّ فيه قبيلاتٍ وأهواذا

وللنواسي آراء في الخمرة ماجنة لذيذة المجون . فلا خير في العيش عنده إلاّ في السكر :

وما الغبن ؛ إلاّ أن تراني صاحياً
ولا الغنم ؛ إلا أن يتعتعني السكرُ

فعيش الفتى في سكرةٍ بعد سكرةٍ
فإن طال هذا عنده ؛ قصر الدهرُ

ولا خير في فتكٍ بغير مجانةٍ
ولا في مجونٍ ليس يتبعه كفر

ومقدار الشرب عنده أربعة أرطال فصاعداً

رأيت طبائع الإنسا ن أربعةً هي الأصل
فأربعةٌ لأربعةٍ لكل طبيعةٍ رطل

ولكنه لا يكتفي بذلك بل يشرب حتى يظنّ الديك حماراً .

ويعتقد أن في الخمرة روحاً تنشيه وتقوّي روحه :

مازلت أستلُّ روح الدنّ في لطَف
واستقي دمه من جوف مجروح .

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي

والدنّ منطرحٌ جسماً بلا روح

ومقياس التفاضل بين انواع الخمور : طريقة عصرها وطبخها .

فالمعصورة بالأرجل أجود :

فدع التي عصرت يداك وعاطني - لله درّك - من عصير الأرجل

والمطبوخة بالشمس أقوى فعلاً في المخمور

فاطبخ الراح بشمسٍ وكفى بالشمس نارا

ويصرف في سبيلها كل ما يملك . حتى جبته وقميصه ولو بقي عارياً . ويشربها بكاسات من البلور مزيّنة بالرسوم الكسروية:

تدار علينا الراح في عسجديّةٍ حبتها بأنواع التصاوير فارسُ

قرارتها كسرى . وفي جنباتها مهاً . تدّريها بالقسيّ الفوارسُ

فللخمر ؛ ما زرّت عليه جيوبها وللماء ؛ما دارت عليه القلانس

ويشربها صرفاً وممزوجة بالماء ولكنه يفضلها صرفاً صافية :

لاتجعل الماء لها قاهراً ولا تسلّطها على مائها

وبالجملة ؛ فشعر الخمر عند النواسي ؛ بعيد التطوّر عمّن سبقه . ولم يلحق به من أتى بعده . فحُقَّ له أن يقول : أشعاري في الخمر ؛ لم يُقَل مثلها . وهي أجود شعري .

شعر الغزل :

تغزّل أبو نواس : بالنساء وبالغلمان . فأجاد القسم الثاني

إجادة فنيّة تعجب بها مع شدّة منافرتها للاخلاق والطبيعة والعادات والدين . وقصّر في القسم الأول . فكان ماجناً مداعباً . لم يدخل الحب الخالص قلبه . ولم يعتصر منه شعراً صحيحاً في الهوى والغرام . وإنما شعر في اللذة والمجون والفن. ولم يكن المذهب الغلماني بدعاً في العصر العباسي . لكنه من مخلّفات العصر الأموي . وإن كان قليلاً ومستتراً ونادراً . وكانت بنات الهوى وقيان الحانات ؛ يتزينّ بزيّ الغلمان ، ليكنّ أشهى إلى قلب الرجال وأملك للذّتهم وأفتن لشهوتهم ! ! وكانوا يسمونهن : الغلاميات والمطمومات والمجمّمات .

بمثل هؤلاء المطمومات : تغزّل أبو نواس . لأنه لم يتصل بحرّة . وأنّى له أن يتصل بسيّدة كريمة ؛ ومذهبه في الغلاميات! يقال : إن أهله حاولوا أن يزوجوه فغالب إرادتهم زمناً . ثم وافقهم . ولكنه طلّق عرسه من الليلة الأولى . على أنه يذكر في شعره أمام الخصيب ؛ أن له بنتاً وزوجة :

يا ابنتي ابشرى بميرة مصرٍ ... وتمنّي وأسرِ في الأماني

تقول التي عن بيتها خفّ مركبي ... يعزُّ علينا أن نراك تسيرُ

ورثى ابناً له في قصيدة أخرى :

كأني وترت الموت بابنٍ ، أفاده ... على حين حانت كبرةٌ ومشيبُ

ولكنا لا نعرف على التحقيق أنه تزوج ونسل .

ويحدثون : أنه أحب جنان الجارية حباً صادقاً وأنه حج ليستطيع أن يراها في الطريق :

ألم ترَ أنني أفنيتُ عمري ... بمطلبها . ومطلبُها عسيرُ
فلمّا لم أجد سبباً إليها ... يقرّبني . وأعيتني الأمور
حججت.وقلت قدحجّت جنان ... فيجمعني وإياها المسير ! !

ويقولون إنها بادلته هذا الحب وتورطت معه في الإثم حتى في الكعبة . وهو نفسه يصف ذلك بقوله :

وعاشقين التفّ خدّاهما ... عند التثام الحجر الأسودِ
فالتقيا من غير يأثما ... كأنما كانا على موعدِ
لولا دفاع الناسِ إياهما ... لما استفاقا آخر المسندَ
قلنا : كلانا ساترٌ وجهه ... مما يلي جانبه ، باليد

قالوا إن حبهما كان متبادلاً . وإن أبا نواس لم يصدق في حبّ امرأة سواها إلا في عنان الجارية . ولكن الشك في ذلك كان قويٌّ جداً . فقد حدثوا أنها عاضبته زمناً ثم أرسلت تستعطفه فأبى . ورجته مرةً أن يكفّ ألسنة الناس عنها بانقطاعه عن زيارتها زمناً فقال نكاية فيها :

أيها الناس فاسمعوه وعوا ... إن جناناً صديقة الحسن

وأرادت مولاتها أن تهبه إياها . فاشترطت عليه جنان أن يترك المجون والفجور لتقبل به ؛ فلم يضمن لها هذا الشرط . أفلو كان يحبها حقاً أكان يفعل بها ذلك ويكايدها ويشهرّها ؟!

قلنا : إن النواسي لم يتغزل بالحرائر لأنه لم يصل إليهن . وما كان يريد أن يصل إليهن . وإنما تغزّل بالجاريات وقيان الحانات فأجاد . حتى لو قرأت وصفه فيهن ؛ لظننت شاعراً معاصراً يصف فتاةً أوروبيّة من فتيات الملاهي الفاجرة في زماننا . والقطعة التالية نموذج منها :

أسعد يومٍ لها حظيتُ به ... مقالها لي ولست بالناسي
لذلك اليوم ، ماحييت . وما ... ترجم قولي سوادُ أنفاسي
تقول لي - والمدام مرسلة ... تفيض حولي نفوس جلاسي -
هل لك أن تطرد النعاس ؟ فقد ... طاب انضواع المدام والآس
قلت لها : فابتدي وهاتي . فما ... حسوتِ منها ؛ فإنني حاسِ
وغايتي ، أن أنال فضلتها ... في الكأس من شربها ، أو الطاس
ثم ؛ أظن الحذار نبّهها . ... وما بها قد أردت من باس
قالت : فدع عنك الاحتيال ، لما ... أردت سكري له وإنعاسي

أعرضت عنها - وقد فهمت - لكي
تحسب أني لقولها ناسي

ثم دعتها المدام من كثبٍ والليل ذو سدفةٍ وإدماس ـ
فاحتلبتْ زقاً فمجّ لهـا
في الكأس راحاً ؛ كضوء مقباس
ثم تحسّت حتى إذا شربت نصفاً . كما قيس، لي بمقياس
نازعتها الكأسَ فيه فضلتها ففزت بالكأس؛ بعد إمراس
فكادت النفس ـ للسرور بها ـ تخرج بين المدام والكاس

وهذه القصيدة ؛ بقدر ما تصوّر لنا نفس أبي نواس ؛ تعطينا كذلك صورة صادقة عن حياة الشباب المتهتّك والفجور الفاشي في عصره .

وأبو نواس مع هذا ؛ يميل إلى النوع الآخر من الغزل الغلامي حتى إنه يتغزّل بالمرأة بصيغة المذكر تحبّباً . وكان هؤلاء الغلمان ؛ يلبسون الأقراط والشنوف والدمالج والخلاخيل تخنثاً . فسمّوا « المخنثين » وسنورد فيما يلي بعض أعفّ هذا النوع من الغزل للاطلاع . ونحن نعتقد أنه لا يمثّل نفسه تمثيلاً صحيحاً أبداً . لأن ما يمثله صدقاً ؛ لا سبيل إلى نشره في كتاب مدرسي :

شريتُ النسكَ بالثمن الربيح وبعتُ النسكَ بالقصف النجيحِ
ورب مخضبِ الأطراف رخصٍ مليحِ الدلّ ذي وجهٍ صبيحِ

ظفرتُ بهِ ونجم الصبح بادٍ عبادته ؛ على دين المسيح

يسعى بها خنثٌ في خلقه دمثٌ يستأثر العين في مستدرج الرائي
مقرّطٌ وافي الأرداف ذو غنج كأن في راحتيه وشمُ حنّاء
قد كسّر الشعرَ واوات . ونضّده فوق الجبين . وردّ الصدغ بالفاء
إني لأشربُ من عينيه صافيةً صرفاً . وأشرب أخري مع ندامائي

مزج الكأسَ لي غزالٌ أديب هاشميٌّ . أصاب فيها المزاجا
فتحسيتُها وناولت ظبياً فاترَ الطرفِ ساحراً مغناجا
قال لي - والمدام تأخذ فيه — ياأميري؟ إن كنت بي ملهاجا ..

يمدّ بها إليك يدا غلام أغنّ . كأنه رشأٌ ربيبُ
غذته صنعةُ الدايات . حتى زها . فزهابه دلٌّ وطيبُ
ينوء بردفه . فإذا تمشّى ؛ تثنّى في غلالته قضيبُ
فإن جمّشته ؛ خلبتْكَ منه طرائف . تستخفُ بها القلوبُ
يكاد ؛ من الدلال إذا تثنى عليك . ومن تساقطه : يذوب!!

شعر المدح :

ليس في شعر المديح عند النواسي صورة لنفسه . فلم يكن يمدح عن حبّ . ولكن عن حاجة . ولذلك يتعمّد الصنعة ويصطاد الغريب ويعتقل الشارد . لأنه في موقف جدّي وربما صدّر مدائحه بوصف الناقة أو الفرس التي حملته إلى

الممدوح على الطريقة البدويّة القديمة . وربما صدّرها بوصف الخمرة . وهو صادق بعض الصدق في مدح الأمين والخصيب ولكنه كان يتكلف حين يمدح البرامكة أو الرشيد . كانت تضطره الحاجة للمال ؛ أن يمدح الخليفة أو الأمراء ؛ ليعيش برفدهم ويستعين بمالهم على اللذّة . والتقربُ إلي نفوسهم . ونوالُ رضاهم ؛ لا يكون إلاّ بالرصانة والجدّ . لذلك جدّ في مديحهم وترصّن وبلغ مابلغ الشاعر الجاهلي من شدّة أسرٍ وقوة سبك وصيد غريب . انظر إلى قوله في مدح الفضل بن الربيع :

وبلدةٍ فيها زَوَرْ ... صعراء تَخطَي في صعَرْ

كانَ له من الجَزَرْ ... كلُّ حنينٍ ما استكر

ولا تَعلاّه شَعَرْ ... ميت النّساء حيّ الشَعَر

كأنّه بعد الضَمَر ... وبَعْد ما جال الضَفَرْ

وانمحَّ فيءٌ فحَسَر ... جأبٌ رباعي الثغر

يحدق بحقب كالأكَر ... تُرى باثباج القصر . .

. . . . . إليك كلّفنا السفر

خوصاً يجاذبن النحر ... قد انطوت منها السُرَرْ

طيَّ القراري الحبر ... لم تتقيدها الطِيَرْ

فهل فهمت منها شيئاً ؟! وانظر إلى القطعة المشهورة التالية فإنها قريبة منها يمدح بها العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور :

أيها المنتابُ من عُفرِه ... لستَ من ليلي ولا سمرهْ
لا أذود الطيرَ عن شجرٍ ... قد بلوتُ المرَّ من ثمرِه ...
خاض بي لجّيه ذو زَجَرٍ ... يُفعمُ الفضلين من ضُفُرِه
يكتسي عُثنونُه زبداً ... فنصيلاه إلى نحرِه
ثم يعتمّ الحِجاجُ به ... كاعتمام الفوفِ في عُشرِه
ثم تذروه الرياح . كما ... طارقطنُ الندفِ عن وتره
كل حاجاتي تناولها ... وهو لم تنقص قُوى أَشَرِه
ثم أَدناني إلى ملكٍ ... يأمن الجاني لدى حُجُرِه
فاسل من نوءٍ توأمّله ... حسبك العباسُ من مطره
كيف لا يدينك من أملٍ ... مَنْ رسولُ اللهِ من نفره ..

هذه القطعة لا شك من نمط القطعة الأولى ، غير أنها أخفّ قليلاً . ولكنها على كل حال قويّة السبك ، تعجب من يحبّ هذا الأسر الشديد والتقليد الممتاز . ولقد سمعها ابن الأعرابي فقال : «أحسن والله . لو تقدّم هذا الشعر في صدر الإسلام ؛ لكان من الأشعار السائرة» .

ولمثل هذا الشعر ؛ كان يقول علماء اللغة : لولا فسوق صاحبه لاحتججنا بشعره .

وخير قصائده الصادقة في المديح – على ما نعتقد – ما قاله في الأمين . وأسيرُها جميعاً ؛ القطعة التالية . وسبب إنشاد هذه القصيدة ؛ أن الأمين احتجب عن الناس بعد توليّه الخلافة ، فساءت ظنون الناس به . وأُشير عليه أن يخرج لهم ساعة من نهار ؛ ففعل . وركب بعدها الحرّاقات للنزهة . فاصطفّ له الجنود وازدحم الناس ليروا الأمين يركب وحاشيته في حراقتيه الليث والعقاب . فأنشد النواسيُّ في هذه المناسبة القطعة التالية :

سخّر الله للأمين مطايا لم تسخّر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرّن براً سار في الماء راكباً ليثَ غابِ
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهرتَ الشدقِ كالحَ الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوه على صـورة ليثٍ يمرُّ مرَّ السحاب
سبّحوا إذ رأوك سرت عليه
كيف لو أبصروك فوق العقاب ؟!
ذات زورٍ ومِنْسَرٍ وجناحين – تشقُّ العُبابَ بعد العُبابِ
تسبقُ الطيرَ في السماء إذا مـا استعجلوها بجيئةٍ وذهـاب

بارك الله للأمين وأبقاه — وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصرُ المدائح عنه هاشميٌّ موفّق للصواب

وليس في شعر المديح عنده كبير فن، ولا معنى جديد كل الجدّة. ولكنه مقلّد ممتاز. إذا احتاج للتعظيم؛ يحشو القصيدة بالوصف. كما رأيت في وصف الليث والعقاب والفرس والناقة. أو يمعن في المبالغة. لعلمه أن هؤلاء الملوك المستبدين؛ ترضيهم المبالغة لأنها نوع من الدعاوة. فيقول للرشيد:

لقد اتّقيتَ اللهَ حقَّ تقاته وجهدتَ نفسك فوق جهد المتقي
وأخفتَ أهلَ الشرك حتى إنّه لتخافك النُطَفُ التي لم تخلق!!

شعر الهجاء

شعر الهجاء عند أبي نواس على ثلاثة أقسام:

١ – هجاء سياسي وشعوبي. يهجو به العرب والنزاريين منهم بصورة خاصة، والأمويين والبرامكة، لأنه يكرههم فيقول:

هذا زمان القرود فاخضع وكن لهم سامعاً مطيعا

وقد تقدّم من هذا النوع نماذج في بحث «الثورة على القديم». (انظر صفحة ٣٨٥)

٢ – هجاء العلماء واللغويين وأصحاب النحو والكلام.. لأنهم كانوا يقفون في طريق التجدّد والتطوّر الأدبي

ويتعصبون للقديم . وهجاؤه فيهم مقذع شديد الإفحاش .

كقوله في أبي عبيدة :

صلى الإله على لوطٍ وشيعته أبا عبيدةَ : قل بالله آمينا

فأنت عندي بلا شكّ بقيته منذ احتلمتَ . وقد جاوزت سبعينا

٣ - هجاء الإخوان والأصحاب وفيه إقذاع شديد ولكنهم مع هذا ؛ كانوا يحتملونه منه . من هذا القبيل : هجاء أحد الثقلاء :

وقد طوّلت تفكيري فما أدري لما تصلحْ

فما تصلح أن تهجى ولا تصلح أن تُمدحْ

بلى استغفر الله — على وجهك قد يُسلَح

وقوله في مغنٍ :

فأصيبوا لنا حسيناً ففيه عوضٌ عن جليد بردِ الشتاء

لو تغنّى ، وفوه ملآن جمراً لم يضره . لبردِ ذاك الغناء

وقوله في العبّاسة :

ألا قل لأمين الله وابن القادة الساسةْ

إذا ما ناكثٌ سرّك أن تفقده راسه

فلا تقتله بالسيف وزوّجه بعبّاسة ! !

شعر الرثاء :

شاعر كأبي نواس ، عاش مغموراً بين الكأس والطاس ، يتحرّى اللذة حتى في أقبح صورها ؛ يرى الدنيا أحقر من أن يُهتم لها ويُتفانى في سبيلها ويؤسف على فراقها . لذلك لا يتألم لفراق الناس ذلك الفراق الأبدي . ولا يشعر بفراغهم المتروك حوله . ولقد مات أستاذه والبة ؛ فرثاه بأبيات هي أقرب لجفاف العاطفة من الألم والتحسّر يقول :

فاضت دموعك ساكبةْ جزعاً لمصرع والبةْ
قامت بموت أبي أُسامة في الزقاق النادبة !
قامت تبثُّ من المكارم — غير قيل الكاذبة
لا تبعدنّ أبا أُسامة — فالمنيّةُ واجبة
كتب الفناء على العبادِ — فكلُّ نفسٍ ذاهبة .

هل في هذا الشعر ألم ؟ هل فيه حزن ودمع ؟ . ولقد رثى خلفاً في حياته ، وخلفٌ مولع بالغريب . فأرضاه بالقصيدة التالية ووعده بأن يرثيه بأقوى منها إذا مات !!

لاتئلُ العصمُ في الهضاب . ولا شغواء تغذو فرخين في لجف (١)
تحنو بجؤشوشها على ضرمٍ كقعدة المنحني من الخرف (٢)

---

(١) وأل : لجأ . العصم : تيوس الجبل . شغواء : عقاب . لجف : غار في الجبل . (٢) الجؤشوش : الصدر . الضرم : فرخ العقاب .

ولا شبوب باتت توءرقه النثرةُ منهـا بوابلٍ قَطِفِ (١)
غدا كوقفِ الهلوك ؛ ينهفت القِطْقِطُ عن مبنتيه والكتف (٢)
واخدريٌّ صلبُ النواهقِ صلصالٌ أمينُ الفصوصِ والوظف (٣)
لما رأيتُ المنون آخذةً كلَّ شديدٍ . و كلَّ ذي ضعف
بتُّ أعزّي الفؤاد عن خلفٍ وباتَ دمعي إلاّ يفض يكف

لايبهم الحاء في القراءة بالخاء ولا لامها مع الألف !!
ولا يعمّى معنى الكلام . ولا يكون إنشاده عن الصحف !!
وكان ممن مضى لنا خلفاً فليس منه إذ بان من خلف

أهذا رثاء أم رصف كلمات غريبة متدافعة ؟ هل فيه عاطفة وحرقة ؟ هل فيه لوعة ؟

ولعل أصدق رثاء قاله ؛ ما رثى به صديقه الأمين . وشريك لذاته وهو مع كل هذا ؛ لم يفض بأبيات تتجاوز حدّ المقطوعة فقال :

طوى الموتُ مابيني وبين محمدٍ وليس لما تطوي المنيّةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عبرة تستديمها أحاديثُ نفس مالها الدهرَ ذاكر
و كنت عليه أحذرُ الموت وحده فلم يبق لي شيءٌ عليه أحاذر
لئن عُمّرت دورٌ بمن لا أحبّه فقد عمّرت ممّن أحبُّ المقابر

---

(١) الشبوب : الفتي من الثيران والغنم . النثره : المتناثر
(٢) القطقط : رذاذ المطر .
(٣) الأخدري : حمار الوحش . الوظيف : النانئة فوق الحافر .

شعر الفخر :

ليس لأبي نواس قبيلة ذات خطر فيفتخر بها . ولا عائلة ذات شأن فيعتز بالانتماء إليها . ولكنه ابن نفسه ووليد جدّه . عصاميٌّ نشأ من بيئة بسيطة فقيرة ، فتوصل بجهده إلى هذه المنزلة السامية في الأدب وعاشر الملوك والأمراء . فهو يعتزّ بعصاميته ويحارب الارستقراطية ويحتقرها . فإذا افتخر ؛ فبنفسه فقط . لا بأهله ولا بجدوده . والقطعة التالية اشتهرت عنه ولن تجد في كل ديوانه مثلها إلا قليلاً :

ومستعبدٍ إخوانه بثرائه ... لبستُ له كبراً أبرَّ على الكبرِ
إذا ضنّي يوماً وإياه محفلٌ ... يرى جانبي وعراً يزيد على الوعر
أخالفه في شكله . وأجرّه ... على المنطق المبرور والنظر الشزر
وقد زادني يتهاً على الناس أنني ؛ ... أراني أغناهم . وإن كنتُ ذا فقر
فلا يطمعن في ذاك منّي طامع ... ولا صاحب التاج المحجّب في القصر

فلو لم أرث فخراً ؛ لكانت صيانتي
عن الناس . حسبي من سوءالي من الفخرِ

وقد عرّض في هذا الفخر بالأمين صاحب التاج المحجّب في القصر فغضب عليه بسببها وهدّده أو سجنه .

شعر الطرديات :

كان الشعر والأدب في العصر العباسي ، يتنازعه عاملان قويّان . هذا يشدّ به إلى الوراء ليرجعه إلى البادية . وذاك يدفعه إلى الأمام ليقدم به على الحياة الواقعية ويزجّه بين قداح الخمر وينثره على أفواف الزهر بين القيان والغلمان . وقد ظلّ زعماء القسم الأول ؛ الفرزدق والشماخ وروبة وابنه منذ الأمويين حتى أواخر العصر العباسي ؛ مثالاً يحتذى . وظلّ أبو نواس ؛ زعيم القسم الثاني حتى بادت الدوله العباسيّة . وكان الرجز وهو صورة الحداء البدويّ ؛ رمزاً لهذه البداوة زمناً طويلاً . ولعلّ هذا ما يفسّر لنا سلوكَ أبي نواس هذا البحرَ بصورة دائمة ، كلما عنّ له تقليد الأعراب بشعر يحدى به . من ذلك ؛ شعر الطرديات . فقد وصف الصيد وتوابعه من آلات وكلاب . . ولواحقه من خيول ومطاردات . . وصفاً ممتازاً تخيّر له الرجز بصورة خاصة ؛ لتكون عليه السمة البدويّة . وقد أجاد في هذا النوع إجادة لم تلحق . ونعرض فيما يلي ؛ لأرجوزتين كنموذج لهذا النوع الذي يعدُّ فيه أبو نواس شبه مبتكرٍ . لأن الفرق بعيد بينه وبين من اشتهر بالطرديات كامرئ القيس مثلاً . قال :

أنعت كلباً أهلُهُ من كدّه قد سعدت جدودهم بجدّه

فكل خيرٍ عندهم ؛ من عنده ... وكل رِفدٍ نالهم ؛ من رِفده

يظلّ مولاه له كعبده ... يبيت أدنى صاحبٍ من مهده

وإن عرى ؛ جلّله ببرده ... ذا غرّةٍ محجلاً بزنده

تلذُّ منه العين ؛ حسن قدّه ... يا حُسْنَ شِدقيه وطولِ قدّه

تلقى الظباءُ عنتاً من طرده ... يشرب كأساً شدُّها من شدّه

يا لكَ من كلب نسيجُ وحده

وقال :

لما تبدّى الصبح من إهابه ... كطلعة الأشمط من جلبابه

وانعدل الليل إلى مآبه ... كالحبشي افترّ عن أنيابه

هجنا بكلبٍ طالما هجنا به ... ينتسفُ المِقوَدَ من كلابه

كأن متنيه لدى انسلابه ، ... متنا شجاعٍ لجّ في انسيابه

كأنما الأظفور في قنابه ؛ ... موسى صناعٍ رُدّ في نصابه

تراه في الحضر إذا هاهابه ... يكاد أن يخرج من إهابه ..

زهدياته :

لم يتهالك أبو نواس على طلب اللذة ؛ لأن فيه شوقاً للذّة ؛ ولكن ليقتل همومه ويسرّي عن آلامه . فكأنه يريد أن يغرق هذه الآلام في قداح الخمر لئلا يصحو فيطلع عليها ويضطرب كان يتسلح بالخمرة ليحارب الهمّ :

نعمَ سلاح الفتى المدامُ · إذا ساوره الهمّ · أم به جمحا

لأن الماء القراح لا يستطيع أن يداويه من همومه :

فلعمري ما يداوي — الهم بالماء القراح

لذلك غرق بالآثام والمعاصي حتى شبعت منه وشبع منها :

فإني قد شبعت من المعاصي ومن إدمانها · وشبعن منّي

ولكنه مع كل هذا ؛ لم يترك إيمانه بالله · ولم يذهب أمله من عفوه · لأنه يرى ذنوبه الكبيرة مهما عظمت ؛ لا تقابل بعظمة عفو الله :

يا كبير الذنب عفو — الله من ذنبك أكبر

لهذا ؛ لا يكاد الشاعر يفيق من سكراته ولذاته ؛ حتى يندم على مافرط منه · ويطلب العفو من الله · ويتلبّس الزهد من الدنيا · بل هو دائماً زاهد فيها لا يراها أهلاً للتهالك عليها بل هي في نظره حقيرة يزدريها ويستعين عليها بالسكر لكي لا يصحو فيراها على حقيقتها القذرة · وهذا ما زهّده بالشهرة فيها :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ

وأصبح لا يفرح ولا يحزن :

ولقد حزنت ولم أمت حزناً ولقد فرحت فلم أطرْ فرحا

ولا يحاول أن يتلبّس الكذب والأعذار · بل يؤثر أن

يصل إلى الله موقوراً بذنوبه، ليطلب العفو منه لا ليعتذر :

أيارب قد أحسنت عوداً وبدأةً إليّ. فلم ينهض بإحسانك الشكر
فمن كان ذا عذرٍ لديك وحجةٍ فعذري: إقراري بأن ليس لي عذر

وله في باب الزهد شيءٌ كثير ينمّ عن نفس صادقة كل الصدق. مؤمنة عميقة الإيمان. طامعةٍ بعفو الله لأنه أعظم من ذنوب المسيء :

يارب إن عظُمتْ ذنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ فبمَنْ يلوذُ ويستجير المجرمُ؟!
أدعوك ربّ كما أمرت تضرّعاً فإذا رددت يدي؛ فمن ذا يرحم؟!
مالي إليك وسيلةٌ إلا الرجا وجميل عفوك. ثم إني مسلم

ولقد يبلغ به الإحساس الديني حدّاً يقصر عنه أعظم المتصوّفين الزاهدين. انظر إلى القطعة التالية لبيّ بها حادياً لما أحرم للحج؛ فاجتمع إليه في سواد الليل كل من سمعه حتى بكى. وحدا معه الناس كأنهم في حلقة ذكر :

إلهنا ما أعدلك مليكَ كلّ مَن ملكْ
لبيك؛ قد لبّيتُ لك لبّيك. إن الحمد لك
والملك؛ لا شريك لك ما خاب عبدٌ سألك
أنت له حيث سلك لولاك يا ربّ هلك

لبيك · إن الحمد لك والملك · لاشريك لك
كلُّ نبيّ وملك وكلُّ مَنْ أهلَّ لك
وكلُّ عبدٍ سألك سبّح أو لبّى ؛ فلَك
لبيك · إن الحمد لك والملك · لاشريك لك
والليلَ لما أن حلك والسابحاتِ في الفلك
على مجاري المنسلَكْ لبيك · إن الحمد لك
والملك · لاشريك لك يا خاطئاً ؛ ما أغفلك !
اعمل وبادر أجلك واختم بخيرٍ عملك
لبيك · إن الحمد لك والملك . لاشريك لك

على أنه لم يكن يستطيع البقاء طويلاً في الزهد والانقطاع عن اللذة والخمر ؛ لأن الصحو قتّال · فيعتذر للسكر بآراء زهدية غاية في الطرافة · كقوله :

فضع الزقَّ جانباً ومع الزقّ مصحفا
وأحسُ من ذا ثلاثةً واتلُ مِنْ ذاك أحرفا
خيرُ هذا · وشرُّ ذا فإذا الله قد عفا

وقد يكون من الخير أن نختم هذا الباب بالحديث الذي رواه قبيل موته · ولعله الحديث الذي كان يعتمد عليه طمعاً فيأتي الكبائر :

قال محمد بن ابراهيم الصوفي : دخلنا على النواسي في علته التي مات فيها . وجعلنا نحضّه على التوبة قبل الموت . فبكى ساعة ثم قال : ساندوني ساندوني أأخوّف بالله عزّ وجل وقد حدثني حمّاد بن مسلم عن زيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (لكل نبيّ شفاعة . وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة) أفتراني لا أكون منهم ؟!

شعر السجن

نفس أبي نواس المرحة ؛ تظهر حتى في آلامه . وفي شعره الذي أنشأه في السجن ؛ أمثلةٌ واضحة لهذه النفس الطريفة . فيظهر التوبة بصورة أقلّ ما فيها أنها سخر مضحك :

قل له إن قال هل تاب — نعم تاب وزادا ؟!

وقد كتب إلى الفضل بن الربيع من السجن قطعة . هي مثال صحيح لهذه النفس الساخرة :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسكَ وعوّدتنيه والخير عادهْ
فارعوى باطلي . وأقصر حبلي وتبدّلت عفةً وزهادة
لو تراني ذكرتَ للحسن البصريّ في حسن سمتِه ؛ أو قتادة
من خشوعٍ أزينه في خضوع واصفرار مثل اصفرار الجرادة
المسابيح في ذراعي . والمصحف في لبّتي ، مكان القلادة

وإذا شئت أن ترى طرفةً تعجب منها . مليحةً مستفادة

فادعُ بي ـ لاعدمتَ تقويم مثلي ـ وتفطّن لموضع السجّادة

ترَ أثراً من الصلاة بوجهي توقنُ النفس أنّه مِن عبادة

لو رآها بعض المرائين يوماً لاشتراها يعدّها للشهادة

ولقد طالما شقيت ولكن أدركتني على يديك السعادة !!

الاخوانيات والمجون

اشتهر أبو نواس بالهزل والمجون ؛ فنسب إليه كل شعر من من هذا النوع لم يعرف قائله وكل طرفة لم يعرف صائغها . ولا يزالون إلى يومنا هذا ؛ يلصقون به قصصاً كقصص جحا . وربما لزّوا الرجلين في قَرَنٍ واحد . على أنّا مهما حاولنا الدفاع عنه ؛ فإنا لا نستطيع نكران مجونه وهزئه بكل ما تواضع الناس عليه من عادات وأخلاق ومواضعات دينية واجتماعية . ولا يجتمع مع إخوانه ؛ إلاّ على لذّة ، قد تدوم يوماً وقد تدوم شهراً ، بين خمرٍ ومزمار وعود ، في حانةٍ أو بستان . وإذا جاءتهم الصلاة ؛ أضاعوا صوتَ المؤذّن بقرع الكئوس تصاماً عنها :

إذا مادناوقت الصلاة ؛ رأيتهم يحثونها . حتى تفوتهم سكرا

وقد يصلّون أحياناً وهم سكارى أو يقضونها بعد فوات وقتها :

يصلّي هذه في وقت هذي فكل صلاته أبداً قضاء

ويضعون دستوراً للمنادمة لا يتعدّون حدوده :

حقوق الكأس والندمان خمس . فأولها : التزيّن بالوقار . . .

ثم يعدّ ثانيها وثالثها إلى الخمسه . وله في اجتذاب الحبيب ؛ أسلوب مبتكر . ما نعرفه قبله ولا بعده . فهو يدعو إبليس إذا جفاه الحبيب ويهدّده بأنه سيصوم ويصلي ويتنسّك . فيغوي إبليسُ حبيبه ويرجعه إليه جزعاً من أن يفلت من يده هذا القائد الشجاع في ميدان المعاصي والمنكرات ! !

لما جفاني الحبيب . وامتنعت ... عني الرسالات والخبرُ
واشتد شوقي . وكاد يقتلني ... ذكر حبيبي ؛ والهمّ والفكر
دعوت إبليس . ثم قلت له ... في خلوةٍ . والدموع تنحدر :
أما ترى كيف قد بليت ؟ وقد ... أقرح جفني البكاءُ والسهر ؟!
إن أنت لم تلق لي المودّة في ... صدر حبيبي . وأنت مقتدر
لاقلتُ شعراً . ولا سمعت غنا ... ولا جرى في مفاصلي السكر
ولا أزالُ القرآن أدرسه ... أروح في درسه وابتكر
وألزم الصوم والصلاة . ولا ... أزال دهري بالخير آتمر
فما مضت بعد ذاك ثالثة ... حتى أتاني الحبيبُ يعتذر

ولأبي نواس في شعر الأخوانيّات ؛ مادة وافرة . ولكن لا نستطيع أن نقتبس منها أكثر من هذا ؛ لشدة مافيها من

دعابةٍ فاحشة خصوصاً ما ورد منها بينه وبين عشيقتيه جنان وعنان ،

ولعلّ من أجمل ما ابتدعه ـ إن كان ذلك له ـ أنّه كان في مجلس الأمين فقال له : هل تستطيع أن تنظم شعراً لا قافية له :

فأجاب : نعم . ووضع من فوره الابيات التالية :

ولقد قلت للمليحة قولي من بعيد ؛ لمن يحبّكِ ... إشارة (قُبلة)

فأشارت بمعصمٍ . ثم قالت : من بعيد خلاف قولي ... إشارة (لالا)

فتنفّست ساعة . ثم إنّي قلت للبغل عند ذلك ... إشارة (إمشِ)

وانظر إليه يقف في الصلاة ويقرأ الإمام : يا أيها الكافرون ؟ فيقول أبو نواس من خلفه : لبيّك . ألا تحسّ فيه المجون المتناهي والدعابة الوقحة ؟ !

ألفاظ المتكلمين :

انتشرت الفلسفة في عصر أبي نواس ، بما ترجم من آثار اليونان والفرس والهند . وشاعت لهم ألفاظ ؛ قد لا يعرفها إلا المتكلمون . ومع هذا ؛ تراها في شعر النواسي متناثرة هنا وهناك بسذاجة مما يدلّ على تأثره بها كأنها طبعيّة فيه ، منها .

فهي إذا سميّت فقد وصفت فيجمع الاسم معنيين معا

سخنتَ من شدّةِ البرودة . حتى صرتَ عندي ؛ كأنكَ النارُ

لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج باردٌ حار

خلقتَ بلا مشاكلةٍ لشيء فأنت الفوق والثقلان دون

ذُخرتَ لآدم قبل خلقته فتقدمته بخطوةِ القبلِ

تكلّ عن إدراك تحصيله عيون أوهام الضمايير

اثنان لا فصل للمعقول بينهما معناهما واحد والعدة اثنان

روابط شعرية :

قد نجد أحياناً معاني وألفاظاً وجدت عند أبي نواس . كما وجدت عند من تقدّمه أو من لحقه . ونحن لانستطيع أن نعدّها سرقة . ولكننا نعرض بعضها للاطلاع فقط، ونترك الحكم حرّاً . وستلاحظ أن في شعر النواسي امتياز خاص . حتى ليصح أن نعطيه المعنى له وحده .

قال الأعشى :	قال أبو نواس :
وكأس شربت على لذة	دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
وأخرى تداويت منها بها	وداوني بالتي كانت هي الداء
قال النابغة الجعدي :	
فإن مطية الجهل الشباب	إن الشباب مطية الجهل
قال ابو النجم :	
كطلعة الأشمط من كسائه	كطلعة الأشمط من إهابه

قال عنترة :	قال أبو نواس :
فوقفت فيها ناقتي . وكأنها	شدنية رُعْت الحمي فأتت
فدن . لأقضي حاجة المتلوم	ملء الجبال . كأنها قصر
قال احدهم :	
وطفت فوقها فقاقيع كالد	كأن صغرى و كبرى من فقاقعها
ر صغار يثيرها التصفيق	حصباء درٍ على أرض من الذهب
قال الأعشى :	
كن كالسموءل إذ طاف الهمام به	كن كالسموءل إذ طاف الهمام به
في جحفل كهزيع الليل جرّار	في جحفلٍ لجب الأصوات يرتجس

ولا نطيل في هذه المقارنة ، فقد أكثر فيها القدماء وتحامل بعضهم بسببها على أبي نواس تحاملاً شديداً . ولكننا لا نرى الحقّ كلّه في جانبهم . لأن أكثر هذه المعاني ؛ مطروقة معروفة لافضل لأحد على الآخر في السبق ولا في التأخر .

ما أخذ على أبي نواس :

أخذ على أبي نواس بعض مبالغات كقوله :

وأخفتَ أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

واستعمال بعض ألفاظ عامية كقوله :

فيم ذا سيدي وذاك لأيش

وبعض مخالفات لغوية كقوله :

كمن الشنآن فيه لنا ككمون النار في حجره

ولكن هذه الهنات البسيطة لا تقدح في عبقرية هذا الشاعر الممتاز.

آخر أيام أبي نواس :

كأنما أصيب الشاعر بعد فقد صديقه الأمين ؛ بصدمة نفسيّة قوّيه فلم يبال بالمأمون ولم يسعَ إليه. بل قبع في بغداد لا يُرى إلا ساكناً واجماً. وكان جسمه قد تهدّم لكثرة ما أرهقه بالسكر والمعاصي. وما أصابه من سجون وتعذيب. ويشكّ بعض المعاصرين بأنه كان مصاباً بالسل ويستدلون على ذلك بقوله : واصفرار مثل اصفرار الجرادة.

فبقي يعاني في آخر حياته مرضاً مؤلماً. ولم يلبث أن هدأت أنفاسه حول عام ١٩٩هـ ودفن بسكون، عليه رهبة الموت وجلاله. فحرّك الناس بسكوته وملأ الأسفار بشعره ومجونه.

مراجع هذا البحث

١ — الديوان شرح كامل فريد
٢ — » شرح اسكندر آصف
٣ — أخبار أبي نواس لابن منظور
٤ — الأغاني
٥ — حديث الأربعاء لطه حسين
٦ — أبو نواس لفروخ
٧ — عصر المأمون
٨ — البيان والتبيين
٩ — تاريخ دمشق لابن عساكر
١٠ — الطبري
١١ — المعارف لابن قتيبة

أبو تمام

تاريخ

الفرس والعرب :

ثأر الفرس من العرب مرتين . ولكنهم نكبوا مرتين أيضاً ؛ فتكافأ الطرفان !! ثأروا من العرب بموقعة الزاب وبقتل الأمين . ولكنهم أُصيبوا بقتل أبي مسلم وبنكبة البرامكة . وزاد على ذلك ، مقتل بابك وحرق الأفشين . فخضدت شوكة النفوذ الفارسي ولانت شِرته . غير أن العرب لم يستطيعوا أن يستفيدوا من هذه الفرصة ، فتقدم الترك وتداخلوا في الدولة رويداً رويداً حتى قضوا عليها . و كانت تتخلّل فترة هذا الانتقال من النفوذ الفارسي إلى النفوذ التركي ؛ بعض إفاقات من العرب ولكنها صحوة الناعس المتعب يتقلّب في سريره من جنب إلى جنب ويفتح عينيه ؛ ثم لا يلبث أن يغمضهما ويغرق في نوم عميق . فنبّه هذا الوضع الشاذّ ؛ بعض عمّال الولايات أو الطامعين في الإمارات إلى اهتبال الفرص . فكثرت الثورات والدعاوات في كل طرف . ومن وسائل الدعاوة الكبرى ؛ الشعرُ . وهو صحافة ذلك الزمان . وهذا ما نلاحظه من تنقل الشعراء بين

العمال والولايات وتركهم عاصمة الخلافة . لأنها لم تبق وحدها المطمع الأكبر . بل نافستها الثغور وعواصم الولايات ، هذه المنزلة . فتشكل حول كل أمير ؛ هالة من الشعراء ، يمدحونه ويستفيدون من عطاياه . ولعل هذا ما يفسّر لنا تنقل أبي تمام بين مصر ودمشق وحمص والموصل وخراسان وبغداد .. وقول الرواة إن أبا تمام ؛ استأثر بكل جوائز الشعراء في زمانه . فلما مات اقتسموا عطاياه . ويقول بعضهم : إن عدد الشعراء الذين أخملوا في زمنه وزمن البحتري كانوا نحو خمس مئة شاعر ! فما معنى هذه الكثرة من الشعراء ؟ وما معنى اقتسام العطايا ؟

الثورات :

قامت في عهد المأمون والمعتصم ؛ ثورات متعددة . ولكنها أخمدت جميعاً بالقوة . وأشهر هذه الثورات خمسة :

١ : ثورة ابراهيم بن المهدي :

وهو عم المأمون . ثار بعد مقتل الأمين . وتسمى بأمير المؤمنين . وبقي عامين يحكم في بغداد . ثم غُلب أمام جيوش المأمون وأُسر . ثم عفي عنه وهو أمام النطع والسيف .

٢ : ثورة العلويين :

كان العلويون ينظرون إلى العباسيين ؛ كمغتصبين لحقوقهم في الخلافة . لأن الثورة ضد الأمويين ؛ لم تقم باسم العباسيين

ولم يساعدهـا الناس؛ إلاّ لأنها قامت باسم آل النـبي . فلما دالت دولة الأمويين ؛ اغتصب العبـاسيون الخلافة اغتصاباً . فثـار العلويون ثورات متعـددة . ولـكن كانت القسوة تقضي عليهم في الحرب . والدعاوة السياسية تقضي عليهم في السلم ومن جملة الدعاوات ؛ ما كان يثيره الشعراء تقرّباً من العباسيين الحكام بالحق وبالباطل كقول أحدهم :

أنّى يكون؟وليس ذاك بكائنٍ، لبني البنات، وراثةُ الأعمام!

ومسألة الإرث هذه ؛ ردّدها الشعراء كثيراً . وكان العلويون يجيبون عليها آناً بالسيف وحيناً بالكلام . ولما يئسوا من مقاومة العباسيين بالسياسة وبالحرب ؛ وجّهوا وجهتهـم شطر العلوم والأدب . فنبغوا فيها نبوغاً عظيماً جداً ، أكسبهم احترام الناس والعطف عليهم كمغلوبين منكسرين يائسـين !! على أن هؤلاء العلويين لم ينكسروا إلى الأبد . بل ثاروا في خراسان زمن المعتصم . وأسلموا قيادهم لمحمد بن القاسم اليزيدي، غير أن سوء طالع هذا القائد، كسر جناحيه أمام عبد الله بن طاهر أمير خراسان، فأرسله إلى المعتصم فسجنه . فاحتال حتى فرّ من السجن يوم عيد ، عام ٢١٩ هجرية ؛ ولم يعلم له مقرٌّ بعدها أبداً . ولمـا وجد العلويون أن سوء الحظ يلاحقهم في الشرق ؛ توجهوا

نحو الغرب . وأخذوا يبثّون دعاوتهم في مصر وافريقية . فنجحوا بعد مدةٍ في بناء الدولة الفاطمية . ولعل هذا ما يفسّر لنا ؛ سفر أبي تمام في أول حياته إلى مصر ليستفيد من علم العلويين ومالهم . أو لعل هذا من جملة الأسباب لا كلّها .

٣ : ثورة مازيار :

كان مازيار عاملاً للمعتصم في طبرستان . امتنع عن دفع الخراج وثار على الدولة . فقبض عليه عبد الله بن طاهر وأرسله إلى المعتصم فقتله عام ٢٢٥ هجرية .

٤ : ثورة بابك :

ثار هذا الزعيم الفارسي أيام المأمون عام ٢٠٣ هجرية . وأخذ يحرّض على نبذ العربية ودين العرب . ويدعو إلى تجديد دين المجوس القديم دين الخرّميّة . ومعنى الخرّميّة : اللذة والإباحية . فيتزوج الرجل أمّه أو اخته أو ابنته !! وفي الخرّميّة معنى الشيوعية الحديث من حيث المال . .

وتبع بابك هذا ؛ خلق كثير . واعتصموا بجبال البذّ وأخذوا يغيرون على المسلمين ويؤذونهم في مالهم وعرضهم ونسائهم . ودامت هذه الثورة عشرين عاماً ولم يستطع العباسيون التغلّب عليها إلا زمن المعتصم ، على يد الأفشين . إذ قبض عليه

وجاء به إلى بغداد ، فصلب فيها عام ٢٢٣ هجرية . وهذه الثورة تنبهنا إلى الضغن الكامن في نفوس الفرس والحقد الناخر في صدورهم على العرب حتى تبعوا بابك الاباحي وفضلوه على دين العرب دين العقل والأخلاق .

٥ : ثورة الافشين :

الأفشين ، ومعناها في اللغة الأشروسنيّة : الملك . هو حيدر ابن كاوس . كان غلاماً تركياً عند المعتصم أيام ولايته للعهد وقد أخلص له فاستعمله على مصر والشام . ثم لما آلت الخلافة إليه ؛ فولاّه حرب بابك . فطاوله قليلاً ثم أسره . ونال به حظوة عند المعتصم . غير أنّ هذه المطاولة وعمل الحسّاد ، أثارا في نفس المعتصم شكوكاً فعزم على القبض عليه ومحاكمته . ولكنه تريّث قليلاً ليستفيدَ من مواهبه الحربية ، فعينه قائداً عاماً للجيوش الشرقية . وجعل تحت يديه قواداً من العرب يطمئن إليهم كأبي دلف العجلي وأبي سعيد الثغري . يساعدهما عبد الله بن طاهر العامل المخلص للمعتصم وقامع الثورتين ثورة مازيار وثورة العلويين . .

ولما قبض الأفشين على بابك . وجاء به إلى بغداد ؛ استُقبل استقبال الملوك . وأمر المعتصمُ الشعراءَ أن تدخل عليه فتمدحه

ومنهم أبو تمام . ووهبه نحو نصف مليون ليرة ذهبية . ثم أرسله إلى عمورية فغلب الروم وعاد ظافراً .

الآن سكنت الثورات الداخلية . وخضع الأعداء الخارجيون . ولم يعد المعتصم محتاجاً إلى الأفشين . فقبض عليه وشكّل محكمة عليا لمحاكمته . من أعضائها : محمد بن عبد الملك الزيات والقاضي أحمد بن أبي دؤاد .

ووجهت إليه التهم الآتية :

١ : وَجد رجلان بيتاً للأصنام في أشروسنه فحوّلاه إلى مسجد . فضرب كلَّ واحد منهما ألفَ سوط، حتى تناثر لحمه عن عظمه عمل هذا دفاعاً عن المجوسيّة .

٢ : ووُجد في بيته كتاب للمجوس محلّى بالجواهر والذهب

٣ : أهل مملكته يكتبون إليه باسم « إله الآلهة » فلا يردعهم عن هذا الكفر!!

٤ . إنه لم يختتن كعادة المسلمين .

٥ : أمر بإرسال الأموال سراً إلى أشروسنة لتقوية الدين المجوسي . وكان يتربص بالعرب لينتقض عليهم ويقلب الدولة الإسلامية .

٦ : سعيه بعبد الله بن طاهر ظلماً وكذباً ليعزله عن

خراسان ويستولي عليها تمهيداً لهذا الانتقاض .

وكانت المحاكمة شكلية ، تشبه محاكمة لويس السادس عشر أثناء الثوره الافرنسية . وأقرّ الأفشين بأكثر هذه التهم ودافع عنها ليعللّها بشكل مقبول . ولكن لم يكن دفاعه كافياً . فأعيد إلى السجن ومنع عنه الطعام حتى مات . ثم صلب وأحرق .

فتبارى الشعراء بهجوه بعد موته ومنهم أبو تمام .

نتائج هذه الثورات :

كان رد الفعل Réaction على هذه الثورات الأعجمية . أن تنبّهت العصبية العربية في نفوس العرب . خصوصاً أيام المعتصم حامي العروبة والدين . وتردّد صدى هذه العصبية على ألسن الشعراء . فرأيناهم يمدحون الأفشين لمّا كان مع الخليفة العربي . ويذمّونه لمّا خرج عليه . ويدعمون مدحهم أو هجوهم بفكرٍ دينية ، أكثر ممّا يدعمونها بفكرة الحق والقانون والطاعة . انظر إلى أبي تمام يقرن اسمه باسم الخليفة كأنهما متساويان في المقام :

إن الخليفة والأفشين . قد علما من اشتفى لهما من بابك ، وشفى

ويعرّض به تعظيماً في كل مناسبة حتى في مدح أبي دلف القائد العربي الصريح . ويمدحه بقوله :

لقد لبس الأفشينُ قسطلةَ الوغى
محشّاً بنصل السيف غير مواكل
تراه إلى الهيجاء ؛ أول راكبٍ
وتحت صبير الموت ؛ أول نازل

ثم يهجوه أمرّ الهجاء ويعيّره بالكفر بعد أن غضب عليه الخليفة :

قد كان بوّأه الخليفةُ ؛ منصباً من قلبه · حَرَماً على الأقدارِ
فإذا ابن كافرةٍ · يسرّ بكفره وجداً · كوجدِ فرزدق بنوار
ما زال سرّ الكفربين ضلوعه حتى اصطلى سرّ الزناد الواري
وكذاك أهل النار في الدنيا · هم يوم القيامة ؛ جلُّ أهل النار

ولعل هذا ما يفسر لنا إخبات الزندقة والفسوق زمن المعتصم وتستّر الناس بلباس الدين · مع أن أخلاقهم الشخصية ؛ لم تكن أسمى بكثير ممن سبقهم · فأبو تمام وهو يمثل عصره في هذه الناحية ؛ لم يكن أقل من أبي نواس · خصوصاً فيما يتعلق بالغلمان · ولكنه كان يؤثر التقيّة والاستخفاء تبعاً لسنّة عصره ·

سيطرة الاعاجم :

لم يكن النفوذ العربي قوياً زمن العباسيين ، كما كان على عهد دولة بني أمية · ولكنه لم يكن ضعيفاً متهالكاً

أيضاً . بل كان موقفه ؛ موقف المدافع : يردّ الهجمات ويحتمل الصدمات . ولقد تنبّه الشعور العربي زمن المعتصم ، ولكن بعد أن جرّد من سلاحه . فأصبح العرب يشعرون بضعفهم ولكن لا يستطيعون المقاومة . لهذا نراهم يملئون الدنيا فخراً وشعراً إذا اشتدت سياستهم يوماً ما وقوي نفوذهم . انظر إلى قصة الأفشين وأبي دلف ؛ فإنها صورة صحيحة لذلك التنافس وتلك المناحرة :

حدّث أبو العيناء قال : « كان الأفشين ؛ يحسد أبا دلف العجلي للعربيّة والشجاعة ! ! فاحتال حتى شهد عليه بخيانةٍ وقتلٍ . وكان أميراً من أمراء الجند عنده . فأخذه ببعض أسبابه وجلس وأحضر السيّاف ليقتله . وبلغ القاضي أحمد بن أبي دوّاد الخبر (وهو يومئذٍ ممثل الحزب العربي في بغداد وزعيمه) فركب في وقته مع من حضر . ودخل على الأفشين من غير استئذان . وقال له : إن أبا دلف ؛ قائد شجاع كريم وأديب مخلص لك وللخليفة . وأنا أرجوك أن تمنّ عليه بالعفو فقد طالما منّ العجم على العرب !! .. فأبى الأفشين إلاّ قتله . عندئذٍ قال القاضي : إني رسول امير المؤمنين إليك . وقد أمرك ألاّ تحدث في القاسم بن عيسى (أبي دلف) حدثاً حتى

تسلمّه إلي . ثم التفت إلى العدول وقال : اشهدوا أني ادّيت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم على قيد الحياة . فقالوا : قد شهدنا . وخرج فلم يقدر الأفشين عليه . وذهب ابن أبي دوءاد من وقته إلى المعتصم وقال : يا أمير المؤمنين . قد أدّيت عنك رسالة لم تقلها ! ! وإني لأرجو لك الجنّة بها . ثم أخبره الخبر . فصوّب رأيه . ووجه من أحضر القاسم فأطلقه . وعنّف الأفشين فيما عزم عليه » .

إن هذه القصة ؛ بقدر ما تصوّر لنا التنازع العربي العجمي على السيطرة والنفوذ . فإنها تبين لنا بأجلى وضوح ؛ مقدار ما وصل إليه نفوذ القوّاد في إدارة المملكة . وضعف الخلفاء وتخاذلهم أمامهم . فلو كان المعتصم قويّاً حقاً ؛ لما استطاع الأفشين أن يقدم على هذه المحاولة الدنيئة في بغداد مركز عرش الخليفة . وأبو تمام الشاعر ؛ يصوّر لنا هذه النفسية العربية تصويراً حسناً في شعره على غير عمد : انظر إليه كيف يشير إلى ضعف العرب حين يمدح ابن أبي دوءاد زعيم الحزب العربي فيقول:

أخذتَ بأعضاء العُريب . وقد خَوَت
عيونٌ كليلاتٌ . وذلّت جماجم

ولو علم الشيخان أدٌّ ويعرب لسرّت إذن تلك العظامُ الرمائمُ

إذا . أنت لم تحفظه؛ لم يك بدعةً ولا عجباً إن ضيّعته الأعاجمُ

وهو يورّي في البيت الثالث بالشعر العربي والشعراء . وكذلك يشير إلى هذه الناحية في مدح خالد بن يزيد فيقول :

لهم يومُ ذي قار مضى وهو مفردٌ وحيدٌ من الأشباه ليس له صَحْبُ

به علمتْ صهبُ الاعاجم أنّه به أعربتْ عن ذات أنفسها العُرْبُ

هو المشهد الفضلُ الذي ما نجا به

لكسرى بن كسرى لاسنامٌ ولا صُلْبُ

تلك كانت حال العرب من الشعور بالضعف أمام الاجانب فهل كانوا بين بعضهم بعضاً على وئام وحب ياترى ؟

الاحزاب العربية :

أما الأحزاب العربية فكانت في تطاحن مستمرّ بين بعضها بعضاً . يتنافسون على الزعامة والنفوذ والوزارة . وتشتد الشحناء فيهم فيتحاسدون ويتلاسنون ويدسّون الدسائس ويضغط القوي على الضعيف ويتداخل حتى في أموره الشخصية وإذا ظفر به مزّقه شرّ ممزق . وأكبر زعماء الأحزاب زمن المأمون والمعتصم ؛ اثنان : محمد بن عبد الملك الزيات الكاتب الشاعر . والقاضي أحمد بن أبي دؤاد . وهذان الزعيمان؛ يمثلان بحق التنافس الحزبي بين العرب . وقد ذكروا أن شخصاً كان صديقاً للقاضي

ينزل عليه لقضاء حاجاته فمنعه ابن الزيات من التردد إليه . وكان قد صنع تنوراً فيه مسامير رءوسها إلى داخل ، ليعذّب فيها أعداءه . فامتنع الرجل عن القاضي خوفاً ورهبةً . ولما مات الواثق وتولّى المتوكل ؛ ترك ابن الزيات في الوزارة أربعين يوماً ليطمئن . ثم عزله وولى القاضي ابن أبي دؤاد مكانه . فقبض هذا عليه . ورماه في هذا التنور . فبقي أربعين يوماً يتعذب ثم مات ! !

وقد يدهش القارئ المعاصر لهذه المعاملة الشاذة بين الأحزاب . وهذه الأحكام الغريبة بقسوتها لغير ذنب ، إلا للعداء السياسي والتنافس الحزبي . مما لا نرى له مثيلاً في صدر الإسلام . ولكن السياسة لا رحمة فيها ولا دين لها . بل أغرب من ذلك ؛ لو تعلم أن المأمون وهو خليفة المسلمين ، استل لسان الشاعر علي بن جبله من قفاه ؛ لأنه مدح أبا دلف العجلي بالبيتين التاليين :

كلّ من في الأرض من عرب بين باديه ومحتضره
مستعيرٌ منك مكرمةً يكتسيها يوم مفتخره

فهل حسد قائده على هذا المديح ؟ !

ولعلّ هذه الأحكام العرفية في مقاتلة الأحزاب السياسية

بصورة خاصة ؛ خوّفت الشعراء وأبعدتهم عن غمار السياسة وحمأة الحزبية . وأماتت الشعر السياسي زمن بني العباس . فأبو تمام وهو أمير شعراء عصر المعتصم ؛ لا نرى في كل ديوانه قصيدة واحدة حزبية بالمعنى الصحيح كما نراها في ديوان الفرزدق ، إلاّ ما كان من الاعتزاز بالعروبة والدين . وأبو تمام في هذا ؛ مثال لكل شعراء عصره .

حزب الشيعة :

إلى جانب هذه الأحزاب المتطاحنة على النفوذ والسلطة ؛ كان حزب آخر أكثر هدوءاً وانتظاماً . يسير بتؤدة ورفق بعد ما ناله من تشتيت وإرهاق ، حتى قتل أكثر رجاله . ولم نَرَ قتيلاً استُغلّ دمُه في التاريخ ؛ كما استغل دم الحسين . وأصبح الناس ينظرون إليهم ؛ كمظلومين مدفوعين عن حقهم الشرعي . وهم لم يقصروا في بث هذه الفكرة . خصوصاً وقد أصبح منهم العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء كما قدّمنا . إن امتيازهم بالصفة العلمية ؛ جعل لهم احتراماً أقوى . فأصبحوا في نظر الناس كورثة العلم ! وسموهم الاشراف ، فأصبح هذا الاسم عَلماً عليهم حتى اليوم . وهناك قصص كثيرة تدلنا على هذا الوقار والحب

الذي ربحوه من قلوب الشعب العربي وغير العربي . نسوق واحدةً منها كدليل :

قيل : لما مرض أبو دلف مرض الموت ؛ حجب الناس عنه أياماً لثقل مرضه . ثم أفاق يوماً فسأل حاجبه : من بالباب من المحاويج ؟ فقال : عشرة من الأشراف ! وقد وصلوا من خراسان . ولهم بالباب عدّة أيام . فاستدعاهم وسألهم عن قدومهم فقالوا : ضاقت بنا الأحوال . وسمعنا بكرمك فقصدناك . فأمر خازنه بإحضار عشرين كيساً . في كل كيس ألف دينار ودفع لكل واحد كيسين . ثم أعطى لكل واحد مئونة طريقه وقال لهم : لا تمسّوا الأكياس حتى تصلوا بها سالمةً إلى أهلكم واصرفوا هذا في مصالح الطريق . ثم قال : ليكتب لي كل واحد منكم بخطّه ؛ إنه فلان ابن فلان حتى ينتهي إلى عليّ ابن أبي طالب . ويذكر جدّته فاطمة بنت رسول الله ﷺ ثم يكتب : يا رسول الله : إني وجدت إضاقة وسوء حال في بلدي ، فقصدت أبا دلف العجلي ، فأعطاني ألفي دينار كرامةً لك وطلباً لمرضاتك ورجاء لشفاعتك . فكتب كل واحد ذلك ، وسلّم الأوراق . وأوصى من يتولّى تجهيزه إذا مات ، أن يضع تلك الأوراق في كفنه حتى يلقى بها رسول الله ﷺ

فهذه القصة ؛ بقطع النظر عن التحقيق العلمي في صدقها أو كذبها ؛ تعطينا صورة عن محبة الناس آلَ البيت في ذلك العصر . وليس حبهم مقتصراً على العرب وحدهم فالشعوبيون لا يقلّون عنهم . ولعلّ السبب الرئيسي في ذلك ؛ اختطاطهم خطة السياسة السلبية مع العرب . فعاضدوا كل من ناوأ السلطة الحاكمة ، وأظهر الخروج عليها .

هذا ديك الجن الشاعر الحمصي المشهور أستاذ أبي تمام ؛ مع شدة شعوبيته وقوله : (ما للعرب علينا فضل . جمعتنا وإياهم ولادة ابراهيم عليه السلام . وأسلمنا كما أسلموا . ومن قتل منهم رجلاً منا قُتِل به . ولم نجد الله فضلهم علينا إذ جمعنا الدين) . . يتعصب للشيعة ويدافع عنهم . فتخرّج عليه تلميذه أبو تمام شيعياً متعصباً للشيعة . ولكن بتكتم وتقيّه . وأبو تمام في هذا ؛ صورة لعصره . ولكن هل كان هذا التشيّع وحب آل البيت يدفع المتشيعين إلي احترام العقائد الدينية عملياً ويهذّب أخلاقهم ؟

الاخلاق

لم تكن أخلاق عصر أبي تمام خيراً من أخلاق العصر النواسي . فالخمر والزنا والتسّري بالقيان والغلمان ؛ ما زال هو هو لم

يتغير . بلى تغير في ظاهره شيءٌ واحد فقط . هو اتباعة موجة العصر من ردّ الفعل Réaction فأصبح مستتراً قليلاً . لأن رجال المأمون والمعتصم؛ قاموا بحكومة يتظاهرون بأنها قامت على أنقاض حكومة الأمين والنواسي . وعليهم أن ينقّوها من هذه الأدران . فما كانوا يستطيعون أن يتظاهروا بفسوقهم . والقصة الآتية؛ تبين لنا واضحاً ، إلى أيّ حد وصل التدهور الأخلاقي المتستّر :

قيل : كان الحسن بن وهب كاتب الدولة ؛ يعشق غلاماً روميًا لأبي تمام ؛ وكان أبو تمام يعشق غلاماً خزرياً للحسن بن وهب . فرأى أبو تمام الحسنَ يعبثُ بغلامه فقال له : والله ؛ لئن أعنقت إلى الروم ؛ لنركضنّ إلى الخزر . فقال له الحسن : لحكّمتنا واحتكمت . فقال أبو تمام في ذلك شعراً لا نحب ذكره .

وكان الوزير ابن الزيّات قد وقف على مابين ابن وهب وأبي تمام من أمر غلاميهما . فتقدم إلى بعض ولده . وكانوا يجلسون عند الحسن بن وهب ؛ بأن يعلموه بخبرهما وما يكون بينهما . وعزم غلامُ أبي تمام مرةً على الحجامة ؛ وكتب إلى الحسن بن وهب يعلمه بذلك ويسأله التوجيه له بنبيذ مطبوخ !! فتوجّه إليه به وبخلعة سنيّة ومئة دينار وبخور كثير !! وكتب إليه شعراً . ووضع الورقة تحت سجادة الصلاة !! وبلغ الوزير ذلك ؛ فشغله ببعض

أمره . وأمرَ من أخذ الرقعة من تحت مصلاّه وجاءه بها . فقرأها و كتب في ظهرها الجواب شعراً على لسان الغلام وأعادها إلى مكانها . فلما رآها الحسن ؛ اضطرب . وحدّث أبا تمام بما وقع وقال : لقد افتضحنا عند الوزير . ولقياه بعد أيام فقالا : إنما جعلنا هذين سبباً للمكاتبة بالأشعار لالريبة ! فتضاحك الوزير وقال : من يظن بكما غير هذا ؟!! .. والحسن هذا ؛ لما كان غلاماً . مازحه يحيى بن أكثم . ثم جمّشه ؛ فغضب . فأنشد بن أكثم شعراً لا نذكره .

إلى هذا الحدّ وصل التدهور الأخلاقي . فلا نعجب بعده إذا تدهورت الدولة سياسياً ؛ حتى قضى الغلمانُ الترك عليها ؛ وأصبحوا يعزلون الخلفاء ويولّونهم على إرادتهم . ويقتلون منهم مَنْ شاؤوا . ويستحيون مَن أرادوا !! .

الشعر

لقد كثر شعراء هذا العصر كثرة فاحشةً . وأصبحوا على أبواب الملوك والأمراء بالعشرات بل بالمئات . وهؤلاء الحكام متأثرون بالحضارة الفارسية والتأنق الفارسي . فاصطبغ الشعر بهذه الصبغة الأنيقة . وابتعد عن تصوير الإحساس الحقيقي وأصبح همّ الشاعر ؛ أن يبالغ حتى الإغراق . ويتذلل حتى العبودية

ويزخرف شعره بأنواع البديع من جناس وطباق وتورية ولعب على الألفاظ ... وبذلك أخذ الشعر بالانحطاط من الناحية الشعورية . والارتقاء من الناحية اللغويّة. وحشي بألفاظ العلوم والفلسفة .. فأصبحنا لانعجب إذا قرأنا مثل قول أحدهم :

فترانا : يوم الكريهة أحراراً وفي السلم ؛ للغواني عبيدا

وإنك مغناطيس كل فضيلة فلا فضل إلاّ وهو نحوك صائرُ

أو مثل قول أبي تمام :

هبْ من له شيءٌ يريد حجابَه ما بال – لاشيءٍ – عليه حجاب

جهميّة الأوصاف إلاّ أنهم قد لقبّوها : جوهر الأشياء

وإذا أردنا أن ندرس عصر اليقظة القومية القصيرة التي أسميناها (عصر المعتصم) فلندرس أبا تمام : الشاعر العالم . أو شاعر القومية العربية والإسلام .

أبو تمام

مولده

ولد أبو تمام ؛ في قرية جاسم من قرى حوران · على مسافة ٥٠ كيلومتراً جنوبي دمشق · خلافاً لما جاء في الأغاني (من أن مولده ونشأته بناحية منبج في الشمال الشرقي من حلب) وجاسم هذه قرية خصبة بالنابهين · نشأ منها أبو الخير الجاسمي وعدي بن الرّقاع وأبو تمام وسواهم · وأهل هذه القرية ـ كما يبدو ـ لم يتأثروا كثيراً بالإسلام · فقد بقي بعضهم أو كلهم على دين النصرانية · وولد أبو تمام من أب نصراني · هجر قريته وقدم إلى دمشق يبيع الخمر في ظل دولة إسلامية !!

أما سنة ميلاده ؛ فقد اختلف فيها اختلافاً كثيراً · قيل ولد سنة ١٧٢ هجرية و ١٨٨ و ١٩٠ و ١٩٢ ... وقد أعجبني تحقيق البستاني وملت إلى الأخذ برأيه من أنه ولد عام ١٧٢ هجرية · بدليل أنه يقول في مرثيته لعمير بن الوليد :

ألا أبلغ خليفتنا مقالي وأبلغه الأمينَ بن الرشيد

والأمين قتل سنة ١٩٨هـ فلو أخذنا بأبعد الآراء المذكورة

عن هذا التاريخ وهو عام ١٨٨هـ لكان عمره عشر سنوات . وهذا شبه مستحيل . لذلك نعتمد على أن سنة ولادته كانت ١٧٢ هجرية أو ما يقاربها .

أما سنة وفاته ؛ فليس الاختلاف فيها بأقل من الاختلاف على عام ولادته . قيل توفي : عام « ٢٢٨ » هجرية و « ٢٣٠ » و . . . « ٢٥٠ » والمرجّح ؛ أنه مات حول عام ٢٣٠هـ أي في أواخر خلافة الواثق لأن له في هذا الخليفة مدائح . ولكن لانجد له في المتوكل شيئاً . ولو أدركه ؛ لامتدحه من غير شك والواثق غادر هذه الدنيا عام ٢٣٢ هجرية فيكون أبو تمام قد سبقه بقليل

في دمشق :

نزح والد الشاعر إلى دمشق ، والشاعر برعم لم يتفتّح بعد . وكان اسمه حبيباً فأسلمه إلى نسّاج حرير يتعلّم الصنعة . وافتتح لنفسه دكاناً لبيع الخمر . وصنعةُ الخمر ؛ كانت وما تزال خاصة بالنصارى وبالروم أو اليونان ، في الشرق ، بصورة خاصة . فربّما كان والد الشاعر من بقايا الروم بعد الفتح ، أو من جالية نازحة . والذي يجعل هذا الشك قريباً من الصحة ؛ الاختلاف في اسمه فقيل : تدوس وتدرس وندوس . وربما كانت هذه

كلها تصحيف ثيودوسيوس اليونانية . وأياً ما كان الاسم ؛ فهو غير عربي[1] ولذلك حرّفه الابن بعد استكمال شبابه فقال : أوساً وأصبح إذا سئل عن نفسه قال : (حبيب بن أوس) ولا يجب أن تذهب هذه الفكرة سدى . فإنها ترشدنا بدون ريب ؛ إلى ناحية من نبوغ الشاعر ، بتأثير اختلاط الدم المصهور في محيط غير محيطه .

ولعل صنعة الوالد في دمشق ؛ أثارت في نفس الولد تبرّماً بهذا الدين الذي يبيح شرب الخمرة . ولعلّ كُرهه للسكارى يترنحون في خمارة أبيه ويتهوّعون ويمجنون ، خلق فيه ردّ فعلٍ قوي فسخط على الدين القديم . وأسلم على يد رجل من طيءٍ لا نعرفه فانتسب بالولاء إليه . كما هي العادة ـ فأصبح اسمه هكذا : « حبيب بن أوس الطائي » .

على إن بعض المؤرخين يردّ هذه الدعوى . بأن نسبة الشاعر إلى طيءٍ ؛ لا شك فيها . وهو كثير الفخر والإدلال بها . ذكرها في شعره أكثر من ثلاثين مرةً . وتعصّب لها ومدح مشهوريها من زعماء وقواد وشعراء . وعطف على البحتري بصورة خاصة لأنه من طيءٍ . ثم لو كان نصرانياً حقاً ؛ لهجاه أعداؤه بذلك ولقالوا

---

(١) أبو تمام لفروخ

له : مالك وللإسلام تدافع عنه بهذه اللهجة وأنت فيه جديد ولمّا مـات ؛ رثاه أكبر الأدباء والوزراء ومنهم الزيات . ولم يلمح واحدٌ منهم إلى هذه الناحية . وعلى كل حال ، ومهما يكن دينه الأول ؛ فقد كان شديد العصبية للإسلام وللعرب . عظيم التفاخر بهم حتى عُدّ بحقٍ شاعر الإسلام والعرب . وهو في هذه الناحية ؛ يكاد يكون وحيداً في تاريخ الآداب العربية .

في حمص

على أن إسلام الشاعر إذا لم يكن في دمشق ؛ ففي حمص لا شك فيه . على فرض أنه كان نصرانياً في الأصل .

غادر حبيبٌ دمشق إلى حمص . واتصل بالأوساط الأدبية وبخاصة الشاعرين : عبد الكريم الطائي وعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجنّ . ويُظن بأنه أسلم على يد الأول . وتمذهب بالمذهب الشيعي على يد الثاني . وتخرّج عليهما . وعلق المذهب الشيعي بنفسه علوقاً شديداً فأصبح يقول :

جعلت هواي الفاطميين . زلفةً إلى خالقي . مادمت ، أو دام لي عمر

ولذلك توجّه إلى مصر ، مركز الدعاية الشيعية والعلم والفقه ليفيد من علم الشيعة ومالهم .

في مصر :

قضى الشاعر في مصر خمس سنوات وشهرين ، لم يجمع خلالها مالاً . ولكنه جمع ثروة علمية هائلة :

أخمسة أعوام مضى لمعيّد وشهران بل يومان . ثكل على ثكل

قضاها في جامع عمرو . يسقي الماء في حلقات الدروس ويستمع إلى مناقشات المعلمين . ويجالس الأدباء . ويأخذ عنهم ويسمعهم . واتصل بعيّاش بن لهيعة الحضرمي ومدحه وأطال المكوث ببابه . فلم ينل منه غير المطل . وكان هذا الرجل كلّ أمله في مصر . فلما يئس منه ؛ هجاه هجاءً مراً في حياته وسبّه بعد موته . وهجا مصر . والتحم الهجاء بينه وبين شعرائها يقول :

وصارعت عن مصر الرجاء . ولم يكن

ليصرع عزمي ، غير ما صرعت مصرُ

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طالعٍ سعدٍ . ولا طائر سهل

وزاد في ألمه من مصر ؛ هذه العصبيات والفتن الدائمة . حتى اعتدي على عاملها « عمير بن الوليد الباذغيسي الخراساني » وقُتل بيد العامّة فرثاه الشاعر وقال :

بمصر . وأي مأربةٍ بمصر؟ وقد شعبت أكابرها شعوب!

ثم كره مصر وتشوّق إلى دمشق . ولكنه لم يرد أن

يرجع إليها خاوي الوفاض . ذهب لتحصيل الثروة . ولم يظفر بها فكيف يرجع إلى أهله خائباً خاسراً : دينهم ودنياه !

ما آب . من آب لم يظفر بحاجته . ولم يخب طالب بالنجح ، لم يخب

ويظهر أنّه ذاق من الفقر في مصر ألواناً فقال :

نأيت . فلا مالاً حويت . ولم أقم فأمتع . إذ فجّعت بالمال والأهلِ

ولم يطل مقامه بعد ذلك في مصر . فغادرها راجعاً إلى سوريا حول عام ٢١٤ هجرية عَلَى الأكثر .

في سوريا :

رجع الشاعر إلى سوريا . واكتسب فرصة زيارة المأمون اياها ؛ فمدحه . ولكنه لم ينل منه عطفاً يشجعه على الذهاب إلى بغداد ، لعلويّته وتشيّعه . فانكسر قلبه . ولكن لم تنكسر همّته . فأخذ يتجوّل في سوريا وما بين النهرين والموصل وأرمينية . . . يمدح الأمراء وينال جوائزهم ، حتى توفي المأمون . فاتصل بالمعتصم وطارت شهرته . فعُرف في كل البلاد العربية كشاعر قومي ممتاز .

ولعلّه في هذه الأسفار ؛ التقى بالبحتري في حمص . فقدّمه لأهل المعرّة . ولاتصال البحتري بالشاعر قصة طريفة لا بأس بإيرادها . وإن كنا نشك بصحتها .

قيل : كان أبو تمام في مجلس أبي سعيد الثغري . فدخل البحتري — وهو فتى — ومدح الثغري بقصيدة ، فحفظ أبو تمام أكثرها . وقال للأمير هذا شعري انتحله هذا الفتى وسبقني فأسمعك إياه . وإذا شئت أنشدتك ما قال . واندفع فأنشد القصيدة . فالتفت الأمير إلى البحتري ووبخّه على سرقته حتى شككّه في نفسه . وخرج الشاعر يتعثر بأذيال الخيبة . وما كاد يصل الباب ؛ حتى ردّه الخدم بأمر الأمير . وقال له أبو تمام : الشعر لك يا بنيّ . ما سمعته قبل هذه المرّة . وكنت ظننتك تهاونت بموضعي ؛ فأقدمت على الإنشاد بحضرتي تريد مضاهاتي . ولما خرجتَ ، وأعلمني الأمير بنسبك ؛ رددتك لأهنئك . ووددتُ أن لا تلد طائيةٌ إلاّ مثلك . ويحدثنا البحتري بعد ذلك فيقول : سألني أبو تمام عن حالي . فشكوت له خلّة فأرسلني بكتاب إلى معرّة النعمان وعرّفهم إني شاعر . فكان هذا ؛ من أول الشعر الذي تكسّبت به . ويقول أيضاً: أما أبو تمام فو الله ما أكلت الخبز إلا به[1] .

---

(١) من مواضع الشك في هذه القصة ؛ أن أبا تمام لم يتصل بابي سعيد الثغري إلا بعد موت المأمون . واتصاله بالبحتري كان قبل اتصاله بالأمير بما لا يقل عن خمس سنوات على حسب هذه القصة .

في العراق وخراسان :

مات المأمون عام ٢١٨ هجرية . وكان أبو تمام قد بزغ نجمه فاستدعاه المعتصم فامتدحه . غير أنه لم يلبث أن فارقه متوجهاً إلى خراسان . إلى عبد الله بن طاهر ، قاهر الثورتين . وبينما هو في الطريق ، في همدان ، عند صديقه أبي الوفاء بن سلمه ؛ إذ وقع ثلج عظيم قطع السابلة . ففرح أبو الوفاء بصديقه . لأن الثلج يدوم طويلاً . واغتم أبو تمام ، لأنه سيضطر إلى أن يقضي الشتاء كله في همدان ! وكانت هذه الإعاقة من حظ الأدب العربي ؛ فقد أخذ الشاعر يطالع في مكتبة صديقه الأديب ، النفيسة نوادر الكتب ؛ فجمع خلال ذلك كتابه المشهور « الحماسة » ثم لما وصل إلى عبد الله بن طاهر ، التفّ حوله الشعراء وسألوه أن ينشدهم فقال : وعدني الأمير أن يسمعني غداً وستسمعونني عنده ...

وأنشد قصيدته المشهورة :

أهُنَّ عوادي يوسف وصواحبُه

فعزماً . فقدماً أدرك السؤل طالبُه

ولما بلغ : وقَلقِلْ فأيّ من خراسان جأشها

فقلت اطمئني : أنضر الروض عازبه

وركبٍ كأطراف الأسنّةِ · عرّسوا

على مثلها · والليل تسطو غياهبه

لأمرٍ · عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه

صاح الشعراء : ما يستحق هذا الشعر؛ إلا لأمير · وقال شاعر منهم : لي عند الأمير جائزة وعدني بها وقد جعلتها لهذا الشاعر جزاءً لقوله هذا في الأمير · فقال ابن طاهر : بل نضعفها لك ونقوم له بما يجب · وأمر فنثر عليه ألف دينار !! فما مدّ يده إليها وتركها للغلمان يلتقطونها !! فملأ الحاضرين إعجاباً بشعره وبنفسه وطارت شهرته إلى القوّاد المغمورين في خراسان بحرب بابك ثم اتصل بهم ومدحهم ، ونال عطاياهم · وهم : أبو دلف العجلي وأبو سعيد الثغري · وحيدر بن كاوس الأفشين ·

وقُضي على الثورة عام ٢٢٣ هـ وجاء عبد الله بن طاهر وقوّاده ببابك إلى المعتصم · ومعهم الشاعر · فرحّب به المعتصم واصطحبه معه إلى حرب عمورية · فشاهد الحرب عياناً وحَرْقَ البلدِ فأثّرت هذه المشاهد في نفسه وطبعت عليها صورة قويّة جداً سنراها بعدُ مصورةً أحسن تصوير في قصيدته المشهورة التي أنشدها بين يدي المعتصم في بغداد ، بعد رجوعه من هذه الحرب · ومطلعها :

السيف أصدق إنباء من الكتب في حدّه : الحدّ ، بين الجدّ واللعب

عمورية :

لابدّ – وقد مرّ ذكر عمّورية – أن نعرف عنها شيئاً لكي لا تفوتنا حلقة من سلسلة حياة هذا الشاعر . لأنها كلّها متصلة به اتصالاً وثيقاً . فلولا قصيدته فيها ؛ لكان شأنها من الذكرى ؛ شأن غيرها من الحروب والأهوال العظيمة . بل هناك كثير أعظم منها . ولم تخلد خلودها .

وعمورية هذه ؛ هي التي نسميها الآن قونية – على الأغلب – كانت من أعظم مدن الروم قصدها المعتصم دون سائر مدنهم لأنهم انتهزوا فرصة اشتغاله بثورة بابك ؛ فأغاروا على حدوده وأحرقوا بعض بلاده . ومنها « زبطرة » البلد الذي ولد فيه أو ولدت فيه أمّه . فأثاروا في نفسه سخطاً وألماً . واتفق أن سمع بأن امرأة من بني هاشم ؛ اعتدى عليها الروم فيها فصاحت : « وامعتصماه » فقال – وهو على سريره – حين بلغه ذلك : « لبّيك . لبّيك » .

وسيّر الجيوش الظافرة في حروب بابك ؛ إلى بلاد الروم . وسأل عن أعظم ثغر من ثغورهم . فقيل له : « عمورية » فسار إليها وأحرقها . ولم يستطع ملك الروم تيوفيل بن ميخائيل أن يدافع عنها . وذلّ أمام الجيوش المسلمة . واضطر لدفع الجزية

عن يدٍ وهو صاغر . وعاد المعتصم من هذه المغامرة الشعرية الجميلة ، ظافراً . تملأ الحميّةُ أنفَه والكبرياء جيشه . وعاد معه أبو تمام يجلجل في قوافيه ، جلجلة السيوف في الحرب . شامتاً بالكفر المنكسر كما انكسر المشركون في بدر ، فكان ذلك بدء انتشار الدين . يقول للمعتصم :

فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر ، أقربُ النسب

في بغداد والموصل :

عاد الشاعر إلى بغداد مع الجيوش الظافرة مرتين يغنّي بشعره فخرَ العرب والإسلام . ويعتزّ بهم . فأصبح شاعرَ القومية العربية الموموق . يُنظر إليه بعين الإجلال والاحترام واغتنى بعد فقر . واتصل بأكابر رجال المملكة كمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم . والقاضي أحمد بن أبي دؤاد وزير الواثق بعد المعتصم . وجعفر الخياط القائد المشهور . والحسن ابن وهب كاتب الدوله . ومدحهم جميعاً فأكرموه ، برغم الحزازات القائمة بين أحزابهم . لأن أبا تمام ، لم يمثّل حزباً بعينه . ولم يكن شاعر فريق معين من الناس . بل كان شاعر الدولة والإسلام لذلك غضب لغضب الخليفة على الأفشين . وشمت بإحراقه لكفره وشركه .

في الموصل :

عني الحسن بن وهب بالشاعر عناية فائقة . واختصه بصحبته وأراد أن يخدمه خدمةً تؤدي شكره له . فطلب منه الشاعر أن يوليه الموصل . فولاّه بريدها . وقد اختار الموصل دون سواها ، لأن له فيها ذكريات قديمة حين كان يتنقل في البلدان زمن المأمون . واتصل بآل الطوسي ومدحهم ؛ فأكرموه في حياته : بالحب ، والاحترام ، والعطاء . وأكرموه بعد موته ؛ ببناء قبّة على قبره يخلّدونه بها للأجيال العابرة في هذه الحياة .

ولتولية الشاعر الموصلَ ؛ رواية أخرى قد يمكن أن تكون صحيحة . ولكنا نميل إلى ماذكرنا أولاً :

قيل : أنشد أبو تمام أحمدَ بن المعتصم قصيدته المشهورة :

ما في وقوفك ساعةً من باس تقضي ذمام الأربع الأدراس

ولما بلغ قوله: إقدام عمروٍ . في سماحة حاتم

في حلم أحنف . في ذكاء إياس

قال له أبو يوسف الكندي الفيلسوف . وأراد الطعن به : الأميرُ فوق من ذكرت . كيف تشبّه ولد أمير المؤمنين بأعراب أجلاف وهو أشرف منزلةً وأعظم محلّةً .

فأطرق أبو تمام هنيهةً ثم رفع رأسه وقال :

لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

ولما أخذت القصيدة من يده ؛ لم يجدوا فيها هذين البيتين فتعجبوا من شدّة بداهته . وقال الفيلسوف الكندي : إن ذكاء هذا الشاعر ؛ يأكل جسمه . كالسيف يأكل غمده . فطرب ابن المعتصم لذلك وسأله مايريد ؟ فطلب الموصل فوقّع له بها !!

هبات الشعراء

قد نستغرب نحن الآن ؛ أن تُهدى مدينةٌ لشاعر ؛ جزاءً على قصيدة . ولكن أمثال هذه القصة في التاريخ كثير ، مما يبعد الشك عن إمكان وقوعها . نذكر منها ما يلي :

١ : وهَب شرفُ الدولة بن مسلم بن قريش ؛ الموصلَ لبعض شعرائه . فقيل للشاعر إنها لاتبقى عليك . فلو بعتها لنواب الأمير لكنت موفّقاً . فابتاعوها منه بعشرين ألف دينار !!

٢ : وقف ابن هانئ متنبي الغرب ؛ وأنشد بين يدي المعزّ بعد أن فتح قائده جوهر ، مصرَ :

إلا إنما الأيامُ أيامك . التي لك الشطر من نعمائها . ولنا الشطرُ

فالتفت إلى وزيره وقال : أكتب له بالأسكندرية وسلّموها

إليه بمن فيها فهي شطر . وقد خصصناه بها ؛ ولكن المسكين قتل قبل أن يصل إليها .

٣ : مدح أبو الحسن التهامي ، حسّانَ بن جرّاح الطائي صاحب الشام بقوله :

تقلُّك الأرضون ملكاً . وأهلها عبيد . فهل مستكثر لك شامها

فوهبه مدينة حماه .

٤ : وكذلك وهب ابن المعتصم الموصلَ لأبي تمام فجعل حيص بيص النحوي المشهور يقول : أصبحت الموصل هديةً لشاعر

اخلاقه :

كان في أبي تمام تمتمة يسيره . فاشترى له أبو سعيد الثغري غلاماً فصيحاً ينشد شعره عنه . وفي هذا يقول مخلّد الموصلي :

يا نبيّ الله في الشعر — ويا عيسى بن مريمْ
أنت من أشعر خلق الله ما لم تتكلم

ولذلك قلّ إنشاده بنفسه وإذا أنشد ؛ فإنما ينشد قاعداً لشدّة إعجابه بنفسه وبشعره يقول :

لنا الجود في قحطان ، والبأس والندى
هل المجد . إلا الجود والبأس والشعر ؟ !

ولا يرى الممدوح أعظم منه ، فإن ما يعطيه كفئاً لشعره :

كن طويل الندى عريضاً فقد سا ر ثنائي فيك الطويل العريض

بل يرى نفسه أشعر الثقلين من إنس وجان يخاطب ناقته فيقول :

بكورك ، أشعر الثقلين طراً وأوفى الناس في حبٍّ صميم

وهذا ما جعله يفاخر القدماء ويردّ على عنترة القائل :

هل غادر الشعراء من متردّم ؟!

أو زهير القائل :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكرورا !!

فيقول أبوتمام في قصيدة من قصائده .

يقول من تقرع أسماعَه : كم ترك الأولُ للآخر!

ولعلّ هذا الاعتداد بنفسه وهذا الحب لشعره ؛ جعله لايأبه لبعض ما ورد من أبياته ضعيفاً ساقطاً . كان يرى أبياته كأولاده يحب النشيط القوي منهم . ويعطف على الضعيف الهزيل خلافاً لما قال :

ويسيء بالإحسان ظناً . لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

بل كان يذهب في التعاظم مذهباً عملياً في حياته . هو في حدّ ذاته شعر عملي — إن صحّ لي هذا التعبير — من ذلك رجوعه إلى قريته جاسم وضربه الخيام الأنيقة خارجها ليظهر أمام أترابه الذين نشأ بينهم فقيراً معدماً ، غنياً سيّداً . ولكن

امرأة من بعض أحياء العرب أخجلته بتذكيره ماضيه . مرّت وأختها تستقيان فقالت لها : أتدرين الرجل ؟

— قالت : لا والله

— قالت بلى ! أنا أعرفه

— ومن هو ؟!

— قالت : إنه والله أقيرع جاسم !

فلما سمع ما قالت ؛ قوّض خيامه ورحل من وقته وعاد إلى الموصل . فما زال بها إلى أن مات .

من هذه القصة الصغيرة نلاحظ سبب سعيه وكثرة أسفاره ليجمع المال ؛ يقول :

ما أضيع العقل ؛ إن لم يرع ضيعته

وفرٌ . وأي رحي دارت بلا قُطُب ؟!

الصبر كأس . وبطن الكف عارية

والعقل عارٍ ، إذا لم يكسَ بالنّشب!

فإذا نال جائزة لم تعجبه ؛ أعرض عنها واحتقرها . وربما أصابه بذلك مهانة . فقد اجتواه عبد الله بن طاهر لما احتقر جائزته وهي ألف الدينار التي صبّها عليه . ولولا أبو العميثل كاتبه ؛ لما صلحت الحال بينهما .

وربما ادّعى طمعاً ؛ أنه أخذ الجائزة ووهبها . كما فعل إذ مدح خالد بن يزيد بن مزيد عامل أرمينية . فوهبه عشرة آلاف دينار وقال له : إذا أردت البقاء ؛ فلك الحباء والبرّ . وإن أردت الشخوص ؛ فهذه جائزتك . قال بل أشخص ... وركب خالد بعد أيام للصيد ؛ فرآه تحت شجرة وبين يديه زق خمر وغلام يغنيه ويضرب له بالطنبور . فقال : أبو تمام ؟! قال نعم . قال مافعل المال ؟! فقال :

علّمني جودك السماح . فما أبقيت شيئاً لديّ من صلتك
ما مرّ شهر حتى سمحتُ به كأنّ لي قدرةً كقدرتك

فأمر له بعشرة آلاف أخرى . فأخذها وخرج . ويظهر أنه لم يكن بخيلاً . وهو القائل :

وإني لأرجو عاجلاً أن تردّني مواهبه بحراً ترجّى مواهبي

وكان يسعى إلى المال سعياً حثيثاً ولا يبالي المشقة والجهود ليصل إلى الراحة والنعيم . يقول :

ولكنّني لم أحوِ وفراً مجمعاً ففزتُ به ؛ إلا بشملٍ مبدّد

هذا . وأما أخلاقه في غير مايتعلق بالمال . فقد أدركت منها شيئاً في قصته مع الحسن بن وهب بشأن غلاميهما . ولكنه كان يؤثر الفسق المكتوم حرصاً على سمعته ومركزه .

لغته ونظمه :

أبو تمام ؛ شاعرٌ صناعٌ ، يتعب في صوغ قصيدته ، كما يتعب النحّات في نحت تمثاله . ويتخيرُ لها الألفاظ والمعاني تخيّراً ويسكبها في وحدة موسيقية منتظمة . يتعذّب كثيراً في تنسيقها ورأيه في الشعر ؛ يشبه رأي بول ڤاليري من المعاصرين — وإن لم يبلغ عمقه — من حيث النظر إلى القصيدة ؛ كعمل فني لا فرق بين الشاعر فيها وبين النجّار أو الحداد أو صانع الدمى فهو بهذا يختلف كثيراً عن شعراء الجاهلية أو العصر الأموي الذين كانوا يقذفون على ألسنتهم ما تجيش به صدورهم ، من غير أن يفكروا في تهذيبه وتشذيبه وحذف بعض ألفاظه أو زيادة غيرها أو تقديم أو تأخير . فأبو تمام بعمله ؛ يمثل عصره الذي كثر فيه التأنّق والتزويق والبهرجة والظهور بمظاهر مدنيةٍ مزيّنة . ومن هنا ؛ نلاحظ كثرة استعمال أنواع التكلف البديعي في شعره كالجناس والطباق والمقابلة ... والاغراق في الاستعارات والمجازات والكنايات . وقد لا تخرج من كل هذا الجهد ، عَلَى شيءٌ ذي قيمة أحياناً .

حكى عنه بعض أصحابه قال : « دخلت على أبي تمام وكان لا يستتر عنّي . كان في بيت مصهرج قد غسل بالماء فوجدته

يتقلّب يميناً وشمالاً . فقلت : لقد بلغ الحرّ بك مبلغاً شديداً ، قال : لا ، ولكن غيره . ومكث ساعة ، ثم قام كأنما أطلق من عقال ، فقال : الآن أردت . ثم استمدّ فكتب شيئاً لا أعرفه ثم قال : أتدري ما كنت فيه الآن ؟ قلت : كلا . قال قول أبي نواس :

كالدهر فيه شراسه وليان .

أردت معناه حتى أمكن الله منه فصغت :

شرستَ . بل لنتَ . بل قايست ذاك بذا

فأنت لاشك : فيك السهلُ والجبلُ

فأنت ترى التكلّف الظاهر فيه كما رآه قبلنا صاحب العمدة فهو أحط بكثير من بيت أبي نواس . وهو نفسه يقول :

وقوافٍ قد ضجّ منها لما استع ـ ـمل فيها المرفوعُ والمخفوض

وكانت اللغة تطاوعه حيناً وتندّ عنه حيناً آخر . فيأتي بالغريب والمتعاظل والمضحك أحياناً لشدّة غرابته وتكلّفه كالشوهاء تتزيّن بالمساحيق والحمرة والكحل لتخفي منظرها الكريه فيزداد كراهة وشناعة . وإليك بعضاً منها :

المجد لا يرضى . بأن ترضى . بأن يرضى المؤمّل منك ؛ إلا بالرضى

حمادِ من نوءٍ له حمـاد في ناجرات الشهر لا الدآد

به بسطت الخطى فاسنحفرت رتكاً

إلى الجلاد وكانت قبلَه قطفا

أغشيت بارقة الأغماد هامهم ضرباً طلخفاً ينسّي الجانف الجنفا

بأنّك لما أسحنّك الأمر · واكتسى

أَهابي · تُسفى في وجوه التجارِب

فكم جِزْع وادٍ جبّ ذروة غارب

وبالأمس كانت أَتمكته مذانبه

فطحطحتُ سدّاً سدُّ يأجوج دونه

من الهم · لم يُفرغ على زبره قطر

أَهيسُ أليسُ لجّاءٌ إلى همم

تغرق الغبس في آذيّها الليسا

يوم أفاض جوىً · أَغاض تعزّيا

خاض الهوى بحر حجاه المزبد

وقد يتغوّر في المعنى أحيانا حتى يصل إلى درجة المبالغة · بل لقد يعطى الناس أوصاف الآلهة لشدة إغراقه كقوله :

اللهأكبر · جاءأكبرمن جرت فتعثرت في كنهه الأوهامُ

من لا يحيط الواصفون بوصفه حتى يقولوا وصفه إلهام

أما الجناس والطباق بصورة خاصة من ألوان البديع ؛ فقد أغرق فيهما إغراقاً حتى ندر أن نجد له بيتاً ليس فيه نوع منهما . بل قد يكثر فترى القصيدة كلها ظاهرٌ فيها تعمّل الطباق والجناس بكثرة فاحشة . عرف بها وعرفتْ به ؛ فأصبح لها عَلماً . وأثرّ في من جاء بعده من الشعراء ؛ فتركوا المعاني وتعمّدوا التلاعب بالألفاظ . فانحط شعرهم انحطاطاً معيباً . ومن قوله في ذلك :

قرّت بقرّان عين الدين . وانشترت

بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

فاسلم سلمت من الآفات ما سلمت

سِلام سلمى ومهما أورق السَلَم

على أن تكلّف تنميق الشعر وبهرجته ؛ ليس من ابتداع أبي تمام . بل سبقه غيره منذ العصر الجاهلي كأوس بن حجر المعدود رأس صنّاع الشعر وزهير والفرزدق ومسلم بن الوليد . . بل هؤلاء هم حلقات متسلسلة من مذهب شعري خاص [1] ولكن مسلماً وأبا تمام ؛ أغرقا فيه إغراقاً بعيداً فنسب إليهما . وأبو تمام القائل : « أبو نواس ومسلم ؛ اللات والعزّى وأنا

---

(١) راجع صفحة ٣٤ .

أعبدهما » لأنهما مثله يعنيان بتنقيح شعرهما وزخرفته يقول :

نشرٌ · يسير به شعر · يهذّبه فكر · يجول مجال الروح في الجسد

ويريد بهذه العناية ؛ أن يبلغ الغاية من الشعر · والمثل الأعلى فيه فيقول :

سأجهد حتى أبلغ الشعر شأوه وإن كان لي طوعاً وليس بجاهد

وهذه العناية ؛ ساقته إلى التصريع · لا في المطالع فقط · بل ما بين الجمل في الشطر الواحد · بل جعل البيت أحياناً مسجوعاً سجعاً متمادياً يشبه أن يكون التوشيح قد استمد منه كقوله .

ومن فاحم جعدٍ · ومن قمر سعدٍ ومن كفلٍ نهدٍ · ومن نائل ثمد

أنا الحسام . أنا الموت الزؤام . أنا

الحرب الضرام · أنا الضرغامة العتد

وأقرب شيء من هذا الموضوع كما يقول فروخ - وزن جديد ليس من الأبحر المعروفة من ذلك قوله :

ثقيلُ ردف · دقيق خصر شقيق شمس · نتيج بدرِ

بديع حسن · رشيق قدٍّ مليح خد · نقي ثغرِ

قضيب بان · عليه بدر مثال حسن · عروس خدر

تمّت دموعي · على عزائي إذ غاب عنّي · جميل صبري

واحسب أنّ أول من انتبه إلى هذه القصيدة في المعاصرين هو الأستاذ فرّوخ .

ونستطيع أن نعرف مذهب أبي تمام في النظم ؛ من وصيته التي أوصى بها تلميذه البحتري . قال :

« تخيّر الأوقات وأنت قليل الهموم . صفر من الغموم . واعلم أن العادة في الأوقات ؛ أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر . وذلك أن النفس قد أخذت حظّها من الراحة وقسطها من النوم . فإن أردت النسيب ؛ فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً . وأكثر فيه من بيان الصبابة . وتوجّع الكآبة . وقلق الأشواق . ولوعة الفراق . وإذا أخذت في مدح سيّد ذي أيادٍ ؛ فأشهر مناقبه . وأظهر مناسبه . وأبن معالمه . وشرّف مقامه . وتقاضَ المعاني واحذر المجهول منها . وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزريّة . وكن كأنك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجسام . وإذا عارضك الضجر ؛ فأرح نفسك . إلاّ وأنت فارغ القلب . وأجعل شهوتك لقول الشعر ؛ ذريعة إلى نظمه . فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال ؛ أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين . فما استحسنه العلماء ؛ فاقصده . وما تركوه فاجتنبه . ترشد إن شاء الله تعالى ... »

فكأنه بهذه الوصيّة يضع دستوراً للشعراء النظّامين الذين يتخذون الشعر صنعةً يسترزقون بها الخبز .

شعره وأغراضه :

شعر أبي تمام ؛ سلوكٌ على نظام القدماء من حيث الوزن والقافية والألفاظ . ولكنه يغوص على المعاني أكثر منهم . وذلك من أثر الصنعة . أما المواضيع التي طرقها ؛ فهي المديح والهجاء والغزل والرثاء والعتاب . لا تزيد على الأقدمين إلا بالوصف ، فقد امتازت بعض قطعه بوصف لذيذٍ للغيم والمطر والقلم ... وبثّ في قصائده الأخرى وصف الحرب والخيل والإبل والنساء والغلمان بدقّةٍ وتنسيق . ولكن ليس فيه شعور حقيقي . وينثر فيما بين هذا وذاك ؛ شيئاً من الحكم والأمثال عرف شعره بها . على أن ما امتاز به أبو تمام ؛ هو المديح والرثاء فقط . وسنعرض فيما يلي ؛ صفحات من كتاب شاعريته .

المديح :

مديح أبي تمام ؛ سجلّ لعظماء عصره والأشخاص البارزين في زمنه فممدوحوه ؛ أكثر من ستين شخصاً ، بين ملك وأمير ووزير وقائد وشاعر . وقصائد المدح في ديوانه ؛ تستغرق أكثر من ثلثي الديوان . ويبلغ عددها أكثر من ١٥٠ قصيدة . ويمتاز

شعره في المديح ؛ بوفرة الصور المعاصرة له . وبهذا يسجّل لنا تاريخاً للعادات والمعاملات والأخلاق وأسماء الأماكن والأشخاص . ويعتمد في تقوية قصيدته على الدين غالباً . فيمدح بالدين ويعيّر بالكفر ويشيد بالقوميّة العربية . ونَدَر أن تجد له قصيدة في المدح تخلو من هذا النوع . ولعل لكثرة قصائد المديح في ديوانه ؛ سبباً . هو ما ذكرناه سابقاً من أمر تنافس الأمراء . وقد كان هؤلاء الأمراء يشجعون الشعراء على القدوم اليهم لامتداحهم . كانوا يشعرون بأن هذا المديح أسلوب من أساليب الشهرة . والشعراء كسائر الناس من أبناء آدم ، يسعون إلى العيش الموفور عن أخصر الطرق . يقول الشاعر:

يسقط الطير حيث ينتثر الحبّ — وتُغشي منازل الكرماء

أنشد أبو تمام مرةً أبادلف قصيدته :

(على مثلها من أربع وملاعب)

فأمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ماهي بإزاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا . ثم قال له : أنشدني قولك في محمد بن حميد الطوسي

وما مات ؛ حتى مات مضرب سيفه

من الضربِ . واعتلّت عليه القنا السمرُ

فأنشده إيّاها . فقال : والله لوددت أنها فيّ . فقال أبو تمام

بل أفدي الأمير بنفسي وأهلي وأكون المقدّم . فقال أبو دلف : إنه لم يمت من يرثى بهذا الشعر أو مثله ..

فهذه القصة ؛ ترينا حب الأمراء للمدح واضحاً . وكان يعتقد بأنه قويّ الشاعرية . كجريدة كثيرة القرّاء واسعة الانتشار لذلك يحسّ أنه لايأخذ من الأمراء أكثر مما يعطي . يقول :

فألبسني من أمهـات تلاده وألبسته من أمّهات قلائدي

هذا . وأضعفُ مدائحه ؛ ما كان في الخلفاء لأنها كانت عن طمع بنوال . وأجودُها ما كان في أصهاره وأصدقائه . لأن العاطفة تمليها .

أما طول القصيدة وقصرها ونوع وزنها وقافيتها ؛ فمثالٌ من حسن ذوق أبي تمام . يختار للامير العربي وزناً فخماً وألفاظاً شديدة . وللأعجمي أو المتعاجم ؛ وزناً سهلاً وألفاظاً لينةً كأنه يفصلها تفصيلاً على قدر الممدوح . قال فرّوخ :

(لا أستغرب أن يمدح أبو تمام الرافقيّ بخمس قصائد قوافي ثلاث منها ثاء وسين وضاد ويحشر فيها : نبيث . دثوث . ميث ششوث . لويث . قدموس . شوس . كردوس . أريض . نحيض قبيض . دحيض . أنيض ... فالأمير في الشام بدوي .. ولا أظنك تعجب إذا رأيت هذه الكلمات الغريبة في مدحه لآل طوق من أمراء عرب الشام : غراثا . حثحاثا . دلهاثا ... أما إذا قلبت

الديوان فوصلتَ إلى مدح محمد بن عبد الملك الزيات؛ الوزير الشاعر فسترى أمثال وصف القلم .. ووصف الغيث)

وهذه ملاحظة في محلها. وهي من مميّزات أبي تمام وخصائصه الشعريّة. أو إذا شئت ؛ فسمّها : « الجرائد الشعريّة » .

وخير قصيدة تختصر خصائص المدح عند أبي تمام ؛ هي قصيدة (فتح الفتوح) التي قالها في المعتصم بعد فتح عمورية .

وهي تقسم إلى ثمانية أقسام

ا : الحق للقوةِ والسيفِ . لا للكلام والدعاوى وطول اللسان

ب : سخرية بالمنجمين الذين منعوا المعتصم ، من الغزو . لأن الفلك ليس في برج السعود . وذكر الكوكب المذنّب[1]

وقولهم إنه من نُذر الشرّ ؛ فإذا هو بشير بالخير

م : ذكر فتح عمورية والشماتة بالمشركين

د : ذكر الحريق وعظمته حتى قلب الليل نهاراً ..

هـ : وصف المعتصم . وأنه رافع لواء الدين . وأنه من نفسه في جيش . وأنه سار بأمر الله لهذا الفتح . وأنه لبّى نداء الهاشمية التي سباها الروم يوم استغاثت به فصاح : لبيّك .

---

(١) يسميه الفلكيون الآن : مذنّب هيلي . وهو يظهر كل ٧٥ عاماً مرةً لسكان الكرة الأرضية . ظهر زمن أبي تمام في رجب سنة ٢٢٢ هجرية . وظهر آخر مرة سنة ١٣٢٨ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية

و : وصف هزيمة ملك الروم وأن تسعين ألفاً من جيشه أُحرقوا يوم الهزيمة في عمورية .

ز : وصف السبي والنصر والفخر بذلك .

ح : دعاء للخليفة بالنصر الدائم . وأن وقعة عمورية تشبه وقعة بدر ؛ فقد ذلّ المشركون مرتين : مرةً في بدر . ومرة في عمورية فكانت فتحاً جديداً للدين الإسلامي :

فتح الفتوح :

السيف: أصدق إنباءً من الكتب في حدّه الحدّ: بين الجدّ واللعبِ

بيض الصفائح . لاسود الصحائف . في

متونهن : جلاء الشكّ والرِيب

والعلمُ في شهب الأرماح، لامعةً بين الخميسين، لا في السبعة الشهب

كذب المنجمون :

أين الرواية ؟ بل أين النجوم ؟ وما

صاغوه من زخرف فيها، ومن كذِب!!

تخرّصاً . وأحاديثاً ملفقةً . ليست بنبع إذا عدّت ولا غرب

وخوّفوا الناس ؛ من دهياء مظلمةٍ

إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنبِ

وصيّروا الأبرج العليا مرتّبةً ما كان منقلباً ، أو غير منقلِب
يقضون في الأمر عنها ـ وهي غافلةٌ ـ ما دار في فلكٍ منها ، وفي قُطُب

الفتح :

لو بيّنت قط أمراً قبل موقعه ؛ لم يخفَ ماحلّ بالأوثان والصلب !
فتحٌ : تفتّحُ أبواب السماء له وتبرز الارضُ في أثوابها القُشُب
يايوم وقعةِ عمّورية ، انصرفت عنك المنى ؛ حُفَّلاً ، معسولةَ الحَلَب
أبقيتَ جدّ بني الاسلام في صُعدٍ
والمشركين . ودار الشرك ؛ في صَبب

الحرب :

لقد تركت . أميرَ المؤمنين ، بها
للنار ، يوماً ؛ ذليلَ الصخرِ والخشبِ
غادرت فيها بهيمَ الليل ؛ وهو ضحى يشبّه وسطها : صبحٌ من اللهَبِ
حتى ، كأن جلابيب الدجى ، رغبت
عن لونها . أو كأن الشمسَ ، لم تَغِبِ
ضوءٌ من النار ـ والظلماء عاكفةٌ ـ وظلمة من دخان ، في ضحى شحِبِ

مدح المعتصم :

تدبيرُ معتصم بالله ، منتقم لله . مرتقب في الله . مرتهب
لم يغزُ جيشاً . ولم ينهض إلى بلدٍ إلا تقدّمه جيشٌ من الرعب

لو لم يقُد جحفلاً يوم الوغى · لغدا: من نفسه وحدها؛ في جحفلٍ لجب

رمى بك الله بُرجيها فهدّمها ولو رمى بك غير الله، لم تصب

لبيّت صوتاً زبطرياً، هرقت له

كأس الكرى · ورضابَ الخرّد العرب

هزيمة نيوفيلوس ملك الروم :

لما رأى الحرب رأي العين · توفلسٌ

والحرب؛ مشتقةُ المعنى من الحَرَبِ

غدا يصرّف بالأموال جزيتها فعزّه البحر، ذو التيّار والعبب

إن الأسود · أسود الغاب · همّتُها

يوم الكريهة؛ في المسلوب · لا السلب

ولّى - وقد ألجم الخطيُّ منطقه - بسكتةٍ تحتها الأحشاءُ في صَخَبِ

إن يعدُ من حرّها عدو الظليم · فقد أوسعت جاحمها، من كثرة الحطب

تسعون ألفاً · كآساد الشرى، نضجت جلودهم، قبل نضج التين والعنب

دعاء للخليفة بالنصر :

خليفة الله · جازى الله سعيك عن

جرثومة الدين، والإسلام، والحسب

فبين أيامك اللاتي نُصرت بها، وبين أيام بدرٍ؛ أقربُ النسب

فأنت تلاحظ أنه افتتح القصيدة رأساً بالموضوع ودخل

إلى قلبه من غير تمهيد، وليست هذه عادة أبي تمام أبداً، بل قد يوطئ أحياناً مديحه على الطريقة القديمة، وقد يوطئه بوصف، كوصف الغيم مثلاً. وهي محاولة في التجديد على كل حال

الرثاء :

تقود أبا تمام عاطفة عارمة أكثر الأحيان. فاذا رثا فإنه يتألم ويصوّر ألمه صريحاً جلياً. ولكنه قد يعمد إلى المبالغة والتزويق أحياناً حتى يبعد عن العاطفة الحقيقية إلى الرياء. فيزلزل الجبال ويطفئ الشمس ويعرّي الأشجار إلى غير ذلك من صور المبالغات التي تضحكنا في هذا العصر. ولكنها كانت مقبولة في زمنهم كقوله في موت خالد بن يزيد :

ماتت ربيعة. لا بل ماتت العرب وحلّ بالمكرمات الويلُ والحرب!
أضحت سماءُ معدٍ - بعد خالدها -
محجوبةَ الشمس. حتى تنشرُ الكُتُبُ

وقوله فيه أيضاً :

تقلّص ظل العرف عن كل بلدةٍ وأطفئ في الدنيا سراجُ القصائد

وهو — كعادته — يحشو الحكم حشواً حتى في رثاء ابنه فإنه يعزّي نفسه بأن الدنيا دار زوال وأن الموت لابدْ منه. وأن كثيراً من الناس ماتوا . . .

والعاطفة الصحيحة والحكمة في مثل هذا الموضوع؛ تتنافيان.

يقول :

أرى كلّ حيٍّ ما تزال طليعةً عليه المنايا . من ثنايا المخارم
يذكّرني ابنيّ؛ السما كان موهناً إذا ارتفعا فوق النجوم العواتم
وقد رزئ الأقوامُ قبلي بنيهمُ وإخوانهم . فاقني حياء الأكارم

ثم يعدّد من ماتوا من العظام كأبيه والمنذرين وعمرو ابن كلثوم والأقرعين وبسطام ... الخ أكثر من عشرة . ثم يقول :

فما ابناك ؛ إلاّ من بني الناس . فاصبري
فلن يُرجعَ الموتى ؛ حنينُ المآتم

أهذه عاطفة أب . أمْ عقل حكيم ؟ ! وخير قصائده في الرثاء ؛ قصيدته في محمد بن حميد . ومطلعها :

كذا ، فليجلّ الخطبُ . وليفدح الأمرُ
فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذرُ

وهذا القائد الشجاع ؛ من قوّاد المأمون في حرب بابك فرّ أصحابه من حوله . ولكنه نجا بنفسه . ثم التفتَ ؟ فإذا جماعة من أصحابه يقاتلون . فارتدّ ليعينهم فقتل . ولما بلغ أبا تمام نعيه . غمس طرف ردائه في مداد ، ثم ضرب به كتفيه

وصدره وأنشد هذه القصيدة . وفعله هذا ؛ تقليد لحثوِ التراب عَلى الرءوس في البادية يوم النعي . وهـذا تجديد على كل حال. ويظهر أن هذه السنّة التي استنها أبو تمام ؛ شاعت بعده . فقال الكاتب الزنجي في رثاء ابن خلدون :

لولا الحياء . وأن أَجيء بفعلةٍ تقضي عليَّ بها سيوفُ ملام
وأكون متّبعاً لأشنع سنّة قـد سنّها قبلي أبو تمـام

للبستُ ثوبَ الثاكلات . وكنت في
سود الوجوه: كأنني من حام

ولم يَجُد أبو تمام إلاّ في رثاء أَصدقائه ومحبّيه . أما الملوك الذين اتصل بهم ؛ ونال جوائزهم ؛ فلم يرثِ بعضهم كالمأمون مثلاً ورثا الآخرين ضمن قصائد التهنئة لمن ولاهم . كتضمينه رثاء المعتصم ؛ في قصيدة هنأ بها الواثق بالخلافة . وهذا تعمّد للتفنّن أكثر من إظهار عاطفة حزينة . ولكن لاغرابة ! فتلك طبيعة البشر ونفاقهم .

رثاء ابن محمد

كذا فليجلّ الخطب . وليفدح الأمر
فليس لعينٍ لم يفض ماؤها ، عذرُ
توفّيت الآمالُ بعـد محمدٍ وأصبح في شغل عن السفرِ ، السفرُ
وما كان ؛ إلاّ مالَ من قلّ مالهُ وذخراً لمن أمسى ؛ وليس له ذخر

إلا في سبيل الله . من عطّلت له فِجاجُ سبيل الله . والثغر الثغرُ

فتىً . كلّما فاضت عيون قبيلةٍ

دماً . ضحكت عنه الأحاديث والذكر

فتىً . مات بين الطعن والضرب ميتةً

تقوم مقام النصر . إن فاته النصر

وما ماتَ ؛ حتى مات مضربُ سيفِه

من الضرب . واعتلّت عليه القنا السمرُ

وقد كان فوتُ الموت سهلاً ؛ فردّه

إليه الحفاظ المرُّ ، والخلق الوعر

فأثبت في مستنقع الموت رِجلَه

وقال لها : من تحت أخمصك الحَشر

تردّى ثياب الموت حمراً . فما أتى

لها الليل ، إلاّ وهي من سندسٍ ؛ خضرُ

الرجاء :

ربما كانت أصدق عواطف أبي تمام ؛ في هجوه . وهو كثير الإفحاش ، حين يهجو أعداءه من الشعراء إو الغلمان الذين عاشروه مدةً ثم هجروه . ومَن مدحهم فلم ينيلوه . كقوله في موسى أبي المغيث :

أمويس : كيف رأيت نصبَ حبائلي ؟

أو ليس ختلي ، فوق ختل الخاتل ؟

أعملتُ فيك قصائدي ووسائلي فحرمتني . فلبئس أجر العامل

هذا جزائي ، إذ أدنّس ـ جاهلاً ـ بك همتي . وكذا جزاء الجاهل

لافرّج الرحمن عني . إنني أرتعت ظني ؛ في رياض الباطل

ما خلّفت حواء أحمق لحيةً من سائل ؛ يرجو الغنى من سائل

وكذاك مَن قصد اللئام بعاجل في المدح . سوّد وجهه في الآجل

إما هجاؤه لغلمانه فلا سبيل إلى نشره لشدّة ما أفحش فيه ، ونشد من المخازي .

العتاب والتعريض

العتاب في الحقيقة نوع من الهجاء الخفيف . وقد كان من الواجب أن نحشره في الباب المتقدّم . ولكنا آثرنا له باباً مخصوصاً لأن أبا تمام ، امتاز فيه بناحية خاصة . فهو إذا عاتب أو عرّض ، يلسع لسعاً وينفرّ أو يخيف أكثر مما يستعطف ويسترق : انظر إلى عتابه الوزيرَ الزيات . فهل ترى فيه رقةً واستعطافاً :

أبا جعفرٍ إن كنتُ أصبحتُ شاعراً

أُساهل في بيعي له من يبايعهْ

فقد كنتَ قبلي شاعراً ذا رويّةٍ
تساهلُ من هانت عليه بضائعُهْ
وصرتَ وزيراً . والوزارة مشربٌ
يغصُّ به بعد اللذاذة كارِعُهْ
وكم من وزير قد رأينا، مسلّطٍ
رأيناه ؛ قد سُدَّت علينا مطالعه
ولله قوسٌ لاتطيش سهامها ولله سيف لاتفلُّ مقاطعه

ولعلّه لتعاظمه ؛ لايرى المعاتبَ أكثر منه أوأرفع . فيخشن عليه كأنه يخاطب من في مستواه ، أو أصغر منه .

الوصف :

شعر الوصف عند أبي تمام ؛ على نوعين : بعضه منبثٌ في مدائحه موطئاً بها للمدح ، أو متعلق بالممدوح نفسه وأعماله كحرق عمورية مثلاً ؛ في مدح المعتصم . أو وصف القلم ؛ في مدح ابن الزيات . والبعض الآخر ، مستقلٌ بأراجيز ومقطوعات خاصة كوصف الغيم . وقد أجاد أبو تمام بوصف الحرب والخيل لأنه شهدها . والنساء والغلمان ؛ لأنه عاشرها . والشيبِ والشباب لأنه عاقرها . ووصفِ الطبيعة ؛ لأنه ابنها . لكن وصفَه عليه مسحةٌ من الكآبة العقلية والجفاف . يتغالى فيه باستعمال الطباق والجناس واللعب على الألفاظ . فيضل الوصف الحقيقي في هذه الصور

الجافة . وسنمثل لوصفه بالقطعتين التاليتين . الأولى في وصف القلم والثانية في وصف الغيم .

ويقال إنه أول من وصف القلم في اللغة العربية من الشعراء :

وصف القلم :

لك القلمُ الأعلى الذي بشباته ؛
تصابُ من الأمر الكلى والمفاصلُ

لعابُ الأفاعي القاتلات، لعابه . وأريُ الجنى اشتارَتهْ أيدٍ عواسلُ

له ريقةٌ طلٌّ . ولكنّ وقعها بآثاره ، في الشرق والغرب وابل

فصيح ؛ إذا استنطقته وهو راكبٌ وأعجمُ ؛ إن خاطبتَه وهو راجل

إذا ما امتطى الخمسَ اللطاف . وأفرغت
عليه شعابُ الفكر ؛ وهي حوافل

أطاعته أطرافُ القنا . وتقوّضت لنجواه ، تقويضَ الخيام ؛ الجحافل

إذ استغزر الذهن الذكيَّ . وأقبلت أعاليه في القرطاس ؛ وهي أسافل

وقد رفدَته الخنصران . وسدّدت ثلاث نواحيه ؛ الثلاثُ الأنامل

رأيت جليلاً شأنه ، وهو مرهفٌ ضنىً . وسميناً خطبُه ؛ وهو ناحل

وصف الغيم

ولأبي تمام أراجيز متعدّدة في وصف الغيم ، لعلّه أراد بها أن يقلّد الأقدمين . وتبعه على أثره ؛ تلميذه البحتري . فمشى خلفه

ولم يُرِبِ عليه : وسنختار القطعة التالية . وليس هناك اختيار حقيقي . فكل أراجيزه على نوع واحد من هذا الوصف تقريباً . وهذه القطعة صورة لها جميعاً :

سارية في غَسَق الظلام دانية من قُلَل الآكام
جاءت مجيء الجحفل اللُّهام فافترقت كالإبل السوام
كأنها - والبرق في ابتسام - كتيبة مُذْهبة الأعلام
دنت من الأرض بلا احتشام ثم بكت بكاء مُستهام
وانتشرت بسابغ الإنعام وثروة تحكم في الإعدام ..

شعر الغزل :

شعر الغزل عند أبي تمام على نوعين : غزل مؤنث . قدّم به قصائده على الطريقة القديمة . وهذا ليس فيه عاطفة حقيقية أو صدق . وغزل مذكر ؛ وهو فيه مجيد على الأكثر — وإن كانت تنبو عنه الطبيعة والذوق — وهو كأستاذه أبي نواس يتذلّل للمحبّ على عادة عصره الشائعة فيقول :

يا شامتاً بي إذ رأى هجرَ الحبيب وصدّهُ
لا تشمتَنّ فإنّه مولىً يعذّب عبدَهُ

واذكر قصته مع الحسن بن وهب وغلاميهما ؛ تعرف غزله الغلماني من أخلاقه تلك (انظر صفحة ٣٤٠) وهو شديد الغيرة

في الحب . يستأثر بعشيقه ، ولا يريد أن يشاركه النظر إليه أحد . وليس حبّه تعظيماً وتوقيراً للمحبوب ؛ ولكنه شهوة غلمة ثائرة . يقول :

أيُّ شيءٍ يكون أحسن من ص — بٍ أديبٍ ؛ متيّم بأديب ؟

كاد أن يكتب الهوى بين عينيه — كتاباً : هذا حبيبُ حبيب

غير أني لو كنت أعشق نفسي؛ لتنغّصت عيشها بالرقيب

ومن أجمل ما قال في الحب :

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبُّ إلاّ للحبيب الأول

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينهُ أبداً لأوّل منزل

وهذا المعنى بعينه ذهب مثلاً في الإفرنسية مشهوراً . وفي الانكليزية والتركية ولا يعرف قائله في هذه اللغات على التحقيق والذي نعتقد ؛ أنه صورة من الطبيعة الجنسية يدركها الخلق كلهم . وقد عُرضت روايات مسرحية وسينمائية كثيرة في هذا المعنى كأن الناس كلهم متفقون عليه .

هذا ؛ وقد تزوج أبو تمام ورزق أولاداً . فكيف تتفق حياته العائلية مع غزله الغلماني ؟ !

الشاعر المؤلف :

أصبح الشعر في العصر العباسي ؛ صنعةً . لها أساليبها وطرقها وفنونها . وكل صنعة يجب أن تساير المحيط لكي لا يصيبها الكساد فتبور . وكذلك الشاعر ؛ أخذ يساوق النهضة ويوسّع مداركه العلمية ، ولم يقتصر على الشعر وحده . أي ان الشاعر لم يعد عاطفةً فقط ؛ بل أصبح مزيجاً من العقل والعاطفة . ولذلك رأينا كثيراً من الشعراء ؛ يؤلفون الرسائل والكتب وينظمون العلوم والقصص نظماً : كأبان اللاحقي شاعر البرامكة مثلاً . وهكذا كان أبو تمام . فليس هو إذن أول شاعر عُني بالتأليف كما يدّعي بعض الكتاب المعاصرين . بل كان من اللاحقين . وله كتب متعدّدة كلها في الشعر . ولكن أشهر كتبه « الحماسة » . وقد أوردنا سبب تأليفه (انظر صفحة ٣٥٠) والكتاب في عشرة فصول هي :

١ — في الحماسة : وهو أطول الأبواب وبه سمي الكتاب .

٢ — في المراثي .

٣ — في الأدب .

٤ — في النسيب .

٥ — في الهجاء .

٦ — في الأضياف والمديح .

٧ — في الصفات .

٨ — في السير والنعاس .

٩ — في المُلَح .

١٠ — في ذم النساء .

والكتاب في جملته ؛ جيد ممتع . حتى قيل : إنه في اختياره هذا الكتاب ؛ أشعرُ منه في شعره . وشرَحه كثير من عظماء الأدباء . كابن جنّي والتبريزي والمعرّي . وعني به المستشرقون لأنه يمثل صورة عن عقلية العصر . وقد أخذ عليه بعضهم أشياء منها :

١ — أنه لم يعزُ أكثر ما اختاره لاصحابه . بل يكتفي بقوله ، قال أحدهم . قال بعض بني عبس . قال رجل من ثعلبة الخ

٢ — دمج بعض الأبواب ببعض كادخاله الغزل في الحماسة مثلاً .

٣ — ذكر بعض ما لا يحسن ذكره في باب مذمّة النساء كذكر الأعضاء التناسلية صريحة للمرأة والرجل .

وقد قلّد أبا تمام في حماسته هذه ؛ جماعة كثيرون . واستعاروا اسم كتابه ذاته . منهم :

١ – تلميذه البحتري فوضع كتاب : حماسة البحتري.

٢ – أبو بكر وأبو عثمان الخالديّان وضعا : حماسة شعر المحدثين

٣ – أبو هلال العسكري . وضع : حماسة العسكري .

٤ – هبة الله الشجري وضع : حماسة الشجري .

٥ – شميم الحلّي وضع الحماسة.

٦ – الأعلم الشنتمري وضع الحماسة.

٧ – أبو الحجاج الأندلسي وضع الحماسة .

٨ – صدر الدين البصري وضع الحماسة .

تأثير أبي تمام :

أُخذ على أبي تمام ؛ إغرافه في الألاعيب اللفظية . والإغراب في المفردات اللغويّة . وبعض المبالغات في المدح والرثاء . واشتد عليه الآمدي صاحب كتاب (الموازنة بينه وبين البحتري) فتحامل عليه كثيراً . ولا نظنّه إلا مغرضاً . وحاول بعضهم الدفاع عنه فتصدى لمهاجمتهم جماعة وبينوا سرقاته . واشتد الجدل واستحرّت الخصومة . فأنتجت هذه الحرب جملةً تداولها التاريخ الأدبي طويلاً : هي : أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري . فما هو مدى حكمة أبي تمام ؟ !

إن حكمه – على ما يبدو – ليست نتاج دراسة في الكتب .

ولكن نتيجة دراسة في الحياة نفسها . فليست حكمته ذات صبغة فلسفية خاصّة . ولكنها فِكَر عامة تقذفها الحياة على لسان شاعر .

ولقد بلغ أبو تمام من الشهرة مكاناً ؛ جعل الكثيرين يحتذون مثاله . خصوصاً في البديع . فأغرقوا فيه إغراقاً ؛ أفسد الذوق الأدبي إفساداً مؤلماً . ولعل لذلك سبباً ربمّا نتبيّنه في القصة التالية :

قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر وهو بخراسان وكان لا يدخل عليه شاعر إلاّ إذا رضيه أبو العميثل وأبو سعيد الضرير . فقصدهما أبو تمام وأنشدهما قصيدته :

أهن عوادي يوسف وصواحبه . . .

فلما سمعا هذا الابتداء : أسقطاها . فسألهما أبو تمام استتمام النظر فيها فاستحسنا منها البيتين :

وركبٍ كأطراف الأسنّة . عرسوا
على مثلها . والليل تسطو غياهبُه

لأمرٍ . عليهم أن تتمّ صدوره وليس عليهم أن تتمّ عواقبه

وعرضا القصيدة على ابن طاهر وأخذا له ألف دينار .

نتبيّن من هذه القصة شيئاً جوهرياً في حياة الشعراء . هو

تقيّدهم برأي المفتّشين . ومتى وصل الشعر إلى هذه الدركة يمحصّه المفتشون — وقديماً كان المفتشون أصحاب غرض . ثم هم أجهل الناس بذوق الشاعر لأنهم موظفون — أجل متى وصل إلى هذه الدركة ؛ يتقيد بآراء المفتشين ؛ فلا عجب إن عمل الشاعر على نظم شعورهم لا نظم شعوره . وبرقشةِ القصيدة كما يبرقش الثوب . لأن هذا ما يقتضيه ذوق المفتشين !!

ومن أراد أن يرى النقد القديم جليّاً . ومن أراد أن يطلع عَلَى المعاني التي وجدت عند أبي تمام . وعند غيره من الشعراء قبله وبعده . ومن أراد الاطلاع على سرقاته على حدّ تعبير الآمدي . فليقرأ كتاب الموازنة للآمدي نفسه ففيه الشيء الكثير .

آخر أيام أبي تمام :

عُيّن أبو تمام في آخر أيامه عاملاً عَلَى بريد الموصل . واتصل بكبار أهلها فأحبّوه واحترموه . ولكن لم تطل أيامه كثيراً ، إذ عاجله المرض بعد سنتين فقط . وتوفي مبكياً عليه من كل مَن عرفه . ولم يعمّر طويلاً . بل ذهب كهلاً لم يتجاوز الستين . ورثاه أكابر الناس والشعراء . ومنهم الوزير

الزيات وأستاذه ديك الجن . وبنى أبو نهشل بن حميد الطوسي عليه قبّة ؛ عرفها الناس باسم « قبة تمام الشاعر » . ثم هدّمت على توالي الأيام فأقامتها مؤخراً بلدية الموصل . وقد بلغنا أن في النيّة إقامة تمثال له . فإن فعلت الموصل ذلك ؛ تكون وفته بعض حقّه .

هناك قضى شاعر الإسلام الأوحد في التاريخ الأدبي .

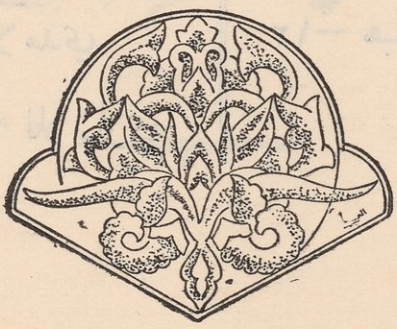

مراجع هذا البحث

١ — الديوان

٢ — ديوان الحماسة

٣ — الأغاني

٤ — معاهد التنصيص

٥ — الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي

٦ — نزهة الألباء للأنباري

٧ — العمدة للقيرواني

٨ — أمراء الشعر العربي للمقدسي

٩ — أبو تمام لفروخ

١٠ — كتاب الصناعتين للعسكري

١١ — أدباء العرب

١٢ — هبة الأيام للبديعي

الجاحظ

تاريخ

المحدّثون والمعتزلون :

سيطر الإسلامُ على الأعاجم ، سيطرة فجائية . واستولى على ديارهم بسرعةٍ عجيبة ؛ تشبه سيطرة هتلر وموسوليني في هذا العصر على تشيكوسلوفاكيا وألبانيا . فبُهت المغلوبون مدةً ، أخذهم فيها الدهش . فوجموا متهيّبين . وقبلوا الدين الجديد من غير مناقشة . ثم أخذوا يصحون رويداً رويداً ؛ فإذا العرب مسيطرون على مرافق السياسة . فأخذوا يناقشونهم في السياسة والاجتماع والدين . مستندين : إلى القرآن ؛ الذي يحض على التفكر في خلق السموات والأرض . والذي أُرسِل لقوم يعقلون .

وكانت تدفعهم إلى هذه المناقشة ؛ أسباب كثيرة . أهمها : كرهُهم للعرب المسيطرين ؛ حَمَلَةِ الدين الجديد . وترديد نغمات أديانهم القديمة كاليهودية والمجوسية والنصرانية ... وكان المسلمون يردّون عليهم في بادئ الأمر بالقرآن والحديث . ولكن هل يؤمن هؤلاء بالقرآن والحديث ؟ ! لئن سكتوا برهة أمام سلطة

الخلفاء الراشدين الإسلامية الصرفة ، وحكومة الأمويين العربية الخالصة ؛ فما كانوا يستطيعون السكوت زمن حكومة العباسيين ؛ الدولة التي قامت على أعضاد الموالي ، والفرس منهم بصورة خاصة . فقويت شوكتهم وأخذوا يناقشون بجرأة وقوّة . فاضطر المسلمون إلى الردّ عليهم بنوع سلاحهم . لا بالحديث لأنهم لا يؤمنون به . ولا بالقرآن ؛ لأنهم يشكّون فيه . وما هو سلاحهم هذا ؟ هو الفلسفة والعقل . وما كان أهل الحديث بمستطيعين لهم دفعاً . لأنهم أهل نقل وحفظٍ وقال وقيل وحدّثنا . ولذلك خلقت الظروف والحاجة مِن المسلمين مَنْ يدفعهم بمثل سلاحهم العقلي والفلسفي .

وهؤلاء المحامون عن الإسلام المدافعون عن حياضه ؛ هم : (المعتزلة) .

المعتزلة :

كان الحسن البصري كبير علماء الإسلام زمن الأمويين ؛ تهوي إليه قلوب العلماء والعامة . ويلتفّون حوله حلقةً كبيرةً جداً في جامع البصرة ، مدينة العلماء . ويلتقّون عنه مايقول ؛ باحترام وحبّ وتقدير . ويستشيرونه في أمور دينهم وما يعرض لهم في دُنياهم ؛ فيحلّ مشاكلهم الدينية والدنيوية ؛ بحبّ وعطف وحنان

كالراعي يذبّ عن قطيعه ويحمي خرافه من الذئاب وينتجع بهم أطيب الكلأ وأعذب الماء .

وقفَ عليه مرةً أحد الناس وهو في حلقته فقال . لقد فَشتَ أحداثُ الخوارج . وكثرت أقوال الناس في مرتكب الخطيئة الكبيرة . أهو كافر أم مؤمن . وحكمه في الآخرة من النار ؛ هل يخلّد فيها أم يتخلّص إلى الجنة ؟ ! وأخذتنا الحيرة في ذلك فما هو رأيك — يرحمك الله — وأنت شيخ المسلمين ؟ إنا لنتبع ماتراه ، ولا نخالف ماترتئيه .

فوجم الحسن قليلاً يفكّر . لأن على جوابه يتعلق إيمان الملايين من المسلمين . والسؤال دقيق جداً — كما ترى — يحتاج إلى تفكير دقيق .

وأنصت كلّ من في الحلقة لجوابِ الحسن . والحسن ساكت يتفكّر . وإذا برجل من وسط الحلقة يبتدر الجواب قائلاً : ليس صاحب هذه الكبيرة مؤمناً ولا كافراً . بل هو في منزلة بين المنزلتين . هو فاسق . فظهر الامتعاض على وجه الحسن شيخ الحلقة ، لهذا التطاول من تلميذه ؛ يجاوب قبل أن يجاوب أُستاذه وتجادلَ جماعة الحلقة في هذه الفكرة . فبعضهم أيّدها وبعضهم أنكرها . واختلفوا ؛ فاعتزل واصل حلقة أُستاذه واستند إلى

أسطوانة في المسجد وأخذ يقرّر فكرته ؛ فالتفّ حوله ناس كثيرون يجادلونه ويسائلونه . فلما رأى الحسن ذلك ؛ هاله أن ينقسم الناس إلى فريقين ، فأرسل عمرو بن عبيد أنجب تلاميذه ليناظر واصلاً ويقنعه ويردّه إلى حلقته . فناظره عمرو ولكنه لم يقنعه ، بل هو الذي انجذب إلى فكرته وتبعه معتزلاً حلقة أستاذه . ومنذ ذلك الحين ؛ كثر الذين اعتزلوا حلقة الحسن والتحقوا بواصل فسمّوا المعتزلة .[1]

واختص المعتزلة بتعاليم تختلف عن تعاليم أهل السنة والحديث لا من حيث الأصول . بل من حيث الفروع فقط . فهم يعتقدون بأن الله واجب الوجود . وأن محمداً مبعوثاً للناس أبيضهم وأحمرهم وأن القرآن كتاب صدقٍ نزل على الرسول لهداية البشر . يقبلون هذا مبدئياً ؛ ثم يحاولون إثباته بالأدلة العقلية والمنطق الصحيح والعقل الحرّ . لا يتقيدون إلاّ بالبراهين العقلية . فقد يرفضون الحديث ؛ إذا تعارض مع القرآن أو المنطق أو الواقع ؛ لأنه مدخول مدسوس على النبي . وأنزلوا الصحابة عن قدسيتهم التي أسبغها عليهم التاريخ . فناقشوا آراءهم وأعمالهم ، وحكموا لهم ، وحكموا عليهم . وبالجملة ؛ فقد كان العقل وحده قائدهم . والدين وحده أساس

---

(١) لتسمية المعتزلة مدّعيات كثيرة نعتقد أن ماذكرنا هو أقرب للصواب

ما تدور عليه أبحاثهم . وانصلوا من هذه الابحاث ؛ بالله . وصفاته ووجوده . وأعماله . والخلق . وأعمالهم . والجبر . والاختيار . والجوهر والعرض . والصفات . والجسمية . والحدود . واللاحدود . والسلسلة المتمادية . والحلقة المفرغة ... كل هذه الأبحاث لم يكن المسلمون قبلهم يجرءون على الخوض فيها . وإنما آمنوا إيماناً ساذجاً من غير مناقشة .

سُئل مالك بن أنسٍ مرةً عن قوله تعالى : « الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى » كيف استوى ؟ فأطرق برهة وقال : « الاستواء غير مجهول . والكيف غير معقول . والايمان به واجب . والسؤال عنه بدعة » ! ومالك ؛ هو صورة لكلّ المحدّثين .

مثلُ هذا السؤال . ومثلُ الآيات التي تدل على الجبر ، وسواها التي تدل على الاختيار ، فتظهر كأنها مناقضة لها . ومثلُ الآيات التي تثبت لله أعضاءً كالوجه واليد والعين ... مثلُ هذه الأسئلة ؛ كان يعرضها على المسلمين ، أصحابُ الأديان الأخرى ؛ فلا يستطيع المحدثون لها دفعاً بالحديث فيسكتون أو يغضبون ، ويزيغ إيمان العوام بسبب ذلك ، فيسأل بعضهم عن حبّ استفهام ، وبعضهم عن هزءٍ . فيثور المحدثون ولا يجدون لذلك جواباً إلا قولهم : هذا بدعة ، هذا بدعة .

أما المعتزلون ؛ فقد تصدّوا للاجابة على هذه الاسئلة بالعقل والمنطق . ودرسوا فلسفة اليونان والهند والفرس ؛ ليستطيعوا مقابلتهم بسلاحهم نفسه [1] وبهذا افترقوا عن أهل الحديث . وأصبحت لهم تعاليم خاصة يمكن اختصارها بالمواد الخمسة الآتية:

١ — التوحيد : ومنه تخرج فكرة التنزيه . والقدم . وفكرة خلق القرآن كما سترى .

٢ — العدل : فالله ؛ لا يمكن إلا أن يكون عادلاً . « وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » لذلك أعطاهم الحريّة . فهم مسؤولون عن أعمالهم . ومنه تخرج فكرة خلق الناس لأعمالهم ليحاسبوا عليها وإلاّ لما كان للحساب والعقاب معنىً .

٣ — الوعد والوعيد أي إنّ الله لا يخلف في وعدٍ ولا في وعيد .

٤ — المنزلة بين المنزلتين .

٥ — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عملاً بقوله تعالى« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ

---

(١) على أن المعتزلة لا يشبهون الفلاسفة ، لأن هؤلاء ؛ لا يعترفون بالدين . بل يعترفون بوجود العقل ويتوصلون منه إلى الله . أما المعتزلة فإنهم يعترفون بوجود الله وضرورة الدين والنبوّة مبدئياً ، ثم يبرهنون على ضرورة وجودها بالعقل . إن الاختلاف كما ترى ؛ جوهري واضح .

بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ولذلك أرسل المعتزلة رسلهم : يبشرون بالدين في الأقطار : حباً بالدين وحده . لا طمعاً بمال الشعب ولا أملاً بدنيا الملوك .

وكثيراً ما كانوا يرفضون وظائف الحكومة تقشفاً ، فقد عرض المنصور التوظف على عمرو بن عبيد فأبى فقيل فيه :

كلكم يمشي رويدْ كلكم يطلب صيدْ
غير عمرو بن عبيدْ

وعرضَ القضاءَ على ثمامة بن الأشرس فأبى . . ويطول البحث كثيراً فيما لو أردنا بيان آراء المعتزلة واختلافاتهم وفرقهم ورفضهم معتقدات كثيرة يؤمن بها الناس لزمنهم كرؤية الجن مثلاً فإنهم يرفضونها مستندين إلى الآية : « يا بني آدمَ لا يفتننكمُ الشيطانُ ، كما أخرجَ أبويكمْ من الجنةِ . ينزعُ عنهما لباسهما ؛ ليريهما سوءاتهما . إنهُ يراكمْ هوَ وقبيلهُ ، منْ حيثُ لا ترونهمْ »

ويرفضون رؤية الله يوم القيامة كما تُرى الأجسام بدليلٍ عقلي هو : أن المرئي محدود . والله لا يمكن أن يكون محدوداً . فكيف يمكن أن يُرى ؟ !

وهكذا آراء كثيرة ، نجتزئ منها بفكرة خلق القرآن فقط . لما أخذت من دور عظيم ، حتى سميت « بالمحنة » .

إنه من الثابت بالبرهان ؛ أن الله وصفاته ؛ وحدة لا تتجزأ ـ مبدأ التوحيد ـ وجاء في القرآن أن الله « كلّم موسى تكليماً » وأن « القرآن كلام الله » فهل هذا الكلام صفة من صفات الله ؟ إن كان صفةً ، فهو لاشك قديم . وإن لم يكن صفةً ؛ فهو مخلوق .

قال المعتزلة :

١ — ورد فى القرآن أمر ونهي . كقوله : « أَقيموا الصَّلاة » و « لاتَقْرَبوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى » فهل وُجد هذا الأمر وهذا النهي إلا للناس ؟! لأن الله لايتكلم لغواً فيأمر المعدوم وينهى من لم يخلق بعد . إذن ؛ وجد هذا الأمر وهذا النهي بعد أن وُجد الناس . فهو إذن مخلوق مثلهم لاقديم أزلي .

٢ — إن الله وصفاته لايمكن أن تحدّ . والقرآن سوَرٌ وآيات تقرأ وتسمع ولها مفتتح ومختتم وتحسّ بالأيدي وتبصر بالأعين . وهي بذلك لاتشابه صفات الله . إنها مختلفة عنها . إذن القرآن الذي يجمعها مخلوق حادث .

٣ — قال تعالى : « إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ » وإذ ؛ ظرف زمان ماض . فقوله للملائكة إذن ؛ كان محدوداً بزمن . والمختص بزمن يكون حادثاً لا قديماً .

٤ – قال تعالى: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أَوْ نُنْسِها» وما يُنسخ؛ يكون حادثاً، لا أزلياً قديماً ...

ولهم عدا ذلك أدلة عقلية ونقلية كثيرة. أخذوا يجاهرون بها، ويطلبون من الناس اعتناق هذا الرأي. فناهضهم المحدثون وكانوا فريقين.

الفريق الأول: على نسق مالك بن أنس، لا يقبل ولا يرفض، ويرى هذه الفكرة؛ بدعة، لأن السلف من الصحابة والتابعين؛ لم يتعرضوا لها. ويقفون عند قولهم: «القرآن كلام الله» والفريق الثاني: يزعم أن القرآن بحروفه وأصواته؛ قديم. وقد تغالوا فقال بعضهم: حتى الجلد والغلاف فإنهما قديمان!! لأن ما بينهما هو كلام الله. وكلام الله غير مخلوق، فينبغي أن تكون الكلمات أزلية غير مخلوقة.

واشتد اللجاج بين المعتزلة وخصومها حول هذه الفكرة حتى وصلت إلى المأمون فاعتنقها واعتقد أنه بصفته خليفة؛ عليه أن يصلح للناس عقائدهم ويصحح إيمانهم. فكتب إلى عمّاله في الجهات: بإجبار الناس على الاعتقاد بخلق القرآن. وعزلِ القضاة والشهود الذين لا يأخذون بهذا الرأي. فآمن به بعضهم وجحده البعض الآخر. ثم خلف المعتصمُ المأمونَ؛ فسار سيرة

أخيه الراحل في الناس واشتدّ عليهم وآذاهم . وكان زعيم المعارضة في ذلك ؛ المحدث الكبير ابن حنبل . فعقد له المعتصم مجلس مناظرة ، دام ثلاثة أيام . يحاولون إقناعه فلا يقنع . فضربه ثلاثةً وثمانين سوطاً . وردّه إلى السجن . ثم أطلقه . إعجاباً بشجاعته وثباته على مبدئه ورأيه ، وخوفاً من العامّة إذ تعلّقت به وأصبحت تنظر إليه كزعيم من زعماء المعارضة الأقوياء وسلبيٍ ممتاز . وهل يعجب العوامَ أكثر من المعارض الذي يناهض الحكومة ؟ !! ثم جاء الواثق ، فأكمل سيرة المأمون والمعتصم ، حتى ضجر الناس وفرّوا في البلاد .

وجاء أبو الحسن الأشعري بعد زمن ؛ فنقل نقطة الخلاف إلى جهة أخرى . قال الأشعري : إن كلام الله ؛ يطلق على مفهومين

١ — الكلام بالصوت المقروء

٢ — الكلام الذي في النفس قبل أن يخرج إلى الحسّ .

فالأول ؛ حادث مخلوق لا شك فيه . وأما الثاني — وهو معاني القرآن — فقديم مع قدم الله .

وقد حاول الاشعري بهذا ؛ أن يقرب وجهة النظر بين الفريقين فلم يوفّق . بل زاد عليهما بفريقه وأتباعه فسمّوا الأشاعرة ، وبقي الخلاف شديداً كما كان .

ثم توفيّ الواثق وخلفه المتوكل . فكفّ عن الناس بلاء هذه المحنة . بل أمر بإعادة المحدّثين . وأعاد السنّة إلى سابق مجدها فتنفّس الناس الصعداء . واستراحوا من ضغط المعتزلة الذي دام نحو ربع قرن . ثم أخذوا ينتقمون منهم ويهيجون العامّة عليهم .

يذكرون أن محمد بن جرير الطبري المؤرخ المشهور ، أصيب بشرر هذه الفتنة الهوجاء ، لأنه لم يذكر ابن حنبل في جملة الفقهاء . فمنعوا الناس من الجلوس إليه ومن الدخول عليه ورموه بالمحابر ... حتى لزم داره . ولكنه مع هذا لم يتخلّص منهم . بل هاجموه في داره ورموه بالحجارة ، حتى تكدّست . وحتى ركب صاحب الشرطة ومعه ألوف من الجند لمنع العامة عنه ورفع الحجارة [1] !!

وبلغ من قوة الحنابلة عام ٢٢٣ وتهجّمهم على المعتزلة ، أن أخذوا يكبسون دور القوّاد والعوام . إن وجدوا نبيذاً أراقوه . وإن وجدوا مغنيّة ضربوها وكسروا آلة الغناء . حتى خوّفوا الناس وخنقوا صوت المعتزلة إلى اليوم . وضاع أكثر كتبهم ، فلم تصل إلينا سالمةً . وتحاملوا عليها تحاملاً شديداً . وطبعي أن يكون ردّ فعلهم كهذا Réaction فقد طال خذلانهم وتعذيبهم من المعتزلة الأشدّاء نحو ربع قرن .

(١) ضحى الإسلام . نقلاً عن كتاب ابن الصابوني في ترجمة ابن حنبل

تلك كانت محنة خلق القرآن التي اشتهرت في التاريخ الإسلامي وكانت وصمة سيئة في عصر المأمون الناصع . العصر الذي اشتهر بالحريّة الفكريّة والنضوج العقلي .

ولا نرى بأساً من ختم هذا البحث بنادرة لطيفة جداً حول هذه المحنة .

قيل : دخل عبادة المخنث على الواثق ـ وكان صاحب نادرة ـ فقال : يا أمير المؤمنين ؟ عظّم الله أجرك في القرآن !!

قال . ويلك ! القرآن يموت ؟!

قال المخنث : يا أمير المؤمنين . كل مخلوق يموت ؛ بالله يا أمير المؤمنين . من يصلّي بالناس التراويح إذا مات القرآن ؟

فضحك الخليفة وقال : قاتلك الله . أمسك !!

الحريّة الفكريّة والمأمون :

كان الخليفة المأمون ؛ حرّ الفكر واسع الصدر حكيماً كالفلاسفة . يعقد في مجلسه حلقة للمناظرة ويدعو الفقهاء والعلماء ويناقشهم في الدين والفقه والعلم والعقل والقرآن والفرائض ... ويقبل مناقشتهم ويردّ عليهم كأنه واحد منهم لا كأنه خليفة عظيم . قيل كان يأمر يحيى بن أكثم قاضي القضاة أن يحضر معه رجالاً للمناظرة . وحين يتم بهم المجلس

يتحدّر المأمون عن فراشه إليهم، وينزع عمامته وطيلسانه . ويأمرهم بنزع قلانسهم وطيالستهم وخفافهم . ويُقبل عليهم يناظرهم بكلّ هدوء . ويقابل الزنديق والمرتدّ والدهري والماني بكل رزانةٍ وسكون، ويقرع حجته بحجّة مثلها لا بالسطوة ولا بالسيف .. مثال ذلك أن مناظرةً عقدت في مجلسه بين أبي علي الزنديق وبعض الفقهاء، حتى عجزوا عنه . فالتفت إليه المأمون وقال :

— أنت تقول : إن هناك إلهين . أحدهما يَعِدُ بالخير والثاني يوعد بالشر . وأنه لا يمكن أن يجمع إلهٌ واحد . الخير والشر معاً . أليس كذلك ؟

— قال أبو علي : نعم .

— أسألك إذن عن حرفين فقط . هل ندم مسيءٌ قط على إساءته ؟ أو نكون نحن لم نندم على شيءٍ منّا قط ؟

— بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم

— فخبرني عن الندم . أإساءةٌ هو أم إحسان ؟

— الندم إحسان

— فالذي ندمَ ، هو الذي أساء أم غيره؟

— الذي ندم هو الذي أساء

— فأرى صاحب الحسنى ؛ هو صاحب الإساءة . أي صاحب الخير ؛ هو صاحب الشر . فإذا كان الانسان يستطيع أن يجمع الصفتين . فكيف بالإله ؟ أرأيت كيف بطلت دعواكم ؟ !

— فتلعثم الزنديق وقال : إني أزعم أن الذي أساء ؛ غير الذي ندم !

— وهل ندم على شيء كان منه أم على شيء كان من غيره ؟!

فقُطع الزنديق وبهت !! ولكنه لم يرجع عن غيّه ولم يرغمه المأمون على رأيه إرغاماً . فلم يتب الزنديق حتى مات !!

هكذا كانت أخلاق المأمون سمحةً حرّة . فنعِم الناسُ في عصره بحرّيةٍ واسعة . وغرقوا في بحبوحةٍ من نِعم الفكر الصريح . وسبحوا في لذةٍ هنيئةٍ من العقل والعلم . وأمر فتُرجمت كتبُ اليونان والهند والفرس في الفلسفة والطبيعة والرياضيات . وأنشأ بيت الحكمة كالجامعات الكبرى في عصرنا . ووقف عليها المال الوفير فاستبحر عصره في العلم والمعرفة . ونشأ جيل جديد يحمل كلّ الثقافات . فترى الأديب يتكلم : في الطب والنجوم والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والفقه والحديث . . وهو يشدو من كلٍ بطرف . ولا يتعمّق

فيها كلّها تعمّق أهل الاختصاص . وهذا مانلاحظه في الجاحظ مثلاً فنراه يكتب في الفلسفة وخلق القرآن والاعتزال والحيوان والشعر والأخبار والنبات والأدب ... وهو في ذلك ؛ صورة لعصره . المتبحّر الحرّ . الذي سمّي بحقٍ : عصر المأمون .

ولكن هذه الحرية التي لاحدود لها ؛ أنعشت سائر الديانات من ذات الكتب وغيرها . وخلقت فِرقاً عديدة جداً نعدّ منها قسماً لترى كثرتها :

المنصورية	العثمانية	الجهمية	الأشعرية
الديصانية	الحشوية	الصوفية	المانوية
القدرية	الغالية	الناجية	البراهمة
المرقوبية	السميطية	المارقة	الزرادشتيه
الفضلية	الكميلية	الدهرية	الصابئة
الشمّرية	السلبية	الزنادقة	الخرّمية

وعُدّ من المعتزلة ما يلي :

الواصليّة	الحدثيّة	الثماميّة	الجبائية
الهذيلية	البشريّة	الهشاميّة	البهشميّة
النظاميّة	المعمّرية	الجاحظية	
الحائطيّة	المزدارية	الخياطيّة	

وذُكر من الشيعة :

اليزيدية . الجارودية . الرافضة . الراوندية .

ووجد من الخوارج :

الإباضية . الصفريّة . الأزارقة . النجدات . المرجئة .

وكل واحدةٍ من هذه الفرق ؛ لها حدودهـا . وكل مذهبٍ من هذه المذاهب ؛ له اعتقادات وأفكار وأساليب خاصة . فما أعظم هذه الحرية . ولكن ما أعظم الفوضى إلى جانبها ! !

ولذلك كان المأمون يشعر — مع كل هذه الحرية — بوجوب إعلان العقائد الصحيحة للناس وإجبارهم على اتباعها . فقد أصدر مرةً مرسوماً بتفضيل عليّ بن أبي طالب على أبي بكر وعمر ! وأصدر مرةً مرسوماً بحِلّ زواج المتعة . ثم عدَل عنه لما تبيّن له خطؤه . وكذلك أصدر مرسومه بخلق القرآن وأجبر الناس على الأخذ به . وبهذا العمل ؛ خلط بين وظيفة الخليفة السياسيـة ، ووظيفة المعلم التهذيبية .

وبالجملة ؛ فعصر المأمون : هو العصر الذهبي للدولة العباسية والامة الإسلامية . عصر العلم والعقل والحرية .

الجاحظ

صورة :

نشأ الجاحظ في عصر المأمون . فكان صورة لهذا العصر الحرّ المستفيض بالعلوم والمعارف . وتزوّد من كل فنّ بطرف فكتب في الحيوان والنبات والأدب والتاريخ والكلام واللغة . ووصفَ العادات والأخلاق . وشهّر البخلاءَ ومدحَ الكرماء ونظم الشعر . وبالجملة فقد كان جمّاع علوم عصره كلها . وجريدة كبرى أو مجلة ممتازة ؛ سجّل فيها كل شيء . حتى أخبار المكدّين وحيل اللصوص وغش التجار . وأخبار العسكر . والبرصان . والسودان . والبيضان . وحوادث الشعوبية . وردود العرب .

نعم . كان الجاحظ صورة كاملة ؛ كجريدة من جرائد هذا العصر . تقلّب صفحاتها ؛ فتجد فيها كل شيء . سياسةً واجتماعاً وأخباراً محليّة ... وإذا أردت تاريخاً صحيحاً لهذا العصر ؛ فليس أصدق من الصحف . لأنها لا تترك شاردة ولا واردة إلاّ تحصيها .

يقول بعض الكتاب المعاصرين : إن الجاحظ معلّمةُ عصره Encyclopédie . وهذا قريب من الصحة . أما تشبيهه بالجريدة . فأقرب إلى الصواب لأنه لم يتعمق تعمقاً علمياً قوياً كالمعلّمات بالمعنى الذي نعرفه . على أنه كتب كثيراً جداً وألّف في أكثر المواضيع حتى عدّوا له أكثر من ثلاث مئة كتاب . ولسنا نستطيع أن نجزم بصحة نسبتها كلها إليه . ثم إنها لم تصل كلها إلى أيدينا ، فنعرف كيف نفرّق بينها . على أنا إذا قسنا كل ما كشف منها . وكل ما ستكشفه الأيام ، إلى كتبه الثلاثة المشهورة :

١ — البيان والتبيين . ٢ - الحيوان . ٣ — البخلاء .

فإنا نستطيع بلا شك أن نحكم حكماً قريباً جداً من الصواب ؛ بنسبة ذلك الكتاب إليه أو نفيه عنه .

ولقد أعجبني تحقيق السندوبي في نفي الكتب التي نسبت إليه فعدّد له ١٥٩ كتاباً و ٨ كتب منحوله . نذكرها جميعاً فيما يلي إثباتاً لوصفه بجريدة زمانه والاطلاع على الأبحاث التي خاض فيها:

كتب الجاحظ :

١ — كتاب آل ابراهيم بن المدبر في المكاتبة ، ٢ — كتاب آي القرآن ، ٣ — رسالة في إثم السكر ، ٤ — رسالة إلى أبي

النجم وجوابه ، ٥ – كتاب إحالة القدرة على الظلم .
٦ – كتاب الاحتجاج لنظم القرآن ، ٧ – كتاب أحدوثة العالم ، ٨ – كتاب الإخبار ، ٩ – كتاب الأخطار والمراتب والصناعات ، ١٠ – كتاب أخلاق الشطّار ، ١١ – كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة ، ١٢ – كتاب أخلاق الملوك ، ١٣ – كتاب الإخوان ، ١٤ – كتاب الاستبداد والمشاورة ، ١٥ – كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال «بحث في الاعتزال» ١٦ – كتاب استطالة الفهم ، ١٧ – رسالة في استنجاز الوعد ، ١٨ – كتاب الأسد والذئب ، ١٩ – كتاب أصحاب الإلهام ، ٢٠ – كتاب الأصنام ، ٢١ – كتاب أصول الفتيا والأحكام ، ٢٢ – الاعتزال وفضله ، أو (فضيلة المعتزلة ؛ ردّ عليه بن الراوندي بكتاب أسماه : (فضيحة المعتزلة) ، ٢٣ – كتاب افتخار الشتاء والصيف . ٢٤ – كتاب أفعال الطبائع ، ٢٥ – كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات ، ٢٦ – كتاب الامامة على مذهب الشيعة ، ٢٧ – كتاب إمامة معاوية بن أبي سفيان (يؤيد فيه إمامة بنى أمية) ، ٢٨ – كتاب إمامة ولد بني العباس (لعلّه المسمى : كتاب العبّاسية) ، ٢٩ – رسالة في امتحان عقول

الأولياء ، ٣٠ — كتاب الأمثال ، ٣١ — كتاب الأمصار (لعله كتاب البلدان) ٣٢ — رسالة في الأمل والمأمول ٠ ٣٣ — كتاب أمهات الأولاد ، ٣٤ — كتاب الأنس والسلوة ٣٥ — كتاب الأوفاق والرياضيات ، ٣٦ — كتاب البخلاء ٣٧ — كتاب بصيرة غنام المرتد ، ٣٨ — كتاب البيان والتبيين ٣٩ — رسالة في بيان مذاهب الشيعة ، ٤٠ — كتاب تحصين الأموال ، ٤١ — كتاب التربيع والتدوير ، ٤٢ — كتاب تصويب عليّ في تحكيم الحكمين ، ٤٣ — كتاب التفاّح ، ٤٤ — كتاب تفضيل صناعة الكلام ، ٤٥ — رسالة في تفضيل النطق على الصمت ، ٤٦ — كتاب التفكّر والاعتبار ، ٤٧ — كتاب التمثيل ، ٤٨ — كتاب جمهرة الملوك ، ٤٩ — كتاب الجوابات ، ٥٠ — كتاب جوابات كتاب المعرفة ، ٥١ — كتاب الجواري ، ٥٢ — رسالة الحاسد والمحسود ، ٥٣ — كتاب حانوت عطار ٠ ٥٤ — كتاب الحجات ٠ ٥٥ كتاب الحجة في تثبيت النبوّة ، ٥٦ — كتاب الحجر والنبوة ٥٧ — كتاب الحزم والعزم ، ٥٨ — كتاب حكاية قول أصناف الزيدية ، ٥٩ — رسالة الحلبة ، ٦٠ — كتاب حيل اللصوص ٦١ — كتاب حِيَل المكدّين ، ٦٢ — كتاب الحيوان ، ٦٣

— رسالة في الخراج ، ٦٤ — كتاب خصومة الحول والعور .
٦٥ — كتاب خلق القرآن ، ٦٦ — كتاب الدلالة على أن الامامة فرض ، ٦٧ — كتاب ذكر مابين الزيدية والرافضة .
٦٨ — رسالة في ذم أخلاق الكتاب ، ٦٩ كتاب ذم الزنا
٧٠ — رسالة في ذم النبيذ ، ٧١ — رسالة في مدح النبيذ ،
٧٢ — رسالة في الرد على الجهمية ، ٧٣ — رسالة في الردّ على القولية ، ٧٤ — كتاب الردّ على النصارى ، ٧٥ — كتاب الرسائل الهاشميات ، ٧٦ — كتاب الردّ على من ألحد في كتاب الله
٧٧ — كتاب الردّ على من زعم أن الانسان جزء لا يتجزأ
٧٨ — كتاب الردّ على العثمانية ، ٧٩ — كتاب الردّ على المشبّهة ، ٨٠ — كتاب الردّ على اليهود ، ٨١ — كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب ، ٨٢ — كتاب السلطان وأخلاق أهله ، ٨٣ — رسالة الشارب والمشروب ، ٨٤ — كتاب الصرحاء والهجناء ، ٨٥ — كتاب صناعة علم الكلام ، ٨٦ — كتاب الصوالجة ، ٨٧ — رسالة في طبقات المغنين ، ٨٨ — كتاب الطفيليين ، ٨٩ — كتاب العالم والجاهل ، ٩٠ — كتاب العباسية (لعله كتاب ولد العباس) ، ٩١ — كتاب العثمانية ، ٩٢ — كتاب العرب والعجم ، ٩٣ — كتاب العرب والموالي ، ٩٤

كتاب العرجان والبرصان ، ٩٥ — رسالة في العشق والنساء ٩٦ — رسالة في العفو والصفح ، ٩٧ — كتاب عناصر الآداب ٩٨ — كتاب غش الصناعات ٩٩٠ — رسالة في فخر السودان على البيضان ، ١٠٠ — كتاب فخر عبد شمس ومخزوم ، ١٠١ — كتاب فخر هاشم وعبد شمس ، ١٠٢ — رسالة في فرط جهل الكندي ، ١٠٣ — كتاب فرق مابين الجن والانس ، ١٠٤ — كتاب فرق مابين الملائكة والجن ، ١٠٥ — كتاب فرق مابين النبي والمتنبي ، ١٠٦ — رسالة في فضل اتخاذ الكتب ، ١٠٧ — كتاب في فضل مابين الرجال والنساء ، ١٠٨ — كتاب فضل العلم ، ١٠٩ — كتاب فضل الفرس على الهملاج (البرذون) ١١٠ — كتاب القحاب ، ١١١ — كتاب القحطانية والعدنانية ١١٢ — كتاب القضاة والولاة ، ١١٣ — رسالة في القلم ١١٤ — كتاب القوّاد (لعله كتاب القوّاد وأسباب الصناعات) ١١٥ — رسالة في القيان ١١٦٠ — كتاب الكبر المستحسن والمستقبح ، ١١٧ — رسالة في كتمان السرّ ، ١١٨ رسالة في الكرم ، ١١٩ — كتاب الكلاب ، ١٢٠ — رسالة في الكيمياء ١٢١ — كتاب المخاطبات في التوحيد ، ١٢٢ — رسالة في مدح التجار وذمّ عمل السلطان ، ١٢٣ — رسالة في مدح الكتاب

١٢٤ – رسالة في ذم الوراقة ، ١٢٥ – رسالة في مدح الوارقة ١٢٦ – كتاب المزاح والجدّ ، ١٢٧ – كتاب المسائل ، ١٢٨ – كتاب مسائل العثمانية ، ١٢٩ – كتاب مسائل كتاب المعرفة ، ١٣٠ – كتاب القرآن ، ١٣١ – كتاب المضاحك ، ١٣٢ – كتاب المعاد والمعاش ، ١٣٣ – كتاب المعادن ، ١٣٤ – كتاب معارضة الزيدية ، ١٣٥ – كتاب المعرفة ، ١٣٦ – كتاب المعلمين ، ١٣٧ – كتاب المغنين والغناء والصنعة ، ١٣٨ – كتاب مفاخرة السودان والحمران ، ١٣٩ – رسالة في مفاخرة المسك والرماد ، ١٤٠ كتاب الملح والطرف ، ١٤١ كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية ، ١٤٢ – رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، ١٤٣ – رسالة في من يسمى من الشعراء عمراً ، ١٤٤ – رسالة في موت أبي حرب الصفار البصري ، ١٤٥ – رسالة في الميراث ، ١٤٦ – كتاب الناشي والمتلاشي ، ١٤٧ – كتاب النرد والشطرنج ، ١٤٨ – كتاب النصراني واليهودي ، ١٤٩ – كتاب النعل ، ١٥٠ – كتاب نقض الطب ، ١٥١ – كتاب نوادر الحسن ، ١٥١ – كتاب النواميس ، ١٥٣ – كتاب وجوب الامامة ، ١٥٤ – كتاب الوعد والوعيد ، ١٥٥ – كتاب الوكلاء ، ١٥٦ – رسالة اليتيمة

كتب منحولة :

١ — كتاب الإبل ، ٢ — كتاب التاج ، ٣ — كتاب تنبيه الملوك والمكايد ، ٤ — كتاب الحنين إلى الأوطان ، ٥ — كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والآثار ، ٦ — كتاب سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف ، ٧ — كتاب المحاسن والأضداد ، ٨ — كتاب الهدايا .

. . .

هذه مجموعة الكتب أو النواحي التي كتب بها الجاحظ وقد ذكر لبعضها أسماء متعدّدة ولا نعرف سبب تعدّد أسمائها ألا ترى أنها كثيرة جداً . وأنها متنوعة طرقت كل فنّ وكل علم وكل طريقة ؟ ! وقد قلنا سابقاً : إنه لم يتعمق في البحث العلمي كثيراً . لهذا صحّ أن نسميه مجلّة عصره . وكتبه لو جُمعت ؛ لشكلت معلمة سطحية لعصره . فهو بهذا ؛ أشبه بما يكتبه الغربيون الآن في التقاويم « Almanach » من المعلمات .

مولده ونشأته :

ولد الجاحظ في البصرة من أبوين فقيرين . وكان جدّه فزارة جمّالاً لعمرو بن قِلَع الكناني فانتسب إليه بالولاء . وقيل : بل هو كناني صليبة . وقد أورث من سواد لونه شيئاً لحفيده

الجاحظ ؛ فجاء أسمر داكن السمرة ، قبيح الوجه ، دميماً ، جاحظ الحدقتين . ولذلك لقبوه بالجاحظ والحدقي . وكنيته : أبو عثمان واسمه عمرو بن محبوب . وكان يكره أن ينادى بالجاحظ ، ويحب أن ينادى بعمرو . وألّف كتاباً اسمه (من تسمى من الشعراء بعمرو) ليطبع في أذهان الناس اسم عمرو وليناده به . فإنه كان أحب الأسماء إليه . ولكن لقبه ؛ غلب على هذا الاسم ، واشتهر في التاريخ وأصبح لا يعرف إلاّ به . وقصة اسم الجاحظ ولقبه هذه ؛ تشبه كثيراً القصة العاميّة المشهورة في سوريا ؛ باسم حكاية (أبي علي) . وهي قصة مضحكة يُتسلى بها في الأسمار .

قلنا إن الجاحظ ؛ ولد في البصرة . ونشأ بها وأمضى شبابه وكهولته فيها . يعاشر علماءها وفقهاءها وأدباءها ويأخذ عنهم . والبصرة يومئذٍ سوق العرب والبلادِ الاسلامية جمعاء ؛ في التجارة والعلم والأدب والشعر . وكان المِربد ؛ مجتمع أعرابها ومألف خطبائها وملتقى علمائها وعظمائها . والحركة العلمية فيها على أشدّ ما يكون من الحركة والنشاط . فتلقّى الجاحظ من هذا المحيط المتشبّع بالروح العلمية ؛ كل معلوماته . وكان فيه ولع عظيم للمطالعة . حتى كان يكتري دكاكين الورّاقين

ويبيت فيها الليالي على ضوء الشمعة الضئيل ليطالع ويكتب ويحفظ ويتعلم . وكان لا يُرى إلا وفي يده كتاب يطالعه أو كنّاش يقيّد فيه شوارد ما يخطر له ، أو ما يتلقى عن أساتذته ومعلميه وشيوخه . حتى عرف بين أصدقائه ومعلميه بهذه الخلّة فأحبّوه وأنسوا به .

ويظهر أنه بالتفاته إلى الناحية العلمية وتخصيصه كل وقته لها ، قد أهمل ناحيته المنزليه إهمالاً كلياً . ويظهر أنه كان يتيم الأب فقيراً . حتى روئي يبيع الخبز والسمك في سَيحان (نهر بالبصرة) ليكسب من هذه التجارة الضعيفة قوت يومه له ولأمّه . ويحدّثون . أن أمّه تضايقت مرةً من إهماله أمرَ معيشته وانكبابه على الكتب ، مما لا تعرف له قيمة ولا تفهم له لذةً . لأن صنعة القراءة والكتابة ؛ لا تدفع جوعاً ولا تردّ برداً أو حرّاً ولا تؤوي شريداً !! . جاءها ابنها الجاحظ يوماً يطلب طعاماً فقدّمت إليه طبقاً فيه كراريس .

— قال : ماهذا يا أماه ؟ !

— قالت : هذا ما تأتيني به !

فخرج الجاحظ مغتماً وانزوى في ناحية من المسجد حزيناً واجماً . فرآه بعض أصدقائه فسأله عما يحزنه فقصّ

عليه قصته . فقدّم له خمسين ديناراً . فطار بها إلى السوق ؛ واشترى مئونة كافية للبيت . وأرسل ذلك إلى أُمّه ؛ فتعجبت وأساءت فيه الظن وقالت : من أين هذا ؟ فأجابها على الفور هذا من الكراريس ! !

ميلاده ووفاته :

يختلفون في سنة ميلاد الجاحظ كما يختلفون في سنة وفاته فيقولون : عام ٢٦٠ هجرية و٢٥٦ و٢٥٥ هـ . والأصح أنه توفي عام ٢٥٥ هـ . ويذكر هو ويذكر أكثر المؤرخين أنه مات وعمره حول ٩٦ عاماً . وعلى هذا فتكون سنة ميلاده ١٥٩ هجرية . ولا عبرة بما ذكره ياقوت ، فيما يزعم أنه نقله عن الجاحظ ، قوله : (أنا أسنّ من أبي نواس بسنة . ولدت أول سنة ١٥٠ هـ وولد في آخرها) ولعلّ الصواب عام ١٥٩ هجرية .

فيلاحظ من هنا : أنه عاش قرناً كاملاً اطلع فيه على أسرار عصره وتطوره وانقلاباته . وأن كهولته كانت في عصر اليقظة القومية التي ذكرناها في بحث أبي تمام كردِّ فعل للشعوبية الطامعة .

في بغداد :

أخذ الجاحظ – بعد أن استكمل نضوجه – يؤلف الكتب المكينة فلا يلتفت إليه أحد ذلك الالتفات الذي يستحقه وقد اعتاد الناس في كل عصر : أن يقدموا القدماء والمشهورين ولو كانوا أصناماً !! فماذا يعمل الجاحظ ؟ إنه محتاج أن يبيع كتبه ليعيش فقد رأيت أنه فقير يكسب قوته بعرق جبينه . ماذا يعمل ما دام الناس لا يهتمون به الاهتمام اللائق ولا يثيرون ضجةً ما حول كتبه ؟ ! لقد فتقت له الحيلة باباً ؛ فيه ذكاء وفيه سخرية وفيه حقد ونقمة . كان يعنى بكتبه العناية الفائقة ؛ فلا يأبهون له . فأخذ يؤلف الكتب ويزوّقها بعبارات سمحه ليس فيها كبير فكر ويعزوها للقدماء المشهورين كابن المقفع وسهل بن هارون فيغرّ الناس اسم المؤلف ويتهافتون عليها تهافت الفراش على النور ويتداولونها بسرعة ؛ فتروج ويقبض الجاحظ أثمانها . ثم يعود إلى بيته ساخراً ضاحكاً هازئاً بعقول الناس وأفهامهم !! .

وكتب مرةً كتاب (العباسيّة) يثبت فيه الأمامة لبني العباس على الطريقة الراوندية . ووقع الكتاب في يد المأمون فأعجبه أسلوبه وحججه وبلاغته . وأحب أن لا يفلت من يده

هذا الداعية الممتاز . فاستقدمه إلى بغداد حول عام ٢٠٤ هجرية وألحقه بديوانه بصورة غير رسمية ينوب عن رئيس الديوان ، ابراهيم بن العباس الصولي ، أثناء تغيّبه . فكان يقوم بالمهمة أحسن قيام . وأحب المأمون أن يسند إليه رئاسة الديوان فقبلها مكرهاً لأنه لايحب قيود الوظائف وبيعَ القلم والنفس والضمير دفعةً واحدة ، للرؤساء والحكام ؛ ولم يتحمّل قيودها أكثر من ثلاثة أيام . بل ضجر واستعفى المأمون ، فأعفاه !! . ولعلّ الصولي أراد أن يكافئه عَلَى تخليه عن مزاحمته عَلَى الرئاسة أو لمعاونته ؛ واستسنح الفرص ، حتى سنحت له ، بأن قدّم إليه الجاحظ كتابه الموسوم (بالزرع والنخل والزيتون والأعناب) فأهداه خمسة آلاف دينار .

الآن أصبح الجاحظ ذا نعمة ويسار . اتصل بالخليفة ؛ فنال منه ما يكفيه . واتصل بالصولي ؛ فنال منه ما يغنيه . فنعم عيشه وورف ظلّه وطابت له الحياة فى بغداد . فبنى داراً فخمةً وتسرّى بالقيان واتصل بكبار القادة والزعماء . ثم اختص بصحبته ابن الزيات لوزير زمن المعتصم والواثق . وعاش هانئاً مترفاً . وقدّم للزيات كتابه (الحيوان) فأهداه خمسة آلاف دينار . ثم دارت الأيام دورتها ؛ فاذا المتوكل — عدوّ المعتزلة

— خليفةٌ . والقاضي أحمد بن أبي دوءاد وزير يتحكّم بابن الزيات ويرميه بالتنور ذي المسامير دقيقة الرءوس . والجاحظ مختفٍ لا يعرف كيف ينجو من هذه الغمرة ، ويظهر أنه لم يحسن الاختفاء ؛ فقبض عليه زبانية ابن أبي دوءاد ؛ وساقوه إليه في ثوب خلق ؛ والحديد يغلُّ عنقه ويجلجل في رجليه . فوقف أمامه منكس الرأس خافض الطرف فقال له القاضي الوزير :

— والله ! ما علمتك إلا متناسياً للنعمة كفوراً للصنيعة معدناً للمساوئ

— فقال الجاحظ : خفّض عليك — أيّدك الله — فوالله لأن يكون لك الأمر عليَّ ؛ خير من أن يكون لي عليك ولأن أسيء وتحسن ؛ أحسن في الأحدوثة عنك من أن احسن فتسيء . وأن تعفو عني في حال قدرتك ؛ أجمل من الانتقام منّي .

— قال القاضي : قبحك الله . ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام . ثم التفت إلى حجّابه فقال : جيئوا بجدّاد

— قال الجاحظ : أعزّ الله القاضي . ليفكّ عني أو ليزيدني؟

— قال القاضي : بل ليفكّ عنك .

فجيء بالجدّاد ؛ وغمزه بعض من في المجلس أن يعنّف بساقه ويطيل أمره قليلاً ليروا ما يكون منه . فلطمه الجاحظ وقال:

اعمل عمل شهر في يوم . وعمل يوم في ساعه . فإن الضرر بساقي ليس بجذع ولا ساقه .

فضحك القاضي وجماعته . وقال « أنا اثق بظرفه ولا أثق بدينه » . ثم أمر له بثياب ؛ وأرسله إلى الحمام ليغتسل . ثم أقبل عليه وصدّره في مجلسه وقال : هات حديثك يا أباعثمان!

من ذلك الوقت إلى أن فلج القاضي ؛ والجاحظ يختصه بمدائحه . وقدّم له كتاب البيان والتبيين فأهداه خمسة آلاف دينار . وظهرت عليه آثار النعمة حتى ظن بعض الناس أنه غني بالارث . سأله ميمون بن هارون الكاتب مرةً : ألك ضيعة بالبصرة يا أبا عثمان ؟ . فتبسم الجاحظ وقال : « إنما أنا وجارية لي وجارية تخدمها وخادم وحمار ؟! أهديت كتابي « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديت كتابي « الزرع والنخل ... » إلى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديت كتابي « البيان والتبيين » إلى القاضي أحمد بن ابي دوءاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ... » لاشك إن هذه الضيعة تعطي محصولاً ممتازاً ثم هي خالية من عسف الحكومة لايدفع عنها ضريبة ولا يوءدى عليها خراجاً !!.

فلج القاضي بعد توزيره بعام . فأسند المنصب إلى ابنه ولكن لم يدم فيه إلا قليلاً حتى ضجّ منه الناس ، فعزله المتوكل وسلب نعمته . وكان الفتح بن خاقان وزيراً مقرباً من الخليفة فاتصل به الجاحظ اتصالاً وثيقاً وسافر معه إلى انطاكية ودمشق ووصفهما وصفاً سطحياً . ثم عاد معه إلى بغداد ؛ فألّف كتابه (البلدان) . وأهدى للفتح رسالةً في « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » فأجزل صلته وتوسط للمتوكل فأجرى له مشاهرةً ماليةً . وكان كثير الاعجاب بسعة عقله وسموّ أدبه . يظهر ذلك من كتابه الآتي إليه :

(إن أمير المؤمنين يجِدُك . ويهشُّ عند ذكرك . ولولا عظمتك في نفسه ؛ لعلملك ومعرفتك ؛ لحال بينك وبين بُعدك عن مجلسه . ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفّر عليه . ولقد كان ألقى إليّ من هذا عنوانه . فزدتك في نفسه زيادة كفّ بها عن تجشيمك . فاعرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنية عَلَى كتاب (الرد على النصارى) وافرغ منه . وعجّل به إليّ . وكن ممّن جدا به على نفسه وتنال مشاهرتك . قد استطلقته لما مضى واستسلفت لك لسنةٍ كاملةٍ وهذا ما لم تحلم به نفسك . وقد قرأت رسالتك في (بصيرة

غنام) ولولا أني أزيد في مخيلتك ، لعرّفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام) .

رجوعه الى البصرة :

أُصيب الجاحظ في أخريات أيامه بفالج أقعده عن الحركة ولكن لم يقعده عن التفكير . فما زال يكتب ويؤلف حتى مات . أصيب بالفالج ؛ فرجع إلى البصرة يقضي بها آخر أيامه واشتهر إلى درجة أن كان يتمنى الناس رؤيته ولو لمرّة واحدة ويقصدون البصرة للتمتع بمشاهدته وسماع أحاديثه . وكان هو يعرف منهم ذلك فلا يردّهم ولكنه كان كثير العبث بهم . كلما استأذن عليه أحدهم يقول ماذا تريدون ؟ من شيخ ناحل وشق مائل . ولعاب سائل . وفرج بائل . ولون ناصل ! !

واستأذن عليه مرةً أحدهم وألحّ في طلب رؤيته فقال: دعوه . إنه سيقول بعدُ : رأيت الجاحظ على هيئة كذا وسمعت عنه كذا ورويت عنه كذا . . . ويظهر أن الفالج طال عليه فقد أصابه وهو في السبعين من عمره وما تركه حتى ارتحل معه وهو في السادسة والتسعين . وكان مصاباً إلى جانب هذه العلّة ؛ بنقرسٍ وحصاةٍ لا ينسرح معها البول فتؤذيه وتؤلمه . ولعلها هي العلّة التي ذكرها في مقدمة كتابه الحيوان

معتذراً عما فيه من نقائص : (وقد صادف هذا الكتاب مني؛ حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه . أول ذلك العلة الشديدة والثانية قلّة الأعوان . والثالثة : طول الكتاب . .)

هذه الأمراض التي يستعصي على الطب الحديث تداويها فكيف بالقديم ؟ ! من العجب أنها لم تؤثر في نفسه تأثيراً سيّئاً وتجعله مئقاً غضوباً ! ! بل بقي على يسرِ نفسه وعبثه وأضاحيكه حتى مات .

خصائص الجاحظ واسلوبه:

تملّك الجاحظ من عنان اللغة والأدب والأخبار وصهرها في بوتقته الخاصة ؛ فإذا أسلوب خاص به وحده . يتميّز عن كل كتّاب اللغة العربية ، منذ نشأت الكتابة إلى هذا العصر لا تعمّل فيه ولا تكلف . تنساق فيه الجمل متتابعة متسلسله ؛ كالجدول السابح في غيضه وارفة الظل ناعمة الأرج والنشر يقطع الجمل على مقدار قوّة المعني . ويأخذ من الألفاظ على مقدار حاجة الجملة . ويدور في أسلوبه المرن على الفكرة ؛ فيشرحها شرحاً مستوفياً فيه كل دقائقها ، متبسطاً في كل ناحية من نواحيها . حتى تخرج منه ، وقد امتلأت نفسك واشبعت

رغبتك . ولكنك تقول : هل من مزيد من هذا اللؤلؤ المنضود ؟ .

ويسيطر أسلوبه على القاريء سيطرةً ؛ تتملك شعوره وإحساسه . فيتبعه في تصوراته . ويسايره في أفكاره . ويعايشه في أطواره . حتى لا يكاد يشعر القاريء بشخصيته أمام شخصية الكاتب . وقد بلغ من مقدرته وسحر أسلوبه ؛ أن يحقّر العظيم فيصغر أمامك ويتضاءل : كمحنة الإمام بن حنبل في خلق القرآن مثلاً فإنه مازال يهوّن أمره ويصوّر ضعف حجته وتصلّبه على خطئه . حتى تخال أنه غلب بالحجة ونال ما يستحق من السياط جزاء جهله . وقد يعظّم الحقير ، حتى يرتفع في نظرك ويحترم ؛ كالنملة مثلاً . فإنه ما يزال يصف طبائعها وخصائصها وقوّتها واحترامها لعشيرتها وسعيها ... حتى تنظر إلى هذا المخلوق الضعيف ، الذي تستطيع أن تسحق آلافاً منه بقدمك ، نظرة إعجاب وإكبار ...

وكان يؤلف في كل فن يرى حاجة الناس إليه ماسة . ولذلك كثر عدد كتبه وتنوعت فنونها . وبلغ به سحر البيان أن كان يؤلف في الموضوع وضده . فإذا قرأت الأول ؛ ظننت أنه الحق وتضاءل لديك عكسه تضاؤلاً غريباً . حتى

لتظن أنه لا يقوم له دعوى ولا دليل . ثم تقرأ الثاني : فيتضاءل الأول ويصغر حتى لاتظن أنه يستند إلى أساس أو حجة . ولذلك ؛ فإن كتبه لا تعبّر التعبير الصحيح عن آرائه فقد كتب في البكاء والضحك . وكتب في ذم النبيذ ومدحه وكتب محتجاً للعرب في البيان وسواه . ومادحاً الترك وسائر جند الخلافة في رسالته إلى الفتح بن خاقان . وكتب في حجج العباسيّة وحجج الشيعة . وكتب في الاعتزال والحديث ... وأعجب من هذا أن كل فريق من هؤلاء ، يستند إلى حجج الجاحظ وبراهينه في دفع الخصوم ! !

وقد ابتدع طريقاً جديدةً للادباء لم يعرفوها من قبل . فكتب في مواضيع ما كان يُظن أنها داخلة في موضوع الأدب . كان الكتاب الذين سبقوه كعبد الحميد وسهل بن هرون وابن المقفّع ؛ يحومون حول الأخلاق العالية والدين وصنوف معاشرة الملوك والساسة ... فلما جاء الجاحظ . ورأى أن كل هذه الأخلاق إذا عرضت على الحياة العملية ؛ تناثرت بدداً . لأنه لا يمكن تطبيقها ورأى أن في الحياة نواحي كثيرة جديرة باهتمام الكتاب . ففتح طريقة حديثة . وصوّر الحياة كما هي في الواقع ، لا كما يجب أن تكون . فهو من هذه

الناحية أول كاتب واقعي في اللغة العربية حوّل ارستقراطية الكتابة من البحث في الملوك إلى ديمقراطية حرّة شعبية : تبحث في الحول والعور والعرجان والبرصان واللصوص والمكدّين والقحاب والبخلاء والحيوان والنبات ... كما رأيتَ في جريدة كتبه .

الجاحظ كاتب مجدّد ثائر . وأقصد بالثورة ، الانقلاب من الأعماق . وقلب التربة . وتعريضها للنور . وبذر أصلح البذور التي تصلح للجو والمحيط فتنمو وتزدهر . لا التحطيم والتكسير والتهديم . لذلك ؛ لم يكن ينظر إلى القدماء نظرة تقديس وتأليه . بل كان يقول : (إذا سمعت أحداً يقول : ما ترك الأول للآخر شيئاً ؛ فاعلم أنه لا يريد أن يفلح) ولذلك نقل من معاصريه . وكتب عنهم . ونوّه بذكرهم . واستشهد باقوالهم : كابن المقفع وبشار وأبي نواس ... ولشدة ولعه بالأدب الواقعي ؛ لا تجد الكتابات والمجازات البعيدة مجالاً في أسلوبه السمح . بل تسيطر عليه روح عملية لا تعرف الرياء . فتراه كأنه يخاطب رجلاً أمامه ، يناقشه ويجادله ويأخذه باعترافاته الواقعية . ولا يذهب في مجاهل الخيال . لأن له من قوة تصويره ما يقرّب الفكرة ويوضّحها بسهولة ويسر ؛ أكثر

من التصوّر الخيالي البعيد عن المنطق والحقيقة . وقد ينثر بين تضاعيف البحث ، بعض الأضاحيك والمعابث ؛ ليسرّي عن القارئ ويجتذب شهوته للمطالعة . ويشحذ ذهنه للتفكر والاعتبار . بل ربما كانت هذه الصفة ؛ من أبرز صفات الجاحظ في كتابته وفي حياته الخاصّة . فهو كثير التهكّم بارع السخرية سريع النادرة ؛ لا يتركها ولو كانت فيها حياته . ولكنه قد يتجاوز أحياناً فيذكر ألفاظاً وصوراً لا يرضاها المجتمع المتواضع على الأدب المكتوم . غير أنه يعتذر لذلك . أو يحاول أن يثبت رأيه الواقعي بأنّ ذكر أسماء الأعضاء التناسلية بأصرح أسمائها ؛ لا عيب فيه . لأنها لا تختلف عن أسماء سائر الأعضاء كالعين واليد والرجل فلماذا يكتم اسمها ويورّى عنها بلفظ آخر ؟ !

وهذا المذهب في الأدب معروف ؛ في العصر الحاضر . وحجّة أصحابه أن التورية ؛ تؤدي العمل نفسه الذي يؤديه الاسم الأصلي . لأنه لا يمكن أن يُتصوّر في الذهن من اللفظة الأخرى إلا الصورة ذاتها . فلماذا الكذب ؟ ! ولكن هذه الحجة ضعيفة واهنة .

ولعظم ما حوى الجاحظ من علوم . واستوعب من معارف

فقد كان القلم يجمح به دائماً ؛ فيترك الموضوع الذي بدأ الكتابة فيه . وينتقل إلى غيره لأقل مناسبة . ثم يعود إلى الأول . ثم يرجع فيندّ عنه ويطير إلى سواه وهكذا ... ولذلك فعنوان رسائله ومقالاته وكتبه ؛ لا يدل دلالةً صحيحةً على ما فيها . وسترى ذلك في تحليل كتبه بعد هذا البحث .

أما ألفاظه وجمله ؛ فإنه يكثر من الترادف فيها ويستطرد فتراها متتابعة كحبات اللؤلؤ في عقدٍ مسرّد . وقد يقسمها أحياناً بجمل اعتراضية كجمل الدعاء . ويسوق الضمائر متوالية حتى يبهم أحياناً إعادة الضمير إلى المضمر عنه بسهولة ويسر وهو مع هذا الترادف ؛ لا يتكلّف السجع كما تكلّفه مَنْ بعدَه من اصحاب الصنعة كالحريري والهمذاني والصاحب والقاضي الفاضل . بل كان يكره هذا النوع من التزمّت والتضييق . وسنمثل في مايلي ببعض مقاطع من كتابته ؟

النبسط في الشرح :

الضحك :

لو كان الضحك ؛ قبيحاً من الضاحك . وقبيحاً من المضحك لما قيل للزهره والحبرة والحلي والقصر المنبيّ : كأنه يضحك ضحكاً . وقد قال الله جلّ ذكره : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى

وأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) فوضعَ الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ...

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً . ومن مصلحة الطباع كبيراً ! ؟ وهو شيءٌ في أصل الطباع . وفي أساس التركيب ! ؟ لأن الضحك : أول خير يظهر من الصبيّ به تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه . وهو علّة سروره . ومادة قوّته . ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحّاك وببسّام وبطلق وبطليق . وقد ضحك النبي ﷺ وفرح . وضحك الصالحون وفرحوا . وإذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن . وبسّام العشيات . وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز . وإذا ذموا قالوا : عبوس . وهو كالح . وهو قطوب . وهو شتيم المحيا . وهو مكفهر . وهو كريه . ومقبض الوجه . وحامض الوجه ...

الترادف :

كبوة :

إذا لم يكن القرطاس صافياً . والمداد نامياً والقلم مواتياً والقلب خالياً . فلا عليك أن تكون كابياً .

المعنى :

يجعل الخفيَّ ظاهراً . والبعيد قريباً . والمهمل مقيّداً . والمقيّد مطلقاً . والمجهول معروفاً . والوحشي مألوفاً . والغفل موسوماً . والموسوم معلوماً . وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ودقة المدخل ؛ يكون إظهار المعنى وكلما كانت الدلالة أوضح . وأفصح . وكانت الإشارة أبين وأنور ؛ كان أنفع وأنجع .

محل اعتراضية :

ومتى شاكل — أبقاك الله — اللفظ معناه . . . كان قمناً بحسن الموقع .

ونحن — أبقاك الله — إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز . . . فمعنا العلم أنه أشعر الناس اليوم أن يقول مثل ذلك .

فقد خفت — أيّدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء .

فإن كنت اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجتريء إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال .

فإن كنت لا تهب عقابي — أيّدك الله — لخدمة ؛ فهبه لأياديك عندي .

وصف واقعي مادي :

قاضي البصرة ... كأنه بناءٌ بُني . . أو صخرة منصوبة وكان لا يحرّك يده ولا يشير برأسه فبينا هو كذلك ... إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث . ثم تحوّل إلى موق عينيه ، فرام الصبر في سقوطه على الموق . وعلى عضه ونفاذ خرطومه . كما رام من الصبر على سقوطه عَلَى أنفه ، من غير أن يحرّك أرنبته . أو يغض وجهه . أو يذب بأصبعه . فلما طال عليه ذلك وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ؛ أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض فدعاه إلى أن يوالي بين الاطباق والفتح ...

لفظ ومعنى :

... وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى . والمعاني مطروحة في الطريق . يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي . وإنما الشأن في إقامة الوزن . وتمييز اللفظ وسهولته . وسهولة المخرج وفي صحّة الطبع وجودة السبك . فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير .

وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام . وملحة من مُلَح الحشوة والطغام . فإياك وأن تستعمل فيها الاعراب

أو أن تتخير لها لفظاً حسناً . أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً . فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها . ومن الذي أُريدت له . ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها .

فارسي ويوناني :

أما أن الجاحظ يجهل اللغة اليونانية كل الجهل ؛ فمما لاشك فيه أبداً . وما أطلع عليه من الفلسفة اليونانية والأدب اليوناني فقليل ، ومن الكتب المترجمة فقط . وأما أنه يعرف اللغة الفارسيّة فأمر مشكوك فيه . لأنه لم يذكر أحد ولم يذكر هو نفسه أنه تعلّم اللغة الفارسيّة . ومع ذلك تجده يناقش الأفكار الفارسيّة ويحلّل بعض كلمات منها . وبعض جمل ؛ تحليل العالم بلغتهم البصير بأدبهم . أكان ملماً بهذه اللغة ؟ أم إنها كانت منتشرة بين الناس في العراق ، فحفظ منهم ألفاظاً ، والتقط أفكاراً . كما نلتقط نحن اليوم الألفاظ والأفكار الغربيّة من أحاديث المستغربين أو الموظفين الأجانب في بلادنا ؟ !

المعروف عنه ؛ أنه سمع من الفلاسفة في عصره وقرأ كتب الأطباء والمتكلمين . وهؤلاء متأثرون ولا شك بالعقل اليوناني والكتب اليونانية . وقد نقل من كتب يونانية أو ظاهر فيها الأثر اليوناني ظهوراً بيّناً . ككتاب الفراسة

لأقليمون . وكتاب المنطق لارسطوطاليس . وكتاب الألبان لمارسجوية . وكتاب أوقليدس . ونقل عن جالينوس وبختيشوع وحنين . . وهو نفسه يقرُّ بذلك . يقول :

[وقد نُقِلتْ كتبُ الهند . وتُرجمتْ حكمُ اليونان . وحُوّلتْ آدابُ الفرس . . فبعضها إزداد حسناً ، وبعضها ما أنقص شيئاً . . وقد نُقِلَتْ هذه الكتبُ من أُمّة إلى أُمّة ومن قرن إلى قرن . ومن لسان إلى لسان ؛ حتى انتهت إلينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها . .]

وإذا رأيته يناقش الألفاظ الفارسية ؛ حسبته عالماً بها ملماً بدقائقها . أنظر إليه يقول :

ألا ترى أن أهل المدينة ؛ لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر ؛ علقوا بألفاظ من ألفاظهم ! ولذلك يسمون البطيخ ؛ الخربز . ويسمّون السميط ؛ الروزق . ويسمون المصوص ؛ المزوز . ويسمون الشطرنج ؛ الاشترنج . إلى غير ذلك من الأسماء .

وكذا أهل الكوفة فإنهم يسمون المسحاة ؛ بال . وبال بالفارسية . . ويسمون الحوك (بقلة) باذروج . والباذروج فارسية وأهل البصرة . إذا التقت أربع طرق ؛ يسمونها مربّعه .

ويسميها أهل الكوفة : جهارسو . والجهارسو بالفارسية . ويسمون السوق ؛ وازار . والوازار بالفارسية . ويسمّون القثاء ؛ خياراً . والخيار فارسية . .

ويقول ؛ واصفاً بخيلاً من تجار مرو تجاهَلَ ضيفاً نزل به ويترجم كلامه : [لو خرجت من جلدك لم أعرفك . . وترجمة هذا الكلام بالفارسيّه : كراز بو سڭت بارون بيائي نشناسيم] .

ويقول :

والفرس ؛ تسمى الأشياء بالاشتقاقات . كما تقول للنعامة ؛ اشترمرغ . وكأنهم في التقدير قالوا ؛ هو طائر وجمل . . ويسمون الشيءَ المرّ الحلو ؛ ترش شيرين . وهو في التفسير ؛ حلو حامض .

ويقول :

والجاموس بالفارسية ؛ كاوماش . وتأويله : ضاني بقري .

. . .

ألا ترى أن هذه الدقّة في تحليل الكلمات الفارسية وتفسيرها ؛ تدلّ على إلمام بها ومعرفة فيها .

على أنا نقف حائرين في حلّ هذه المشكلة . خصوصاً إذا اطلعنا على رأيه في الترجمة والاطلاع على اللغات الأخرى .

يقول :

(إن الترجمان ؛ لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم، على خصائص معانيه . وحقائق مذهبه . ودقائق اختصاراته . وخفيّات حدوده ولا يقدر أن يوفيها حقوقها . ويؤدي الأمانة فيها .. إلا أن يكون في العلم بمعانيها . واستعمال تصاريف ألفاظها . وتأويلات مخارجها « Expression » ؛ مثلَ مؤلف الكتاب وواضعه ..

ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة ؛ في وزن علمه في نفس المعرفة . وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول عنها . والمنقول إليها . حتى يكون فيها سواءً وغاية .

ومتى وجدناه قد تكلّم بلسانين ؛ علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما . لأن كل واحدة من اللغتين ؛ تجذب الأخرى . وتأخذ منها . وتعترض عليها .. وكذلك إن تكلّم باكثر من لغتين ؟ على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ...)

ذلك هو رأي الجاحظ بالترجمة وهو ينمّ عن جهله أي لغة غير اللغة العربية ، ويعتذر من طرف خفيّ لهذا الجهل ، بحرصه على اللغة العربية ، لكي لا يدخل الضيم على لسانه . ويتعسف في بيانه بلغة أخرى .

ولكن هل هذا الرأي صواب كلّه ؟ المعقول والذي

لا يخالفنا فيه العقلاء ؛ أن معرفة اللغات الأجنبية؛ توسع الادراك الأدبي والفلسفي . وتغنى اللغة بأفكار جديدة . وتساعد الأديب على الابتداع والتجدّد والحركة . فيرتشف عن ينبوعين ويتذوق من سلسبيلين .

الجاحظ العالم :

لم يكتفِ الجاحظ أن يكون كاتباً أو أديباً ، أو زعيماً عظيماً من زعماء البيان ، الذين قلّ أن تجود بمثلهم الطبيعة على أمةٍ من الأمم . بل تسلّق سلّم الادب إلى العلم . فعاش عيشة العلماء الحقيقيين . فدرس طبائع النبات والحيوان والانسان . وشكّ بأقوال الناس وبحواسه . وحقّق تحقيقاً علمياً ؛ مبنياً على تجارب خاصة ، يستند في كل نواحيها على العقل . فيرفض الرأي إذا شكّ في صحّته . ويجرّب بنفسه . فيبعج بطن العقرب ؛ ليرى مافيه . ويكسر بيض الحية ؛ ليتحقق مما تضمّنه ويلقي السذاب على الأفعى ؛ ليتأكد من تأثيره فيها ، هل يقتلها كما يدّعون ؟ ! ويجمع الفئران والعقارب ؛ لينظر نتائج الحرب بينهما . ويطلب إلى أصحاب الاختصاص أن يوافوه بمعلوماتهم فيسأل شيخ القصابين في البصرة مثلاً : هل تختفي خصيتا الجمل بعد ذبحه كما يدعون ؟ فيرسلهما إليه القصاب .

فيكذّب دعواهم ويسجل ذلك . ويدقّق في فعل الذباب وتماوته لينجو من الخطر ، وفي وخزه بخرطومه الدقيق جلدَ الحمار الصفيق حتى ينفر الدم منه . ويعيد كل أمر إلى أسبابه . وكل طبيعة إلى منشئها فيقول : إن الغنم بليدة ؛ لأنها تعتمد في حمايتها على الانسان . وإن الخلد صفيق المخالب ؛ لأنه يحفر في تراب صلب . وإن الغزال خفيف الحركة متلون بلون التراب ليختفي عن أعين الأسد أو ليفرّ منه . وإن السنّور يهيل التراب على خرئه ، ثم يعود فيشمّه ، فإن وَجد له رائحةً ، حثا التراب عليه حتى تختفي الرائحة ؛ لأن الفأر شديد حاسة الشم ، فإذا شم رائحة السنّور فرّ هارباً . .

فهو بهذا ، يبين تأثير الطبيعة والمحيط والحاجة ، في الطباع والصوَر والأعمال والأشكال . ألا يشبه هذا الرأي ، نظريات لامارك وداروين في حفظ النوع والجنس ؟

وشكّه في الحواسِ وأقوالِ الناس . وردُّه عليهم حتى على أعظم من عرف في زمانه ارسطاطاليس . ألا يشبه رأي ديكارت في الشك وأنه مبدأ الدرس واليقين ؟

إن الجاحظ في تتبعه وتجاريبه وملاحظاته وتدقيقه ؛ يشبه كلود برنار كثيراً . مع حسبان الفرق بين العصرين . فإذا

وجدنا الجاحظ يخطئ أحياناً في بعض العلوم . كقوله بالتولد الذاتي مثلاً وأن الذباب يتولد من العفن . وأن نهر السند ونهر النيل من منبع واحد بدليل وجود التمساح في كليهما .. وغير ذلك . فعذره ؛ أنه سبق العلم الحديث في أساليبه بأحد عشر قرناً . وأي نظرية علمية عاشت أحد عشر قرناً من غير تطوّر وتبدل وموت وحياة ؟ !

والجاحظ ؛ إذا عجز عن إثبات الفكرة ؛ ذكرها ونبّه عليها . وأظهر عجزه أمام قدرة الخالق كقوله في الأفعى التي تقف في الرمل الحارّ ساعات ؛ كأنها رمح مركوز أو عود ثابت . فيُغَشُّ العصفورُ بها . ويقف عليها خوفاً من وقوفه على الرمل الحار اللاهب فتبتلعه ... (وفي هذا الحديث من العجب : أن تكون هذه الحيّة تهتدي لمثل هذه الحيلة . وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود . وفيه قلّة اكتراث الحيّة بالرمل الذي عاد كالجمر وصلح أن يكون مَلّةً وموضعاً للخبز . ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحيّة ساعات من النهار . والرمل على هذه الصفة . فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات) . وإذا ردّ قولاً أو ادعاءً ؛ فإنه يدعمه بالرأي المعقول . أنظر إليه يرد على قول القائلين بأن العصفور يعيش سنة واحدة

لكثرة السفاد والبغل يطول عمره لقلة السفاد . ويضعف روايتهم لأنها لم تستند إلى دليل .

(والذين زعموا : أن ذكورة العصافير لا تعيش إلا سنة ؛ يحتاجون إلى أن يعرّفوا الناس ذلك . وقد تكون القرى بقرب المزارع . والميازيب ؛ مملوءة عصافير . ومملوءة من بيضها وفراخها . وهم مع ذلك لم يروا قط عصفوراً ميّتاً . والذين زعموا أن البغل : إنما طال عمره لقلّة السفاد . والعصفور إنما قصر عمره لكثرة السفاد وغلمته ؛ لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب ؛ لم يلمهم أحد من العلماء ... فينبغي أن يعرفوا الفرق ما بين الدليل وشبه الدليل . ولعلّ طول عمر البغل ؛ للذي قالوا . ولشيء آخر . وليس ينبغي أن نجزم على هذه القلة فقط .

ويرد على صاحب المنطق فيقول :

(وإنما زعمه بأن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم إلاّ ببعض الماء ! ! فأي عيان دلّ على هذا ؟ ! وهذا عسير) .

ومن جملة الأدلة التي يستند عليها في أبحاثه العلمية ؛ الشعرُ . يقول :

(وأولئك بأعيانهم . هم الذين يزعمون أن النمر تضع في مشيمةٍ واحدة جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوّقت به ! وإذا لم

يأتنا في تحقيق الأخبار ؛ شعر شائع . أو خبرٌ مستفيض ؛ لم نلتفت إليه) .

ويقول :

(ولم نجعل لما يسكن الملح والعذوبة ، من الأنهار والأودية والمناقع والمياه الجارية ؛ من السمك ، ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك ؛ باباً مجرّداً . لأني لم أجد في أكثره شعراً يجمع الشاهد . ويوثق منه بحسن الوصف وينشّطه بما فيه من غير ذلك للقراءة)

فهو يعتمد على الشعر لسببين . الأول لإثبات الدعوى ولتوثيق الدليل . والثاني لتنشيط القاريء . على أنه قد يرفض هذا الشعر إذا لم يعتمد على منطق وعقل يقول :

(ولكني لم أقنع بذكر ما وجدته في الأشعار والاخبار) فهل يختلف الجاحظ بعد هذا ؛ عن أي عالم من علماء العصر في أسلوبه وتتبعه العلمي ؟ !

الجاحظية :

رجل كالجاحظ ، يكتب في كل فن . ويجول في كل علم لابدّ وأن يكثر حسّاده ومنافسوه . والحسد ؛ طبعي فى البشر يحسدون العظيم ويناوئون الكبير . أما الصغير الحقير ؛ فلا يأبه

له أحد ، أو بالحرى ؛ كل امرئ ينال قسطه من حسد الناس على مقداره . وهذا ما أصيب به الجاحظ ، رجل العقل والعلم فقد تحاملوا عليه ووصموه بقلّة الدين والمروق والزندقة . وأخذوا عليه بعض أقواله فصحفوها . كقوله في خلق القرآن : (إن الله خلقه كما يخلق الإنسان والحيوان والشجرة) ... فادعوا أنه يقول : بأن القرآن ينقلب مرةً إنساناً ومرةً حيواناً ! !

وأشدُّ من تهجّم عليه ؛ المحدّثون والقصّاص . لأنه كان ينقدهم نقداً لاذعاً ، لجهلهم فيثورون عليه غاضبين . .

قالوا بأن الحجر الأسود سوّده المشركون بذنوبهم . فقال : كان ينبغي أن يبيّضه المؤمنون بتقاهم ! !

وقالوا إن الفأرة ولدت من عطسة الأسد في سفينة نوح وإن الخنزير ولدت من سلاح الفيل في السفينة . فقال : إذن يكون ذلك السنور ؛ آدم السنانير . وذلك الخنزير آدم الخنازير وأنثاهما حوّاء السنانير والخنازير . وكان يتهكم بالمفسّرين والقصّاص الذين يتأولون للقرآن القصص الخرافية ؛ فيثيرهم عليه كأنما كان يلتذّ بهذه الحرب الضاحكة الساخرة . . وأما إيمانه ؛ فيكاد لايعرونا الشك بصحته . وأما احترامه للنبي محمد ﷺ فلا مراء أنه كان توقيراً وحباً صادقاً . من ذلك تصحيح نسبه

وتصفيته مما عبث به الجاهلون فجعلوا في أحد أجداده زواجاً غير شرعي فكذّبهم الجاحظ .

وادعاؤه أن قساً أخطب العرب ؛ لأنه أظهر الايمان في خطبه وإن كتب الله خير الكتب . وإن الله هو الملهم للإنسان والحيوان . يقول :

(واكثرُ من كتبهم نفعاً ، وأشرفُ منها خطراً ، وأحسن موقعاً ؛ كتب الله تعالى التي فيها : الهدى : والرحمة . والإخبار عن كل حكمة . وتعريف كل حسنةٍ وسيئة) .

ويقول :

(... والذي علّم الزنابير ، مواضع تلك الأجزاء ، ودلّها عَلَى ذلك الجوهر ؛ هو الذي علّم العنكبوت ذلك النسيج ...)

فالجاحظ – كما ترى – مؤمنٌ عميق الإيمان . ولكنه لم يؤمن كسائر الناس بالبداهة والسذاجة التي تسيطر على المحدّثين والعوام ؛ بل كان إيمانه عن عقل ومنطق وتفكير . ولذلك كان إلى الاعتزال ؛ أقرب منه إلى أصحاب الحديث . فدرس على أستاذه النظام ؛ أساليب البحث العلمي في الله والوحدة والصفات وتتبع أصحاب الكلام في العَرَض والجوهر والوعد والوعيد . وناظرَ وناقشَ في حلقات الدرس حتى قالوا : إنه

خطيب ممتاز . وأنتجت له هذه البحوث والمناظرات ؛ رأياً خاصاً في مسائل المعتزلة . فنشره ودافع عنه . فآمن به ناس كثير . وتبعوه على مقالته . فسمّوا بالجاحظية . ولكنّا — مع الأسف — لانعرف آراءه على التحقيق والتفصيل إمّا لأنه لم يكتب بها كتاباً خاصاً . أو ضاعت هذه الآراء في مطاوي الزمن . واندثرت ، بما تقلّب على الأمة العربية من ثورات وعسف وظلم وإرهاق وحروب . وكل ما عرف من آرائه ؛ يمكن إجماله فيما يلي :

١ — إن المعارف كلها طباع . وليس للإنسان كسب سوى الارادة .

٢ — إن الجواهر أبدية لا تفنى . وإنما الذي يتبدّل هو الأعراض .

٣ — إن أهل النار لا يخلدون فيها . بل يصيرون إلى طبيعتها .

٤ — النار تجذب أهلها من نفسها .

٥ — الخلق كلهم عقلاء ، عالمون بأن الله تعالى خلقهم ، وعارفون بأن الأنبياء ضرورية لهداية البشر . وهم محجوجون بهذه المعرفة ، ومحاسبون عليها . .

هذا مجمل بعض الآراء ذات الاهميّة التي تحملها الجاحظية ونؤكد أنه لا يستطاع فهمها حق الفهم ؛ إلاّ بدراسه مطوّلة تفسرها . وتبين الفروق بينها وبين سائر آراء الفرق المعتزلة والفلاسفة الآخرين . ولكن الملاحظ ، أنها لا تخرج الجاحظ من فريق المؤمنين أبداً . ولكنها تحشره في زمرةٍ خاصة هي زمرة أصحاب العقل الراجح . والمنطق السليم . والتفكير الحرّ الطليق . وأن ما ذكره أبو العيناء من أنه وضع حديثاً بالاشتراك مع الجاحظ ، فنستطيع أن نؤكد كذبه وافتراءه .

الجاحظ والكتاب والشعراء :

أما الكتّاب الذين يعنيهم هذا العنوان ؛ فكتّاب الدواوين وهم يشبهون الموظفين في دوائر الحكومة هذا العصر . كان الجاحظ ينظر إليهم باستصغار ويراهم تجّار أقلام وباعة حرّية وعبيد ارستقراطية . وكانوا يخشون لسانه ولذعاته وقوّة قلمه وسحر بيانه . ولذلك قال سهل بن هارون لما عيّن المأمونُ الجاحظَ رئيساً للديوان : (إن بقي هذا في الديوان ، أفل نجم الكتاب) وأخذ يدسّ عليه — على ما يبدو — ولذلك ألّف الجاحظ كتابه في البخلاء ردّاً على رسالة سهل بن هرون في مدح البخل . أو لعلّ هذا ، سبباً من جملة الأسباب . وردّاً على سهل ؛

الشعوبي المتعصب . وألّف في مدح التجارة وذم عمل السلطان ودخل مرّة ديوان الرسائل ، فرأى الكتاب — وقد صففوا عمائمهم وصقلوا ثيابهم وجلسوا جلسة العظماء . . فسخر منهم وقال : (فأما الزبدُ ؛ فيذهب جفاءً . وأما ما ينفع الناس ، فيمكث في الارض . ظواهر نظيفة . وبواطن سخيفة ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) وللجاحظ آراء في نقد الكتاب والعلماء المعاصرين هي غاية في الدقّة وصواب الحكم . وكان يقول : (طلبت الشعر عند الاصمعي ؛ فوجدته لا يعرف إلا غريبه . فرجعت إلى الأخفش ؛ فوجدته لا يحسن إلا إعرابه . فعطفت على ابي عبيدة ؛ فرأيته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلّق بالأنساب والأيام . ولم أظفر بما أردت ؛ إلاّ عند أُدباء الكتاب . كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات) .

والجملة الأخيرة ؛ تدلنا دلالة صريحة على الفكرة التي قررناها في مبدأ البحث عن الجاحظ ، أن الأدباء أصبحوا عاطفةً وعقلاً معاً . جمّاعين لكلّ الفنون . وإلاّ يكن علمهم عميقاً ؛ فإلمام عامّ على كل حال .

وأما الشعراء الذين يعنيهم هذا العنوان ؛ فالنظامون . لأن رأيه في الشعر الممتاز ؛ صريح ، بكثرة ما استشهد فيه . ولقد

كان – فيما يظهر – يعاني النظم . ويحبّ أن يبرّز في حلبة الشعر . فدرس العروض وقال، (العروض، ميزان الشعر ومعياره وبه يعرف الصحيح من السقيم، والمعتل من السليم . وبه يسلم من الأود والكسر) . ثم لاحظ أن العروض وحده، لا يجعل المرء شاعراً . فهجر الشعر وهو يقول : (العروض، علم مردود ومذهب مرفوض . وكلام مجهول . يستكد العقول ؛ بمستفعل ومفعول، من غير فائدة ولا محصول) .

ومن شعره :

إن حال لون الرأس عن حاله ففي خضاب الرأس مستمتع
هب من له شيبٌ له حيلةٌ فما الذي يحتاله الاصلع ؟ !

الجاحظ والمرأة :

يظهر أن الجاحظ لم يكن ينظر إلى المرأة ؛ إلاّ أنها أداه استمتاع فقط . ولذلك لم يتزوّج ولم يرزق ولداً . بل كان يتسرّى بالجارية، يشتريها من السوق كما يشتري المتاع . ومتى ملّها وشبع منها، قذفها إلى السوق فباعها واشترى سواها . وقد كان شهوانياً، يحبّ الجمال للمتعة المادية . يحكى أنه قلّب جارية في السوق ؛ فأعجبه خال على خدّها . فقال : ما هذا ؟ قالت : الحجر الأسود . قال : الله أكبر . هذا أوان الحج .

فهل تأذنين أن أقبل الحجر الأسود ؟ ! قالت : إليك عني ! ألم تسمع قول الله تعالى : « لَمْ تكونوا بالغيهِ إلاّ بِشِقِّ ٱلأَنفُسِ » .

وكان يقول : الغِناء الحسن ؛ من الوجه الحسن ، والبدن الحسن ؛ أحسن ... وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبّله ، وفم تشتهي أن تصرف وجهك عنه !! فالرجال دخلاء على النساء في الغناء .. »

على أنه ما كان يحتقر المرأة مع هذا أبداً . بل كان يرحمها ويشفق عليها . يقول : (ونحن وإن رأينا فضلَ الرجل على المرأة ... أكثر وأظهر ، فليس ينبغي لمن عظّم حقوق الآباء ، أن يصغرّ حقوق الأمهات . وكذلك الأخوة والأخوات والبنون والبنات . وأنا ؛ وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم ؛ فإن هذه أرحم ..)

تحليل كتب الجاحظ :

لم يصل إلينا من كتب الجاحظ إلاّ قليل . بعضها له حقاً والبعض الآخر منحول مدسوس عليه . وهاك جريدةً بالكتب المطبوعة :

١ – البخلاء ، ٢ – الحيوان ، ٣ – البيان والتبيين ، ٤ – المحاسن والأضداد (منحول) ، ٥ – التاج (منحول) ، ٦ – الحنين إلى الأوطان (منحول) ، ٧ – الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير (منحول) ، ٨ – المناظرة بين الربيع والخريف (منحول) ، ٩ – تهذيب الأخلاق (منحول) .

ثم هناك فصول مختارة . ومجموعة رسائل بعضها منشور على هامش كتاب الكامل ولم تصل إلينا سائر كتبه . على أنها لو وصلتنا ؛ لما كان ممكناً تحليلها جميعاً إلاّ بكتاب ضخم جداً . ولذلك سنجتزئ بتحليل ثلاث كتب مشهورة فقط وهي : البخلاء . والحيوان . والبيان :

البخلاء :

افتتح الجاحظ هذا الكتاب ؛ برسالة من سهل بن هرون في مدح البخل ، رداً على بعض بني عمه . واستطرق من هذه الرسالة ؛ إلى وصف بخلاء البصرة المعاصرين وذكرهم باسمائهم . ثم استطرد إلى ذكر المآدب والدعوات ، ثم إلى الكرم والبخل في الدعوات ، ومن اشتهر بالبخل من العرب والعجم . وتستدعيه هذه المعاني ؛ إلى ذكر الأضياف ونباح الكلاب ... الخ . وهذا الكتاب صورة تاريخية لعصره مدهشة جداً . ويظهر

فيه كمؤرخ معاصر Chroniqueur بأسلوب طريف جداً .
هو ما نسميه (اسلوب الأطروفة) Rapportage

وهذا الكتاب ؛ يشبه من حيث أساس موضوعه : كتابُ (البخيل) لموليير . ولكن الفرق بينهما : أن الجاحظ يتكلم عن أشخاصٍ معلومين ويصف طعامهم وتداويهم وحيلهم في التخلّص من الضيف . . . وما شابه ذلك . ليخرج من كل هذا ؛ بأطروفةٍ مضحكة أو نادرة لطيفة .

أما موليير ؛ فيصوّر بخيلة: كل البخلاء في كل عصر وفي كل مكان . يصوّره ؛ حريصاً على المال وعلى زيادة جمعه فلا يخبئه . بل يرابي به ليربح . ويقلق دائماً على ماله ويسيء الظن بأهله ويحسبهم خَوَنةً سارقين ويتحرى خَدَمه وهم داخلون وهم خارجون . . فلم تكن غاية موليير إذن ؛ تصوير شخص معيّن . بل تصوير البخيل أيّاً ما كان وحيثما كان .

الجاحظ ؛ يصوّر البخلاء . وموليير يصوّر البخل بعينه . فموليير إذن من هذه الجهة ؛ أعمق فكراً و أدق تصوّراً . ولكن لا ينبغي أن يغرب عن الذهن : فرق ألف عام تقريباً بين الكاتبين !!

الحيوان :

هذا كتاب ضخم في سبعة أجزاء تتجاوز صفحاته الألف. يفتتحه بسرد طائفةٍ من كتبه . ويردّ عَلَى خصومه . ويذكر فوائد الكتب . ويصف الكتاب وصفاً ممتعاً ما أظن أني رأيت له مثيلاً في أي أدب من اللغات الأُخرى . ثم يستطرد إلى وصف الكلب والديك والحمام والذبان والغربان والجعلان والخنافس والهدهد والرخم والخفاش والذرّ والنمل والقرد والخنزير والحيات والظليم .. وبما أنه رأى الظليم يبتلع النار ؛ فقد تداعى عنده هذا المعنى واستطرد إلى نيران العرب والعجم والنيران المعبودة والمقدسة . ثم تناول من يعبد هذه النار بالنقد وما قيل في سائر الديانات . وتخلل ذلك الشعر والقصص والأدب ..

كل الكتاب يسير على هذا النمط . وهو يتنقّل فيه من موضوع إلى موضوع ، لأقل مناسبة بين الموضوعين . وينتهي الكتاب بما عُرفت به الحيوانات من الحكمة والاحساس . وما ألهمها اللهُ من المعرفة . ويقف عند وصف الزرافة . والكتاب كما رأيت ؛ لا يختص بالحيوان . بل يستطيل فيه كثيراً إلى أبحاث أدبية وتاريخية ونقد !!

ومصادر الكتاب في الدرجة الأولى ؛ الشعرُ والقرآنُ

وكتابُ أرسطو . ثم تجاريبه الخاصة . وفي الكتاب أغلاط علمية لا يقرّها العلم الحديث . ولكن لا ننس أن بينه وبيننا ألف ومئة عام !!

البيان والتبيين :

هو كتاب في الأدب . كلُّه شعر وأخبار . ولكثرة ما استشهد فيه من أخبار وأشعار ؛ كدنا نقول إنه اختاره اختياراً ولم يؤلفه ، وهو كعادته ؛ يستطرد ويأخذه تداعي المعاني بسرعة فينتقل من بحث إلى بحث لأقل مناسبة . حتى ليستحيل أن تضع عنواناً صحيحاً لأي موضوع من مواضيعه . وهو كتاب ضخم ، شرحه كثير من الادباء ولكن خيرها شرح السندوبي .

الجاحظ بداري :

يتهكّم الجاحظ بكل الناس . ويسخر من كل شيء ، تلك طبيعة فيه . ولكنه كان إلى جانبها ؛ يعرف كيف يداري من بيدهم الأمر ويستميلهم إليه . خذ لك مثلاً ؛ تقديم كتبه . فقد عرف أن ابن الزيات رجل عالم أديب . فقدّم إليه كتاب الحيوان . ولاحظ على القاضي ابن أبي دؤاد عروبةً وصراحة وعداءً للشعوبيّة ، فقدم إليه كتاب البيان والتبيين ، وفتح فيه باباً كبيراً جداً للردّ على الشعوبية وهو باب العصا . وأدرك

أن الأمر في زمن المتوكل بيد ابن خاقان التركي ؛ فقدّم إليه رسالته في مناقب الترك . ورأى أن الأمّة الاسلامية خليط من شعوب شتى حتى وصل هذا الاختلاط إلى جند الخليفة نفسه فكانوا خمسة أقسام هي : الخراسانية ، والتركية ، والموالي ، والعرب ، والبنويّة [1] فأرضى الكل بأن كتب في أمهات الأولاد ، والجواري ، والصرحاء والهجناء ، والعرب والعجم ، والعرب والموالي ، وفخر السودان على البيضان ، ومناقب الترك وعامة جند الخلافة ... الخ

وهو نفسه يقول في مقدمة كتابه (الحيوان) :

(ولولا سوء ظنّي بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان . ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر ؛ لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم وتوفيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم ، مع كثرة فوائد هذا الكتاب ؛ إلى هذه الرياضة الطويلة وإلى كثرة هذا الاعتذار . .)

فكأنه خشي نقد الناقدين وتهجّم الحسّاد فاعتذر سلفاً .

الجاحظ والشعوبية :

عاش الجاحظ في فترة اليقظة العربية التي تحدثنا عنها في

---

(١) البنويّة : هم أبناء الدعاة للدولة العباسيّة .

أبي تمّام (انظر صفحة ٣٣١) فحمل الفكرة وهاجم الشعوبيّة مهاجمةً جريئة جداً . يقول : (واعلم أنك لن ترى قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبيّة . ولا أعدى على دينه . ولا أشدّ استهلاكاً لعرضه . ولا أطول نصباً . ولا أقلّ غنماً ؛ من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ...) وفي هذه المهاجمة الشديدة ؛ ردّ صريح على من يتهم الجاحظ بعروبته . ويدّعي انه كناني بالولاء . نعم . فقد يمكن ان يكون عربياً صريحاً ويتّخذ مع هذا ولاءً في كنانة بالإرث ولكن لا يمكن أبداً ان لا يكون عربياً .

أطاريف :

قلنا إن الميزة الخاصة التي امتاز بها الجاحظ ، وظهرت في حياته العملية أكثر من سواها من سائر الصفات ؛ هي السخر والتهكّم . ولكنه في سخره لا يؤذي . بل يتعمّد الاضحاك والمعابثة البريئة . لأن له في الضحك لذةً ومذهباً خاصاً (انظر صفحة ٤٢٩) وها نحن ننقل بعض أطاريفه ونوادره على سبيل المثال يقصّ بعضها عن نفسه والبعض الآخر عن سواه :

١ — سألني بعضهم كتاباً بالوصيّة إلى بعض أصحابي فكتبت له رقعةً وختمتها ، فلما خرج الرجل من عندي ؛ فضّها

فإذا فيها : (كتابي إليك مع من لا أعرفه ، ولا أوجب حقّه ، فإن قضيت حاجته ، لم أحمدك وإن رددته لم أذمك) فرجع الرجل إليّ فقلت له : كأنك فضضت الورقة ؟ .

— قال : نعم !

— لا يضيرك ما فيها . فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص ! !

— فقال الرجل : قطع الله يديك ورجليك ولعنك !

— ما هذا ؟

— هذا علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصاً .

---

٢ — جاءني يوماً بعض الثقلاء ، فقال :

سمعت أن لك ألف جواب مُسكِتٍ ، فعلمني منها ؟ !

قلت : نعم

قال : إذا قال لي شخص : يازوج القحبة ، ياثقيل الروح . . . اي شيء اقول له :

فقلت : قل له : صدقت ! !

---

٣ — نسيت كنيتي ثلاثة ايام ، فسألت أهلي بماذا أكنّى قالوا لي : بأبي عثمان .

---

٤ — قال الجاحظ مرة بحضرة السدري إذا كانت المرأة

عاقلةً ظريفةً كاملةً كانت قحبة . فقال السدري . و كيف؟! قال الجاحظ لأنها تأخذ الدراهم . وتتمتَّع بالناس والطيب . وتختار على عينها من تريد . والتوبة معروضة لها متى شاءت ! !

---

٥ – ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده . فلما رآني ؛ استبشع منظري . فأمر لي بعشره آلاف درهم وصرفني .

---

٦ – كنت واقفاً عَلَى باب داري . إذ جاءتني امرأة فقالت لي إليك حاجة وأُريد أَن تمشي معي !! فقمت معها إلى أَن أتت بي أَلى صائغ يهودي وقالت له : مثل هـذا ! ! وانصرفت فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إليّ بفصّ وأَمرتني أَن أَنقش لها عليه صورة شيطان . فقلت لها : ياستي مارأَيت الشيطان ؟ ! فأتت بك وقالت ما سمعت !

ولهذه الدمامة هجاه بعضهم فقال :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلاّ دون قبح الجاحظ

تلك بعض أَطاريف الجاحظ ، يتندّر بها على الناس وعلى نفسه . ولا يقصد بها إلاّ مجردّ العبث المضحك . لا السخرية المؤلمة المؤذية .

وإنك لتجد أَمثالها مبثوثةً في كتبه . ولكن بعضها صريح أَكثر من هذه ، ليس فيه كناية ولا تورية . والسبب

في ذلك أولاً: أن المحيط كان يتحمل الصراحة . ثانياً أن الجاحظ كان صريحاً وحرّاً . وقد سبق وقلنا إنه أديب واقعي Réaliste يصوّر الحياة كما هي لا كما ينبغي أن تكون .

تأثير الجاحظ :

بلغ من شهرة الجاحظ في عصره ؛ أنه كان لا يكاد ينشر كتاباً ، حتى يتلقّفه الناس ويتداولونه نسخاً وحفظاً ومطالعة لأنه كان أديب عصره وحده . حتى ليصح أن نطلق على الأدب في عصره كله ؛ اسم أدب الجاحظ . وبلغ من شهرته بعد موته ؛ أن كبار الأدباء يفاخرون ؛ بأن أسلوبهم جاحظياً .

لقّب أبو زيد البلخي : جاحظ خراسان، فامتلأ فخراً . ولقّب ابن العميد : بالجاحظ الثاني . فطار سروراً وعجباً . وكان ابن العميد يقول : كُتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً . وألف أبو حيّان التوحيدي كتاباً سماه (تقريظ الجاحظ) وكفى بأبي حيّان شاهداً .

وأكثر من ذلك ؛ أن كان ينادَى في عرفات ؛ عمن يعرف كتبه الضائعة فما أعظم هذه الشهرة ؟ .

فالجاحظ ؛ فتح أبواباً جديدة في الأدب ، حوّلت طريقة ابن المقفع وعبد الحميد الارستقراطية إلى أدب شعبي محض —

إن صح لي التعبير – فتبعه الكتّاب ومنهم أصحاب المقامات.

هذا من حيث الفكرة. أما من حيث الأسلوب؛ فقد تلقّف الجاحظ طريقة عبد الحميد فطوّرها حتى استقامت له بالمترادفات اللفظية والجملية. فقلّده الكتاب من بعده: كابن العميد والصاحب والهمذاني والحريري.. ولكنهم أربوا عليه بالسجع وبالبديع؛ فقيّدوا الاسلوب بأغلاله القاسية واهتموا بتزويقها، فضلّوا عن المعاني. وأين سماحته من تنوّقهم. ويسّره من شدّتهم.

تأثير الجاحظ في العصر الحاضر:

بزغت النهضة الحديثة على عهد محمد علي وكان الكتاب متأثرين بطريقة الحريري والقاضي الفاضل، يتعمّدون السجع تعمداً ويتكلفون له تكلفاً. حتى في جرائدهم. كجريدة الحكومة الرسمية والمؤيد وسواها. ولو نظرت إلى كتب المويلحي ومقامات اليازجي لأدركت عظم تأثير الحريري فيها بل ربما أربى اليازجي عليه بما تعمّد من ألاعيب لفظية وبديعية ثم قذفت المطبعة مقدّمة ابن خلدون فاحتذاها الناس كمثل أعلى في الأسلوب وتبعوها في الإنشاء فارتقت الكتابة نوعاً ما. ولكن ما كادت كتب الجاحظ تصل إلى أيدي الناس حتى تبدل الوضع ومال الكتّاب إلى هذا الأسلوب السمح اللطيف

أضف إلى ذلك اطلاع الناس على الأدب الغربي . فكان من نتاجه ؛ المنفلوطي ومن شابهه كالزيات والبشري . . فليست مدرسة المنفلوطي إذن مدرسة حديثة لا صلة لها بالماضي . ولكنها ترجع إلى الماضي البعيد . إلى أستاذها الأول عبد الحميد ، وأستاذها الثاني الجاحظ . ولا يزال أساتذة الأدب حتى اليوم يرغّبون طلابهم في كتاب البيان والحيوان والبخلاء ليلتقطوا الأسلوب وأما الفكرة ؛ فالعقل الحديث كفيل بتربيتها .

آخر أيامه :

فلج الجاحظ في آخر حياته فلزم داره يفكّر ويؤلف ويكتب . ويطبّق كتبه على رفوف قريبة منه ، ليستطيع تناولها متى شاء من غير أن يستعين بأحد . فكثرت وربت وزادت على الثلاث مئة كتاب كما يزعمون . فكأنه كان يريد أن يملأ الدنيا من فيض عبقريته . وفي ذات ليلة إذ كان وحده يستعرض حياته وأعماله وخدماته وأفكاره ، في جوف هذا الليل البهيم ؛ هبطت عليه كتبه دفعةً واحدة فخنقته خنقاً .

هكذا عاش العبقريّ رفيق أفكاره . ومات خنقاً بكتبه وآثاره .

مراجع هذا البحث

١ — البيان والتبيين

٢ — البخلاء

٣ — الحيوان

٤ — رسائل الجاحظ

٥ — أدب الجاحظ للسندوبي

٦ — الجاحظ لجبري

٧ — دائرة المعارف

٨ — المقابسات للتوحيدي

٩ — معجم الأدباء

١٠ — الاغاني

١١ — كتاب الصناعتين للعسكري

١٢ — الملل والنحل للشهرستاني

المعرب

تاريخ

تفسخ الدولة :

وصلت الدولة الإسلامية على عهد المأمون ؛ إلى أوج عزّها السياسي . وبلغت ذروة المجد العسكري؛ على عهد المعتصم ، بعد مقتل بابك الخرّمي وحرق الأفشين واكتساح عمورية . ولكن لم يكد القرن الثاني يتصرّم ؛ حتى أخذت الدولة تتفسّخ . وشرع الأمراء والطامعون في الملك ؛ يستقلّون رويداً رويداً عن بغداد . ويكوّنون إمارات وممالك ؛ طمع بعضها بالاستيلاء على عاصمة الدولة نفسها ، خصوصاً بعد أن أصبح الحلّ والعقد بيد الغلمان الترك ، يولون الخليفة ويسيّرونه على إرادتهم . ثم يقتلونه إذا لم يعجبهم أو يسملون عينيه أو يحبسونه في سجن مظلم . فالمتوكل ؛ قتله غلمانه . وابن المعتز؛ صار خليفة يوماً وليلة فقط وهكذا ...

في منتصف القرن الثاني؛ استقل عبد الرحمن الداخل؛ بالأندلس . والأدارسة ؛ في المغرب الأقصى . وفي القرن الثالث ؛ ظهر بنو طولون في مصر . والفاطميون ؛ في المغرب . والسامانيون ؛ في خراسان . والعلويون ؛ في طبرستان .

وفي القرن الرابع ؛ برزت للوجود : الدولة الغزنوية في الأفغان والهند . والزيارية ؛ بطبرستان . والبويهية ؛ في الديلم . والحمدانية ؛ في حلب والموصل . والاخشيدية بمصر .

وفي القرن الخامس ؛ ظهر سواها . ولكن الذي يهمنا منها ؛ هي الدولة المرداسية في حلب . والعبيدية في مصر . لأن لهما علاقاتهما الوشيجة ، في حياة أبي العلاء المعرّي التي نؤرخها.

ظهرت هذه الدول في ثوب الدولة الإسلامية الأعظم ؛ كالرقع الملوّنة . لا تزيده إلاّ شناعةً وقبحاً وضعفاً . حتى طمع الغريب فيهم؛ فاكتسحهم الروم مراراً متعدّدة . وجاسوا خلال الشام . فسبوا ونهبوا وعاثوا في الأرض فساداً . وما كانوا بمستطيعين لهم ردّاً ؛ لتخاذلهم وضعفهم وتكالبهم على الزعامات والسيطرة .

وبغداد ؛ هاجمها معزّ الدولة البويهي فبني بها عام ٣٣٤ هجرية ملكاً : له فيه الحكم الفعلي وما يجبى من الأموال . وللخليفة الاسم الديني فقط ! فتقلص ظلّ هذا الاسم الفخم عن الأقطار . وقلّت هيبته . وأصبح الخليفة؛ كالطير الحبيس في قفص . تسمع تغريده . ولكنه في الحقيقة : نحيبٌ وأنين.

نسير مع التاريخ مسرعين . ونتجاوز حلقاته واثبين . حتى نصل إلى منتصف القرن الرابع فنستأني ونتلفّت قليلاً ، فنرى الدولة البويهية في بغداد . والحمدانية في الشام . والعبيدية في مصر . نكتفي بهذه الدول الثلاثة الآن ؛ لأنها كل ما يهمنا في البحث عن تاريخ رجل العصر الأوحد أبي العلاء :

مات سيف الدولة في حلب عام ٣٥٦ هجرية . وخلفه ابنه أبو المعالي . فثار عليه خاله أبو فراس واعتصم بحمص ؛ فغلبه وقتله . ثم ثار عليه غلاما أبيه قرعويه وبكجور ، وقضى أكثر حياته في حربهما حتى قتلهما . ولكنه لم يطمئن إلى الدعة إلاّ عاماً ! ! فلج بعده ومات عام ٣٨١ هجرية . فتولى بعده الملك ابنه أبو الفضائل .

مصر وسوريا :

كان لبكجور ؛ كاتب يدعى : أبا الحسن علي بن الحسين المغربي . هرب هذا الكاتب بعد مقتل سيّده ؛ إلى مصر . وحث العزيز ، ملكها على افتتاح حلب . وسهّل له الأمر . ودلّه على عورات الحمدانيين . فشكل جيشاً وسيّره إلى حلب فحاصرها . وكان لابي الفضائل ؛ غلام : اسمه لؤلؤ (أو ابن لؤلؤ) فزيّن

لمولاه أن يستعين بالروم على صدّ الجيش المصري ففعل . ولكن المصريين ؛ كانوا أسبق منه للروم ؛ فدحروهم وشتتوا شملهم . فلمّا رأى أبو الفضائل ذلك ، صالحهم فانسحبوا إلى دمشق وخابروا العزيز بما تمّ ؛ فسخّف رأيهم . وأمر الجيش بالكرّ مرةً أخرى إلى حلب . فخابر أبو الفضائل ؛ الروم ، واستدعاهم إلى بلاده ليعينوه على العبيدين ! ! وما علم الجيش المصري بذلك ؛ حتى انسحب ، فدخل الروم ، حلبَ والمعرّة وحمص وبلاد الشام فسبوا ونهبوا واسترقّوا وعادوا غانمين لم يرزءوا بقتيل !!

وحول عام ٣٨٦ هجرية ، مات العزيز وتولى الحاكمُ مصرَ فاستراحت حلب ولكن إلى حين لا نعلم مداه ؛ نرى بعده لؤلؤاً يستبد بالحكم . ويطرد سيده أبا الفضائل . ويستقلّ بالأمر وحده . ويسوس الشعب سياسة منتقم جبّار . ولا غرابة في ذلك ، فإنه حديث عهد بالحريّة . وقريب من الرقّ والعبوديّة واشتدّ ضغطه عَلَى الناس وإهمال أمورهم ؛ حتى ضجروا منه ودخل أحد امراء البدو صالح بن مرداس فجأة إلى حلب بخمس مئة فارس . وحاصر القصر مطالباً بإعطياته ! ! فأغلقت عليه أبواب البلد وقتل من جماعته ٢٠٠ رجلٍ واعتقل ١٢٠ رجلاً ، وأُطلق الباقون . وسجن الأمير صالح بن مرداس في القلعة . ففرّ بحيلة

من الحيل ، وعاد بألفي فارس فدخل حلب دخول الفاتحين ، وأسر لؤلؤاً ، ثم أطلقه بفدية عظيمة وعاد إلى الصحراء ظافراً منتقماً عام ٤٠٢ هـ . والمظنون ؛ أن فتحاً غلام لؤلؤ ؛ هو الذي خان سيده ، ففتح البلدَ لصالح بن مرداس . ثم خانه مرةً ثانية والتحق بالحاكم ملك مصر فأقطعه صيدا وبيروت . وتولى حلبَ ؛ عزيزُ الملك الحمداني تحت حماية الحاكم . وبتولّي هذا الأمير ؛ انقطعت صلةُ حلب ببغداد . وارتبط مصيرها بمصر . على أن ذلك لم يطل . فقد قُتل الحاكم بدسائس ست الملك عام ٤١١ هـ وتولى بعده الظاهر . فوجد أميرُ حلب الحمداني ؛ الفرصةَ سانحةً ليعيد مجد سيف الدولة ؛ فأعلن استقلاله . فما تركته ست الملك حتى دست إليه من اغتاله وعيّن الكتامي خلفاً له .

ولعلّ هذه الفوضى في الحكم ؛ أطمعت البدو في الملك فاتفق ثلاثة أمراء عَلَى اقتطاع الشام ، وهم : صالح بن مرداس ، وحسان بن مفرج الطائي ، وسنان بن عليان . فوثب الأول بحلب عام ٤١٤ هـ والثاني بالرملة . والثالث بدمشق . وفي ذلك يقول أبو العلاء :

أرى حلباً حازها صالح وجال سنان على جلّقا
وحسّان في سلفي طيء يصرّف من عزّه أبلقا

وحول عام ٤١٧ — ٤١٨ هـ ؛ ثارت المعرّة على صالح فحاصرها ورماها بالمنجنيق . فاستشفعت إليه بأبي العلاء ، فقبل الشفاعة وعفا عنها وفي هذا يقول أبو العلاء :

بُعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

وفي عام ٤٢٠ هـ التحم الجيش المصري في الأردن بجيش الامراء الأحلاف . فقُتل صالح . واعتصم ابنه شبل الدولة بحلب وهرب حسّان إلى الروم . وعاد منهم بجيش يقوده ، وعليه حلّة قيصرية وفوق رأسه قلنسوة متوّجه بصليب ! ! فنهب وسبى وانتقم ، وعاد قرير النفس لأنه فثأ حقده ضد بني قومه ! ! وبقي شبل الدولة في حلب حتى عام ٤٢٩ هـ حيث سيّر عليه المنتصر جيشاً بقيادة الدزبري فقتله وألحق حلب بمصر . غير أن هذا الإلحاق لم يدم طويلاً . فقد رجع ثمال بن صالح بن مرداس فافتتح حلب . واستقلّ بها عام ٤٣٤ هجريه وبقي يناضل المصريين خصوصاً عام ٤٤٠ هـ فإنه كسرهم مرتين . وأرجع زحوفهم خاسرةً . ولما رأوا أن افتتاح حلب بالسيف

أمرٌ مستحيل ؛ أخذوا يدسّون عليه الدسائس ، ويصرفون وجوه مملكته عنه بشتى الحيل حتى عجز . فأسلمهم ملكه عام ٤٤٩ هجرية ، وهاجر إلى مصر مرتمياً في أحضانهم . وبذلك رجعت حلب إلى حكم العبيديين مرةً أخرى . وما زالت تخرج من يدهم وتعود إليهم حتى انقرضت الدولة المرداسية عام ٤٧٢ هـ يصف أبو العلاء هذا الانتقال السريع المتقارب فيقول :

وما أمنت زماني في تصرّفه أن ينقل الملك من مصر إلى حلب

إلى هنا تنتهي الحلقة التي وقفنا عليها ، من سلسلة تاريخ الشام في القرنين : الرابع والخامس . لنرى العصر الذي عاش فيه أبو العلاء واضحاً فيعيننا على فهمه نفسه .

نتائج الحروب الاجتماعية :

كانت نتائج هذه الحروب الدائمة ؛ سيئة جداً في بلاد الشام ، والمعرّة منها بصورة خاصة ، لأنها على طريق حلب . فقد كثرت فيها الشرور ، وفسدت الأخلاق ، وفشا السلب والنهب وقطع الطرق والتعدّي على أموال الناس . واختلّ الأمن . وتأخرت الحياة الاقتصادية ؟ وتقهقرت التجارة والزراعة وانتشرت الأمراض والعلل والأوبئة والمجاعات . وانقسم الناس إلى طبقتين متمايزتين لا توسّط بينهما : هما طبقة الأغنياء

الارستقراطيين، وطبقة الفقراء الهالكين، وهؤلاء هم الكثرة الفاحشة والسواد الأعظم . وراجت بضاعة الفسوق والخمرة والتسّري . وربح بعض تجار العقول من المتمشيخين هذه الفرصة ؛ فاستطالوا باسم الدين على أموال الناس . ويئس البعض الآخر من هذه الفوضى ، وانقطع أملهم من الإصلاح . فاعتزلوا الحياة الاجتماعية ونظروا إليها بمنظار يتفاوت حظّه من السواد بمقدار ماهم عليه من اتصال بهذه الحال المضطربة . وربما دفعهم اليأس ، إلى الشك بالدين والخالق الذي يترك عباده المؤمنين تحت رحمة الروم . ويسلم أمرهم إلى البدو المتوحشين . ويترك جيوش المسلمين أبناء الدين الواحد تتقاتل وتتناحر على قطعة أرض من الدنيا الزائلة !! هذا الفريق اليائس : يمثله أحسن تمثيل ؛ شاعر عصره وفيلسوفه أبو العلاء المعري القائل :

لن تستقيم أمور الناس في عصر ولا استقامت فذا أمناً وذا رعبا
ولا يقوم على حقّ بنو زمنٍ من عهد آدم كانوا في الهوى شعبا

نتائج الحروب الادبية :

على أن هذه الفوضى الأخلاقية والسياسية ؛ انتجت أحسن الأثر في الحياة العقلية والأدبية ، فتخمّرت جميع المعلومات العلمية المترجمة والمنقولة . وتركزت بشكل منطقي ممتاز .

وسلكت طريقاً سوياً . وظهر من الشعراء : المتنبي وأبو فراس ومن الكتاب ؛ ابن العميد والصاحب والهمداني والخوارزمي ومن الأدباء ؛ العسكري والأصفهاني . ومن اللغويين ؛ ابن خالوية والحريري ... ومن الشعراء الكتاب ؛ أبو العلاء الذي تجمعت فيه كل معلومات عصره . وتركزت في عقله كل علوم زمنه فكتب وشعر في كل شيء ؛ حتى صح ان نطلق على عصره بأجمعه اسم ؛ عصر أبي العلاء .

والسبب في هذه النهضة الأدبية والعقلية ، يكاد يظهر غريباً لأول وهلة ! ولكن قليلاً من الامعان يظهر لنا بساطة هذه الدعوى وبداهتها . فكثرة الدول وإن كانت صغيرة ، فإنها تستدعي ، التنافس على الظهور بمظهر القوة والحق والكمال . ولما كان الأدباء والشعراء من مميزات الكمال ؛ فقد كان التنافس عليهم كثيراً والتهافت على استجلابهم قوياً جداً . مثال ذلك ؛ أن الصاحب بن عباد — وهو من نعلم في وزارته وسطوته — قد استدعى أبا الطيب المتنبي ليمدحه على أن يشاطره نصف ماله ؛ فأبى المتنبي — ذهاباً بنفسه وإعجاباً بقوة عبقريته — أن يتنزل لغليم معطاء بعد أن كان شاعر سيف الدولة والأخشيد !! وكان من أكبر دواعي فخر الصاحب — لو رضي

المتنبي بمدحه – أن يكون ممدوح المتنبي وكفى .

هذا التنافس على الادباء والشعراء ؛ أيقظ فيهم حسّ العمل والتنافس على الاتقان والتجويد والخلق والإبداع ؛ حتى ارتقى الأدب في عهد ملوك الطوائف إلى الذروة . وكان من نتاجه الطيّب : المتنبي وأبو العلاء وكفى بهذين مثالاً !

حلب والمعرة

في منتصف القرن الرابع الهجري (عام ٩٤٤ ميلادية) استولى سيف الدولة بن حمدان على حلب . وأنشأ فيها مملكة قويّةً تضاهي مملكة البويهيين في بغداد . والعبيديين في مصر . وكان هذا الملك شجاعاً مغواراً وشاعراً مفوّهاً وأديباً لسناً قضى حياته بين غزو الروم وصدّ غاراتهم في كليلكيا وحلب . وبين شعرائه وعلمائه في السلم . يسبح على أجنحة البطولة في الحرب . ويطير في السلم على اجنحة الشعر إلى اللذة والجمال . وجمع حوله هالةً كبيرة جداً من اكبر العلماء والادباء والفلاسفة والشعراء . حتى أصبحت حلب تعجُّ بهم عجاً وتنافس أكبر العواصم بنتاجهم العلمي والأدبي . وكان منهم المتنبي وأبو فراس والنامي والببغاء والسريّ الرفاء والوأواء وابن خالوية والصنوبري وكثير غيرهم . حتى قال ابن خلكان ؛ (يقال انه لم يجتمع

بباب احد من الملوك ، بعد الخلفاء ؛ ما اجتمع ببابِ سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر)

لم تكن حلب ، زمن سيف الدولة عاصمة الحمدانيين السياسية فقط . بل كانت عاصمة الدنيا الإسلامية في الأدب والشعر . يحجّ إليها الأدباء من أقصى الأقطار ويقصدها الشعراء من أنأى الأمصار ، حتى احتشدت بجيش لجب من العلماء والأدباء وصفّقت فيها النهضة . وطغت موجتها على ما جاورها من البلدان فأحدثت فيها حركة علمية نامية .

وفي جنوب حلب ، على بعد ٨٠ كيلومتراً منها ، قرية كبيرة ذات بساتين زاهرة ورياض ناضرة يسقيها غدير يتسلسل في الربيع ويغيض في الصيف[1] فتستقي حينذاك من آبار عميقة الغور ، غزيرة المياه . هذه القرية ؛ تسمى المعرّة . وهي مبنية على ناهد من الأرض كثدي الكاعب . وفي وسطها جامع كبير ذو مئذنة عالية يشبه جامع حلب الكبير من بعض الوجوه ، يُنحدر إليه ببضع درجات[2] .

لو زرت هذا الجامع في منتصف القرن الرابع ؛ لرأيت

---

(١) يسمى هذا الغدير الآن « الهرماس » .

(٢) يذكر ناصري خسرو الذي زار المعرة عام ٤٣٨ هـ : « أن الجامع يُصعد إليه باثنتي عشرة درجة » فما الذي خفضه ! ؟

فيه حلقات الدروس قائمة على أشد ما تكون من الحركة ، بالقياس إلى هذه القرية . والطلاب ؛ ملتفون حول مشايخهم المستندين إلى سواري المسجد يلقّنون طلابهم الفقه واللغة والعلوم التي وصل إليها عصرهم .

هذه الحركة العلمية في المعرّة ؛ متأثرة ولا شك بمدرسة حلب العلمية . وسائرة في ركاب نهضتها الحيوية .

وقد مرّ بهذه القرية ما مرّ بحلب بعد سيف الدولة المتوفي عام ٣٥٦ هجرية واختلفت عليها الدول والأمراء والخطوب التي اختلفت على تلك . وكانت جسر الفاتحين والمدافعين والغاصبين والفاتكين والمستبدين من الروم والحمدانيين والعبيدين والأعراب . حتى أصبحت في القرن الخامس الهجري ؛ صورة عن الحال التي وصفناها في (نتائج الحروب) .

وفي هذه القرية ؛ ولد الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري .

المعري

مولده ونشأته :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي . كنيته أبو العلاء . يرجع في نسبه إلى اليمن عرب الجنوب . ولد عام ٣٦٣ هجرية أي بعد موت سيف الدولة بسبع سنوات . وفي السنة الرابعة من عمره ؛ أصيب بالجدري فذهب بعينيه معاً . غارت إحداهما ونتأت الأخرى فأصبح منظره بشعاً مؤلماً في آن واحد . وتركت هذه العاهة في نفسه حزناً عميقاً جداً ؛ أثرّ في مجرى حياته كلها ، وصورها له سوداء مظلمة كبصره المفقود . يقول:

أيأتي بنيّ يجعل الخمر طلقةً فتحمل شيئاً من همومي وأحزاني؟

وأيّ هم أشدّ صعوبة وأقسى بطشاً من فقد البصر على امرئ : شديد الإحساس مرهف الأعصاب مثل أبي العلاء ؟! يحتاج في كل شيء من حياته إلى أن يستعير النور من عيني غيره ليطلع عليه !

وكانت أسرة أبي العلاء أسرة علم وفضل ، تولّت القضاء مدى طويلاً . فجدّه وعمه وأبوه وبعض من نسل من إخوته ؛

تولّوا القضاء في حمص والمعرّة . وعانى بعضهم قرض الشعر وعُرف به . هذه الأسرة المتعلّمة ، رسمت لأبي العلاء طريقه العلمي في الحياة ، فتلقى مبادئ علوم اللسان والدين على أبيه ومشايخ المعرّة في مسجدها الكبير . لا يلهيه ما يلهي المبصرين من مناظر ، فاهتمّ بدرسه وحده . وكان عجيباً في الذكاء وحسن الفهم والحفظ حتى قيل : إنه نظم الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة . ووعى علوم مشايخه كلها ولم يتجاوز نصف العقد الثاني من حياته !! والمطلع على القصيدة التي رثى بها والده — وكان عمره أربعة عشر عاماً — يناله العجب أن ينظم ابن هذه السنّ مثلَ هذه القطعة .

رحلاته :

استنفد أبو العلاء جميع علوم مشايخه في المعرّة ، ولا يزال به شغف للعلم وقَرَم للأدب . فارتحل إلى حلب ليرتشف من منبع النهضة التي تركها سيف الدولة ، قبل مجيء أبي العلاء إلى الدنيا بسبع سنوات . وكان لا يزال بها بقية من كبار الأساتذة وتلامذة ابن خالوية النحوي المشهور ، فتلقى عنهم وبهرهم بذكائه وحافظته .

وارتحل بعدها إلى أنطاكية — وكانت بيد الروم — ليطلّع

على مكتبتها الشهيرة . فهاله أمر المسلمين بها ولاحظ فساد البلد الأخلاقي فقال :

لا ينزلنّ بانطاكية ورعٌ كم حلّل الدينَ عقد للزنانير
بها مُدام كذوب التبر تمزجه للشاربين ؛ وجوه كالدنانير

وهو لم يرَ هذه الوجوه المشرقة التي تمزج المدام للساقي ، كما في حانات هذا العصر الأوربيـة ، ولكن وُصفت له وسمع طمطمة العلوج فيها فأثرت فيه وفتحت أفقاً جديداً في حياته .

وارتحل بعدها إلى طرابلس ليطلع على مكتبتها الكبرى . وعرّج في طريقه على اللاذقية ونزل في دير هناك . فلقي الرهبان والقسيسين وحدّثهم ، فأغرموا به وأغرم بما عندهم من جديد . ففتحت له آفاق أُخرى جديدة شكّكته في دينه كما يقولون . أو بالحرى ؛ شككته فيما كان يعتقد صوابه الأبدي . فاتخذ الشك مبدءاً للوصول إلى الحقيقة طول حياته ، كما اتخذه ديكارت بعده بقرون — مع قياس الفارق الزمني بالطبع — يقولون : (إنه لقي في دير اللاذقية راهباً قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل فأخذ عنه ما شكّكه في دينه وفي غيره من الديانات . ونمّ على ذلك شعر الصبا . ثم تاب والتمس لكلامه وجوهاً من التأويل) .

و كانت اللاذقية بيد الروم ، يضغطون فيها على المسلمين ويضايقونهم ؛ حتى في مظاهر دينهم ، فلا يكاد المؤذن يرفع صوته باسم الله ؛ حتى تضجّ النواقيس صاخبة كياداً للمسلمين . ودرسَ أبو العلاء في هذه الرحلات ؛ دين النصارى واليهود . واطلع على ديانات المجوس وسائر المذاهب والنحل . فأخذ الشك يلعب في نفسه فقال :

في اللاذقية فتنةٌ ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدقّ — وذا بمئذنةٍ يصيح
كل يعزّ دينه فليت شعري ما الصحيح ؟!

على هامش الرحلات :

يشك بعض المطلعين ؛ على هذه الرحلات . وينكرونها أشد نكران . ودعواهم ؛ تختصر فيما يلي :

١ — كانت أنطاكية بيد الروم يعاملون المسلمين فيها بقسوة فلا يعقل أن يذهب إليها صبيّ مسلم أعمى لأن المبصرين عاجزون فيها عن تحمّلهم بلْهَ العميان .

٢ — ادعى أسامة بن منقذ أنه رأى أبا العلاء في انطاكية يتردّد على المكتبة ليتعلّم ومدحه بأنه صبي أعمى ممتاز الذكاء ..

هذا الادعاء باطل من أساسه ؛ لأن أسامه ؛ ولد بعد موت أبي العلاء بأربعين سنة تقريباً .

٣ — وكذلك رحلته إلى اللاذقية ، مردودة . لأن البلدة كانت بيد الروم . وأما ذكر انطاكية واللاذقية في شعره ؛ فليس دليلاً صحيحاً . لأن أبا العلاء ذكر كثيراً من البلدان في شعره . فهل زارها كلها حتى كتب عنها ؟ !

٤ — رحلته إلى طرابلس ليدرس في المكتبة التي أسسها ابن عمار ؛ مردودة . لأن ابن عمّار أسس المكتبة بعد موت أبي العلاء بثلاث وعشرين سنة (عام ٤٧٢ هجرية) .

٥ — وكذلك ذكروا له رحلة إلى صنعاء وهي قرية قرب دمشق على طريق المزّة ، لم يبق لها الآن أثر . وهي مردودة أيضاً ؛ لأن المؤرخين لم يتضافروا على ذكرها .

مناقشة :

١ — قولهم : إنه لا يعقل أن يرحل أبو العلاء لبلدٍ يحكمه الروم ؛ فمردود . لأن العلاقات التجارية لم تنقطع أبداً بين بلاد المسلمين وبلاد الروم ؛ إلاّ زمن الغارات والحرب . وهذه تستتبع ولا شك ؛ علاقات عقلية وصلات علمية .

٢ — ردّ حديث أسامة بن منقذ ؛ معقول . ولكن المظنون ؛

أن هناك خطأً في الرواية حين يحدّث أُسامة عن نفسه . ولعل الصواب : أن هناك جملةً محذوفة تدلّ على أنّ المحدِّث أحدٌ أجداده أو أحد الرواة وأُسامة يروي على لسانه .

٣ — أما ذكره أسماء البلاد في شعره والإكثار من ذلك فمقبول أيضاً . ولكن ذكر أنطاكية واللاذقية ؛ تظهر فيه صورة المعاين المطلع ، أكثر من صورة الراوي .

٤ — وأما أن ابن عمار أسس المكتبة بعد موت أبي العلاء فصحيح أيضاً . ولكن هذا لا ينفي وجود مكتبة سواها وقفها أهل اليسار . لا ابن عمّار .

٥ — وأما رحلته إلى صنعاء فليس عليها دليل . ولكن رحلاته إلى أنطاكية واللاذقية وطرابلس ؛ ذكرها القفطي في (إنباه الرواة) ونصّ عليها الذهبي في تاريخه . ونحن لا نشك فيهما .

في المعرّة :

مات والد أبي العلاء وعمره أربعة عشر عاماً . فآلمه فقده ؛ لأنه كان له معلماً شفيقاً ، وأباً رحيماً . ولكنه لم يفقد منه إلاّ صورته فقط . لأن أمّه وأخواله عطفوا عليه وساعدوه على رحلاته وتحصيل العلم حتى عاد إلى المعرّة وهو ابن عشرين . وقد استتم علوم

عصره كلها . وقال في رسالة : إنه لم يحتجْ أن يتلقى العلم بعد العشرين على أحد . وعاش في بلده كما يعيش الشاب الباهل عن العمل . يرتزق من وقفٍ يدرّ عليه قليلاً من المال ويساعده أخواله . وهو يقضي أوقاته في المطالعة واللهو البريء . فيلعب الشطرنج والنرد وينظم الشعر ويجالس ظرفاء القوم . حتى بلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً . لم يسعَ خلالها إلى أمير ولم يمدح مسلّطاً ولم يتعرّض بشعره للكسب كما يتعرّض سائر الشعراء ؛ لأن فيه إباءً عجيباً عن إراقة ماء الوجه عَلَى أعتاب الملوك طمعاً بصلاتهم . ولأنه لا يعرف الرياء فيمدحهم بما ليس فيهم فيكذب عليهم وعلى نفسه وعلى الله والناس .

عَلَى أنه مارس المديح في هذه البرهة من الزمن ؛ ولكنه كان يأبى أن ينال عليه أجراً . لأنه مدح أصدقاءه وبعض مَن عرفهم من العمّال رداً على مديحهم فقط .

في بغداد :

قضى أبو العلاء أجمل أيام شبابه في المعرّة . ولكن أي جمال في حياة شاب طموح للمجد والعلى ، وهو مقيّد بقيد ثقيل من ظلمة العمى ؟ ! وكانت الاضطرابات السياسية والفساد الاجتماعي ؛ قد بلغا حداً قصيّاً في الشام . فعزم أبو العلاء على

هجران هذا المحيط القلق إلى بغداد عاصمة الخلافة، متأملاً بالنجح والشهرة . ونفّذ هذه الفكرة عام ٣٠٨ هجرية .

و كانت بغداد على تقهقرها السياسي؛ عظيمة الحظ من الحياة العقلية . فيها المجامع العلمية كمجمع سابور بن اردشير ومجمع الشريف الرضي ومجمع الشريف المرتضى ومجمع عبد السلام بن حسين البصري ومجمع أبي حامد الأسفراييني . وفيها المكتبات الكبرى كمكتبة دار الحكمة ومكتبة سابور ....

وبعض هذه المجتمعات مقتصر على جماعة مخصوصة لا يتصل بها العوام: كجماعة إخوان الصفا . يتجادلون في الفلسفة والكلام . وبعضها شعبي يحضره من الناس من شاء كمجمع الاسفراييني .

انحدر أبو العلاء في سفينة بالفرات إلى العراق . وما وصل القادسيّة ؛ حتى اغتصب عمّال السلطان سفينته . فأكمل طريقه في البرّ خائفاً مرتاعاً من اللصوص وقطّاع الطرق . وما صدّق أن يصل سالماً . وأول من اتصل به في بغداد ؛ أبو حامد الاسفراييني الفقيه المشهور الذي كان يجتمع في درسه سبع مئة طالب بين تلميذ وأستاذ . وقدّم له قصيدة يستعديه بها على العمّال المغتصبين . ويطلب منه المساعدة على إرجاع السفينة . فكانت هذه القصيدة سبباً في ذيوع اسمه وشهرته في بغداد .

فعرف كشاعر ممتاز . واتصل بالمكتبات والمجامع العلمية كلها لا كتلميذ يتلقى العلم ؛ بل كعلم قدير وشاعر ممتاز . وعرف له أهل بغداد قيمته فأحبّوه واحترموه . ولو أراد أن يتكسّب بشعره كغيره من الشعراء ؛ لما لحق به أحد . ولطَمسَ معالمهم كلهم ولكنه أبى إلاّ العفة والترفع عن الكذب . وكان صريحاً فوق حدّ الصراحة ؛ واتفق أنه كان يوماً في مجلس الشريف المرتضى وهو يكره المتنبي وينافسه . فتنقصّه وروى عيوبه فاغتاظ أبو العلاء لأنه كان يحبه ويجلّه فقال : لو لم يكن للمتنبي إلا قصيدته التي يقول فيها :

لك يامنازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهنّ منك أو اهل

لكفاه فخراً ومجداً . فظهر الغضب في عيني الشريف وثار على أبي العلاء وأمر بطرده من مجلسه . فسُحب برجله حتى أُخرج . وكلّ من في المجلس متعجب لهذه الاهانة يلقاها الشاعر الأعمى لمجرّد ذكر بيت من أبيات المتنبي ؛ ليس فيه ما يستكره ثم قال الشريف : أتدرون لم اختار الاعمى هذه القصيدة دون غيرها للمتنبي ؟ قالوا ماندري! قال : إنّه يعرّض فيها ببيته المشهور :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

فتعجب الحاضرون من حذق ابي العلاء وبداهة الشريف

وأثرّت هذه الحادثة في نفس أبي العلاء وتضافرت عليه العلل في بغداد من حسد الحاسدين ومنافسة خصوم الصنعة. فلا مالاً أفاد ولا راحة ولا اطمئناناً ؛ يقول :

فأصبحت محسوداً بفضلي وحده على بعد أنصاري وقلّة مالي

وتلقى خبراً بمرض أمه في المعرّة وهي آخر سندٍ بقي له في الحياة فعزم على القفول إلى الشام. وما تسامع الناس بخبر عزمه ؛ حتى توافوا إليه يعرضون عليه البقاء فأبى وهو يقول :

أثارني عنكم أمران : والدة لم ألقها . وثراء عاد مسفوتا [1]

ويظهر انه كان شديد الحنين إلى وطنه فقال :

وكم همّ نضوٌ أن يطير مع الصبا إلى الشام لولا حبسه بعقال

لقد زارني طيف الخيال فهاجني فهل زار هذي الإبل طيف خيال

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهر منذ ليال

فهل فيك من ماء المعرّة قطرةٌ تغيث بها ظمآن ليس بسال ؟!

وهو في الطريق ؛ تلقى الخبر بموت أمه . فاشتدّ عليه الحزن واكتمل سواد الحياة في نظره فزهد بها وكتب إلى أهل

---

(١) هذه الفكرة جعلت المؤرخين يعتقدون بأنه رحل إلى بغداد ليستعدي السلطة العليا على من اغتصب له وقفاً في المعرّة . والشك في هذه الدعوى واضح لأنه حين سافر إلى بغداد ؛ كانت علاقات المعرة مرتبطة بالسلطة المصرية لا العراقية .

المعرة يطلب منهم ان لا يعنّوا أنفسهم باستقباله . فقد عزم على اعتزال الحياة العامة والزهد الكامل . وعاد إلى المعرّة فاعتزل في منزله لايخرج منه . وسمّى نفسه « رهين المحبسين » العمى والمنزل . على أنه نصّ في اللزوميات أنه في ثلاثة سجون لا اثنين فقط يقول:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي و كون النفس في الجسم الخبيث

رهين المحبسين:

لعلّ أبا العلاء ندم على تركه بغداد وتألم لفراقها يقول:

يا لهف نفسي علَى أني رجعت إلى هذي البلاد ولم أهلك ببغداذا
إذا رأيت أموراً لا توافقني قلت الاياب إلى الأوطان أدّى ذا

بل هو لم يرض عن سفره ولا عن مقامه وضاق بهذه الحياة . وبهؤلاء الناس فقال:

رحلت فلا دنيا ولا دين نلته وما أوبتي إلا السفاهة والخرق

ولذلك اعتزل العالم وهجر الخلق وسكن إلى داره يؤلف ويكتب وينظم . حتى أغنى المكتبة العربية بكتب نفيسة جداً . ضاع أكثرها مع الأسف . ولو وصلت إلينا ؛ لرأينا علماً وعرفاناً كثيراً . بل لرأينا فيه كل علوم عصره . فقد ألّف في كل فن وكتب في كل علم . لا كما كتب الجاحظ هازلاً مطرفاً . بل بأسلوب جديّ نفيس فيه تحقيق وفيه عقل .

شرح بعض دواوين الشعر كديوان الحماسة والمتنبي وأبي تمّام والبحتري . وألّف في النحو؛ كتاب الحقير النافع . والظهير العضدي وشرح سيبويه .

وعلّق على كتبه بالشروح والتعاليق ؛ فوضع ضوء السقط (لسقط الزند) وراحلة اللزوم (للزوم ما لا يلزم) والسادن (للفصول والغايات) وخادم الرسائل (لرسائله) .

ووضع : لزوم ما لا يلزم . وسقط الزند . والفصول والغايات . ورسالة الغفران ... وبلغ بعضها عشرات الأجزاء .

هكذا قضى حياته . حياة جدّ وعمل وجهد عقلي ممتاز حتى طار صيته في البلاد وفشل في عزلته أيّما فشل إذ لم يتركه الناس وحيداً في همومه وآلامه . بل كانوا يقصدونه من البلاد ويلتفّ التلاميذ حوله من كل صوب حتى اشتهر وعُرف ونال مكانة ممتازة في قومه . يقول :

يزورني القوم هذا داره يمنٌ ... من البلاد . وهذا داره طَبَس
يبغون مني علماً لست أحسنه ... فإن صدقت عرتهم أوجهٌ عبس
ماذا تريدون؟ لا مال تيسر لي ... فيُستماح . ولا علمٌ فيقتبس

ويقول ناصري خسرو حين مرّ بالمعرّة :

« ويحكمها رجل ضرير يعرف بأبي العلاء . عظيم الثروة ، يملك عدداً ضخماً من العبيد والخدم . وكأن سكان المدينة

كافةً خدمُه . أما هو فيحيا حياةً خشنةً . يلبس غليظ الصوف . ولا يغادر بيته ولا يأكل إلا الشعير ...»

هذه الجملة ؛ جعلت الدكتور طه حسين يميل إلى القول بأن المعرة كان يحكمها الشاعر حقاً . وهبَه إياها صالح بن مرداس يوم الشفاعة (انظر صفحة ٤٦٨) .

والذي نعتقد ؛ أن أبا العلاء نال وجاهةً ممتازة في قومه؛ لعلمه وعفته وإبائه وزهده فخيّل إلى ناصري خسرو بأنه الحاكم حقاً .

على إنه كيفما كان الحال؛ فقد كان المعرّي يقضي حياته زاهداً في الحياة لا يأكل اللحم ولا ما يخرج من الحيوان . ولا يعاشر الناس بل لا يحضر صلاة الجمعة معهم ، يقول:

يقولون هلاّ تشهد الجمع التي رجونا بها عفواً من الله أو قربا
وهل لي خير في الحضور . وإنما أزاحم من أخيارهم : إبلاً جربا!!

وكان له مورد ضئيل من وقف يبلغ ثلاثين ديناراً يعطي نصفه لخادمه . ويصرف ما بقي على نفسه بكل تقتير . يقول :

يقنعني بَلسَنٌ يمارس لي وإن أتتني حلاوة فبَلَسْ

فالبلسن ؛ العدس . والبلس ؛ التين : كان يقنع بالعدس طعاماً وبالتين حلاوةً !! ويظهر أنه دعي للتوظف بوظيفة دينية كالقضاء أو الفتيا فأبى . يقول :

قلدتني الفتيا · فقلدني غداً تاجاً ؛ بإعفائي من التقليد

وما زالت هذه حاله · حتى توفاه الله عام ٤٤٩ هجرية ·

كتب المعري:

لأبي العلاء كتب كثيرة لم يصل منها إلاّ القليل · وما وصل إلينا ؛ ففيه عبقرية لاحدود لها · تعطينا صورةً قويّة عن هذه العقلية الناضجة الممتازة · وسنحلل ثلاثة كتب فقط هي أشهر كتبه وأقواها :

١ — سقط الزند ، ٢ — اللزوميات ، ٣ — رسالة الغفران ·

سقط الزند :

الذين يدرسون أبا العلاء ؛ يقسمون حياته إلى ثلاثة أطوار

١ — طور الحداثة وينتهي برجوعه من رحلاته الأولى في طلب العلم بحلب وانطاكية وطرابلس واللاذقية · وكان عمره ٢٠ عاماً ٢ — طور الشباب ، وينتهي برجوع الشاعر من بغداد ٣ — طور الكهولة والشيخوخة ؛ قضاه معتزلاً يقرأ ويؤلف ويفكر ·

وسقط الزند ؛ يطلقون عليه اسم شعر الشباب والصبا · لا لأن ما فيه ؛ من نظم الطورين الأول والثاني · بل لأن شعر هذين الطورين فيه ؛ أكثر وأظهر · أما شعره في الطور الاول

فظاهر التكلّف، لا تكاد تجد فيه معنى جديداً ولا صورة واضحة مشرقة . وأمّا شعره في الطور الثاني فتخفّ فيه مبالغات الطفولة الأولى والتكلّف فيه أقل وأندر . ولكن شعره في الطور الثالث ؛ ينمّ عن فكر ناضج وعلم غزير باللغة . حتى ليكاد في بعض قطعه يبذّ الجاهليين في إيثار اللفظ الصعب والتركيب الغريب . ولكنه مع ذلك ؛ جميل جذّاب . وليس ذلك غريباً . فقد طال انقطاع أبي العلاء إلى اللغة يدرسها ويدرّسها فنضجت في ذهنه نضوجاً مكتملاً . وحفظ من ألفاظها ما لا نظن أنه تسنّى لغيره حفظه حتى من الذين انقطعوا للألفاظ يحفظونها ويمارسونها كالحريري مثلاً . ولعل هذا ماجعل تلميذه التبريزي يقول : (ما لفظت العرب حرفاً إلاّ كان عند أبي العلاء علمه)

وأما البحوث التي تناولها الديوان فهي :

١ — المدح :

ولم يكن يتكسّب به ولكنه يمرّن شاعريته عليه كنوع من فنون الشعر فقط . مدَح به بعض الأمراء وبعض الشخصيات التي اختلقها خياله . وأجاب بالبعض الآخر على أصدقاء وشعراء مدحوه . وهو في مدحه للشخصيات الكبرى كالامراء ؛ خياليّ بعيد في الخيال والتكلف والمبالغة . وفي شعر المناسبات بينه

وبين أصدقائه ؛ معتدل التكلف . ولكنه يبالغ في كثير من الأحيان بإظهار عواطف الحنين والشوق والإخلاص إلى إخوانه كأنما يتكلف ذلك تكلفاً . يقول طه حسين (إنه إنما نظم هذا النوع من الشعر لأنه كان متأثراً بشيء من هذه العواطف التي تكون بين الأصدقاء) . ولكنا نرى المبالغة واضحة جداً لأنه لا يمكن لمن يكره الناس ويسبهم أشنع سبّ في اللزوميات أن يحبهم هذا الحب في سقط الزند ويشتاق إليهم هذا الشوق . وأغلب الظن ؛ أنه لبراعته في اللغة ولتأثره بالمحيط المتكلف أشدّ تكلّف في عصره ، الذي يشبه في كثير من الوجوه الاجتماعية عصر لويس الرابع عشر في فرنسا ، قد صوّر هذه العواطف الذائبة في شعره بتكلف وبراعة تغشّ القارئ عن فهمه .

٢ — الفخر :

وهو قليل في ديوانه ولكنه قويّ جداً . فقصيدته اللامية:

أَلا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

تعد من القصائد الممتازة في هذا النوع . ولكن حظها من المبالغات عظيم (انظر باب المختارات في آخر البحث عن أبي العلاء)

٣ — الوصف :

الوصف يقتضي البصر . ورجل كالمعري فَقِد هـذا النور الذي يسبغ على المرئيات فينقلها إلى الحسّ ويحللها إلى أجزائها ثم يركبها ؛ لا يستطيع الوصف الصادق . فهو مقلّد فيه للمبصرين لا شك . ولـكنه يجيد وصف المعنويات كالفرح والحزن واللذة والألم أيّما إجادة . غير أنا نجد له أحياناً أوصاف المبصرين الدقيقة كاللون مثلاً ؛ فإنه يضعه مواضعه لا يخطئ فيه أبداً . بل ربما فاق المبصرين بعض الأحيان . يقول :

أن شربوا الراح ؛ فما شربنا في الراح إلا الأزرق البارد

إذا ما اهتاج أحمر مستطيراً (البرق)

حسبت الليـل زنجياً جريحـاً

٤ — الرثاء :

مرثيات المعري التي أنشأها في طوري حياته الأولـين لا تمتاز بشيء عن مراثي سائر الشعراء في عصره . بل ربما زاد عليهم بما تكلّف من ألفاظ وبديع لم يستطيعوا هم التوصل إليها . على أن له مرثية في صديقه أبي حمزة ، تعدّ من عيون الشعر العالمي في هذا النوع . يظهر فيها الألم عاقلاً هادئاً متفلسفاً لا أحمق أرعن لاطماً نادباً . يظهر فيها عقـلُ المعري الشيخ

وتتصوّر فيها آلامه ، وآراؤه في الحياة وفلسفة الموت . . . بثوب شعري رقيق ؛ يكاد يشف عن سرّ الحياة نفسها ومطلعها :

غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنم شادِ

وسنقتطف منها أبياتاً في (باب المختارات) .

٥ — الغزل :

أغرب ما ترى في السقط ؛ للمعري الأعمى ؛ غزلاً كغزل المبصرين . ولكنه فيه متكلف للفن يعانية معاناة صاحب الصنعة . لا معاناه المتأثر الواجد . فشعره في الغزل ؛ كشعره في المديح . يمرّن شاعريته عليه فقط .

٦ — الدرعيات :

هي مجموعة من القصائد طبعت ملحقة بسقط الزند . مع أن المعرّي نفسه ؛ نصّ على أنها كتاب قائم بذاته . يصف فيها الدروع وحوادث تدور حولها كبيع رجل درعه عن حاجة أو امرأة باعت درعاً ورِثته عن زوجها فهي تتحاور مع ولدها عليه . أو مناظرة بين الدرع والسيف . . . والتكلف والغريب ظاهران في هذا الكتاب ظهوراً هائلاً كأنما حاول المعري أن يحشو كل ما عرف من الألفاظ التي تتعلق في هذه الناحية ؛ بهذه القصائد . وهو أول من خصص كتاباً للدرع كما نعلم .

اللزوميات :

هي مجموعة من الشعر الفلسفي الخالص . نثر فيها آراءه في الدنيا والنسل والناس والوعّاظ والمرأة والحكومة والديانات والفلك والعقل والحياة والموت والبعث والجن والملائكة والروح ... بأسلوب صحيح متين ، يميل في غالب الأحيان ، إلى الإبهام والإغراب تقيةً وحذراً كما تحاط الوردة الجميلة بالشوك . والتزم في هذا الديوان ، طريقةً في النظم غريبةً جداً لم يسبق إليها أبداً . فقد رتّب القوافي على الأحرف الهجائية قبل أن يشرع بتأليفه فكل حرف تتعاوره ثلاث حركات وسكون إلاّ الألف فإنها ساكنة أبداً . وعلى هذا ، ففصول الكتاب تكون ١١٣ فصلاً وقد لزم فيه للرويّ حرفان وقيّد نفسه بذلك . مع أن هذا ليس من قيود القافية . وإنما التزمه المعرّي زيادة في إظهار قوته باللغة فقط . فإذا كانت القافية كلمة اسطر لاب مثلاً ، كما في قوله :

أسطرٌ لاب حولهنّ جهولٌ فهو يرجو هدياً باسطر لابِ

جاءت بقية القوافي هكذا : للخلاب . الكلاب . انقلاب . سلاب ...

فكما قيّد أبو العلاء نفسه بقيود لا تلزمه . وكما التزم في

حياته أموراً غاية في القسوة على النفس وقهرها ؛ كذلك التزم في شعره قيوداً ثقيلةً جداً ، مع أنه مسموح له بتجاوزها . بل لم يتبعها شاعر في اللغة العربية غير أبي العلاء . اللهم إلاّ كثيّر عزة فقد أنشأ قصيدة واحدة فقط قبله بأربعة قرون من هذا النوع . وقد وضع للّزوميات مقدّمة بنحو أربعين صفحة من حجم هذا الكتاب بيّن فيها السبب الذي حداه لنظمها على هذا النمط ، وأنه لم يحاول فيها الكذب والمبالغة ؛ بل توخى الصدق والإخلاص . يقول : [قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان الضرير رهن المحبسين . وإنما قال بقضاءٍ لا يشعر كيف هو .

كان من سوالف الأقضية ؛ أني أنشأت أبنية أوراق توخيّت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكذب والميط ... فمنها ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد ... وبعضها تذكير للناسين وتنبيه للرقدة الغافلين وتحذير من الدنيا الكبرى التي عبثت بالأول ... فإن جاوزت المشترط إلى سواه ؛ فان الذي جاوزت إليه ؛ قولٌ عرّي من المين . وجمعت ذلك كلّه في كتاب لقّبته « لزوم ما لا يلزم » ...]

ثم يأخذ بشرح معنى ذلك . ويستطيل إلى بحث القافية ويجول جولة الخبير العالم وينتهي بقوله :

[وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهي مئة وثلاثة عشر فصلاً . لكل حرف أربعة فصول . وهي على حسب حالات الرويّ من ضمٍ وفتح وكسر وسكون . وأما الألف وحدها فلها فصل واحد ؛ لأنها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو القطعتين ليكون قضاء حق للتأليف وبالله التوفيق) ثم يقول ... قال في الهمزة المضمومة مع الباء ـ قال في الهمزة المضمومة مع التاء .. مع الثاء .. وهكذا ـ .

وقد حشا الأمثال السائرة والمصطلحات العلمية والحوادث التاريخية في اللزوميات حشواً . حتى لاتكاد تخلو منها قصيدة . وأكثر القصائد في اللزوميات ؛ قصيرة . بعضها لايتجاوز المقطوعة وأما الألفاظ فغريبة . والمعاني فبعيدة . وإذا وردت كلمة لها معنيان فإنه يفسرهما مثال ذلك قوله :

وكل أديب ؛ أي : سيدعى إلى الردى
من الأدب . لا أن الفتى يتأدب

. . .

فاللزوميات كما رأيت ؛ ليس ديواناً شعريا لأنّ الشعر لايساق بعاطفة فقط . بل هو ديوان فلسفي يزينه العقل والنظر والبحث .

ليست الرسالة إلاّ كتاباً كبيراً ممتعاً كتبه في الرّد على رسالة وردته من أحد أدباء حلب المسمى علي بن منصور والمعروف بابن القارح . وصف له بها الجنّة كما يتصورها أبناء عصره العلماء والعوام بأسلوب متمازج متين . وتمنّى أن يغفر الله له ويدخله إياها مع المعفوّ عنهم . ثم يتخيّله وقد دخل الجنّة فيسير به في متنزهاتها وقصورها ويلتقي بشعرائها ويحاورهم ويحاورونه . وأول ما يلقى أحداً يسأله بِمَ غُفِرَ لك ؟ أو يسأل الهالك حين يقدم على النار : لِمَ لَمْ يغفر لك ؟ . ولكثرة سؤاله عن الغفران ؛ سميت الرسالة بهذا الاسم . ثم يلتقي بشعراء الجن ويروي على لسانهم شعراً غريباً ككلام الجن حقاً . ويطلّ على النار ويحاور بعض من لم يغفر لهم كبشّار ...

وقد اتخذ المعرّي هذه الرسالة ؛ وسيلةً للسخرية ببعض المعتقدات والتهكم بالآراء الدينية . وسخره فيها لاذع ولكنه مُغطى بغشاء صفيق جداً من السجع والغريب . ومستور بالمداورات اللفظية ؛ حتى ليبهم عليك السخر ويظهر أمامك بمظهر المؤمن التقيّ . ويحاول إبراز مقدرة الله وسهره على راحة مختاريه ؛ في تسهيل سبل اللذات والشهوات لأهل الجنة !!...

على أن هذه الرسالة ؛ لم تلاق في عصرها إقبالاً من الناس عليها ولا مقاومةً لها . وذلك لخفاء هذا التهكم المرّ تحت ظواهر الإيمان الملفّق . أما حظ الخيال فيها ؛ فقد اختلف فيه . فغالى بعضهم كطه حسين فقال : إنه عظيم جداً . وقصّر به آخرون كالعقاد فقال : إنه ضئيل جداً . وتوسط فريق آخر بين هذين الحزبين فقال : إن حظ الخيال فيها قيّم . ولكنه ليس بالخيال المنتج الخصب . بل الخيال المصوّر الذي ينشىء في الصور الباهتة ألواناً زاهية . ونحن نميل إلى هذا الرأي . لأن المعرّي لم يبتكر صوَر الجنة ؛ وإنما نقل تصوّر الناس لها فقط . ورسم ما خطته الكتب المقدسة وغير المقدسة وما أنشأه الوعاظ والقصاص . ونفخ في هذه الصوَر ، فإذا هي شيء كامل فيه حياة وفيه قوّة .

أما مصادر الرسالة القريبة ؛ فيطول البحث إذا حاولنا تقصّيها . فقد تعود لأحلام أنبياء بني اسرائيل في الفصل الأخير من التوراة ، ولقصة المعراج ، وللقرآن ، ولأقاصيص التلمود . .

ورسالة الغفران هذه ؛ تشابه قصة (الملهاة الآلهية La Comédie divine) لدانتي الطلياني . (والجنة الضائعة) لملتون الانكليزي . وقد جاءا بعد المعرّي ؛ فحاول كثير من الأدباء

أن ينسب لهما ؛ سرقة فكرة الرسالة من المعرّي . عن طريق ترجمة لاتينية يحدسون أنها وجدت في القرون الوسطى . وكيفما يكون الأمر في رسالة الغفران ؛ فهي الأولى من نوعها في اللغة العربية وهي أول قصة خيالية نقديّة .

آراء المعري

تقديم :

لقد وُصم أبو العلاء في عصره بالزندقة وقيل عنه إنه شاكّ بالله وبالبعث وبالحق . وتعصّب له جماعة فجعلوا منه مؤمناً تقياً ورعاً ووليّاً من أولياء الله . واحتدم الجدل بين الفريقين زمناً طويلاً حتى وصل إلى عصرنا الحاضر . ولا يزال الفريقان إلى الآن في خصومة وجدل شديدين . وقد توسط بين هذين الحزبين ؛ فريق ثالث يأخذ من هؤلاء وهؤلاء ويجعل أبا العلاء مؤمناً إيماناً مبنياً على عقل محض . وأنه شاكّ بالظواهر البعيدة عن العقل . وأنه كان يستخدم عقله وحده في إثبات إيمانه أو شكّه . يقول :

كذب الناس . لا إمام سوى العقل —
مشيراً في صبحه والمساء

فهو يكذّب الناس ويصدق عقله وينقاد إليه .

والذي نراه ؛ أن أبا العلاء ؛ كان عصبي المزاج سريع الغضب ، سريع الرضى مرهف الحواس ، دقيق الملاحظة ، كثير التأثر . وأن هذا المزاج العصبي الحسّاس كان يقوده أكثر من عقله . فهو يستجيب لغضبه ورضاه بسرعة هائلة ، وينشيء الفكرة التي تسيطر عليه في تلك اللحظة فقط . فآراؤه ؛ ليست كلها شكاً لأنّا نراه أحياناً شديدَ الإيمان بالله ، قويّ العقيدة الدينية . ولا كلها عقلاً ؛ لأنا نراه أحياناً جبرياً قدرياً . فليست له عقيدة دينية ثابتة .

أما آراؤه في الهيئة الاجتماعية والفقهاء والمشائخ والجهاز الحكومي والمرأة وحكمه عليهم جميعاً ؛ فقاسٍ كل القسوة . وهو رأي في حكم الثابت .

هذا وقد قسم القدماء البحث في الفلسفة ؛ إلى أربعة أقسام . وهي :

١ — الفلسفة الطبعية

٢ — الفلسة الرياضية

٣ — الفلسفة الالهية

٤ — الفلسفة العمليّة .

وتابعهم بعض المعاصرين على ذلك ، ومنهم طه حسين . فشرح آراء المعري في كل نوع من أنواع هذه الفلسفة شرحاً مستوفى . وأثبت بها أن أبا العلاء فيلسوف حقاً بأعمق ما في هذه الكلمة من معنى . وعارض جماعةٌ هذه الفكرة فقالوا : إن أبا العلاء لا يستحق هذا الاسم لأنه لا يحمل كلٌّ أسسه بالمعنى الذي نفهمه في هذا العصر . يقول فريد وجدي : (فهذه الحالة من التناقض والحيرة ؛ لا تصح أن تكون مذهباً ولا مستمدّة من مذهب ... أما التناقض والحيرة الممزوجة بالتهكم ؛ فلا تصح أن تكون مذهباً . لا مجتمعةً ولا متفرقة ودواوءها البحث والتأمّل .. إني أحب أبا العلاء وأجلّه كشاعر عظيم طبع الشعر بطابع خاص . ولكن لا كفيلسوف ؛ بالمعنى الذي يفهمه أهل العصر الحاضر ...)

ومهما يكن من أمر ؛ فإن لأبي العلاء فلسفةً خاصة في الحياة . كما أن لكل إنسان فلسفة خاصة به في حياته وتفكيره وطريق معيشته . وقد استمد المعري فلسفته : من مطالعاته الخاصة وآلامه والكتب الدينية والفلسفة الهندية واليونانية . ومزج كل هذه العوامل وسكبها في قالبه الخاص ، فإذا هي فلسفة علائية خاصة . وأسلوب علائي خاص . . ونحن لا نرى

ضرورة لهذا التقسيم الذي أخذوا به . خصوصاً وأن لبعض آرائه صبغة فلسفية عميقة لا يمكن فهمها في هذا المستوى الذي نكتب له ، كفكرة المادة والزمان والمكان وامتدادهما . ولكن لا بأس من ذكر مجمل آرائه فيها . فهو يرى المادة قديمة خالدة تتغير أعراضها ولكن جوهرها ثابت . يقول :

فلا يُمْس فخّاراً من الفخر عائد إلى عنصر الفخّار للنفع يضرب
لعلّ إناءً منه يُصنع مرةً فيأكل فيه من أَراد ويشرب
ويُحمل من أرض لأخرى ومادرى فواهاً له بعد البلى يتغرّب !!

فهو بهذا يشبه الخيّام القائل :

وإذا وافيت عشباً زخرفا شفةً من جدولٍ أو فوّفا
لا تعِث فيه عسوفاً متلفا فعساه قد نما بعد البلى
من شفاهٍ مستلذات السماع

وكذلك يرى الزمان والمكان قديمين كالمادة .

المعري والآخرة

يرى المعري في الروح ؛ رأيين مختلفين . فيقول تارة برأي أفلاطون أن الروح جاءت من الملأ الأعلى وحبست في الجسم وستعود إليه بعد فراقها الجسد . يقول :

ياروح كم تحملين الجسم لاهيةً أبليته فاطرحيه طالما لبسا

ويقول طوراً برأي الماديين : أن الموت فيه الفناء ولا بعث :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج. ولكن لا يُعاد لناسبكْ

وينكر التناسخ والجن والملائكة : يقول

قد عشت عمراً طويلاً ماعلمت به حساً يحسُّ لجنيّ ولا ملك

ومن كانت هذه آراؤه فلا يبعد أن ينكر البعث يقول :

فهل قام من جدثٍ ميّتٌ

فيخبر عن مسمعٍ أو مرَى (أي مَرأى)

أما فكرة الإله ؛ فيقبلها . ويتصوّر خالقاً حكيماً قادراً قوي السلطان يقول :

أثبتُ لي خالقاً حكيماً ولست من معشر نُفاةِ

ولكن لا يستطيع تحديد إدراكه له . يقول :

أما الإله فأمرٌ لست مدركه

فاحذر لجيلك فوق الأرض إسخاطا

ولذلك صعب عليه أن يقبل وجوده خارجاً عن الزمان والمكان لأنه يعتقد بامتدادهما وأبديتهما يقول :

قلتم لنا : خالق قديم قلنا : صدقتم . كذا نقول

زعمتموه ؛ بلا زمان ولا مكان ! ! ألا فقولوا :

هذا كلام له خبيءٌ معناه ؛ ليست لنا عقول

فاعتقاد أبي العلاء؛ مبنيٌ على تفكّر وعقل، لا على إيمان ساذج بسيط. لأنه لا يعترف بسلطان غير سلطان العقل في جميع عقائده وأفكاره. يقول:

جاءت أحاديث إن صحّت فإن لها ... شأناً. ولكن فيها ضعف إسناد
فشاور العقل واترك غيره هدراً ... فالعقل؛ خير مشيرٍ ضمّه النادي

المعري والديانات:

أبو العلاء ينكر النبوات جملةً. ويرى الأنبياء ماكرين وساسة ولصوصاً يقول:

أفيقوا أفيقوا ياغواة فإنما ... دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام، فأدركوا ... وبادوا. وماتت سنّة اللؤماء

ويقول:

أتى عيسى فأبطل دين موسى ... وجاء محمدٌ بصلاة خمس
وقيل يجيء دين بعد هذا ... فأودى الناس بين غدٍ وأمس
إذا قلتُ المحال؛ رفعت صوتي ... وإن قلت الصواب؛ أطلت همسي

ويقول:

اثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا ... دين. وآخر دينّ لا عقل له

ويقول:

إذا رجع الحصيف إلى جحاه ... تهاون بالشرائع وازدراها

ثم بعد كل هذه الحملة الشديدة على النبوات والديانات ؛ يمدح الإسلام ويعتقد بأنه وحي من الله ويمدح محمداً . يقول :

وإن لحق الإسلام خطبٌ يغضّه ... فما وجدت مثلاً له نفس واجدِ

ويقول :

دعاكم إلى خير الأمور محمدٌ ... وليس العوالي في القنا كالسوافل

فكيف نوفّق بين هذين الرأيين المتناقضين ؟!

نعود إلى رأينا الأول فيه ؛ من أنه كان عصبي المزاج سريع التأثر ، ينظم الفكرة استجابةً لأثر حادٍ . ومتى زال ؛ زالت معه الفكرة . فإذا تغيّر المؤثر ؛ تغيّرت الفكرة . ولذلك ترى له كثيراً من المتناقضات في كل الآراء تقريباً . وهو نفسه يقول :

ويعتري النفس إنكارٌ ومعرفةٌ ... وكل معنى له نفيٌ وإيجاب

المعري والناس

المعرّي يكره الدنيا ويذمّها ويسميها أم دفر . يقول :

خسئت يا أمنا الدنيا فأفّ لنا ... بنو الخسيسة أوباشٌ أخسّاءُ

ويقول :

وأم دفرٍ لعمري شرّ والدةٍ ... وبنتها أم ليلى شرٌّ مولودة

ولا يرى أبناء الدنيا خيراً منها . فهو يتحامل عليهم ويرسمهم بأشنع صورة ويرميهم بكل مخزية يقول :

يجرّون الذيول على المخازي وقد مُلئت من الغشّ الجيوبُ

ويسميهم كلاباً :

دعوا ما فيهم زاكٍ ولا أحدٌ يخشى الإله فكانوا أكلباً نبحا

ولا يرى فيهم أحداً جيّداً :

قالوا فلان جيدٌ لصديقه لا يكذبوا ما في البريّة جيدُ

فأميرهم ؛ نال الإمارة بالخنا وتقيّهم ؛ بصلاته متصيّد

أما مشائخهم فمنافقون . يقول :

وليس عندهم دينٌ ولا نسك فلا تغرّك أيدٍ تحمل السبحا

ونسّاكهم شياطين . يقول :

تداعوا فقالوا ناسك وابن ناسكٍ وما هو إلا مارد وابن مارد

ووعّاظهم كاذبون محتالون . يقول :

ويدك قد غررت وأنت حرٌّ بصاحب حيلةٍ يعظ النساءَ

يحرّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمدٍ مساءَ

ولا يرى التقى الحقيقي ؛ إلاّ في ترك الشرّ . ويهزأ بالزاهدين السخفاء والمتصوفين فيقول :

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له ولا صلاةٌ . ولا صوف على الجسدِ

وإنما هو : ترك الشرّ مطّرحاً

ونفضك الصدرَ من غلٍّ ومن حسد

وشعراؤهم ذئاب . يقول :

وما شعراؤكم إلا ذئاب تلصّصُ في المدائح والسّباب

ويرى الأمراءَ للناس خدماً . فلماذا يستبدون بأموالهم وحرياتهم؟ ! يقول :

ومن شرّ البليّة ربٌّ ملك يريد رعيّةً أن يسجدوا له

ويقول :

مُلَّ المقامُ فكم أعاشر أمةً أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعيةَ واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها !! وهم أجراؤها

ويتهكّم بالسياسة والقادة فيقول :

يسوسون الأمور بغير عقلٍ وينفذ أمرهم فيقال ساسة !!

ولكنه يعود فيرى ظلم الملوك ؛ شيئاً طبيعياً وضرورياً ، فيقول :

وأخشُ الملوكَ وياسِرها بطاعتها فالملك للأرض مثل الماطر الساني

إن يظلموا ؛ فلهم نفعٌ يعاش به وكم حموك برجلٍ أو بفرسان

وهذا الاختلاف بالرأي ؛ نُحيله على ما قررنا سابقاً من أمر مزاجه العصبي والشعور المرهف بالمؤثرات الحادّة .

المعري والمرأة :

المعرّي يكره المرأة ويراها شيطاناً رجيماً تفسد حتى الطفل الوليد يقول :

إذا بلغ الوليدُ لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليدُ
ألا إن النساء حبال غيٍ بهنّ يضيّع الشرف التليد

ويرى أن بدء السعادة للرجل ؛ أنه لم يخلق امرأة . وأن ولادة البنت مصيبة لأنها تتعب والديها بتربيتها ثم متى كبرت تريد حلياً وبعلاً ويُصرف عليها جهدٌ عظيم في السلم ولا تفيد في الحرب شيئاً إلا البكاء والعويل . يقول :

وإن تعط البنات فأي بؤس تبيّن في وجوهٍ مقسمات
يُردن بعولةً . ويردن حلياً ويلقين الخطوب ملوّمات
ولسن مدافعات يوم حرب ولا في غارةٍ متغشّمات

ولذلك ؛ لا يرى فائدة من تعليم البنات العلم ، ويرى أن يعلّمن النسج والطبخ والخياطة فقط فهو أجدى عليهن . يقول :

ولا تحمد حسانك إن توافت بأيدٍ للسطور مقوّمات
فحمل مغازل النسوان أولى بهنّ من اليراع مقلّمات

وإذا كان لا بد من تعليمهن فـ :

ليأخذن التلاوةَ عن عجوزٍ من اللائي فقرن مهتّمات

ولا يدنين من رجلٍ ضريرٍ يلقنّهن آياً محكمات

سوى من كان مرتعشاً يداه ولمته من المتثغمات

لذلك ؛ لا يرى للمرأة أن تغشى الاجتماعات وتذهب إلى الحمام وتزور المنجمين . أما الزواج والنسل ؛ فلا يرى له لزوماً أبداً . وإن كان لابد من النسل فلا فرق عنده بين الابن الشرعي والطبيعي . يقول :

فسيّان مَنْ أمُّه حرّة حصانٌ ، ومن أمّه زانية !!

ثم يعود فيقرّر أن الغريزة الجنسية في الرجل والمرأة شيء طبيعي لابدّ منه . والزهد فيها مخالف للطبيعة :

والمرء ليس بزاهدٍ في غادةٍ لكنه يترقب الإمكانا

ويناقض نفسه ؛ فيرى الاسراع بتزويج البنت ونُصح الصبي بعدم الزواج يقول :

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعيها وخوّف ابنك من نسل وتزويج

وعلى كل حال ؛ فالعاقر خير من الولود . وهذا التناقض نحيله أيضاً على الرأي الذي قررناه في مزاجه العصبي .

المعري الزاهد :

صُبت المصائب على المعرّي منذ كُفَّ بصره ثم مات والده ولحقته والدته فأصبح وحيداً . وطمح للمعالي فعاقه فقرُه وحسدُ

الناس . فامتلأ ألماً وحقداً . ولم يستطع الانتقام من الحياة إلاّ باحتقارها وازدرائها . فزهد فيها نقمةً وثورةً . لا حباً بالآخرة ولا طمعاً بالجنة . يقول :

حورفتُ في كل مطلوبٍ هممت به حتى زهدت فما خُلّيت والزهدا

وهو في زهده ؛ لا يختلف عن الخيّام أو أبي نواس إلا في الطريقة فقط . فهما احتقرا الحياة فسخرا بها وأغرقاها بالخمر واللذة وهو ازدراها بالابتعاد عن رجسها . على أن زكي مبارك يشك بزهد المعري في الدنيا . ويرى أنه لو زهد فيها حقاً ؛ لما تكلّف لها ما تكلف غيره من الأدباء المعاصرين . ولما حرصَ على آثاره هذا الحرص الشديد . ولما ثار على المجتمع هذه الثورة الهائجة فسجّل مخازيه ومآثمه . وأنه لم يبح لنفسه أكل لحم الحيوان ولكن نهش لحم الإنسان ... وهذا الرأي ؛ صحيح لا اختلاف بينه وبين ما قدّمنا ، إلاّ في فهم كلمة الزهد ومداها . ومهما يكن من أمر ؛ فقد زهد أبو العلاء بلذائذ الحياة لفقره على الغالب وضعف صحته وعماه . وامتنع عن أكل الحيوان وما يخرج منه فلم يذق اللبن ولا العسل ولا اللحم ومنع الناس كذلك عنها ... وردّد الفكرة كثيراً في لزومياته . وأشهر قطعه ؛ قصيدته التي مطلعها :

غدوت مريض الدين والعقل فالقني لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وسنقتطف منها قليلاً في باب المختارات . ووقعت هذه القصيدة في يد داعي الدعاة الفاطمي أبي نصر بن عمران . وحدثت بينه وبين المعري على إثرها مراسلات؛ سأله فيها عن سرّ امتناعه عما حلّله الله بالدليل العقلي والنقلي . فكان المعري يتهرّب من الجواب بلباقة . ويدور حول البحث ويغشيه بالسجع والبديع ليضيع الفكرة والمناظرة واعترف أخيراً بأنه إنما فعل ذلك لفقره فقد كان يملك ثلاثين ديناراً يعطي نصفها لخادمه ويبقى له النصف فكيف تكفيه .

المعري العالم وأسلوبه

أنشأ المعرّي شعره في كل فن من فنون الفلسفة ، وفي كل علم من العلوم المعروفة في زمنه . كأنما أحاط بعلوم عصره كلها فهماً وتدقيقاً فهو إذ ينشيء عن الرياضيات مثلاً ؛ لاتشعر أنه دخيل عليها . وفي الفلك ؛ يتكلم كالمبصرين المدققين في حركات الكواكب . وهذان العلمان ؛ أبعد مايكون عن ذهن الشاعر أو الأديب . فلا يستبعد إذن أن يجول في غيرهما من فنون الكلام مما له اتصال بنفسه كالفلسفة واللغة والصرف والنحو والعروض والفقه .

يقول في الحساب :

سمـا نفرٌ ضرب المئين ولم أزل

بحمدك ؛ مثل الكسر يضرب في الكسر

فهو يعرف أن الضرب بالعدد الصحيح ؛ يزيد القيمة من جهة الموجب والضرب بالكسر ؛ يزيدها من جهة السالب . فيسكبها في شعره بهذه الألفاظ السمحة التي تنفي عنها طبع الرياضيات الغليظ . ويقول في الفلك :

رجوتم إماماً في القران مضللاً فلما مضى ؛ قلتم إلى سنوات

يشير بهذا البيت إلى قران المشترى بزحل في برج واحد ومعنى القران في الفلك ؛ لايدركه إلا دارس هذا الفن . وقد أكثر من ذكر أسماء النجوم ومواقعها في شعره خصوصاً في اللزوميات .

أما اللغة ؛ فقد بلغ بها شأواً بعيداً مانظن أن أحداً جاراه فيها فقد يردّ على أصحاب المعاجم ويناقشهم مناقشة العليم الخبير كأنما أحاط بكل ألفاظ اللغة وأساليبها . وفي القصة التالية صورة من قدرته :

يجتمع في رسالة الغفران ؛ خلف الأحمر بأصحابه فيسألهم عن بيتي النمر بن تولب :

ألمّ بصحبتي وهم هجوع خيال طارق من أمّ حصن

لها مانشتهي عسلاً مصفى إذا شاءت وحواري بسمن

فيسألهم ماعسى أن تكون قافية البيت الثاني لو أن قافية البيت الأول : (أم حفص) ؟ فسكتوا فقال خلف : (حوارى بلمص) وينتهز أبو العلاء هذه الفرصة فيفرّع القافية الأولى على جميع حروف المعجم ويأتي بأسماء أطعمة لها على الحروف نفسها في القافية الثانية . وهذه قدرة عجيبة ؛ لاشك فيها . ومهارةٌ على اللعب بالكلمات والحروف ، لا مثيل لها .

نراه يلعب باللغة كما يهوى . ولكن خياله المولّد المبتكر ضئيل . والسبب في ذلك ؛ أن الخيال لا يستند على السمع وحده . بل يتكئ على الحواس كلها ، والبصر منها بصورة خاصة ولما كان أبو العلاء محروماً من هذه الحاسة ؛ فقد كان كل توليده للأخيلة من حفظه . أو تقليداً للمبصرين أو تقليباً للألفاظ على المعاني والمعاني على الألفاظ ؛ حتى تستقيم له صورة جديدة . وهذا مارماه في التكلّف حتى قيّد نفسه بأنواع الألاعيب البديعية والجناس منها بصورة خاصة . فجاء شعره جافياً في بعض الأحيان . مثال ذلك قوله :

ما قرّ طاسك في كفّ المدير له
إلاّ وقرطاسك المرعوبُ مرعوبُ

البابليّة . باب كلِ بليّةٍ فتوقّينّ هجوم ذاك الباب

ودنياك إن قلّت أقلّت وإن قلَت فمن قلتِ في الدين نجّت وعلّت
غلت وأغالت ثم غالت وأوحشت
وحشّت وحاشت واستحالت وملّت

من لا يَسُدُّ ويُسْدِ في حنادسه ويُسدِ خيراً إلى العافين لا يَسدِ

وله ولع خاص بجعل الكلمات المتجانسة في أول البيت وآخره كأنه يريد أن يحبك بها البيت حبكاً كقوله :

ولعجبها ما قرّبت مرآتها نزّهت خلّي عن مقالي عُج بها

وقد يلعب أحياناً بالكلمة الواحدة فيقطعها إلى حروفها كقوله:

فهذا بعين وزاي يروح وذاك يئوب بضاد ورا ?!

وقد يبلغ به أحياناً الزهو بعلمه أن يستعمل ألفاظاً فارسية شائعة في عصره ولا يرى أنها تعيب شعره كقوله :

متى أداكِ خيرٌ فافعليه وقولي إن دعاك البرُّ : ارا

وكلمة (آرا) فارسية معناها : نعم .

ويستعمل كلمات غريبة جداً كقوله :

عفوك للعالم لأتخلين حنبظةً منه ولا عنظبة

يمرُّ بك الزمان الدغفليُّ وكم فيه من رجل أسنّتا

وقد ينظم البيت على وزن موسيقي متّسق ويقطعه بفواصل تشبه فواصل التوشيح كقوله :

أهل الحياة ؛ كإخوان الممات ، فأه

ون بالكماة ، أطالوا السمر والعذبا

تفريهم بسيوفها ، وتكبّهم برماحها ، وتنالهم بصيابها

كرارةٌ أحزانها ، ضرّارة سكّانها ، مرّارة ساعاتها

فروائح وبواكر ومعارف ومناكر وحواضر وبواد

أما النحو والصرف والعروض ؛ فمنبثٌّ في شعره بغزارة وفيض وكثيراً مايشبّه بها كقوله :

كالبيتِ أفرد . لا أيطاء يدركه ولا سناد ، ولا في اللفظ إقواء

إذا مات ابنها صرخت بجهلٍ وماذا تستفيد من الصراخ ؟

ستتبعه كعطف الفاء ، ليست بمهلٍ . أو كثُمَّ على التراخي

وهو يعرف قيمة نفسه تمام المعرفة . يقول :

فاسمع كلامي وحاول أن تعيش به فسوف أعوز بعد اليوم طلاّبي

مقارنات :

حياة أبي العلاء وآراؤه ؛ لها وجوه متعدّدة فمن أي جهة

درستها ؛ وجدت لها شبهاً بجبابرة العقل . وقد كثرت المقارنات بينه وبين المتنبي والخيّام وشوبنهور ودانتي .

ولكنه لا يشبههم من جميع الوجوه بل يشاركهم في بعض الصفات . وأقربهم شبهاً منه ؛ هو شوبنهور . فقد عاش متشائماً حياته كلها وحرّم على نفسه ما حرّم أبو العلاء . وعاش عيشةً شبيهة بجبّار المعرّة حتى قيل : إن روحه تقمصت فيه. والسبب في تشاؤم الرجلين ؛ هو هذه الفوضى السياسية والأخلاقية التي عاشا في غمارها . فأبو العلاء ؛ عاش في زمن الحروب والثورات المتمادية بين العبيديين والحمدانيين والبدو وما استتبعت من سوء أخلاق اجتماعية . وشوبنهور عاش في المانيا بعد اكتساح نابليون لأوربا وما استتبعت حروبه من مفاسد وشرور . فأبو العلاء ؛ يمثل عصره المتشائم كما يمثل شوبنهور عصره المتشائم أيضاً .

هذا والمقارنة بين أبي العلاء وأشباهه من عظماء الفلاسفة والشعراء تحتاج إلى فصل طويل جداً لا يناسبه هذا الكتاب المدرسي.

آخر أيام أبي العلاء :

عاش المعرّي زاهداً في الحياة ، يتمنى الموت وينتظر قدومه في كل حين ليريحه من تشاؤمه وعذابه وآلامه .

كان يرى أن اسمه خطأ فهو مشتق من الحمد وكان الأجدى أن يشتق من الذم، وكنوه بأبي العلاء فما أعجبه لأنه كان يرى نفسه أبا النزول ! !

دعيت أبا العلاء . وذاك مين ولكن الصحيح ؛ أبو النزول

وقد يتألم أحياناً ويغضب فيتطاول على ذات الإله ؛ يقول:

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً وترزق أحمقا
فلا ذنب يارب السماء على امرئ رأى منك مالا يشتهي فتزندقا

على أنه لو أراد الدنيا ؛ لجاءت إليه طائعة . ولكن إباءه وعزة نفسه أبعدته عنها . وقد كان شديد الحذر من كلام الناس . شديد الحياء . شديد الخوف من نقدهم . ولذلك ما كان يظهر لهم إلا بالمظهر النظيف اللائق ولا يأكل إلا وحيداً في نفق حتى لا يراه الناس كيف يأكل . وقد عرض عليه في آخر حياته داعي الدعاة أن يتوسط له براتب من الحكومة يصرف له معونة على الحياة ؛ فأبى ؛ لأنه كان يرى المال واسطة للشرور لا للراحة يقول :

المال يسكت عن حق . وينطق في بطل . وتخضع إكراماله الشيع
وجزية القوم ؛ صدت عنهم فغدت مساجد القوم مقروناً بها البيع

وما زال قابعاً في منزله حتى بلغ من العمر ٨٦ عاماً حيث

وافاه الأجل في ١٣ ربيع الأول عام ٤٤٩ هجرية ودفن في غرفته بعد أن عالج المرض ثلاثة أيام فقط . وأوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيتُ على أحد

إشارة إلى صومه عن الزواج طول عمره . ولكنا لم نجد هذا البيت على شاهدة قبره . فلعلّ القصة غير صحيحة . أو أنها ذهبت فيما ذهب من توالي التخريب والتهديم على المعرة .

وما انتشر خبر وفاته حتى ضجت البلد بذلك وقدم ناس من البقاع المجاورة لحضور جنازته . ورثاه على قبره ٨٤ شاعراً كما يذكرون . ! !

لقد طال تشوّق أبي العلاء لهذه النهايه . فماذا وجد بعد الحياة يا ترى ؟ !

مختارات

تقديم :

نختار في هذا الفصل ؛ ما يصوّر المعري في جملة نواحيه ليتم الاطلاع بها على روحه ونفسه وأسلوبه . ولا نختار أجمل ما نظم وأحلى ما نسّق . لأن هذا ؛ لا يوضح لنا المعرّي . ولذلك فإنك سترى هذا الفصل لا ترتيب فيه لأنه لا محال للترتيب والتنسيق فهو كحياة أبي العلاء كل ساعة هو في شأن وعقيدة وفكرة .

مبالغة :

ولو وطئت في سيرها جفنَ نائم ... بأخفافها ؛ لم ينتبه من منامه

تكاد سيوفه من غير سلٍّ ... تجدُّ إلى رقابهم انسلالا
ولو أن الرياح تهب غرباً ... وقلت لها : هلا ! هبّت شمالا !!
وأقسم لو غضبت على ثبير ... لأزمع عن محلّته ارتحالا

يذيب الرعبُ منه كلّ عضب ... فلولا الغمد يمسكه ؛ لسالا

غزل !

لغيري زكاة من جمالٍ . فإن تكن ... زكاة جمالٍ ؛ فاذكري ابن سبيل

منك الصدود ومنّي للصدود رضا ... من ذا عليَّ بهذا في هواك قضى ؟
بي منك ما لو غدا بالشمس ؛ ما طلعت
من الكآبة . أو بالبرق ؛ ما طلعا !!

هل تعلم بحروف نافرة ! ؟

كأن منجّم الأقوام أعمى لديه الصحف يقرؤها بلمس

الناس :

لو غُربِل الناس كيما يعدموا سقطاً

لما تحصّل شيءٌ في الغرابيل

الناس للناس من بدوٍ ومن حضرٍ

بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

أفضل من أفضلهم صخرةٌ لا تظلم الناس ولا تكذب

وكل حيٍّ فوقها ظالمٌ وما بها أظلم من ناسها

فوضى :

إن العراق وإن الشام مذ زمنٍ صفران ما بهما للملك سلطانُ

ساس الأنام شياطين مسلّطةٌ في كل مصرٍ من الوالين شيطان

دعي وذري الأقدار تمضي لشأنها فلم تحمِ ملكاً ، لا دمشق ولا مصرُ

شرائع :

إذا رجع الحصيفُ إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

وينشأ ناشيءُ الفتيان منا على ما كان عوّده أبوه

وما دان الفتى بحجىً ولكن يعلّمه التديّن أقربوه

أنهيتَ عن قتل النفوس تعمّداً وبعثت أنت لقتلها مَلكين
وزعمتَ أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحالين ؟ !

دين وكفرٌ وانباءٌ تقصُّ — وقرآن ينصّ وتوراة وإنجيل !!
في كل جيلٍ أباطيل ملفقةٌ فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل ؟!

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً وأورثتنا أفانينَ العداوات
وهل أُبيحت نساءُ الروم عن عُرضٍ للعُرب إلا بأحكام النبوّات ؟!

أما الحياة فلا أخشى نوافلها لكنني لإلهي خائف راجِ

عجبي للطبيب يلحد في الخالق — من بعد درسه التشريحا

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجسام. قلت: إليكما
إن صحّ قولكما؛ فلست بخاسرٍ أو صحّ قولي ؛ فالخسار عليكما

المرأة والزواج :

ودفن الغانيات لهنّ أوفى من الكلل المنيعة والخدور

ولحبِّ الصحيح آثرت الرومُ — انتساب الفتى إلى أمهاته

علموهن النسجِ والغزل والرد — ن وخلّوا كتابةً وقراءة

العيش ماضٍ فأكرم والديك به والأمّ أولى بإكرام وإحسان
وحسبها الحمل والإرضاع تدمنه أمران بالفضل نالا كلّ إنسان

وجنّتك الأولى عروسك وافقت رضاك . فإن أجنتك ؛ فاجن ثمارها

وواحدة كفتك ، فلا تجاوز إلى أخرى تجئ بموئلمات

نصحتك لا تنكح ، فإن خفتَ مأثماً

فأعرس . ولاتنسل فذلك أحزم

ولا يتأهلنْ شيخٌ مُقلٌ بمُعْصِرَةٍ من المتنعّمات

فإن الفقر عيبٌ . إن أضيفت إليه السن ؛ جاء بمعظمات

نقمة :

لا تقيدّ عليّ لفظي فإني مثل غيري تكلمّي بالمجاز

وليس على الحقيقة كل قولي ولكن فيه أصناف المجاز

واصمت فإن كلام المرء يهلكه وإن نطقت ؛ فإفصاح وإيجاز

أنبياء :

ولا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطّروه

وكان الناس في عيش رغيدٍ فجاءوا بالمحال فكدّروه

اشتراكية :

كيف لا يشرك المضيقين في النعمة قومٌ عليهم النعماء ؟

وقد رفق الذي أوصى أناساً بعشرٍ في الزكاة ونصف عشر

الميت :

تكرّمُ أوصالُ الفتى بعد موته وهنّ إذا طال الزمان ؛ هباء
فأعجب لتحريق أهل الهند ميّتهم وذاك أروح من طول التباريح
إن حرّقوه ؛ فما يخشون من ضبعٍ تسرى إليه . ولا خفيٍ وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا غيًّا . وأذهب للنكراء والريح

العمل الجميل :

فلتفعل النفسُ الجميلَ لأنه خيرٌ وأحسنُ . لا لأجل ثوابها

العزّ : (وثبة من العقل الباطن)

وإن العزّ في رمح وترس لأظهرُ منه في قلمٍ ودرج

نُسك :

تنسّكت ، بعد الأربعين ضرورةً ولم يبق إلاّ أن تقوم الصوارخ
فكيف ترجي أن تثاب وإنما
يرى الناس فضل ؛ النسك والمرءُ شارخ

آدم :

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدمٌ على إثر آدم
وأوادم الزمن الطويل كثيرة وأوادم الطعم الشهي أواد

جبري :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمرٍ سبّبته المقادر
فقل للغراب الجون إن كان سامعاً أ أنت على تغيير لونك قادر؟

رثاء والده :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن
فلا جادني إلاّ عبوس من الدّجن
فليت فمي إن شام سنّى تبسمي فم الطعنة النجلاء تدمى بلا سنّ
كأن ثناياه أوانس يبتغى لها حسن ذكر بالصيانة والسجن
أبي حكمت فيه الليالي ولم تزل رماح المنايا قادرات على الطعن
فيالیت شعري هل يخفّ وقاره؟ إذا صار أحدٌ في القيامة كالعهن!!
وهل يردُ الحوضَ الرويّ مبادراً
مع الناس أم يخشى الزحام فيستأني
حجا زاده من جرأة وسماحةٍ وبعض الحجا يدعو إلى البخل والجبن
ونادبةٌ في مسمعي كلّ قينةٍ تغرّد باللحن البريء من اللحن

نبالي :

غدوت مريض العقل والدين · فالقني
لتسمع أنباءَ الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح

ولا بيضَ أمّاتٍ أرادت صريحةً لأطفالها دون الغواني الصرائح
ولا تفجعنَّ الطير وهي غوافل بما وضعت فالظلم شرُّ القبائح
ودع ضَرَب النحل الذي بكرت له
كواسب من أزهار نبتٍ فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدي من كل هذا فليتني أبهت لشأني قبل شيب المسائح !!
بني زمني ! هل تعلمون سرائراً علمت ولكني بها غير بائح !!
متى ما كشفتم عن حقائق دينكم تكشفتم عن مخزيات الفضائح
ويعجبني دأبُ الذين ترهبّوا سوى أكلهم كدّ النفوس الشحائح
وأطيب منهم مطعماً في حياته سعاة حلالٍ بين غادٍ ورائح
فما حبس النفسَ المسيحُ تعبّداً ولكن مشى في الأرض مشية سائح
وما ينفع الإنسان أن غمائماً تسحُّ عليه تحت إحدى الضرائح

رثاء ابي حمزة :

غيرُ مجدٍ في ملّتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنّم شاد
أبكت تلكم الحمامة · ام غنّت على فرع غصنها الميّاد ؟!
صاح ! هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد
خفّف الوطء ما أظن أديم الأرض إلاّ من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهد — هوان الآباء والأجداد

سرٌ إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العباد
ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين ... في طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدين عمّن أحسّا ... من قبيل وآنسا من بلاد
تعبٌ كلها الحياة . فما أعجب إلا من راغبٍ في ازدياد !!
إن حزناً في ساعة الموت أضعاف سرورٍ في ساعة الميلاد
خُلِق الناس للبقاء . فضلّت ... أمةٌ يحسبونها للنفاد
إنما ينقلون من دار أعمالٍ إلى دار شقوةٍ أو رشاد

في سبيل المجد :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل ... عفافٌ وإقدام وحزم ونائل
تعدّ ذنوبي عند قومٍ كثيرة ... ولا ذنب لي إلا العلى والفضائل
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم ... باخفاء شمسٍ ضوءها متكامل
يهمُّ الليالي بعض ما أنا مضمرٌ ... ويثقل رضوى دون ما أنا حامل
وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل
وأعدوا ولو أن الصباح صوارم ... وأسري ولو أن الظلام جحافل
وإنّي جواد لم يحلّ لجامه ... ونضو يمانٍ أغفلته الصياقل
وإن كان في لبس الفتى شرفٌ له ... فما السيف إلا غمده والحمائل
ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي ... على أنني بين السماكين نازل
لدى موطن يشتاقه كلّ سيّدٍ ... ويقصر عن إدراكه المتناول

مراجع هذا البحث

١ — لزوم مالا يلزم

٢ — سقط الزند

٣ — رسالة الغفران

٤ — رسائل بين المعري وداعي الدعاة

٥ — تجديد ذكرى ابي العلاء لطه حسين

٦ — أبو العلاء وما إليه للراجكوتي

٧ — معجم الأدباء لياقوت

٨ — انباه الرواة للقفطي

٩ — دائرة المعارف الإسلامية

١٠ — رجعة أبي العلاء للعقاد

١١ — الموازنة بين دانتي والمعري لقسطاكي حمصي

١٢ — مطالعات العقاد

١٣ — مجلة الهلال عدد خاص

ابن زيدون

بدوي

تاريخ

فتح الأندلس :

شقّ المسلمون الطريق في شمالي افريقيا من الشرق إلى الغرب كما تشقّ السفينة حبابَ الماء بجيزومها وتترك خلفها أثراً واضحاً على أديم الخضمّ ولو كان مائجاً . وانثالت الجيوش المسلمة إلى الأندلس بقيادة طارق وموسى ؛ فأنشأت ولاية في أوروبا على أنقاض دولة القوط المتفككة . ترتبط بدمشق عاصمة الدنيا في القرن الأول الإسلامي . ثم دُعي موسى وطارق إلى دمشق وولي عبد العزيز بن موسى فقتل بدسيسة سليمان بن عبد الملك . وتولى بعده ولاة متعددون ؛ بعضهم كانت تعيّنهم دمشق وبعضهم يعينهم عمال افريقيا . وكان أشهر ولاة الأندلس عبد الرحمن الغافقي الذي دخل فرنسا ووصل إلى تور . ولكن وقعت عليه الواقعة عام ١١٤ هجرية أمام شارل مارتل في بواتيه وهي لا تبعد عن باريس أكثر مما تبعد دمشق عن حلب أي نحو ٤٠٠ كيلو متراً تقريباً . فقتل وعادت جيوشه إلى الأندلس وتحصنت وراء جبال البيرانه (البرنس) .

العرب والبربر :

فتحت بلاد الأندلس بجيوش يؤلف العدد الأعظم منها سكان شمالي افريقيا البرابرة . ولكن العرب استبدوا دونهم بالحكم والسيطرة فدفعهم الحرمان من الحكم ؛ إلى الكيد والثورات . وهل كان خذلان الجيوش المسلمة في بواتيه إلاّ بتخاذل البربر ودسائسهم ؟ ! وقد ثاروا في بلاد المغرب وثاروا في الأندلس على الشاميين والمصريين وقتلوا منهم عدداً وفيراً . وما زالت الفوضى ؛ حتى قبض على ناصية الحكم يوسف الفهري يعاونه الصُميل بن حاتم . وحدث أن أجدبت الدنيا ووقعت مجاعة عظمى فاستكان الناس من الجوع وهجر قسم عظيم من البربر الأندلسَ ؛ فاستراحت ولكن إلى حين .

فعطائي وعدنائي :

سمع الشاميون والمصريون بعد فتح الأندلس بكنوزها وثروتها فانثالوا إليها من كل حدب وصوب ، وأسسوا مستعمراتهم الزراعية والتجارية فيها . ونقلوا نشاطهم الشرقي إلى الغرب فأحدثوا حركة أنعشت اقتصاديات البلاد . فسُرَّ بهم السكان الأصليون . وأعجبهم عدل حكامهم المسلمين وفضلوهم على ملوكهم السابقين ورضوا بهم وعاشوا معهم باطمئنان .

وكانت المنافسة بين القيسية واليمنية في الشام ؛ قد بلغت مداها . والمشاحنات والخصومات وحبّ الزعامات والرئاسات في أقصى حدودها . فحمل المهاجرون هذه البذرة الخبيثة معهم من الشرق . فنمت وترعرعت في الغرب . وكانت سبباً لحروب وثورات ومشاغبات هُدرت فيها دماء ودكت عروش وأقيمت سلطنات حتى آلت بهم إلى الخذلان المعيب والتفكك . فطردوا من الأندلس شرّ طردة ، وعوملوا أقسى معاملة من الأسبانيين عام ٨٩٧ هجرية .

صقر قريش :

هدمت الدولةُ العباسية الدولةَ الأموية عام ١٣٢ هجرية وتتبعت ملوكهم وزعماءهم ومن ينتمي إليهم فشردتهم في الأرض وقتلتهم فرادى وجماعات ؛ حتى لم يعد يستطيع أحدٌ أن يؤوي أموياً . وفرّ شاب منهم اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان . فرّ إلى افريقيا وما زال يطوي الليل سارياً والنهار مستخفياً حتى وصل إلى سَبتْه . ونزل على أخواله من بني نفزه وهم قوم من البربر . فأحسنوا ضيافته وحموه . وكانت الأندلس ؛ في فوضى بين القيسية واليمنية ، يحكمها يوسف الفهري ، وهو مكروه من اليمنية لعصبيته العدنانية ولشدته عليهم

وقد قتل بعض زعمائهم غدراً لمّا طلبوا أن يكون الملك سنةً لليمنية وسنةً للعدنانية . فانتهز عبد الرحمن هذه الفرصة ؛ وأنفذ مولاه بدر إلى موالي المروانية في الأندلس وكانوا حول ٥٠٠ تقريباً . واتفق مع اليمنية . وساعده أخواله وهم بربر نكاية بالعرب . وكانت الدعوة العباسية لم تقوَ بعد في الأندلس ؛ فحشد القبائل الموالية له وهاجم الفهري في قرطبة فقتله وقتل مساعده الصميل واستولى على الأندلس بلدة بعد بلدة . وأسّس حكومة جديدةً سميت بحكومة أميّة في الغرب . وقطع كلّ علاقة لها بالشرق . وأعلن استقلاله التام عام ١٣٨ هجرية . فلما سمع أبو جعفر المنصور بهذه الحكومة وبهمة عبد الرحمن في تأسيسها قال : هذا (صقر قريش) . ولكنهم في الغرب لم يسموه إلا عبد الرحمن الداخل لأنه دخل الأندلس وحده فأسّس بهمته وعبقريته دولة دامت قروناً .

الدولة الأموية في الغرب :

ملك صقر قريش ٣٤ عاماً كانت مثالاً للهمة والعمل والنشاط وقد بنى مدينة الرصافة على نسق الرصافة التي بناها جدّه ؛ في الجنوب الشرقي من حلب . وتداول الملك أعقابه بعده وأشهرهم عبد الرحمن الثالث . وقد حكم خمسين عاماً

كانت صورة عن أيام صقر قريش همة ونشاطاً وعمارة وبنياناً وقد أخضع الزعماء والمعارضين وغلب الملوك ووحدّ شبه الجزيرة كلها تحت رايته وسمي نفسه أمير المؤمنين الناصر لدين الله . وذلك عام ٣١٦ هجرية . وكانت عاصمته قرطبة في الغرب كبغداد في الشرق عظمة وأبّهةً حتى قيل: كان فيها ٣٠٠٠ جامع و ٣٠٠ حمام . أما المدارس والربط والزوايا والتكايا فعددها عظيم جداً . وبنى بالقرب منها مدينة الزهراء وهي أعجوبة من أعاجيب الفن المعماري والذوق الشرقي المندمج بالفن الغربي Mozarabe . ولا غرابة في ذلك . فعظمة الناصر لم تضارعها عظمة . وقد بلغت دولته في زمنه أوج مجدها في البر والبحر وكانت جبايتها نحو ٦ ملايين دينار .

وحكم بعده ابنه المستنصر فسار على خطة أبيه وأكمل بناء المدارس وجعلها مجاناً للطلاب وأتم بناء الجامع العظيم وهو أعظم جوامع العالم . واستقدم العلماء والأدباء من الشرق ونشر الكتب وشجع العلم والفن حتى أصبحت قرطبة في زمنه جنةً للعالم الغربي ونوراً يضيء سناه على أوروبا فيبدّد غشاوات الجهل والعمى الضاربة فيها . وانتشرت اللغة العربية أيّما انتشار . حتى اشتكى بعض زعماء الرهبان والقسس من سيطرة اللغة العربية على شبابهم ومتعلميهم كما نشكو نحن الآن من تأثير اللغات

الأجنبية في لغتنا وغزوها كلام الناس في مجتمعاتهم وملاهيهم وأحاديثهم وتفكيرهم حتى في أعمق نقطة من بيوتهم.

وتولى بعده الحكم. فكان نهاية عهد القوة للدولة الأموية. إذ تولّى بعده ابنه هشام وكان صغيراً فاستبد بالملك وزيره محمد بن أبي عامر وحجر عليه بمعونة أمّه إذ كانت له عاشقة. وفي عهده ازدهرت الفلسفة زمناً، ولكن سرعان ما قضي على الأفكار الحرّة تحت تأثير ضغط الفقهاء الذين رموه بالزندقة فأحرق كتب الفلسفة ليبرئ نفسه من التهمة.

وتولى بعده ابنه عبد الملك المظفر فأخوه عبد الرحمن الناصر الذي أعلن نفسه خليفةً. فهاجت الأمويّة وخلعت هشاماً وولت محمداً بن هشامٍ المهدي من أحفاد عبد الرحمن الثالث وطالبت بالملك بواسطته فنجحت وقتل الناصر فقضي بموته على الدولة العامرية. ولكن لم يدم الهدوء طويلاً. فلقد ثارت البربر وبايعت سليمان بن الحكم المستعين بالله فاشتد النضال بين الخليفتين ودامت الحرب بينهما سجالاً زمناً طويلاً كان المغلوب منهما دوماً يستعين بملك الإسبان؛ حتى تخربت العاصمة ونهبت وكثر السبي وتعطلت التجارة والزراعة وفسدت أخلاق الناس. وفاز المستعين في النهاية فقويت شوكة البربر وامتد نفوذهم على العرب

وسكان البلاد الأصليين . ولكنهم لم يتفقوا ولم يتحدوا فقد بايع بعضهم عليّ بن حمودّ الادريسي فتغلّب على المستعين وقتله ولقّب بالناصر ، فاهتبل الأمويون هذه الفرصة وطالبوا بالملك فكانوا ينجحون تارة ويخفقون أخرى . ودامت هذه الحال طويلاً : يمتلك الأمويون مرةً والأدارسة مرّة حتى قتل آخر ملوكهم هشام بن محمد المعتضد بالله فانقرضت بموته الدولة الأموية وآل الحكم إلى الطبقة الارستقراطية . فاستبد بالملك أبو الحزم بن جهور بمعونة زعيم الثورة القرطبية الشاعر ابن زيدون عام ٤٢٢ هجرية .

هذا ما كان في قرطبة عاصمة الأندلس . أما ما كان من أمر الولايات ؛ فقد استقل كل أمير ببلده وأعلن ملكيته وحمل بعضهم لقب أمير المؤمنين ! !

ففي عهد تأسيس الدولة الجهورية ؛ كان في الأندلس كثير من الملوك المسلمين وأربع أمراء مؤمنين . ومساحة شبه الجزيرة كلها لا تزيد على ٥٠٠ ألف كيلو متراً مربعاً . ووجد في أوائل القرن الخامس الهجري من الممالك المشهورة ما يلي :

١ — الدولة الزيرية (بربرية) .

٢ — الدولة الحمودية (شيعية) .

٣ – الدولة الهودية (عربية) .

٤ – الدولة العامرية (موالي بني عامر) .

٥ – الدولة العبادية (عربية) .

٦ – دولة بني الأفطس (بربرية) .

٧ – دولة ذي النون (بربرية) .

وكانت هذه الدول في حرب دائمة بين بعضها بعضاً يستعين الضعيف المغلوب منهم دائماً بملوك الإسبان لينتصر بقوتهم على بني قومه !!! حتى كانت نهايتهم المحزنة المعروفة . وكثر تسمية ملوك هؤلاء الطوائف بالمعتضد والناصر والمستنصر وما أشبه ذلك من الألقاب الضخمة فقال فيهم أحد الشعراء :

مما يزهّدني في أرض أندلسٍ أسماء معتمدٍ فيها ومعتضد

ألقاب مملكةٍ في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وما يهمّنا بحثه من هذه الطوائف ؛ مملكتان فقط هما : الجهورية والعبادية ، لعلاقتهما الوشيجة بتاريخ الشاعر ابن زيدون الذي نؤرخه :

دولة بني جهور :

عُرف آل جهور منذ زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر . ووزروا له وللمستنصر والمنصور . وهم من لخم أو من

كلب . وفي زمن الفتنة القرطبية بين آل حمود والأمويين ؛ كان زعيم الأمراء في قرطبة والبارز في الطبقة الارستقراطية ؛ أبو الحزم بن جهور . وقد بايع هـذا الاميرُ المعتمدَ الأموي خليفةً . غير أن الجنود شغبوا عليه وخلعوه وبايعوا أبا الحزم هذا عام ٤٢٢ هجرية بمعونة الشاعر ابن زيدون . وبذلك قضي على الدولة الأموية ونشأت المملكة الجهورية مكانها . و كان أبو الحزم عاقلاً أريباً يعرف كيف يحتفظ بملكه باليقظة والحيطة والشدّة . ولذلك حبس ابن زيدون لما شكّ في إخلاصه ، مع أنه صعد إلى العرش على كفّه . ولم تشفع له سابق خدمته له ؛ لأن الملك عقيم .

وتوفي أبو الحزم عام ٤٣٥ هجرية فملك بعده ابنه أبو الوليد . و كان عالماً حسن السيرة يقظاً كأبيه . وخلفه بعده ابنه فكثر عليه الشغب ووهنت قواه أمام الشعب وسائر ملوك الطوائف من جيرانه . فطمع به ذو النون وحاصر قرطبة فاستنجد بجاره المعتمد بن عباد ملك اشبيلية . فأظهر نصرته وخلّص قرطبه ولكنه لم ينقذها من ذي النون إلا ليضمّها إلى ملكه . و كان الناس قد ملّوا حكم آل جهور فخلعوه وبايعوا المعتمد عام ٤٦١ هجرية . وبذلك قضي على ملك آل جهور . و كان

العامل الخفيّ في القضاء عليهم نهائياً ؛ هو الشاعر السياسي ابن زيدون الذي كان العامل على إنهاضهم في أول الأمر وتمليكهم .

الدولة العبادية :

آل عبّاد أسرة من لخم من ولد النعمان بن المنذر . نزلوا قرية عطاف شرقي اشبيلية في جملة من هاجر من الشرق بعد فتح الأندلس . واشتهر منهم القاضي «أبو القاسم محمد بن عبّاد» فقد ولي القضاء في اشبيلية زمناً . ثم شغب الأهلون على حماد العلوي فخلعوه وولوا ابن عباد هذا مكانه . فسار فيهم سيرالحكيم الأريب يتكئ على نفوذه العائلي مرةً وعلى الدين مرةً أخرى فاستقامت له الأمور وأحبه الناس أو خضعوا له . ولذلك ولّوا عليهم ابنه عباداً لما مات الأب . فجاهر بالملك ولقّب نفسه بالمعتضد ووسع ملكه على حساب جيرانه ملوك الطوائف . ثم خلفه ابنه المعتمد و كان محباً للعلماء والشعراء واستوزر منهم ابن زيدون وابن عمّار . فكثرت له الدعاوة في الأندلس واشتهر أمره كملكٍ عالمٍ قويّ . وأصبحت اشبيلية في زمنه كعبة القصّاد من الأدباء والشعراء والعلماء . وهو الذي استجار به ملك قرطبة الجهوري . فاستولى على قرطبة وقضى على ملكه . وما زال حتى

عام ٤٨٤ هجرية حيث هاجمه ابن تاشفين ملك المرابطين من المغرب فقضى على ملكه وسجنه حتى مات في حبسه . وبموته زالت دولة بني عبّاد من الوجود .

أثر الحروب الاخلاقي والاجتماعي :

كانت هذه الحروب الدائمة بين ملوك الطوائف في الأندلس سبباً في انتشار الفوضى الأخلاقيـة . فكثر السبي والفحش والكذب والغش والمخاتلة . وانتشرت الفوضى في كل ناحية من نواحي الحياة . وتأخرت الحياة الاقتصادية . وانتعشت الأطماع في نفوس الناس . فرغب الطمّاحون بالملك وشاغبوا على ملوكهم فكثر خلعهم وتوليتهم ولهذا كثر العسف والضغط من جانب الملوك مرةً ، والرياء والتذلل للعائلات الارستقراطية وذويـي النفوذ تارةً أخرى . وكثرت نكبات الوزراء وثورات الأمراء وطمع بعض الشعراء الذين توصلوا بشعرهم إلى المناصب العالية ؛ بالملك : كابن زيدون وابن عمار . وكان من نتائج هذه الفوضى الحقيرة ؛ أن طمع الاسبان باسترجاع ملكهم في الأندلس . فصاولوا ملوك الطوائف مدةً إلى أن سنحت لهم الفرص فضـربوهم ضربةً قاضية . وأقصوهم عن الجزيرة بشدة وقسوة ؛ لم يعرف لها التاريخ مثالاً . وكان انتقامهم فظيعاً جداً .

نتائج الحروب الأدبية :

كان من نتائج هذه الفوضى السياسية العنيفة في الغرب ؛ ما كان لأختها في الشرق في العهد ذاته . كما رأينا ذلك في بحث أبي العلاء (انظر صفحة ٤٧٠) فقد انتعشت الحركة الأدبية أيما انتعاش . إذ أنشأ كل ملك من هؤلاء الملوك هالةً أدبية حول بلاطه ؛ مفاخرةً ومكاثرةً وظهوراً أمام جيرانه الملوك !! وللدعاوة ونشر النفوذ الأدبي بواسطة الشعراء والكتاب في الجزيرة كلها . وقد قرّبوا الشعراء ومنحوهم الألقاب الضخمة وسنّموهم الوظائف الكبرى في الدولة كان زيدون مثلاً وابن عمار وابن خلدون (جد ابن خلدون المؤرخ) فانهم حملوا لقب (ذي الوزارتين) وليس هذا اللقب بالقليل .

غير أن عناية ملوك الطوائف بالدعاوة ، وجعل كل الحركات الأدبية تدور حولها ؛ أنعشت الشعر والأدب وحده . ولم تساعد الفلسفة والعلوم العقلية واللسانية شيئاً . بل ربما تحاملوا عليها أحياناً إرضاءً للعوام والفقهاء المتعصبين ؛ فكانت كلمة (فلسفة) وحدها يُتهم بها أحد الناس ؛ كافية لسجنه أو نفيه أو قتله وإحراق كتبه وكتب سواه من الفلاسفة . وكانوا يردفون كلمة فلسفة ؛ بكلمة زنديق أحياناً كثيرة . ومع هذا كله ؛ فقد

ظهر بعض من اشتغل بالفلسفة والكلام والتصوّف متأثرين بالشرق في الدرجة الأولى .

وقد سيطرت اللغة العربية على اللغات القومية في الأندلس حتى ضجّ المتعصبون لذلك . وقال كاهن قرطبة واصفاً هذه السيطرة ومتألماً : « إنا نحب أن نقرأ الشعر والقصص . وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية فنتعلّم لغةً عذبة الألفاظ ، بليغة الأداء ، جميلة الانشاء . ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية . وشبابنا الأذكياء جميعاً ؛ لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم وكلما قرأوا كتبها ودرسوا أدبها أعجبوا بها . فإذا حدّثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية ؛ سخروا منه وقالوا : إن الفائدة منه ؛ لا تساوي التعب في قراءته . وهكذا نسي المسيحيون لغتهم ، وجهلوا كتابتها وبلاغتها وحذقوا اللسان العربي حتى ليكتبونه نثراً ونظماً بأسلوب أنيق وتصوير دقيق يفوقون فيه العرب أحياناً »[1] .

ولذلك ظهر في الأندلس كتاب وشعراء عظام كابن هاني وابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس وما شابههم . بل كان

---

(١) عن دوزي في كتابه « تاريخ العرب في اسبانيا » جزء ٢ صفحة ١٠٣ تلخيص الزيات

بعض الملوك شعراء كالمعتمد بن عباد آخر ملوك الدولة العباديّة ..
غير أن اللغة الأندلسية بجملها ؛ كانت أضعف منها في المشرق فلم ينبغ أمثال المتنبي وأبي العلاء وبشار وأبي نواس . وكذلك قصروا في الترجمة واكتفوا بما نقل إليهم من الشرق . ولعلّ السبب في ذلك أنهم في الأندلس ورثوا أمة جاهلة بينما ورث العرب في الشرق أمة متعلمة متحضرة اكتسبوا من فنونها وعلومها الأرثية وتأثروا بحضارتها .

تعلق الاندلس بالشرق :

هاجر العرب إلى الأندلس من الشام ومصر . فاسّسوا مستعمرات تجارية وزراعية وتولّوا الحكم وقادوا الملك ... ولكنهم لم ينسوا الشرق أبداً . فقد كانوا دائمي النظر إليه يقلّدونه في كل شيء من حياتهم الاجتماعية والأدبية والعمرانية . فإذا كان في الشرق أمراء مؤمنين ؛ ينبغي أن يكون ذلك في الغرب . وإذا سمّى المشارقةُ المأمونَ والمعتصم والمعتضد والمعتمد ... نقل الأندلسيون هذه الأسماء فاستعملوها . ولمّا وجد في الشرق : المتنبي والبحتري وأبو تمام ؛ لقبّوا شعراءهم بأسمائهم فسمّوا ابن هانيء متنبي المغرب وابن زيدون بحتري المغرب ... الخ وإذا كان في الشرق دمشق وحمص والرصافة ... ؛ فيجب أن

تطلق هذه الأسماء على مدن في الأندلس لها بعض المشابهة بها ... وإذا تعمّد المشارقة أنواع البديع في كتابتهم تعمّدها كتاب الأندلس ... وهكذا .

وقد بلغ من حبّهم الشرقَ ؛ أن كانوا يؤلفون عن كتابه وشعرائه ويروون لهم . وينسون أو يتناسون من يحيط بهم من أدبائهم !! هذا ابن عبد ربّه ؛ أراد أن ينافس المشارقة فألّف كتاب العقد الفريد . كل ما فيه مرويّ عن الشرق إلاّ أرجوزته وحدها التي سمّيت [ملحمة الناصر] . وقد حرص الصاحب بن عباد على الوصول إلى هذا الكتاب لمّا سمع به . فلما وقع في يده وتصفحه ولم يجد فيه شيئاً عن أدباء الأندلس ؛ قال : هذه بضاعتنا ردّت إلينا . ولعلّ هذا من جملة الأسباب التي طمست عنا كثيراً من معالم الأدب الأندلسي وتطوّره وتاريخه .

أثر الطبيعة والمحيط في أدباء الاندلس :

ليست الأندلس ؛ إلا مقاطعة صغيرة في شبه جزيرة إيبريا . كانت تسمى الفندال وقيل لها فندلُس وكانت أول مقاطعة احتلها العرب ؛ فحرّفوا اسمها وجعلوه أندلساً . ثم أطلقوا هذا الاسم على جميع البلاد الاسبانية . وعرفت في تاريخ العرب كلها بهذا الاسم .

والأندلس ؛ بلاد ذات مناخ معتدل ومياه غزيرة وأشجار، وظلال وزهور، وفواكه دانية القطوف وجبال مكسوّة بالأحراج الفتّانة . يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فيلطّف جوّها ويشيع النشاط والطرب في سكانها ويحيي الشعور الحقيقي بالجمال والحب . فلا عجب أن رقّ شعر أهلها وحمل أنداء الظلال وعبق الزهور ونشوة الرياحين . وقد تنبّه ابن خفاجة إلى تأثير الطبيعة في شعراء الأندلس فقال :

يا أهل أندلسٍ ! لله درّكم ماء وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنّة الخلد إلا في ديارِكم ولو تخيّرت هذي كنت أختارُ

ولهذا كثر وصف الطبيعة في شعر الأندلسيين وتنبهت إحساساتهم للألوان والروائح والألحان، حتى لتقرأ شعر أحدهم فلا تشعر إلا بصور وألحان كأنها معرض إحساسات لونية . كقول ابن زيدون :

حين تغدوا إلى جداول زرق يتغلغلن في حدائق خضر
في هضاب مملوءة الحسن حمر وبوادٍ مصقولة النبت عفر

ولما كانوا أضعف في اللغة من المشارقة . ووجدوا أن الأوزان الشعرية والقافية الواحدة ؛ قاسية تقيّد أخيلتهم وأفكارهم ؛ حطموا

القوافي وابتكروا أوزاناً جديدة متركبة من أسماط وأقفال سموها الموشحات . وهي أقرب أن تساعد على وصف الطبيعة والألحان ؛ من القصائد الموحّدة في الوزن والقافية .

غير أنهم لم يكتفوا بها في وصف الطبيعة . بل استخدموها في المدح والرثاء والهجاء ووصف الأساطيل والمداعبات ...

وامتاز الشعر الاندلسي : بوصف الأساطيل ورثاء البلدان والحنين إلى الأوطان لكثرة الحروب والثورات والفتن عندهم . وقصّر عن المشارقة في الحكمة والوعظ والأمثال والزهد والتصوّف .

وخير من يمثّل الشعر الأندلسي ويصوّره أحسن تصوير ؛ هو ابن زيدون الشاعر السياسي .

ابن زيدون

مولده ونشأته :

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون . وقد رفعنا سلسلة نسبه إلى أبي جدّه ولم نكتفِ بذكر اسمه ولقبه فقط ؛ لأن هذا اللقب الذي غلب على اسمه ؛ أطلق على اثنين سواه أيضاً . هما :

١ — والده أبو بكر .

٢ — ابنه أبو بكر .

فقد عرف كل من هؤلاء الثلاثة باسم ابن زيدون . ومعنى كلمة زيدون ؛ هو زيد الكبير . لأن الأسر العربية الأصل في الاندلس والمغرب ، اعتادت أن تنتقي من سلسلة أجدادها اسماً ، فتردفه بالواو والنون لكي تتميّز به . ولذلك اشتهرت عائلات باسم زيدون وحفصون ووهبون وعبدون وخلدون ... الخ وربما كانت صيغة التكبير هذه (ون) منقولة عن الاسبانية فإنهم يضيفونها في لغتهم إلى الاسم لتكبيره . فيقولون مثلاً (كراندون) Grandon أي كبير جداً [1] .

---

(١) الروائع نقلاً عن دوزي .

وابن زيدون الذي نؤرخه ؛ ينتسب إلى أسرة عريقة في العروبة ترتفع إلى مخزوم ، التي منها خالد بن الوليد فاتح الشام وعمر ابن أبي ربيعة زعيم الشعراء الغزليين . ولد عام ٣٩٤ هجرية من أبوين ممتازين في الصحة والقيمة الاجتماعية . كان والده فقيهاً ممتازاً . وقد توفي وعمر شاعرنا لا يزيد على الحادية عشرة . فعنى به أوصياؤه وأسلموه إلى أفضل الشيوخ والمؤدبين وظهرت عليه مخايل الذكاء منذ اليفاع وبزّ أقرانه من الشباب فعرف بالفضل والشعر ولم يتجاوز العشرين . ولكنا لا نعرف مع الأسف من هم المشائخ الذين درس عليهم ولا الكتب التي اطلع عليها لنرى أثرها في توجيهه .

وقد دفعه طموحه ؛ إلى الدخول في شئون بلاده السياسية وكان شبه زعيم للحركات الثورية في قرطبة لما لعائلته من القيمة الاجتماعية الممتازة . ولذلك ؛ ما كادت تنجم الحوادث المؤسفة بين الأدارسة والأمويين ؛ حتى زجّ بنفسه في غمارها وانضم إلى حزب أبي الحزم بن جهور وقام له بأجلّ الخدمات حتى بوّأه ملك قرطبة عام ٤٢٢ هجرية . فحفظ له ابن جهور هذا الجميل ، واعتقد له هذه المنّة ؛ بأن نصبّه وزيراً للدولة واعتمد عليه في تسيير الأمور الخارجية والسفارات بينه وبين جيرانه

من ملوك الطوائف ، وسمّاه ذا الوزارتين (أي السيف والقلم) .

تسنّم ابن زيدون كرسي الوزارة وعمره ست وعشرون سنة . فأخذته عزّة الشباب والفتوّة والجاه إلى أبعد ما تأخذ شاباً مترفاً غنياً عالي المرتبة . وهو فوق ذلك ؛ شاعر معجب بذكائه وشعره ، مرهف الإحساس دقيق الشعور قد نبت في فيء النعيم وظلّ الغنى ودوحة السلطان الفينانة . . . فعكف في أوقات فراغه من الأعمال السياسية ؛ على اللذة والخمرة والحب . وعَبَد الجمال ولكنه لم يتهالك فيه ولم تَذُبْ شخصيتّه في الخمرة والمرأة ، لولا ما مُني به من حب ولاّدة بنت المستكفي . وهي شاعرة أديبة جميلة من أميرات البيت الأموي المنهار . جعلت بيتها منتدى الطبقة الارستقراطية من الساسة والأدباء . تساجلهم الشعر والأدب . وظهر ابن زيدون في ناديها بجماله وذكائه وشعره وفرطِ بداهته ولطفه . فعلقت بحبه كما تمكنت من قلبه واشتهر أمرهما في قرطبة وشاع ذكرهما في الأوساط . فاصطدم هذا المحب بمنافس قويّ ؛ هو الوزير ابن عبدوس . وتحدّاه ابن زيدون بقصائد تهكميّة ورسالة هزلية ساخرة ، فزاد في لهيب ضغنه وحقده . وما زال يدسّ عليه الدسائس في بلاط ابن

جهور حتى وفّق إلى القبض عليه وزجه في السجن . ووجهت إليه التهم الآتية :

١ — إنه يسيء إلى سمعة الدولة باستهتاره في الحب وإظهار العشق . والدولة في أول عهدها بحاجة إلى القيادة الحسنة والاستقامة في المظاهر أمام الشعب .

٢ — إنه يسعى بالاتفاق مع ولاّدة — وهي أميرة من سلالة أموية — لإرجاع العرش الأموي ودكّ العرش الجهوري .

٣ — لما كان يقوم بالسفارة بين ابن جهور وجيرانه من ملوك الطوائف العرب والبربر والسودان ؛ كانوا يعجبون بذلاقة لسانه وقوّة بيانه وحسن إنشائه ويحسدون ابن جهور عليه ويتمنّون اجتذابه إليهم . فأخذه العجب بنفسه أن يظهر إدلاله على ابن جهور . والتصريح بذلك في شعره وأحاديثه والافتخار بنفسه مما أحفظ ابن جهور عليه وزاد نقمته وأيقظ الريبة في نفسه فسجنه تخلصاً من دسائسه وإدلاله .

الشاعر السجين :

زال العزّ والسلطان عن ابن زيدون فجأة . فهبط بين عشية وضحاها ؛ من دست الوزارة الوضّاء ، إلى ظلمة السجن . فضاقت الدنيا بعينه واسودّت لمعاتها الغرّارة أمامه فزأر زأرة الليث

الواقع في الشرك. وكتب إلى ابن جهور رسالةً يذكر بها بلاءه في توطيد ملكه ويمتنّ عليه بخدماته؛ فزادت حنقه عليه. فغبر في سجنه زمناً اختُلف في طوله. ينشئ القصائد الاعتذارية والرسائل المطوّلة بطلب العفو فلم يأبه له. قيل مكث ٥٠٠ يوماً استناداً إلى قوله:

مئون من الأيام خمس قطعتها

وبعضهم يرويها:

سنون من الأيام خمس قطعتها

فيقولون إن مدة سجنه كانت خمس سنين. ومهما تكن المدّة؛ فقد قضى مدة حبسه ينشئ الشعر معتذراً تارةً فيقول:

ومثلي قد تهفو به نشوةُ الصبا ومثلُك قد يعفو. وما لَك من مثلِ
وإني لتنهاني نهاي عن؛ الذي أشاد بها الواشي. ويعقلني عقلي

ومرّةً يشتدُّ به اليأس من العفو ويتألم من حسّاده ومنافسيه الذين تغلّبوا عليه فيثور ثورة الإباء فيقول:

لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره أنّي معنّى الأماني ضائع الخَطَر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر
إن طال في السجن إيداعي فلا عجب
قد يودع الجفنَ حدُّ الصارم الذَكرِ

وتارةً يقف بين بين فيطلب العفو ممزوجاً بالاعتذار والإباء ويرى أن يدَ الله فوق أيدي الظالمين كقوله :

فإن يسعف المولى فتعمى هنيّةٌ تنفّس عن نفسٍ ألظّ بها ضغطُ
وإن يأبَ إلاّ قبض مبسوطِ فضله ففي يد مولى فوقه القبض والبَسطُ

وأنشأ رسالةً أستفرغ فيها مجهوده وبسط فيها كل آماله وآلامه وتأمّل أن يكون بها النجح فكانت في ابن جهور كالضرب في حديد بارد . واشتهرت هذه الرسالة في تاريخ الأدب باسم (الرسالة الجديّة) للتفريق بينها وبين (الرسالة الهزلية التي كتبها إلى ابن عبدوس الوزير .

ولما لم تجدِ قصائده ولا رسالاته شيئاً ؛ أخذ يكتب إلى أصدقائه يستشفعهم ويبعث إلى ولاّدة بالشعر الرقيق يصوّر فيه احلامه وآماله وآلامه . ثم سنحت له الفرصة ؛ ففرّ من السجن واختفى في قرطبة . فتشفع له أبو الوليد ابن أبي الحزم بن جهور لدى أبيه فعفى عنه .

أعيدت إلى ابن زيدون حريته ، ولكنه خسر أحلامه وقلبه . فقد هجرته عشيقته ولاّدة . وانحازت إلى ابن عبدوس . فكانت خسارته فيها أشدّ عليه من السجن وآلامه . وتلظّى حقده عليه . خصوصاً وقد أتهمه بالجبن لفراره من السجن فقال :

بلغت المدى إذ قصّروا . فقلوبهم مكامن أضغاث . أساود هارُقطُ
وقد وسموني بالتي لست أهلها ولم يُمنَ أمثالي بأمثالها قطُّ
فررتُ . فإن قالوا الفرار إرابةٌ فقد فرّ موسى حين همّ به القبطُ

الشاعر الشريد :

خسر ابن زيدون في قرطبة ؛ مكانته وقلبه . فتركها وهام على وجهه في بلاد الاندلس؛ ينظم الشعر في لوم عشيقته ويتوارى عن الناس بالآمه وشبابه المنهزم . حتى توفي أبو الحزم عام ٤٣٥ هـ وخلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور . فعاد ابن زيدون إلى قرطبة واتصل به ؛ فاستوزره واستخدمه في السفارات كما كان على عهد والده ، فأجاد الخدمة . ولكنه كان يتحبّب إلى الملوك الذين يسفر لديهم ؛ ليكونوا له ملجأً إذا قلب الدهرُ له ظهر المجنّ . وهذا ما حدث فعلاً . فقد غضب عليه أبو الوليد لسبب مجهول ونظنّ أن لطموحه أثراً فيه . وخاف أن يلقى من الابن مالقي من الأب ؛ ففرّ من قرطبة شريداً . وتنقّل بين دانية وبطليوس واشبيلية عَلَى التتابع .

وزير في اشبيلية :

حلّ ابن زيدون في اشبيلية عام ٤٤١ هجرية وكان ملكها . المعتضد بن عبّاد ، معجباً به . فقرّبه واستكتبه ثم استوزره

وأعاد إليه لقب (ذا الوزارتين) وفي عام ٤٤٤ هجرية مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد فاستبقى الشاعر في الوزارة واستعان به على فهم أسرار قرطبة . وربّما أغرى الشاعرُ مليكه بغزوها وزيّن له الاستيلاء عليها وسهّله في همّته حتى سنحت له الفرصة يوم استنجد به مليكها الجهوري من ذي النون الذي ضيّق عليه الحصار ؛ فأرسل اليها جيشاً بقيادة ابن زيدون فافتتحها بمعونة حزبه فيها إذ كان محبوباً جداً لشاعريته وسابق مجده وخدماته. وبذلك تمّ له الانتقام من بني جهور الذين أحسن خدمتهم فأساءوا إليه وآذوه وسجنوه ونفوه في الارض . فقد طالما ردّد قوله :

بني جهورٍ أحرقتم بجفائكم فؤادي . فما بال المدائح تعبقُ ؟
تعدّونني كالعنبر الورد . إنما تفوح لكم أنفاسُه يوم يحرقُ !!

وقد طالما تشوّق إلى قرطبه منبت شبابه وعزه ومهوى ذكريات صباه وحبّه وقال :

ألا هل إلى الزهراء أوبةُ نازحٍ تقضّى تنائيها مدامعَه نزحا

وقد طال إغراؤه الملوك بغزو قرطبة ليعود اليها ظافراً منتقماً . ونخص بالذكر منهم : ملك بلنسية . ولمّا لم ينل منهم أملاً ، وحققت الأيام آماله على يد المعتمد . كان الفتح رياً

لانتقامه . ولكن هل تلاشت كلّ أسقامه وغادرته كلّ همومه وآلامه ؟

الحساد والمنافسون :

كان المعتمد في أوائل القرن الخامس ؛ عاملاً لأبيه المعتضد على شلب . وتعرّف هناك إلى شاعر شاب اسمه أبو بكر محمد ابن عمّار فتطوّح وإياه في سبل المعاصي حتى اشتهر أمرهما فاستدعى الملك ابنه الأمير إلى اشبيلية ونفى ابن عمّار . فتفرّق الصديقان راغمين . ولكن لم يطل بعادهما . فقد مات الأب عام ٤٤٤ وتبوّأ الابن عرشه فاستدعى صديقه الشاعر ابن عمار وعينّه وزيراً ولقبّه ذا الوزارتين . فاستعرّت المنافسة بينه وبين زميله ابن زيدون . وربما زاده حقداً عليه ، ما وجده من أهل قرطبة وتعلقهم بابن بلدهم وحبّهم إياه ؛ فحسده وأراد أن يتخلّص منه ولو بقتله . واتفق أن سنحت له الفرصة يوم ثارت اشبيلية على اليهود وتلظّت الفتنة ؛ فدسّ عليه عند المعتمد وأوهمه أن هذه الثورة لا يستطيع قمعها غيره . واستعان في دسائسه برئيس الحرس ابن مَرْتين وبسواه ؛ حتى قرّت الفكرة في رأس ابن عبّاد فأرسله اليها ليهدئها واعتمد عليه فى تسكينها . لكن ابن زيدون — وقد كبرت سنّه — لم يكد يصل إشبيلية ؛ حتى تلقّفه

الموت عام ٤٦٣ هجرية . فسكنت بموته الأحقاد وهدأ الحساد ولكن التاريخ هو وحده الذي تحرك فأحيا ابن زيدون في جملة الخالدين .

تأثير حياته في شعره :

قضى ابن زيدون حياةً كلها اضطراب وقلق وطموح . فقد سار مع التيّار السياسي منذ نشأته ، فوصل إلى ذروة المجد وهو شاب . ثم هبط إلى قرارة البؤس يوم سجن . ثم ارتفع إلى منصبه ثم هرب وتشرّد ثم استوزر في اشبيلية ولاقى من حسد الحساد ونقمة الملوك ما ينوء بحمله الرجل العادي ، ولا يضطلع منه إلاّ من رزق أعصاباً من حديد ، وذكاء من عبقرية . وقد مُني بحبّ ولاّدة فبادلته الحبّ زمناً . حتى إذا تغيّر وجه الزمان عليه ، تركته في وسط المعركة وفرّت هاربةً خائنة . كشأن الغانيات في كل عصر ومصر . فدفعه الحب العنيف إلى نظم الشعر ووصف هذا الحب في كل أدواره معتصراً من قلبه حباً وثورةً وطموحاً .

فالعامل على إذكاء شاعريته إذن ؛ عاملان قويّان جداً . أحدهما الطموح وما يستتبعه من إباء وأحلام وردّ حسّاد . والثاني حبّ شديد ثائر . فشعره فيما يتعلّق بهاتين العاطفتين

فقط ؛ قوي ممتاز . وفيما عداهما ؛ بسيط أقرب إلى النظم منه إلى الشعر كالمديح والهجاء والرثاء ووصف القصور والمواكب والفواكه وما شابه ذلك ، وهو في كل شعره ؛ متأثر بالطبيعة الفتّانة في بلاده . وبالجوّ الأدبي المقلّد في عصره . لذلك ترى شعره رقيقاً عذباً كلّه ألوان وأصباغ ونور . ولكنه متكلّف في نسجه ، يكثر من الفنون البديعية فيه . وأخصّ منها الجناس والطباق . وبذلك اشتهر وعرف كزميله البحتري في المشرق أنه ابن الطبيعة يستعير أصباغها وينساق مع السجيّة والطبع فترقّ الفاظه وتعذب معانيه . وقد كان يحب البحتري كثيراً ويقلّده ويتبع أثره حتى اشتهر ذلك بين الناس فسمّوه : (بحتري المغرب) . وإليك مثالاً ودليلاً من شعره :

الوان :

وكم مشهدٍ عند العقيق وجسره قعدنا على حمر النبات وصفره
وظبي بساقينا سلافة خمرة حكى جسدي في السقم رقّة خصره
لواحظه عند الرنوّ سهام

نور :

وضح تنجلي الغياهب عنهم من وجوه مثل المصابيح غرّ
وسجايا كأنهن كئوس ورياض قد جادها صوب قطر

ما البدر شفّ سناه على رقيق السحاب
إلاّ كوجهك لمّا أضاء تحت النقاب

الشاعر العاشق :

أحبّ الشاعر ولاّدة ، كما أحبته ، وتعلّقت به . وكانت تزوره في قصره ليلاً فيقضيان أعذب الليالي البيضاء يتساقيان خمرة الهوى بمرشفين لاهبين وتتمازج روحاهما فيصعدان إلى الملأ الأعلى من سموات اللذة والنشوة . تكتب إليه قائلةً :

ترقّب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر

فيترقّب الموعد على أحرّ من الجمر ، حتى إذا وافت ؛ هبّ لاستقبالها بقلب خافق وقضيا ليلةً من أشهى الليالي التي يتمناها العشاق . فإذا انبثق الصبح وهمّت لوداعه وقف ينشدها :

ودّع الصبرَ محبٌ ودّعك ذائع من سرّه ما استودعك

ويصف ليلته — وما أكثر ماقضى مثل هذه الليلة — وصفاً دقيقاً جداً ولذيذاً يقول :

فرشفتُ الرضابَ أعذبَ رشفٍ وهصرت القضيب ألطف هصرِ
ونعمنا بلفّ جسم بجسم للتصافي وقرع ثغرٍ بثغر
يالها ليلةٌ تجلّى دجاها من سنا وجنيته عن ضوء فجر

قصّر الوصل عمرها وبودّي أن يطول القصيرُ منها بعمري

ثم سجن الشاعر بتأثير السعايات والدسائس فلم ينسَ وهو في سجنه ؛ لياليه العذبة المعسولة. وكان يتأمل أن يتخلّص فيعود إلى إحياء مثلها مع من وهبها كل قلبه وكل حياته . فكان يرسل إليها الشعر الرقيق من السجن ويتشوّق إليها وإلى الحرية . يقول :

علّ الليالي تبقيني إلى أَملٍ الدهرُ يعلم والأيامُ معناه

ولكن الحبيبة غدرته ومالت إلى ابن عبدوس الوزير فآلمه غدرها فاستعطفها أولاً كقوله :

متى ابثك ما بي يا راحتي وعذابي
متى ينوب لساني في شرحه عن كتابي
يا فتنة المتعزّي وحجة المتصابي
الشمس أنت توارتْ عن ناظري بالحجاب
الله يعلم أني أصبحت فيك لما بي
فلا يطيب منامي ولا يسوغ شرابي

وتذلل لها أحياناً فجعلها مالكة رقّه وهو عبدها كقوله :

يا نازحاً وضمير القلب مثواه أنستك دنياك عبداً أنت دنياه

وشكّ في غدرها لأن المسكين لم يكن يخطر له ببال أن الغانيات قلوبهن هواء متقلّب . يقول :

أنّى تضيّع عهدك أم كيف تخلف وعدك؟
ياليت مالك عندي من الهوى لي عندك!
فطال ليلك بعدي كطول ليلي بعدك
ياليت شعري وعندي بالحب ما ليس عندك
سلني حياتي أهبها فلست أملك ردّك
الدهر عبدي لما أصبحتُ في الحب عبدك

ثم خرج من السجن وأعيدت إليه حرّيته ، فرجع إليها ولكن أين هي ؟ لقد تأكدت له خيانتُها فبكى فضحكت منه كأنها لم تكن تعرفه ولم تقضِ معه تلك الليالي البيضاء . يقول :

تضحك في الحب وأبكي أنا ؟! الله فيما بيننا حاكم !

وهام على وجهه بعدها ينظم الشعر تألماً وهياماً . حتى ليكاد يهمّ بتقبيل خيالها لشدّة ما يتصورها .

وقد يلومها أحياناً ويسرف في تعنيفها ولومها . كقوله :

ياليل طل لا أشتهي إلاّ بوصلٍ قِصَرَك
لو كان عندي قمري ما بتُّ أرعي قمرك

يا ليل خبّر أنني ألتذّ عنه خبرك
بالله قلّ لي . هل وفى ؟ ! فقال : لا . بل غدرك ! !

ويظهر أن حبّه لها ، كان قوياً عنيفاً . ولم تكن تزيده الأيام إلاّ ضراماً وثورة . فإنه بعد فراره من قرطبة والتجائه إلى اشبيلية ، أرسل إليها قطعة كلها حبّ وتشوّق وإخلاص ، مع أنه كان قد قطع دور الصبا والصبوة . واشتهر ابن زيدون بهذه القصيدة فراجت على الألسن في زمنه وبعده ولا تزال تتردّد على لسان المغنّين حتى هذا العصر . وهي :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم . ولا جفّت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لبعدكم أيامنا . فغدت سوداً . وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلقٌ من تألفنا ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية قطوفها فجنينا منه ما شينا
ليسقِ عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
إن الزمان الذي مازال يضحكنا أنساً بقربكم . قد عاد يبكينا

غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نقصّ فقال الدهر آمينا

فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرّقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا إذ طال ما غيّر النأيُ المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا

يا ساري البرق غاد القصرَ فاسقِ به
من كان صِرفَ الهوى والود يسقينا

ويا نسيم الصبا بلّغ تحيتنا من لو على البعد حيّا كان يحيينا
يا روضةً طالما أجنت لواحظَنا ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياةً تملّينا بزهرتها منىً ضروباً ولذّات أفانينا
لسنا نسميك إجلالاً وتكرمةً فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا والسعد قد غضّ من أجفان واشينا
سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يغشينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها والكوثر العذب زقّوماً وغسلينا
إناقرأنا الأسى يوم النوى سوراً مكتوبةً . وأخذنا الصبر تلقينا

إن كان قدّ عزّ في الدنيا الفراق ففي
مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

هذا شعر ابن زيدون في الغزل . صرفه كلّه في حبّ عشيقة واحدة ملأت فضاء قلبه . فصوّر أيامه كلها معها من أول أيام التعارف حتى يوم الفراق . وما تقلّب بين هذين اليومين : من حب وتولّه وعذاب وغدر وتشوّق وآلام . وشعره في الغزل ؛ مرآة حقيقية لنفسه لم يكذب في تصويرها . وهو — كما رأيت — شعرٌ معتصرٌ من قلبه ودمه . لم يبالغ فيه ولم يتطرّف .

شعر الشكوى :

وشعره في تصوير آماله الضائعة ومجده الزائل ؛ صورة من قلبه أيضاً ، فهو يبكي فيه ولا يتذلل . لأنه يخشى شماتة الحسّاد . ويشعرك دائماً أنه مظلوم مهضوم الحق . كقوله :

ألم يأنُ أن يبكي الغمام على مثلي ويطلب ثأري البرقُ منسلط النصل ؟!
وهلاّ أقامت أنجم الليل مأتماً لتندب في الآفاق ما ضاع من نُبلي ؟
ولو أنصفتني . وهي أشكال همّتي لألقت بأيدي الذلّ لما رأت ذلّي
ولو أنني أستطيع أن أرضي العدا شريت ببعض الحلم حظاً من الجهل

ومن أبرع قصائده في السجن ؛ القطعة التي أرسلها إلى أبي حفص بن برد يقول فيها :

مـا عليّ ظني باس يجرح الدهر وياسو
ربما أشـرف بالمر — ء على الآمـال ياسُ
ولقد ينجيك إغفـا — لٌ. ويرديك احتراس
والمحـاذير سهـام والمقادير قيـاس
ولكَم أجدى قعود ولكم أكدى التماس
وكذا الحكم ، إذاما عزّ ناس ؛ ذلّ ناس
وبنو الأيام أخيـا — ف . سراةٌ وخساس
نلبس الدنيا . ولكن متعةٌ ذاك اللبـاس
يا أبا حفص !! وما سا — واك في فهم إياس
من سنا رأيك ، لي في غسق الخطب اقتباس
لايكن عهدك ورداً إن عهـدي لك آس
وأدر ذكري كاساً ما امتطت كفّك كاس
واغتنم صفو الليـالي إنمـا العيش اختلاس
ماترى في معشرحا — دواعن العهد وخاسوا!!
أذؤب هامت بلحمي فانتهابٌ وانتهـاس
كلّهم يسأل عن حا — لي وللذئب اعتساس
إن قسـا الدهر فلما — ء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبو — ساً ؛ فللغيثِ احتبـاس
ويُفَتُّ المسكُ في التر — ب ؛ فيوطـا ويداس

فهو كما رأيت يرى في الذين يسألون عنه في الحبس من الأعداء ؛ ذئاباً تعسّ لتعرف خبره وتشمت به وتنتهش من لحمه . ولا يضيره هذا . فالمسك يفتّ في الترب ولكن قيمته لاتنحطّ إذ يبقى مسكاً غالياً محفوظ القدر موفور الوقار والاحترام .

اغراض شعره الأخرى :

وشعر ابن زيدون في الشكوى وفي الغزل ، هو خير شعره وأما ما عداه فمحطّ مقلّد فيه السابقين ، متكلف في تصويره وألفاظه وتعابيره ، مقيّد بالبديعيات . ولقد نظم في كل الاغراض التي عرفها عصره . فمدح وهجا ورثا ووصف . . . ولكنه لا يعلو في هذه الفنون عن سائر شعراء الأندلس الكبار كابن هاني مثلاً . وستمثل فيما يلي لكل غرض بقطعة لأنا لا نعتقد بجدوى التفصيل فيها .

المدح :

أكثر مدائحه ؛ يستفتحها بالغزل أو بالوصف والقطعة التالية ؛ قلّدها بعض الشعراء لشهرتها وعارضها كثيرون كان آخرهم احمد شوقي في قصيدته بوصف زحلة (لبنان) وقد لحّن بعض أبياتها المغني المشهور محمد عبد الوهاب فاشتهرت كشهرة قصيدة ابن زيدون التالية :

ما للمدام تديرها عيناك فيميل في سكر الصبا عطفاك؟
هلا مزجت لعاشقيك سلافها ببرود ظلمك . أو بعذب لماك
واهاً لعطفك . والزمان كأنما صبغت غضارته ؛ ببرد صباك
أمّا منى نفسي ؛ فأنت جميعها يا ليتني أصبحت بعضَ مناك !
يدنو بوصلك ـ حين شطّ مزاره ـ وهمٌ . أكادُ به أقبّل فاك

* * *

للجهوري أبي الوليد خلائق كالروض أضحكه الغمام الباكي
ملك يسوس الدهر منه . مهذّب تدبيره للملك خير ملاك
بشراك يا دنيا وبشرانا معاً هذا الوزير أبو الوليد فتاك

* * *

تلقى السيادة . ثم إن . أضللتها . ومتى فقدت السرو فهو هناك
وإذا سمعت بواحدٍ جمعت له فرق المحاسن في الأنام ؛ فذاك

* * *

يا أيها القمر الذي لسنائه وسَناه ؛ تعلو السبع في أفلاك
من قال إنك لست أوحد في النهى والصالحات . فذاك بالإشراك !
هنأتك صحتُك التي لو أنها شخصٌ أحاوره ؛ لقلت هناك
دامت حياتك ما استدمتَ فلم تزل تحيا بك الأقطارُ بعد هلاكِ

الرجاء :

ابن زيدون عصبي المزاج عنيف الغضب إذا هجا آلم ولكن من دون إفحاش في القول . ولا في التصوير كإفحاش الفرزدق مثلاً أو أبي تمام . أنظر إلى قوله :

عيّرتمونا بأن قد صار يخلفنا في مَن نحب وما في ذاك من عار
أكلُ شهيٍّ . أصبنا من أطايبه بعضاً . وبعضاً صفحنا عنه للفار

هل ترى فيه سباباً وشتائم؟ . إن كل شعره في الهجاء على هذه الوتيرة . وسبب قول هذين البيتين أن ابن عبدوس — ويلقّب بالفار — أخذ يغيظه بامتلاكه قلب ولاّده عشيقته الغادرة فهجاه بهما، وهجا ولاّدة في آن واحد. فوصف الحبيبة بالطعام أكلَ أطايبه وترك بعضه للفار سماحاً . أي امتص جمالها وترك قبحها لغيره . فآلمها هذا الهجاء المرّ لأن من أصعب الأشياء على المرأة، أن تخسر جمالها وجاذبيتها عند الرجال . ولذلك أجابته ببيتين قاسيين جداً عرّضت فيهما بغلام له يسمى علياً فقالت :

إن ابن زيدون — على فضله — يلهجُ بي شتماً . ولا ذنب لي
يلحظني شزراً إذا جئته كأنني جئت لأُخصي علي

الرثاء :

رثاء ابن زيدون ؛ فيه عاطفة وألم . ولكنه يبالغ فيه على طريقة عصره . فيرمي الاقمار بالتراب ويكسف الشمس ويثير الارض ويعرّي الاشجار . . ثم يحشو فيه الحكمة للتأسّي . ولكنها حكمة باردة تافهة ليس لها قيمة . والقصيدة التالية

تمثل هذا الضرب من شعره . قالها في رثاء القاضي أبي بكر ابن ذكوان :

اعجب لحالِ السَّرْوِ كيف تُحال ... ولدولة العلياء كيف تدال

ما أمتع الآمال لو لا أنها ... يعتاق دونَ بلوغها الآجالُ !

من سرَّ لمّا عاش ، قلّ متاعه ... فالعيش نوم . والسرورُ خيال

في كل يوم ننتحي برزيةٍ ... للارض من برحائها زلزال ؟

ولّى أبو بكر . فراع له الورى ... هولٌ تقاصرُ دونه الآجال

قمرٌ هوى في الترب . نمشي فوقه ... لله ما حاز الثرى المنهال

ما أقبح الدنيا خلاف مودع ... غنيت به في حسنها تختال

يا قبرَه العطر الثرى . لا يبعدن ... حلوٌ من الفتيان فيك حلال

نقضت حياتك حين فضلك كامل ... هلا استضيف إلى الكمالِ كمال

ودّعت عن عمرٍ غمرت قصيرَه ... بمكارمٍ أعمارُهنّ طوال

هيهات !! لا عهد كعهدك عائدٌ ... إذ أنت في وجه الزمان جمال

إيها بني ذكوان ! إن غلَبَ الاسى ... فلكمُ إلى الصبر الجميل مَسال

شعر الوصف

شعر الوصف عند ابن زيدون جميل ؛ إذا كان الموضوع يمتّ إلى عواطفه بسبب . كوصفه لياليه البيضاء مع ولاّده . أو وصف طموحه وأحلامه . وينحط كثيراً إذا ابتعد عن هذه

العلاقة الغريزية كوصفه المواكب والقصور والفواكه مثلاً.
ويظهر أن حاستي البصر واللمس كانتا أقوى الحواس عنده. فهو يرى تفاوت الأشكال والألوان. ويتناول الأصباغ المختلفة والأضواء المتباينة فيصوّرها في وصفه تصويراً دقيقاً لا بأس به ويتكئ كثيراً على شعراء المشرق والبحتري منهم بصورة خاصة حتى ليقلّده تقليداً ظاهراً ويتبع أثره وينسحب على خطاه. وللطبيعة من وصفه حظ كبير جداً حتى في مدائحه. فهو يرى الجهوري روضاً أضحكه الغمام الباكي. وظرف الجبيب كعرف الطيب والسرور حديقة والظل لحافاً ... الخ. وسنمثل فيما يلي ببعض القطع لهذا الباب من شعره.

ذكرى قرطبة:

سقى الله أطلال الأحبّة بالحمى وحاك عليها ثوبَ وشيٍ منمنما
وأطلع فيها للأزاهير أنجما فكم رفلَتْ فيها الخرائدُ كالدُّمى
إذا العيشُ غضٌّ والزمانُ غلامَ
ويوم لدى النبتيّ في شاطئ النهر تدار علينا الراح في فتيةٍ زهرِ
وليس لنا فرشٌ سوى يانعِ الزهر
يدور بها عذبُ اللمى أهيفُ الخصر
بفيه من الثغر الشنيب نظام

ويومٍ بجوفيِّ الرصافةِ مبهجٍ مررنا بروض الأقحوان المدبّجِ
وقابلَنا فيه نسيمُ البنفسج ولاحَ لنا وردٌ كخدٍّ مضرّج
تراه أمام النور وهو إمام

نظامة :

أتتك بلون المحبّ الخجلْ تخالط لونَ المحبّ الوجلْ
لها منظر حسنٌ في النفو — س. كدنياك لكنه منتقل !
وطعمٌ يلذّ لمن ذاقه كلذّةِ ذكراك لو لم يملّ
يمثل ملمسها بالأكـ — ـف، لينَ زمانك أو يمتثل

قصر :

وتمثّل القصر المبارك جنةٌ قد وسّطت فيها الثريا خالا
قصر يغرُّ العينَ منه موضع بهج المواضع لو مشى لاختالا
لازلتَ تفترشُ السرورَ حدائقاً فيه وتلتحفُ النسيمَ ظلالا

الشاعر الثائر :

لم يكن ابن زيدون شاعراً وحسب . بل كان مترسلاً من الطبقة الأولى في الأندلس . وقد تبع في طريقته ابن العميد . من حيث تُوافقُ الجمل وتضمين الأشعار والأخبار والملح والإشارة إلى الحوادث . ولكنه لم يتعلق بالسجع ولم يكلف به كلفَ الصاحب مثلاً مع أنه يكثر من الترادف والأطناب كأنه

يحاول أن يطبع الفكرة في نفس القارئ طبعاً وقد اشتهرت له رسالتان كانتا سبب ذيوع اسمه في الشرق ككاتب ممتاز بينما كان مشهوراً في الغرب بالشعر أكثر . ولعلّ السبب في ذلك ؛ أن شعر ابن زيدون؛ لا يستطيع أن ينهض أمام عباقرة المشرق ، بينما استطاع نثره أن يضارعهم . أما في الغرب فقد كان في الطبقة الأولى الممتازة بين شعراء الأندلس والمغرب ولذلك عرف في الشرق بالترسّل . وفي الغرب ؛ بالشعر .

قيل : إن ابن زيدون ألّف كتاب (اليقين) في خلفاء بني أُميّة بالاندلس . على نسق كتاب اليقين في خلفاء المشرق للمسعودي . ولكننا لم نجد له أثراً . وإنما الذي وصل إلينا من كتابته ، بعض رسائل أشهرها رسالتان إحداهما تسمى : (الرسالة الجدّية) والثانية تسمى : (الرسالة الهزلية) . وقد بلغت هاتان الرسالتان من الشهرة ؛ أن كثر شرّاحهما وانتشرتا انتشاراً واسعاً جداً . وأشهر الشروح ، شرح ابن نباته المصري للهزلية واسمه (سرح العيون) وشرح الصفدي للجدّية .

وأيّ رسائله قرأت ، فإنك تراه فيها يكثر الاقتباس من القرآن والحديث وكلام العرب وأشعارهم وأخبارهم وتقليب الجمل على حروف الجر والعطف . وقد ينثر الشعر فلا تشعر

بتفككه . كأنه خلق منثوراً . والخيال الشعري مسيطر على رسائله كلها كأن الرجل خلق شاعراً جموح الخيال يثب الشعر في نثره وثباً . ولكن ، قد تظهر عليه أحياناً علائم التكلّف من زجّه بعض النظم داخل النثر . وهذا الاسلوب أي مزج النظم بالنثر ظهر في القرنين الثالث والرابع ظهوراً واضحاً على قلم ابن العميد والصاحب والهمداني والخوارزمي ومن تبعهم من المشارقة والمغاربة . وما زال هذا الأسلوب مسيطراً على بعض الكتاب حتى هذا العصر .

الرسالة الجدّية :

كتب هذه الرسالة من السجن إلى ابن جهور يستعطفه فيها . وقد استفرغ فيها كل ما عنده من جدّ وجهد وعلم وعبقرية في النسج . ولكنها لم تعمل عملها المطلوب لأسباب منها:

١ — شدّة حنق ابن جهور عليه للأسباب التي قدّمناها (صفحة ٥٤٩)

٢ — كان الجهد المصروف لنسج الديباجة في الرسالة أكثر من الجهد المصروف لدفع الذنب أو طلب العفو فضاع المعنى المقصود منها ضمن ديباجتها .

٣ — فيها إلى جانب التذلل ؛ إباء وشمم ودعوى تنفّر

الحاكم الظالم من العطف على الضعيف المسلوب

أما أغراض الرسالة فهي :

١ — الاستكانة لابن جهور وتعظيمه ومناداته بالمولى والسيد والعظيم والدعاء له والثناء عليه .

٢ — الاعتذار عن الذنب الذي لم يكن إلاّ هفوة شاب يستطيع أن يتحملها حلم المليك الكبير وصدره الواسع .

٣ — الإدلال عليه : بأنه طالما أكثر من مدحه ورفع ذكره ... ولم يبق أحد لم يسمعه حتى الحجر الأصم .

٤ — اظهار التجلّد وقتل اليأس بالأمل .

٥ — التحامل على الوشاة الذين تجنوا عليه ذنباً لم يجنه ولم يعرفه وأنه كان الأمين الناصح وأنهم الغشاشون .

٦ — تعلّقه بوطنه وبابن جهور وأنه كان باستطاعته أن يتركه ويستبدل به ملكاً سواه وأن الملوك كانت تتهافت عليه فكان يرفض أن يستجيب لهم : حباً بوطنه وتعلقاً بابن جهور

نموذج من الرسالة الجدية :

يا مولاي ! وسيدي الذي ودادي له واعتمادي عليه واعتدادي به وامتدادي منه . ومَن أبقاه الله : ماضي حدّ العزم واريَ زندِ الأمل ثابت عهد النعمة . إن سلبتني — أعزك الله — لباسَ نعمائك

وعطّلتني من حلي إيناسك وأظمأتني إلى ورد إسعافك ونفضت بي كفّ حياطتك وغضضت عني طرف حمايتك . بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الاصمّ ثنائي عليك (١) وأحسّ الجماد باستحمادي لك . فلا غروَ قد يغصّ (٢) بالماء شاربه ويقتل الدواء المستشفي به (٣) ويُوئتى الحذرُ من مأمنه (٤) وتكون منيّة المتمنيّ في أمنيّته والحينُ قد يسبق جهدَ الحريص .

كل المصائب قد تمرّ على الفتى فتهون . غير شماتة الحسّاد

وإني لأتجلّد وأري الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع (٥)

فأقول : هل أنا إلا يدٌ أدماها سوارها (٦) وجبين عضّ به إكليله

---

(١) مأخوذ من قول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَنْ به صممُ

(٢) مأخوذ من قول الفرزدق :

فلو كان هذا الحكم في غير ملككم لبوئت به أو غصّ بالماء شاربه

(٣) مأخوذ من قول أبي بكر أحمد بن علي :

كم شارب عسلاً فيه منيّته وكم تقلّد سيفاً فيه مَنْ ذبحا

(٤) مأخوذ من المثل المشهور : من مأمنه يؤتى الحذر

(٥) مأخوذ من قول أبي ذؤيب الهذلي :

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

(٦) مأخوذ من قول المتنبي :

بنو كعب . وما أثرّت فيهم يد لم يُدمِها إلا السوارُ

ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله وسمهري عرضه على النار مثقفه

وعبد ذهب به سيّده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا . ومن يك حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم !

هذا العتب محمود عواقبه[1] . وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي وسحابة صيف عن قليل تقشّع[2] ولن يريبني من سيّدي أن أبطأ سيبه أو تأخر غير ضنينٍ غناؤه . فأبطأ الدلاء فيضاً ؛ أملؤها . وأثقل السحائب مشياً ، أحفلها[3] وأنفع الحيا ، ماصادف جدباً . وألذ الشراب ؛ ما أصاب غليلاً[4] ومع اليوم غدٌ[5] ولكل أجل كتاب . له الحمد على اهتباله . ولا عتب عليه في اغتفاله .

فإن يكن الفعل الذي ساء ؛ واحداً

فأفعاله اللائي سررْنَ ؛ ألوف

---

(١) مأخوذ من قول المتنبي :

لعلّ عتبك محمود عواقبه وربما صحّت الاجسام بالعلل

(٢) في الامثال : غمرةٍ ثم تنجلي . سحابة صيف عن قليل تقشع

(٣) مأخوذ من قول المتنبي :

ومن الخير بطء سيبك عني أسرع السحب في المسير الجهام

(٤) مأخوذ من قول القائل :

هذا الشراب ؛ أخو الحياة . وماله من لذة حتى ؛ يصيب غليلا

(٥) مأخوذ من قولهم : إن مع اليوم غداً

أعود فأقول : ما هـذا الذنب الذي لم يسعـه عفوك ! ؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك والتطاول الذي لم يستغرقه طولك والتحامل الذي لم يفِ به احتمالك ! ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين عدلك ؟ أو مسيئاً فأين فضلك :

إلاّ يكن ذنب؛ فعدلك واسع أو كان لي ذنب؛ ففضلك أوسع

حنانيك !! قد بلغ السيل الزبى . ونال ما حسبي به و كفى .

الرسالة الهزلية :

كان الحبّ متبادلاً بين ابن زيدون وولاّدة الأموية بنت المستكفي . والحبّ قد يعروه فتور أو جفوة أحياناً ثم لا يلبث أن يعود أشدّ عنفاً وثورة . ثم يعود فيهدأ ثم يثور وهكذا . . تلك طبيعة الحب واندفاعات الغيرة والحسد والشهوة والغريزة الجنسية . . . وهذا ما حدث لابن زيدون . فقد كان منافسوه على ولاّدة كثيرون وأشدهم منه غيرةً ابن عبدوس . وتربّص إلى يوم فترت فيه العلاقة بينها وبين ابن زيدون . فأرسل إليها امرأة كانت عشيقة له يتحبب إليها ويعرض عليها حبّه وقلبه وجاهه . فظفر بها . ثم ما لبثت أن انقلبت إلى حبيبها السابق . فأراد أن ينتقم من ابن عبدوس ويسخر به . فأرسل إليه رسالته هذه يتهكم به فيها . ويوسعه وخزاً ونهساً . كتبها على لسان ولاّدة ! ولعلّها لم ترها

ولم تطلع عليها ولم يكن لها بها رأي . وأنت تذكر هجاءه إياه وهجاء ولادة معه وجوابها عليه . فلما عاد الحب إلى مجراه ؛ نسي الحبيبان الخصومة الماضية والنفور والهجاء والعتاب وأقبلا يتهافتان على ابن عبدوس ضحكاً وتهكماً . وأغراض الرسالة هي :

١ – النعي عليه في الاستناد على عشيقته واتخاذها واسطة بينه وبين ولادة .

٢ – المبالغة في تصوير عظمة ابن عبدوس إلى درجة السخرية المضحكة .

٣ – ردّ ولادة إياه وتقبيحها شكله وجاهه ... وأنه لا يتسامى إلى طبقة الرجال الذين ترغب فيهم لو رغبت بغير ابن زيدون .

نموذج من الرسالة الهزلية :

أما بعدُ : أيها المصاب بعقله . المورّط بجهله . البيّن سقطه . الفاحش غلطه . العاثر في ذيل اغتراره . الأعمى عن شمس نهاره . الساقط ؛ سقوط الذباب على الشراب المتهافت ؛ تهافت الفراش في الشهاب . فإن العجب أكذب . ومعرفة المرء نفسه أصوب . وإنك راسلتني مستهدياً من صلتي ؛ ماصفرت منه أيدي أمثالك . متصدّياً من خلتي ؛ لما قرعت دونه أنوف

أشكالك . مرسلاً خليلتك مرتادة . مستعملاً عشيقتك قوّادة . كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إليّ . وتخلف بعدها عليّ :

ولست بأول ذي همةٍ دعته لما ليس بالنائل

ولا شكّ أنها ملّتك إذ لم تضنّ بك . ومللتها إذ لم تعزّ عليك . فإنها أعذرت في السفاره حصناه والانسانية ؛ اسم : أنت جسمه وهيولاه . قاطعةً أنك انفردت بالجمال . واستأثرت بالكمال . واستعليت في مراتب الجلال . واستوليت على محاسن الخلال . حتى خيّلت أن يوسف (عليه السلام) حاسَنَك ؛ فغضضت منه . وأن امرأة العزيز راُتك ؛ فسلَتَ عنه . وأن قارون ؛ أصاب بعض ما كنزت . والنَطِف ؛ عثر على فضل ما ركزت . وكسرى ؛ حمل غاشيتك . وقيصر ؛ رعى ماشيتك . والاسكندر ؛ قتل دارا في طاعتك . وازدشير ؛ جاهد ملوك الطوائف بخروجهم من جماعتك . والضحاك ؛ استدعى مسالمتك . وجذيمة الأبرش ؛ تمنّى منادمتك . وشيرين ؛ قد فاخر بوران فيك . وبلقيس ؛ غايرت الزبّاء عليك . وأن مالك بن نويرة ؛ إنما رادف لك .

. . .

فلأنت : هجين القذال . أرعن السبال . طويل العنق .

والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة . بغيض الهيئة . سخيف الذهاب والجيئة . ظـاهر الوسواس . منتن الأنفاس . كلامك تمتمة . وحديثك غمغمة . وبيانك فهفهة . وضحكك قهقهة . ومشيك هرولة . وغناك مسألة . ودينك زندقة . وعلمك مخرقة :

مَساوٍ لو قُسمن على الغواني لما أُمهِرْن إلاّ بالطلاق ! !

مقابلة :

يشبه ابن زيدون شاعران من شعراء المشرق هما : النابغة في الاعتذار . والبحتري في صفاء الديباجة وإشراق المعاني ورقة الألفاظ واللصوق بالطبيعة وإرسال النَّفْس على طبعها وإطلاق الشاعرية على سجيتها . لولا بعضُ قيود بديعية أخصّ منهـا الجناس والطباق . حتى لا يكاد يخلو بيت من قصائده من محسنّة لفظية أو معنوية . ولقد أحبَّ البحتريَّ وقلّده . لا في طبيعته وحسب . بل حتى في بعض مواضيع قصائده . وعارضه في الوزن والقافية ! فقصيدته (أضحى التنائي) تعارض قصيدة البحتري :

يكادعاذلنا في الحبّ يغرينا فما لجاجك في عذل المحبينا

وقصيدته في وصف موكب المعتضد ودخوله عليه تعارض قصيدة البحتري في المتوكل :

قصيدة ابن زيدون	قصيدة البحتري
فلما قضينا ما عنانا أداؤه	ولما حضرنا شدة الإذن، أخرت
وكلٌّ بما يرضيك داع فملحفُ	رجالٌ عن الباب الذي أنا داخلهْ
وعدنا إلى القصر الذي هو كعبةٌ	فأفضيت من قربٍ إلى ذي مهابةٍ
يغاديه منا ناظرٌ أو مطرّف	أقابل بدرَ التم حين أقابلهْ
إذا نحن طالعناه ـ والأفق لابس	كما انتصب الرمحُ الرديني ثقفت
عجاجته والارض بالخيل ترجف ـ	أنابيبه واهتز للطعن عاملهْ
رأيناك في أعلى المصلّى . كأنما	وكالبدر وافيناه تم سعودُه
تطلع من محراب داود . يوسف	وتم سناهُ واستهلت منازله
ولما حضرنا الإذن ـ والدهر خادم	وسلّمت ؛ فاعتاقت جناني هيبةٌ
تشير فيمضي ـ والقضاء مصرف	تنازعني القول الذي أنا قائله
وصلنا وقبّلنا الذي منك في يدٍ	دنوت فقبّلت الندى من يد امرئٍ
بها يتلف المال الجسيمُ فيخلف	كريم محياه ، سياط أنامله

وأمثال هذه القصيدة ؛ كثير من المعاني والأساليب والجمل البحترية تراها منثورة في ديوان ابن زيدون . فلهذا ، ولشدّة مشابهته له ؛ سمّي بحتري المغرب .

أمّا اعتذارياته ؛ فقريبة الشبه من اعتذاريات النابغة . كلاهما يعتقد البراءة مما وُصم به . وكلاهما يقسم الأيمانُ ليعزّز بها دعواه حين تعجزه الأدلة ولكن النابغة أكثر تذللاً وخوفاً . مع أنه لم يكن حبيساً في سجن كالسجن الذي حبس فيه ابن زيدون مع اللصوص والمجرمين !!

وأمّا ترسّلُه ؛ فيشبه نثر الجاحظِ من حيث الترادف في اللفظ والجملة وتقليب الكلام على حروف الجرّ المختلفة والتبسّط في الشرح . ولكن ديباجته ونسجه العام ؛ عميدي لا شك فيه .

وابن زيدون ؛ قويّ اللغة . عالمٌ بألفاظها وأساليبها . محبٌّ للتفنّن بها . مثال ذلك ؛ ما يحكي : أنه أصيب بفقد عزيز عليه . فلما وقف لقبول التعازي ؛ لم يُجِب أحداً بما أجاب به غيره . وهذه القصة ؛ بقطع النظر عن المبالغة فيها ؛ تدلنا على حبّه للتفنن حتى في مواقف الحزن . كما تدلّنا على بعد غوره في اصطياد الألفاظ المختلفة وإلباسها جميعاً معنى واحداً . ولكنا مع هذا ؛ نراه يتساهل أحياناً في تسهيل الهمزات في شعره ويلجأ إلى المسامحات التي تباح للشاعر دون الناثر كما في قصيدته السينية .(ما عَلى ظنّي باس) .

آخر أيام ابن زيدون :

قامت ثورة أهلية في اشبيلية ضد اليهود . وكاد يمتدّ لهيبها إلى سائر مدن المملكة العبادية . فأشار الوزير ابن عمار وابن مرْتين رئيس الحرس ؛ على المعتمد بن عباد ؛ أن يكلّف ابن زيدون في تهدئة الحركة . وما مقصدهم إلاّ إبعاده عن

حزبه في قرطبة والتخلص من منافسته وقوّته . وقرّ في نفس المعتمد هذا الرأي . فعزم عليه ليذهبنّ إليها . فرضي مكرهاً . واستطاع أن يقوم في اشبيلية بعمل حاسمٍ في مدة قصيرة . غير أن المنيّة وافته . ولم يطل نزاعه فتوفي عام ٤٦٣ هجرية . ودفن في إشبيلية . وأقيمت له حفلات رثاءٍ كبرى ، اشتركت فيها جميع الطبقات . وما تسامعت قرطبة بخبر وفاته ؛ حتى خيم الحزن عليها وأعلنت التعزية رسمياً .

والتاريخ ؛ يحدثنا بعد ذلك : أنّ أحد أولاد ابن زيدون . قد وُفّق إلى تسنّم الوزارة وكان سببا في قتل ابن عمّار من يد المعتمد نفسه ، فانتقم بذلك لأبيه ! !

عاش ابن زيدون في جوٍّ ملوءٍ الحسد والشماتة . فهل تخلص منهما بعد موته وكفّ الناس عن انتهاش لحمه يا ترى ؟!

مراجع هذا البحث

١ — الديوان

٢ — الرسالتان الجديّة والهزلية

٣ — نفح الطيب

٤ — قلائد العقيان

٥ — دائرة المعارف الإسلامية

٦ — الأدب العربي للزيات

٧ — نظرات في الأدب الاندلسي للكيلاني

٨ — غزوات العرب في الغرب لأرسلان

أحمد شوقي

تاريخ

في القرون الوسطى :

وقفنا في الشرق عند عصر أبي العلاء وكانت الأمور فوضى في كل ناحية من نواحي الحياة سياسةً واجتماعاً واقتصاداً وعلماً ... وقد استقلّ في كل صقع أمير ؛ أعلن ملكيته المطلقة وأخذ يناوئ جيرانه من الملوك الصغار أمثاله . ويخاصمهم حباً في التسلط والسيادة والغزو والفتوح .

وكذلك كانت حال المغرب والأندلس في القرن الرابع . حروب وثورات وفتن ترفع كل يوم أميراً وتتوّج ملكاً وتهبط بعزيز وتذهب بخليفة .

هذه الفوضى الحقيرة . والثورات الناجمة عن حب الزعامات والرئاسات والتملّك ؛ أطمعت الأغراب في المسلمين ، فهاجم الإسبانُ الاندلسَ واستولوا عليها وطردوا المسلمين طرداً شنيعاً جداً وعاملوهم بقسوة وفظاظة وغلظة . فتنصّر قسم منهم ليتخلص من العذاب . وفرّ القسم الآخر من أحرار الفكر إلى الشام ومصر لاجئين بحريتهم إلى حماها وبعقولهم إلى حرّيتها !!

ولكن هل كان الشرق خيراً من الغرب ؟ ! لقد تكالب الأمراء والملوك على الجاه والسلطان والزعامة . حتى طمع فيهم مواليهم وجيرانهم من الترك والأرمن والروم . . . وهاجمهم هولاكو فاستولى على بغداد وبدّد مكتباتها الشهيرة وقتل وفتك وعاد غانماً بعد أن ترك وراءه الديار خراباً والنفوس حسرى والعقول مشدوهة والهمم مشلولة والإباء ميتاً . وما أسرع ما جاءهم تيمورلنك الفاتح المغولي الوحش ؛ حتى قضى على البقية الباقية من الحرّية والشمم والعلم والعقل . فأحرق الديار وهدم البلاد وقتل العباد وأباح النساء وسبى وعاد غانماً لم يرزأ بواقعة ذات بال . فخنس العرب والمسلمون واجمين . ولم ينتبهوا إلاّ على لمع البوارق والصلبان تخطر في الشرق والغرب لتخلّص البلاد المقدسة من أيديهم . فحدث فيهم ردّ فعل قويّ وتنبّهوا لضرورة المقاومة والحياة . ودامت الحرب مئتي عام يصطلحون فيما بينهم تارة ويتهادنون زمناً . ثم يعود النضال إلى ما كان عليه . وأوربا تقذفهم بالجيش تلو الجيش حتى عجز الطرفان ، الشرق والغرب ، وتهادنا هدنةً دامت حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي . وأهم الدول الإسلامية التي نشأت في هذا الدور المظلم وكان

لها شأن في الحركات السياسية والحربية والعلمية ؛ هي الدولة الأيوبية ثم دولة المماليك ثم دولة آل عثمان التركية .

في أواخر القرن السابع الهجري نشأت الدولة السلجوقية في الشرق وسميت بعدُ بالدولة العثمانية نسبة إلى عثمان أحد أوائل ملوكها . وما زالت تغزو في بلاد الروم حتى افتتحت القسطنطينية في أوائل القرن العاشر الهجري وجعلتها عاصمة ملكها . ثم توجهت نحو بلاد العرب فافتتحت سوريا ومصر والعراق والجزيرة العربية . وامتد سلطانها إلى شمالي افريقيا ؛ وعيّنت على الحواضر الكبرى ولاةً من الاتراك وحجزت اسم الخلافة فيها مدى أربع مئة عام تقريباً كانت خلالها تحاول تتريك العرب والقضاء على لغتهم وحرّيتهم . وكان آخر من أعلن هذه الفكرة بصراحة ؛ جمعية الاتحاد والترقي التي استلمت الحكم في أوائل القرن الرابع عشر الهجري (عام ١٩٠٨ ميلادية) وأرسلت خلال الحرب العالمية الأخيرة مندوبها جمال باشا على سوريا وفلسطين أميراً شبه مستقل؛ فأمعن في القتل والنفي والتشريد حتى لم يعد يجرؤ أحد أن يلفظ كلمة العروبة . ولكن واحسرتاه ! لم نتخلص من أيدي الترك إلا لنقع في براثن الافرنسيين والانكليز عام ١٩١٨ ميلادية يتكالبون على بلادنا ويمعنون فينا

تقتيلاً وإرهاقاً وعذاباً ؛ حتى فاضت أرواح الآلاف في ثورتي سوريا وفلسطين تحت الهدم والحرق وفي ساحات الشرف والجهاد الحرّ . ولا نزال نقاوم !!

رشيم الانبعاث :

أعلنت الثورة الافرنسية عام ١٧٨٩ فدوى صوتها في أوروبا دوياً هائلاً لأنها حاولت قلب النظام الاجتماعي قلباً لا رحمة فيه . والقضاء على العروش وجعل الحكم في يد الشعب . ولكن الثورة كانت كالهرّة تلد بنيها ثم تأكلها . وما يكاد يظهر نجم أحد الزعماء حتى يحسده الباقون ويسعون في الخلاص منه ولو بقتله . ولمع نجم الشاب نابليون بونابارت وتعلّق به الشعب للنصر المتتابع الذي كان يحوزه في مختلف ساحات القتال . وكان طموحاً ؛ فخاف منه الزعماء المسيطرون على الحكم ؛ فأرسلوه على رأس حملة إلى مصر — بناء على اقتراحه — ليقطع طريق الهند على الانكليز ولكن الحقيقة انهم خافوا منه فأبعدوه !! .

هبط نابليون بونابارت مصر ؛ واستولى عليها بسرعة وسهولة لعُدده الممتازة وسلاحه الحديث وضعف المماليك وتفرّق الشعب عنهم لظلمهم . ولعب الخيال في رأس نابليون فتوهم امبراطورية عظمى حول البحر المتوسط يقودها بأمره كامبراطورية روما

وكأنما أعجبه هذا الخيال ؛ فعمل على تحقيقه بجعل مصر مركزاً لحركاته وأعماله . وقام — ليحبّب المصريين به — بإصلاحات عديدة . وأظهر التديّن بالدين الاسلامي ليكتسب محبة الشعب وأسّس مطبعة وجريدة تساعده على نشر الدعاية الكافية . وحمل معه من العلماء المختصين بذرةً صالحةً لنشر الثقافة في مصر واشتغل بجد ونشاط عجيبين كالحركة الدائمة . فتعجب المصريون من هذه الحركة الثقافية والعسكرية والسياسية واطلعوا على أشياء لم يكونوا يعرفونها ؛ فتنبهوا لجهلهم وغرورهم وخمولهم تلك الصفات السيئة التي أوصلتهم إلى هذه الدركة من الامتهان والمذلة .

لم يطل مقام الافرنسيين في مصر . بل غادروها عام ١٢١٦ هجرية (١٨٠١ ميلادية) ولكن البزرة التي غرسوها لم تمت .

الدولة العلوية في مصر :

لم تسكت الدولة العثمانية على دخول نابليون مصر . بل ما زالت تقاوم الجيوش الافرنسية بمساعدة انكلترا حتى استطاعت إجلاءها عنها عام ١٨٠١ ميلادية . وكان في جملة الجنود التركية شاب أرناءوطي ممتاز الذكاء والعبقرية اسمه محمد علي . ارتقى بجدّه ونشاطه ودهائه ؛ إلى أن استلم الحكم في مصر بعد

قتل بقايا المماليك ، وأسّس إمارة مستقلة تحت إشراف الدولة العثمانية .

وقد نجحت في الوقت نفسه حركة عربية عاصفة في جزيرة العرب ساقها الوهابيون من نجد إلى الحجاز . فخافتها الدولة العثمانية وضربتها بمحمد علي فأخمدها . وعادت جيوشه ظافرةً . فلعب به غرور الملك وعزة السلطان ؛ أن أرسل ابنه ابراهيم باشا إلى سوريا فافتتحها . ثم دخل الاناضول وكاد يصل القسطنطينية فردّته انكلترا عنها وألزمته حدوده في مصر . وما مات محمد علي ؛ حتى كانت الدولة المصرية قد وطّدت أركانها وأسّست بنيانها وفتحت عينيها إلى النور ، فإذا الغرب في السماء والشرق في الحضيض الأوهد . وقد نسبت هذه الدولة إلى اسم مؤسسها الأول محمد علي فقيل لها : الدولة العلوية .

في جزيرة العرب :

أما جزيرة العرب ؛ فقد عادت إليها الحياة القبلية والزعامات الاقطاعية والثورات الرومانتيكية منذ القرن الرابع . وما زالت تتخبّط في دياجير حالكة من الجهل والخمول والفوضى ؛ حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري حيث استقرت فيها الدولة الزيدية في اليمن والوهابية في نجد والهاشمية في الحجاز . ثم

استطالت الوهابية إلى الحجاز فقضت على العرش الهاشمي وأصبحت بلاد العرب اليوم يحكمها في العراق دولة هاشمية شبه مستقلة . وفي الحجاز ؛ الوهابية . وفي اليمن ؛ الزيدية . يتخلل هذه الدول الكبرى [بالقياس إلى جزيرة العرب] بعض إمارات كلها تحت الحماية الانكليزية إما علناً وإما متسترة بستارٍ سخيف .

مصر :

كان يسمى أمير مصر من قبل الدولة العثمانية ؛ الخديوي . وما زال هذا اللقب محتفَظاً به حتى الحرب العامة حيث لقّب بالسلطان . ثم لقب بعدها بالملك ونودي بصاحب الجلالة . وأشهر الأمراء من السلالة العلوية ؛ اسماعيل وتوفيق . ففي عهد الأول خطت النهضة خطوات متسعة جداً بما أَرسل من بعثات إلى أوروبا وبما افتتح من مدارس ومستشفيات وملاجئ وبما أصلح في القضاء والزراعة والتجارة وبما أسس من مصانع وبنى من قصور وافتتح من شوارع وشقّ من ترع . حتى كادت مصر ترقص لهذه النهضة رقصاً . لولا إسراف الأمير وإفراطه في الانفاق الذي أَوقع الامارة في عجز مالي وأَرهق الشعب بالضرائب . فأمدّته الدول الغربية بالمال . ثم تداخلت في شئون البلاد المالية . وأفضى الأمر إلى خلعه وتولية ابنه توفيق عام

١٨٧٩ ميلادية وفي عهد هذا ؛ نجمت الثورة العرابية فأدّى الأمر إلى احتلال الانكليز مصر عام ١٣٠٠ هجرية ١٨٨٢ ميلادية باسم المحافظة على الأمن ولا تزال فيها إلى الآن ! ! .

النهضة :

كان من نتائج الفتن والانحطاط السياسي في القرون الوسطى ؛ انحطاط اجتماعي وأخلاقي وانهيار في الجهل وتيه في العاميّة حتى لم نستطع أن نعدّ أديباً بارعاً أو شاعراً ممتازاً بعد عصر أبي العلاء . وما كان شعراء قرون الانحطاط أمثال البهاء زهير وصفي الدين الحلّي وابن نباته والبوصيري والتلعفري والشاب الظريف وابن مطروح وابن الفارض ... لم يكن هؤلاء الشعراء إلاّ أصداءً مقلّدين متكلفين لأنواع البديع مكتفين برنين الألفاظ عن طنين المعاني .

كان الأيوبيون ينشطون الأدب قليلاً فنبغ في زمنهم بعض الأدباء ؛ وكان أكثرهم يعانون الشعر والترسّل معاً كالقاضي الفاضل . ولكن أدبهم متكلّف سخيف .

وجاءت دول المماليك ؛ فشجعت العاميّة لأنها لا تفهم اللغة الفصحى . فكثر التوشيح ثم الشعر الشعبي المنحط في اللغة والألفاظ والمعاني والتصاوير .

وكانت الدولة العثمانية ثالثة الاثافي . وإنها — وإن قبلت الاسلام ديناً — لكنها بعد أن استفادت من ألفاظ اللغة العربية وتعابيرها ما يكفل حياة لغتها التركية . تنمّرت للغة العربية فخنعت صامتةً يائسة . وتلهّى شعراؤها بالألفاظ والتقليد وسخافات النظامين كالترقيط والإعجام والاحاجي ودسّ التواريخ في الشعر وما شابه ذلك من رثاثة وغثاثة .

وما كادت الدولة العلوية في مصر تفتح عينيها إلى النور حتى شعرت بضرورة العلم والثقافة . فأرسلت البعوث إلى أوروبا فكانوا بعد رجوعهم ؛ خير أداة فعّالة في نقل علوم الغرب إلى الشرق بما ترجموا وألفوا ونشروا . وكان للمطبعة أكبر الفضل في نشر العلوم الحديثة والكتب القديمة . يقول طه حسين : « ويجيء عصر اسماعيل فإذا تيّاران مختلفان يتنازعان مصر . أحدهما يأتي من أوروبا في كتب العلم والأدب التي يحملها الوافدون وينقلها المبعوثون فلا تلبث أن تُدرس وتترجم . والآخر يأتي من القاهرة نفسها يأتي من المساجد والأضرحة ودور الأعيان والأغنياء ؛ يخرج من مستقرّه مجلدات نحيفة أو ضخمة قد علاها الغبار وعبث بها البلى . ولكنه لا يكاد يصل إلى بولاق أو إلى غيرها من أحياء القاهرة حيث استقرّت المطابع ؛ حتى

يستحيل ؛ فإذا هو سيل غزير قويّ عنيف . فيه كثير من الصفو وقليل من الكدر . ويلتقي التياران في عقول الشباب المصري في الازهر حيناً وفي المدارس المدنيّة حيناً آخر . فينتج من التقائهما هذا الجيل الأدبي الجديد الذي ظهر على رأسه البارودي والذي نشأ في حجرة شوقي وحافظ في الثلث الاخير من القرن الماضي . . »

وقد نسي طه حسين ؛ عمل السوريين في مصر . فإن لهم فضلاً كبيراً جداً على النهضة المصرية . وهم أول من أنشأ الجرائد الكبرى كالاهرام . والمجلات ذات الثقافة العالية كالهلال والمقتطف . . وسبب قيام النهضة في مصر على أيدي السوريين وعدم قيامها في سوريا ؛ أن الفوضى الاجتماعية والسياسية والفقر والضغط والإرهاق لم يترك للشباب الذي تنسموا ريح الحرية مجالاً للتنفس . فهاجر قسم عظيم منهم إلى أمريكا ومصر حيث الحرية والنور فانشئوا في الغرب جاليات عربية ممتازة لها جرائدها ومجلاتها . وظهر منهم كتّاب وشعراء مجيدون أمثال جبران والريحاني وايليا أبي ماضي وميخائيل نعيمة . وظهر في مصر آل تقلا وزيدان وصرّوف .

والباعث على النهضة في لبنان ؛ هو علاقة اللبنانيين — بسبب

النصرانية — بأوروبا وفتح المدارس التبشيرية في لبنان. وأشهر هذه المدارس الجامعة الامريكية. وهي نضا هي الآن أعظم جامعات العالم في الأسلوب الثقافي ودقة النظام الحرّ. خرّجت هذه الجامعة كثيراً من الشباب المتشبّع بالحرية الفكرية والشك العلمي [1] وأشهر العائلات التي نبغ فيها العلماء العاملون هي: آل اليازجي والبستاني وحداد وزيدان وأرسلان. وأخذوا ينشرون آراءهم الحرّة في جرائد ومجلات أسّسوها لهذه الغاية فطاردتهم الحكومة التركية. ففروا إلى مصر وأمريكا وأيقظوا النهضة الفكرية هناك وبقيت سوريا ولبنان مغمورتين حتى دوت أول رصاصة لثورة الحسين في مكّة ردّاً على فظاظة جمال باشا في سوريا وتقتيله الاحرار. ثم انتهت الحرب باحتلال انكلترا فلسطين وفرنسا سوريا وإمعانهما في الضغط السياسي. ولكنهما أطلقتا الحريّة الفكرية في غير ما يتعلق بالسياسية. فنشرت الجرائد والمجلات والكتب وتأسست المدارس والجمعيات للرجال والنساء. واتصلت بمصر وأمريكا فارتبط العرب في أقطار الدنيا بعضهم ببعض ووثقت العلاقة بينهم

(١) للتوسع في البحث: راجع كتاب شوقي وحافظ. وهو مجموعة خطب عصبة الادب في رثاء الشاعرين بحلب وخطاب المؤلف صفحة ١٠ — ١١ — ١٢.

المصائبُ والآلامُ وطلبُ الاستقلال حتى أصبح آخر الشعراء في البرازيل مثلاً كالشاعر القروي يئن بقصائده الممتعة لمصاب الشام . والشاعر الدمشقي ينظم في ثورة مصر وزعمائها فيتردد صداه في العراق واليمن . وتزاور العرب في مختلف أقطارهم فكانوا يستقبلون دوماً بحفاوه وإكرام كالريحاني الأمريكي في جزيرة العرب . وشوقي وحافظ المصريين في دمشق . والكاظمي والرصافي العراقيين في مصر . و كانت الجرائد من أكبر عوامل هذا الاتصال والتحابب . وقد انتشرت انتشاراً عجيباً و كثر عددها كثرةً فاحشةً في دمشق وبيروت والقاهرة وبغداد حتى سبقت بالعدد إذا — قيست إلى السكان — جميع النسب في أكبر بلاد العالم . ولكنها لا تزال في سوريا والعراق ولبنان ضعيفة عارية الضلعين بالقياس إلى جرائد مصر وأوروبا . ولهذا أصبح الشاعر النابغ لا يشتهر في محيطه فقط . بل ما يكاد يظهر ؛ حتى يتردد صدى ألحانه وأهازيجه في كل قطر يسكنه عربي . من العراق إلى مراكش إلى اليمن إلى أمريكا .

وسار الأدب إلى جانب هذه النهضة العلمية واليقظة الفكرية سيراً حثيثاً . ولكنه بقي مقلّداً حتى الآن . بعضهم يجعل مثله الأعلى دواوين العرب في القرن الثالث والرابع كحافظ

ابراهيم وهم أقوياء اللغة ، ضعفاء الفكرة . وبعضهم يتبع مثله الأعلى في دواوين شعراء أوروبا الفرنسيين والانكليز . وأكثر هؤلاء ؛ ضعيفو اللغة في ركاكة أسلوب وغثاثة تراكيب . وحاول بعضهم أن يتوسط بين الفريقين يأخذ من قديم اللغة تراكيبها الخاصة . ومن جديد أوروبا ؛ جمال الفكرة . ولكنهم لم يوفقوا حتى الآن . ولا يزال الأدب يتخبط في طريق ملتوية ولم يتخذ لنفسه نهجاً سوياً وهدفاً معيناً . وأشهر من امتاز في ذلك فكان لساناً ناطقاً للفئة المعتدلة بين الفريقين ؛ هو أحمد شوقي بك .

أحمد شوقي بك

مولده ونشأته :

في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي إذ كانت العلاقات حسنة بين محمد علي الكبير خديوي مصر وأحمد باشا الجزار والي عكا . حمل شاب كردي اسمه أحمد شوقي ؛ رسالة توصية من الجزار للخديوي . فقبلها أحسن قبول وهيأ له وظيفة في قصره فأظهر فيها كفاية ودراية وإخلاصاً مما حبّب فيه مولاه . وما زال يرتقي في سلم الوظائف وثباً ، حتى أصبح أميناً للجمارك المصرية في عهد الخديوي سعيد باشا وجمع ثروة طائلة بدّدها ابنه علي بك في سكرة الشباب ونزوة الصبا . وكأن الطبيعة لم تشأ إلا أن تعوّض عليه الخسارة المادية بربح معنوي عظيم جداً إذ ولد له ولدٌ عام ١٨٦٨ سمّاه على اسم جدّه أحمد شوقي فجاء نابغة عصره وأحيا اسم عائلته وجمع ثروتين عظيمتين ماديّة ومعنوية . وتردّد اسمه في الخافقين بعد ثلاثين عاماً من ولادته . وحمل أكبر اسم أدبي في العصر الحاضر فنودي به أميراً للشعراء العرب . لم ينازعه هذا اللقب أحد حتى توفيّ عام ١٩٣٢ ميلادية .

نشأ شوقي في حجر جدّته لامّه نمزاز . وهي يونانية الأصل سباها ابراهيم باشا في حرب موره يوم استجاش جيوشه لمعونة الحكومة التركية على اليونان الثائرين . وكان عمرها عشر سنوات فربّاها في القصر . ثم أزوجها وهي صبيّة لمحمد بك حليم أحد رجاله الأتراك فولدت له بنتاً ؛ كانت أمّاً لشوقي الشاعر .

ونمزاز هذه ؛ كانت مولعةً بشوقي تحمله معها في زياراتها دوماً ومرةً ؛ زارت القصر ومعها الطفل شوقي في الثالثة من عمره فرآها الخديوي اسماعيل . ورأى بصر الطفل لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه فأمر ببدرةٍ من الذهب ألقيت بين يديه الصغيرتين فأخذ يعبث بالدنانير مأخوذَ اللب بلونها الأصفر ولمعانها . وأنزل بصره إليها ليجمعه ويلعب به فقال لها الخديوي: اصنعي به هكذا يرتدّ بصره إلى الأرض ! ! فقالت على الفور، وهل يكون هذا الدواء إلاّ من صيدليتك يامولاي ؟ ! ! قال جيئي به إليّ متى شئت . فأنا آخر من ينثر الذهب في مصر . ولكن هذا الارتجاج العصبي ، لم يزل عنه طول الحياة ؛ وفي الرابعة من عمره ؛ أدخل المدرسة فكان طفلاً عادياً . ولما بلغ الخامسة عشرة ؛ أدخل الحقوق فدرس عامين . ثم فتح فيها فرعٌ خاص للترجمة فدخله وتخرج منه بعد سنتين يحمل الاجازة في الحقوق والترجمة .

وكان خلال مدّة دراسته يعاني نظم الشعر. واطلع على بعض الدواوين التي كانت تطبع في عهده وتعلّق بالبهاء زهير وقرأ أخبار المتنبي فطمع إلى مثل منزلته وتمنّى أن يكون من الأمير؛ كالمتنبي من سيف الدولة. وشغلت هذه الفكرة فراغ نفسه وجعلها كلّ همّه. لذلك أخذ يمدح الأمير في كل مناسبة وينشر المديح في الجرائد لتقدّمه هذه القصائد إليه. وقد نفعته هذه الطريقة إذ لم يكد ينل الشهادة؛ حتى استدعاه الخديوي توفيق وأبلغه امتنانه منه وأرسله إلى فرنسا يدرس الحقوق على نفقته.

شبابه (في فرنسا):

سافر شوقي إلى فرنسا عام ١٨٨٧ ميلادية فمكث عامين في مونبيلية قام بعدهما برحلةٍ إلى انكلترا على نفقة الخديوي مع الطلاب المصريين. وقضى شهراً فيها فأصيب من جوّها الغائم وضبابها الدائم؛ بمرض خطير. فأشير عليه أن يسافر إلى افريقيا. فقضى في الجزائر أربعين يوماً تمتع بعدها بصحةٍ ممتازةٍ، كسبها من شمسها المشرقة وجوّها المعتدل وسمائها الصافية. وعاد إلى باريس فقضى عامين نال بعدهما الشهادة النهائية. وأراد الرجوع إلى مصر فأشار عليه الخديوي عباس أن يبقى ستة

أشهر أخرى ينزّه نفسه في بلاد النور والحريّة ويتعرّف إلى البلاد والعباد والطباع والأخلاق الافرنسية ففعل . ولما عاد إلى مصر استقبله الخديوي عباس كما يستقبل ابنه وأحلّه من نفسه منزلةً ساميةً وألحقه بقصره .

في سويسرا وبلجيكا :

عقد في جنيف عام ١٨٩٤ مؤتمر للمستشرقين فانتدب شوقي ليمثل مصر فيه . فألقى قصيدته المشهورة الهمزية التي يصف بها تاريخ مصر وصفاً لطيفاً فيه شعر وتاريخ ووطنية مصرية حقيقية . وأقام في سويسرا شهراً حتى إذا انفضّ المؤتمر ؛ سافر إلى بلجيكا فزار معرض انفرس ثم انثنى إلى الاستانة فمكث أربعين يوماً عاد بعدها إلى مصر فعين رئيساً لقسم الترجمة في القصر وأصبح شاعر الأمير الخاص ينادي بملء ماضغيه فخراً وتيهاً :

شاعر الأمير وما بالقليل ذا اللقب

شاعر الامير :

لقد وصل شوقي إلى ما يصبو إليه وأصبح شاعر الامير يردّد صداه كالبوق . فتهافت عليه أصحاب الحاجات وطلاب الوظائف والرتب والأوسمة يلتمسونه لقضاء حاجاتهم عند

صاحب القصر . فلم يردّ طالباً خصوصاً لرواة شعره — كما يقول زكي باشا — وعرف كيف يستفيد من مركزه هذا ؛ فجمع ثروة حسنةً . ثم أصهر إلى رجل من العائلات الارستقراطية الموسرة فحملت إليه زوجه من إرثها مالاً كثيراً ساعده على بناء عائلة مترفة منعّمة . وانتقل إلى قصر بناه على شاطيء النيل بعد أن كان من تمام سعادته أن لا يجيئه الجابي أو صاحب الملك في آخر كل شهر لمطالبته بكراء البيت ، هكذا يقول أحمد زكي باشا .

في اسبانيا :

نشبت الحرب العالمية عام ١٩١٤ ميلادية وخافت انكلترا من عدوتها تركيا . وكان الخديوي عباس على صلة بها فخلعته عن عرش الامارة وعيّنت حسين كامل مكانه ولقبته بالسلطان وأنذرت الشاعر بمغادرة مصر كأن وجوده خطر على مكانتها فيها !! فغادرها إلى اسبانيا عام ١٩١٥ ميلاديه واتخذ برشلونة مركزاً له . حتى إذا هدأت الحرب ؛ عاد إلى مصر أواخر عام ١٩١٩ ميلادية — بعد أن زار كلّ آثار العرب في الأندلس — وحاول أن يتصل بالقصر فلم يلتفت القصر إليه . فاضطربت نفسه لهذا الحرمان . ثم استعاض عن القصر بالشعب . فاتصل

به وخاطب عواطفه فإذا به يحرّك أوتاره بيديه ويعزف عليها بأنغامه فيهتز طرباً واضطرابا . عند ذلك ؛ أدرك شوقي أن خلوده الحقيقي هنا ؛ عند الشعب ؛ لا في قصر الأمير .

شاعر الشرق والاسلام :

أدرك شوقي سرّ الخلود في الشرق فأنشأ الشعر في كل حادثة اجتماعية كبرى . أو عقدة سياسية عظمى ، ووصف كل نائبة وهزّ كل عاطفة لا في مصر وحدها بل في كلّ البلاد العربية والاسلامية فسار شعره مسير الشمس ، واختلط بكل نفس ، وتناقلته الجرائد واحدة عن واحدة ، وأغدقت عليه الألقاب — كعادة الشرقيين في التعظيم والتهويل — حتى أصبح يقول بحق :

كان شعري الغناء في فرح الشر — ق وكان العزاء في أحزانه

وحق له أن يفتخر بهذه الشهرة ويتعالى فيقول :

رواة قصائدي فاعجب لشعرٍ بكلّ محلّة يرويه خلقُ

وكان هو يعرف كيف يتملّق الجرائد والنقّاد ويداورهم ولا يناهضهم مناهضة علنية . بل كان يستقبلهم ببشاشة ثم يغري بهم ويوئلب عليهم ويطبق عملياً ما يقول :

إن الأراقم لا يطاق لقاؤها وتنال من خلفٍ باطراف اليد

وكان كريماً على من يخشى صولة نقده ؛ فيخرسه . طلق اليد على من يمدحه ؛ فيدعو له ويصفّق . وقد أُقيمت له حفلة إكرام في ربيع عام ١٩٢٧ جمعت وفود الأدب والشعر من العرب كلهم في سائر الاقطار فكان مهرجاناً عظيماً دام ثلاثة أيام وترأسه الملك فؤاد . وبويع له بإمارة الشعر على لسان حافظ القائل :

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

تمتّع شوقي بعد هذا المهرجان ؛ بشهرة عظيمة جداً لم ينلها شاعر في عصره قط / وبثروة طائلة مكّنته من قضاء باقي أيام حياته في نعيم وترف . قال كاتبه الخاص أحمد عبد الوهاب : إنه كان يغسل يديه ورجليه كل يوم صباحاً ، بعد الماء الساخن والصابون ؛ بالكلونيا والعطر . وكانت له دائرة خاصة لإدارة أملاكه . وكان يصطاف كل سنة في أوروبا أو في الاستانة ولكنه اقتصر بعد عام ١٩٢٥ على الاصطياف في لبنان لقربه من مصر . وتهافت عليه الكبار والزعماء يخطبون ودّه . وله صورة مع سعد زغلول الزعيم المصري الأشهر . يحدثنا أحمد عبد الوهاب عنها فيقول : إن الاستاذ الجديلي فرح حين صوّرهما معاً وقال : هذه صورة الخالدين . فقال سعد : الخلود هنا . مشيراً

إلى شوقي . وقد عيّن عام ١٩٢٥ م عضواً في مجلس الشيوخ . ونال من الدنيا كل ما يتمنّى من مال وشهرة وعظمةٍ وخلود ولكنه كان دائم الطموح لأكثر مما نال . فكان ينتج في آخر حياته إنتاجاً غريباً جداً وكان عمله الأدبي في السنوات الأخيرة من عمره ؛ يعادل عمله طول حياته . كأنه كان يخاف أن يخسر من قيمته شيئاً أمام المجددين وأصحاب الشهرة الجديدة وقد مات وفي نفسه حسرة على الباشويّة .

عوامل النبوغ :

العناصر التي كوّنت شوقي ؛ مختلفة كثيرة الاختلاف فهو تركي يوناني شركسي كردي عربي . ولد في مصر وتربّى في حجر الإسلام ودرس علوم الغرب وطوّف في أوروبا وعاشر الأمراء والعلماء والملوك . واغتنى حتى أترفته النعمة . ثم نفي عن البلاد فذاق ألَمَ الغربة ثم خسر معبوده في القصر وتعلق بالشعب . وعرف من اللغات : العربية والتركية والفرنسية فأجادها . فهو إذن أسيوي افريقي أوروبي . أو : سامي آري يافثي . تجمعت فيه كل هذه العوامل فلم تختصم على تمزيقه وإنما اصطلحت على أن تترك كل واحدة منها أثراً فيه لا ينازعه مكانه سواه . فتراه مؤمناً عميق الإيمان وشاباً محبّاً للهو . وشاكّاً مفكراً حكيماً

ومصوراً كالمفنّ البارع . وتراه مسلماً مدافعاً عن الإسلام ولكن دينه لم يمنعه من العطف على سائر الديانات وأخص منها المسيحية بل لقد ضمّ الانسانية كلها إلى إسلاميته وسما وحلّق فوق الاختلافات الدينية حتى صفت نفسه واتسعت لكل المذاهب والأديان .

وتراه مصرياً وطنياً متعصباً لمصريته . عربياً مدافعاً عن لغة القرآن . شرقياً مناضلاً عن حمى الشرق .

وتراه قديماً متعصباً للقديم في اللغة والأدب والاجتماع ومجدداً مندفعاً في تيّار الجديد خلف الصائحين بوجوب الهدم والبناء في اللغة والأدب والاجتماع .

وتراه يستعمل الألفاظ القديمة البعيدة أحياناً . ويستعمل الألفاظ الجديدة والافرنجية كما يلفظها أصحابها حيناً . بل قد تدخل في قافية قصائده فلا تشعر بنفرة منها كالفوتبول وكارنارفون والبرلمان وما ماثلها .

الخلاصة ؛ فقد كان شوقي مجموعة مختلطة من كل هذه العناصر . وهي وإن لم تتمازج فيه تمازجاً قويّاً ولكنها لم تتنازع . فترى أبا نواس في لهوه والمعرّي في حكمته والمتنبي في فخره — خصوصاً فخره بشعره — وهوغو في ديباجته ووطنياته وموسيه في أصباغه وزفراته ونامق كمال في وطنياته وثوراته ...

وهو ينظم الشعر في كل حين حتى في المجالس بين أصدقائه وفي السيارة والقطار وهو ماش. ويحفظ ما ينظمه ولو كانت عشرات الأبيات؛ ثم يمليها على كاتبه دفعةً واحدة لا ينسى منها شيئاً وقد ينظم القصيدة في ليلة واحدة ولو بلغت مئة بيت. وينظم شعر المناسبات بسرعة وإذا حزَبه الوقت؛ تناول ثلاثة من محّ البيض النيء ثم شرع ينظم. ومن عادته أنه يغيب عن أصحابه بتفكيره وهو معهم فلا يعرفون أنه ينظم إلا إذا سمعوا منه غمغمةً تائهة ثم أمرّ بكفّه على جبهته ولعب بخاتمه. وقد يعود إلى الحديث معهم فلا ينسى ما نظم. وإذا نسيه زمناً ثم استذكره؛ فإنما يتذكره كله دفعةً واحدة كأنما الآن نفض ذهنه من نظمه. وكان دائم التفكر والتخيّل لا يتكلم في المجالس إلا قليلاً. يظهر التواضع ويحدّث بلطف يحبّب به مجالسه. ولم يعرف عنه أنه أساء إلى أحد بلفظ أو إشارة أو عمل إلاّ ما كان من أعدائه في الأدب ونَقَدَة شعره فإنه كان يثير عليهم النقمة ويؤلب ورائهم زبانى اللاسعين بكل هدوء كأنه لم يفعل شيئاً. وكأنه اكتسب هذه العادة من سياسة القصر فلم يترك له عدوّاً ظاهرياً. وكان أشهر من تحامل عليه في حياته ونَقَد أدبه بشدّة؛ العقاد والمازني وطه حسين والرافعي.

وأشهر من دافع عنه ورفعه فوق طبقة الشعراء جريدة الاهرام ولطفي جمعه والزيات وهيكل ومبارك .

وكان يترك المعركة تحوم حول شعره بين أنصاره وخصومه وتشتدّ حتى النهاية ولا يدخل فيها . فلا يساعد صديقاً ولا يردّ على خصم . ثم يمضى قُدُماً يشق الطريق لنفسه في سماء الشهرة والمجد ويبني خلوده بنشاط وجهد وإنتاج .

وكان فيه ولع بالابتكار وفتح الطرق الجديدة في نواحي الأدب والاجتماع . لكنه لم يجرؤ على شقّها بنفسه بل كان ينتظر عند رتاج الباب . حتى إذا فُتح واندفع الناس فيه جرى في شوطهم فسبقهم وبذّهم جميعاً وخلّفهم وراء غباره ينظرون إليه بدهشة وإعجاب . ففي قضية حجاب المرأة كان متعصباً مع المتعصبين فنظم قصيدته (صدّاح يا ملك الكنار). حتى إذا شقّ الطريق قاسم أمين ، جرى خلفه ثم سبقه .

ولم يبتدع في الأدب فناً جديداً كل الجدّة إلا الروايات المسرحية ؛ فلم تكن معروفة في اللغة العربية قبله . وقد أنشأ عدة مسرحيات ، كان لها صدى مدهش جداً في البلاد العربية . ومثّلتها أكبر الفرق . ونال عليها أجراً كبيراً .

فشوقي إذن ؛ مجموعة من حركة وفكرة وإيمان وذكاء ونشاط ، ولكن ليس فيها تشويه ؛ بل هي مندمجة في بعضها بعضاً عليها طابع خاص واحد هو شوقي .

شوقي الشاعر :

نظم شوقي في كل الأغراض التي سبقه إليها الأقدمون . وأربى عليهم بوصف المخترعات والمكتشفات الحديثة كالطيارة والسيارة والراديو والكهرباء والسفينة وما شاكل ذلك . وكانت فيه نزعةٌ قوية جداً للتقليد والمعارضة كأنه يقرن نفسه إلى القدماء ، ويتسابق معهم في ميدان واحد . فقد عارض سينية البحتري في إيوان كسرى ؛ فنظم سينية الاندلس . ونونية أبي البقاء الرندي في رثاء الاندلس ؛ فنظم نونية في وصف دمشق يوم زارها ، ورثا بها دولة بني أُميّة . وعارض البردة وهمزية البوصيري في مدح الرسول . ودالية الحصري في الغزل وعينية ابن سينا في النفس . ونونية ابن زيدون في التشوّق والحب . وقلّد أبا تمام إذ ضمّن تهنئة الواثق بالملك في رثاء المعتصم فضمّن رثاء توفيق في تهنئة عباس .

ولم يكتفِ بالمعارضة . بل قد تبع الأقدمين في كثير من قصائده فافتتحها بالغزل فوفّق في بعضها ، وأخفق في البعض الآخر .

وذكر بعض مواقع؛ لم يعرفها ولا زارها . وبعض أسماء حيوانات ونباتات في جزيرة العرب ؛ لم يشاهدها وإنما تابع فيها الأقدمين لأنها مذكورة في أشعارهم كقوله :

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفكَ دمي في الأشهر الحرم

وقد يتخلص أحياناً من الغزل إلى الغرض الذي يريد بلباقة ومهارة . وقد يثب أحياناً وثبةً واسعة ؛ يقع بها ويعرج .

وكما أنه عارض القدماء فبذّ أكثرهم ؛ كذلك حاول التجديد فلم يكتف بالشعر الغنائي Lyrique الذي لم تخرج منه اللغة العربية ؛ منذ عرف الشعر العربي . بل قفز إلى الشعر التعليمي . وحاول نظم الملاحم . ووفق في بعض الروايات التمثيلية . وهو أول من نظم هذا النوع الفنّي في اللغة العربية .

ولكنه كيفما دار وتقلّب ؛ فإن روحه تظهر في شعره وديباجته الخاصة تنطق بنظمه . والذي يبرز واضحاً في شعره هو : التاريخ والوصف والحكمة . فإنه يستطرد إليها دوماً حتى ليستحيل عليك أن تضع عنواناً صادقاً لأكثر قصائده . فهو من هذه الناحية؛ لا يشبه المحدثين الذين يعتبرون القصيدة وحدة كاملةً بذاتها . بل الوحدة الكاملة عنده هي البيت . ولقد تناوله العقاد من هذه الناحية ؛ فأخذ قصيدةً من أجمل

قصائده التي يفتخر بها . وهي التي وصف بها كمال أتاتورك . فغيّر وبدّل فى مواضع أبياتها وترتيبها فلم يؤذِ القصيدة ذلك التقليبُ شيئاً . بل ربما استقامت في بعض جهاتها أكثر من الأصل .

وهو يرى الشعر فناً وعاطفةً وعقلاً أي ينظر إليه نظرة الصانع الصناع المولع بفنّه يقول :

والشعر إن لم يكن ذكرى وعاطفةً
وحكمة ؛ فهو تقطيعٌ وأوزان

فالشعر عنده ؛ ليس عاطفةً محضة كالغزلين . ولا أصباغاً وصوراً كالرسامين وبعض الشعراء المجددّين الذين تاهوا في رنين الألفاظ المجلجلة عن المعاني الفخمة . ولا قوالب عقلية حكمة كما فعل أبو العلاء . بل هو مزيج من كل هذه العناصر .

شعر الذكرى :

لم يقتصر شوقي على الذكريات الخاصة ؛ لأنه لم يرد أن يعتزل المجتمع فيردّد أنغامه بينه وبين نفسه . بل أراد أن يكون شاعر الشعوب العربية كلّها . بل شاعر الشرق جميعاً لذلك يرجع إلى الذكريات الشعبية العامة من تاريخ ودين .

أما التاريخ ؛ فيشير إلى كثير من حوادثه المشهورة إشارة خفيفة وربما استطرد إلى أبيات فمقطوعة فقصيدة برأسها كهمزيته التي

ألقاها في مؤتمر المستشرقين بجنيف عام ١٨٩٤ ، وبلغت ٢٩٠ بيتاً . وقد يأخذ من هذا التاريخ عبرةً وحكمة وموعظة. أو بكاء وندباً وتأثراً. أو مقارنةً بين ماض جميل وحاضر ذليل .. فيوفّق أحياناً وتبتذل معانيه أحياناً أخرى .

وأما الدين ؛ فإنه لا يتعصب فيه للإسلام . بل ينظر إلى كل الديانات نظرة احترام وتوقير وحبّ . ويكثر من ذكر محمد والمسيح وموسى وجبريل والملائكة والجنة والحور والولدان .. ويدعو إلى التسامح الديني والإخاء العام باسم الشرق أو الانسانية . ولكن هذا لم يمنع تعصبه للاسلام والدفاع عنهم وتخصيص قصيدتين من أجمل قصائده لمدح محمد ﷺ وهما اللتان عارض بهما بردة البوصيري وهمزيته . مع أن المعروف عن شوقي أنه لها وعبث وشرب الخمرة وصاح :

رمضان ولّى !! هاتها ياساقي مشتاقةً تسعى إلى مشتاق!

فكيف يتفق هذا الواقع مع أقواله في الديانات ؟!

الظاهر أنه كان عظيم الثقة بعفو الله لا يري حرجاً من إعطاء النفس ما تشتهي على حدّ رأي أبي نواس القائل :

ياعظيم الذنب!! عفو الله ؛ من ذنبك أكبر

وكان يرى الدين ضرورةً عامة لصلاح المجموع وقمع الشهوات الكبرى كالطمع والشره التي تسبب الأذى والحروب والشرور .

شعر العاطفة :

يتمثل شعر العاطفة عند شوقي في ناحيتين هما : الغزل والوطنيات .

أما الغزل فمتكلّف فيه مقلّد لا يصوّر عاطفةً أو حساً عميقاً للصدّ والتدلّل والتدلّه وما شابه ذلك من العواطف والأحاسيس التي تعلو فوق المادة . وإنما هو وصف مادي أكثره مبتذل معروف كالتشبيه بالرمح والغصن والسيف والكثيب .

هذا من جهة العاطفة . أما من جهة الفنّ والتصوير فممتاز جداً يبذّ به كثيراً من السابقين ويعلو عليهم برقته وجمال إشارته وحسن صناعته ودقة ابتكاره كقصيدته الهمزية المشهورة . ومطلعها :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرّهن الثناء

التي سار منها البيت الآتي مسير الشمس :

نظرةٌ فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

على أن هذه القصيدة لم تنشأ غزلية للغزل وحده وللفن ؛ بل هي مطلع لقصيدة في مدح الخديوي . وكثيراً ما كان شوقي يفعل ذلك فيفتتح قصائده بهذا الغزل الفني . ومن أشهر قصائده في الغزل :

حفّ كأسها الحبب فهي فضة ذهب

ومن أسيرها :

ودّعت أحلامي بقلبٍ باك ولمست من طرق الملاح شباكي

وأما الشعر الوطني ؛ فيمتثل في أكثر قصائده . عارم شديداً كقوله :

قل لبانٍ بنى فشاد فغالى: لم يجز مصر في الزمان بناء
ليس في الممكنات أن تنقل الأجبال شمّاً وأن تُنال السماء
أجفل الجنُّ عن عزائم فرعون — ودانت لبأسها الآناء
شاد ما لم يشد زمان ولا أنشأ مصر ولا بنى بنّاء
فاعذر الحاسدين فيها إذا لا — موا . فصعب على الحسود الثناء
ورأوا للذين سادوا وشادوا سبّة أن تسخّر الأعداء
إن يكن غير ما أتوه فخاراً فأنا منك يافخار براء

على أن شوقي لم يكن ينظر إلى مصر إلاّ أنها وطنه الأصغر . وأما وطنه الأكبر فكلّ بلدٍ سكنه عربي أو قطنه

مسلم . بل يتوسع وجدانه الوطني فيضم الشرق كله . يقول في ثورة دمشق :

نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كلّنا في الهم شرق

ولهذا ترى له قصائد في مدح كمال أتاتورك وفوزي الغزي ونكبة بيروت ... وتراه يتحامل على الحسين لأنه اتفق مع الانكليز الغربيين ضد بني وطنه ودينه من الشرقيين الترك . وهو في وطنياته؛ أسير عاطفته وحبه . يندفع فيها اندفاعاً شديداً جداً

شعر الحكمة :

لم يكن لشوقي مذهب فلسفي خاص ولكنه مقلّد للمتنبي وأبي تمام في بثّ الحكم بين أبياته على ما يوافق الموضوع . ويخطيء كثيراً من يحاول أن يثبت له مذهباً معروفاً في الحياة والموت والروح مثلاً . فهو تارة أفلاطوني وتارةً متحيّر . وما حكمه إلاّ معلومات عامة يعرفها المثقفون كلهم وأكثر العوام كقوله :

ترك النفوس بلا علمٍ ولا أدب ترك المريض بلا طبٍّ ولا آسِ

أو كقوله :

من يترك النير يعش برهةً في أثر النير ويفنى ندبه

ولعلّه يعرّض بهذا البيت عن نفسه بعد تركه القصر

على أن له بعض أبيات ممتازة وقد رزقت حظاً من الشيوع عظيماً جداً كقوله :

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويظهر أنه كان يعتقد أن بناء الأمم على الأخلاق بالدرجة الأولى . ولذلك أكثر من بحث هذه الناحية وردّدها كثيراً حتى ظهر فيها التكلف والفساد . ولقد لاحظت أنه كررها في ديوانه أكثر من ٨٠ مرة . وأعاد الألفاظ ذاتها عدة مرات كقوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تولّت ؛ مضوا في اثرها قُدُما

وقد يكفيه أحياناً بيت أو نصف بيت ليشير إلى حكمة معروفة ولتكون لفته لطيفة لا ينقطع بها المعنى ؛ ولكنّه يتابع الابيات فيها ويشرحها ويضرب لها الأمثال حتى يستوفيها من كل ناحية . ثم يعود إلى الموضوع فيتيه معه القارئ ولا يهتدي إلى الفكرة إلاّ بعد صعوبة . ولعلّ هذا من جملة الأسباب في اطالة قصائده وتعميتها .

شعر المناسبات :

يتجلى هذا النوع من النظم في ناحيتين هما : المدح والرثاء وإنما قلت النظم ولم أقل الشعر ؛ لأني أعتقد أن شعر المناسبات

نفاق محض . إن لم يكن كلّه ؛ فأكثره على حال . وربما كان الرثاء أسمى عاطفةً وأرفع مكاناً إذا كانت العاطفة وحدها تمليه . أما إذا كان مما يليه حبّ الظهور فممقوت بغيض . كما نرى من شعراء هذا الزمان الذين يتهالكون على الظهور في مراسح الرثاء ويتبارون بإلقاء قصائدهم ويتنافسون في تنميقها لتقول الجرائد ويقول الناس : لقد أجاد البكاء !! فإذا كان البكاء صنعة تجوّد وفناً يتنوّق فيه ؛ فما أشبه هذا الدمع الكاذب ؛ بدموع النادبات الساخر وولولة المستأجرات .

وشوقي كان مضطراً للمديح لأنه كان شاعر الأمير مع شدّة كراهيته لهذا النوع كما يدعي في مقدمة ديوانه الأول وهو يذهب فيه مذهب المتقدمين من حيث التذلل والمبالغات كقوله :

فاسمع لعبدك وابن عبدك منطقاً متطايراً بك في القوافي صيته

وقيل ابن ربّ النيل فافترّت القرى

وناجى الثرى نعليك يستوهب الخصبا

على أن الشاعر بعد تخلّصه من القصر ؛ تخلّص من هذا الملق الكاذب . فأصبح مديحه نصحاً وتقديراً ؛ لا رياءً ولا نفاقاً في أكثر الأحيان كقوله :

فؤاد حلّيت جيد النيل مأثرةً حذوت في صوغها آباءك النجبا
إن سرّك الملك تبنيه على أُسس فاستنهض البانيين: العلم والأدبا
وأرفع له من حبال الحق قاعدةً ومدّ من سبب الشورى له طنبا

وقد مدح شوقي كثيراً من الملوك والأمراء والعظماء لا في مصر وحدها . بل في الشرق كله والغرب أيضاً . لكن أصدق مدائحه ما كان في الأتراك لأن العرق يمدّه بعاطفة نامية ففي الجزء الأول من ديوانه الجديد ؛ ثلاث قصائد فقط عن العرب و ١٨ قصيدة عن الترك . أفلا يدلّ هذا عَلَى تأثير العرق فيه ؟

وأما الرثاء ؛ فقد كانت تدفعه إليه العاطفة في أكثر الأحيان . والواجب والمناسبة والفن أحياناً أخرى . ولكن أثر التصوير العاطفي فيه ؛ قليل على كل حال . والبارز البارز في أكثر مراثيه ؛ هو الفن والصور والمعارضة . يسلك فيه : البكاء على الميت وتعظيم الخسارة بفقده ووصف أعماله في حياته . وربّما اتخذ عمله الشخصي المعروف به ، أو حرفته موضوعاً للرثاء فالنباتي تفجع عليه مملكة النبات . والأديب يضعضع بعده الأدب . والزعيم تميد بموته الأمة . وقد يحدّث الأموات ويسألهم عما بعد الحياة ويطلب إليهم أن يقوموا ليروا أثر الفاجعة بعدهم في الأحياء . وقد رثى كثيراً من الشعراء والكتاب والأدباء

والمغنين والزعماء والملوك والأمراء . وربما رثى الحكومات والبلدان فبكى وأبكى . وأجمل مراثيه ؛ ما قاله في دمشق يوم نكبتها . ومطلعها :

سلام من صبا بردى أرقّ ودمعٌ لا يكفكف يا دمشق

ومرثيته في سعد زغلول ومطلعها :

شيّعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها

ليتني في الركب لما أفلت يوشع همّت فنادى فتناها

وأشهر بيت له في مغنٍّ ما قاله في عبده الحمولي :

يسمع الليل منه في الفجر يا ليلُ فيصغي مستمهلاً في فراره

وانت تلاحظ فيه الفنّ والذوق بارزاً أكثر من العاطفة وبهذا تمتاز أكثر مراثيه . فمرثيته في أُمّه ؛ معارضة لقصيدة المتنبي الميمية التي يرثي بها جدّته . وأكثرها حكم وشكوى !! وكذلك قصيدته في أبيه حكمة وفلسفة (أنظر باب المنتخبات)

الشاعر السياسي :

درج شوقي في قصر الخديوي وأخذ أكبر منصب للدعاوة فيه . ولقّب بشاعر الامير وما كان هذا اللقب بالقليل الضئيل بالقياس إليه . وملأ هذا المركز كما ينبغي ؛ فكان

جريدة حزبية ممتازة جداً ؛ يرفع من مركز العرش أمام الشعب ويوطّد مركزه عند الأتراك لأنّ مصر كانت لا تزال تابعةً لهم تبعيةً ظاهرية . ويدافع عنه أمام الانكليز ويتحامل على أعداء الامير تحاملاً شديداً حتى ولو كان العدوّ صاحب مركز ممتاز يخشى غضبه كاللورد كرومر مثلاً إذ ودّعه بقصيدة شديدة اللهجة لأنه تعرّض للأمة المصرية بخطابه ؛ وتحامل عليها وعرّض بالخديوي فتناوله شوقي بنقدٍ لاذع جداً يقول :

أيامكم أم عهد اسماعيلا أم أنت فرعون يسوس النيلا

لما رحلت عن البلاد تشهّدت فكأنك الداء العياء رحيلا

وكان الأمير حسين كامل حاضراً الحفلة فسمع شتم والده من اللورد وسكت . فأنّبه شوقي بقوله :

في ملعبٍ للمضحكات مشيد مثلت فيه المبكيات فصولا

شهد الحسين عليك لعن أصوله وتصدّر الأعمى به تطفيلا

جبن أقلّ وحط من قدريهما والمرء إن يجبن يعيش مرذولا

والأعمى هذا ؛ هو الشيخ عبد الكريم سلمان من صنائع الانكليز وكبار الدعاة لهم ضعف بصره حتى كاد يكفّ .

ثم تدور الايام ؛ فإذا الأمير حسين سلطانٌ . وولي نعمته

عباس خارج الحدود . وإذا شوقي ينظم قطعة في وزن القطعة المتقدمة وروّيها يدافع بها عن السلطان حسين ويؤيده فيقول:

أأخون اسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب اسماعيلا

ويمدح الانكليز لأنهم حافظوا على عرش مصر فيقول:

حلفاؤنا الأحرار إلاّ أنهم أرقى الشعوب عواطفاً وميولا

ثم تنقلب الأيام؛ فإذا شواقي بعيد عن القصر . فيتصل بالشعب وتدور سياسته حول توطيد استقلال مصر بالدرجة الأولى واستقلال الشعوب الاسلامية وأخص منها الأتراك فإنه كان يدافع عن سياستهم كيفما تقلّبت . مدح السلطان عبد الحميد لأنه الخليفة وجعل زمانه أحسن الأزمنة وعهده عهد الرفاهية والخير والنعيم . فلما سقط؛ مدح السلطان محمد رشاد والاتحاديين أبطال الدستور وعاتب عبد الحميد لأنه لم يعط الحرية للشعب .

ثم تنتهي الحرب العامة بضياع ملك الأتراك في بلاد العرب فيتحامل على الملك حسين لأنه عاداهم . ويدعو إلى الامتناع عن مبايعته . ويعاتب السلطان وحيد لاتفاقه مع الانكليز مثل عتابه للملك حسين ويمدح مصطفى كمال . فلما نسف

كمال أتاتورك هذا ؛ الخلافة ؛ عاتبه برفق وتأمّل للأتراك النجح وللخلافة أن تعود إليهم .

كانت سياسة شوقي من وحي القصر يوم كان متصلاً بالقصر . ولذلك غضب على عرابي باشا لأنه بنظره ثائر على أميره ولأنه كان السبب في دخول الانكليز ! ! ولذلك يخاطبه بعد عودته قائلاً :

صغار في الذهاب وفي الإياب أهذا كلّ شأنك ياعرابي ؟

وكذلك يمدح كبار رجال الشعب المناضلين في سبيل حرّيته ويرثيهم بترفّق وحذر خشية أن تفلت منه كلمة تؤثر في علاقاته برجال القصر . ولقد أثرت فيه هذه المواضعات الاجتماعية الضيقة والعلاقات السياسية وأدب المآدب والحفلات وتقديم الشخصيات وتأخيرها وأساليب الأستقبال والتوديع . أثرت فيه كلها فجعلته بارعاً في طرق التشريفات والدعوات يعامل كلّ شخصية بمقدار قيمتها الاجتماعية أو السياسية . وما زال هذا الطابع في علاقاته طول حياته . يحكي الدكتور زكي مبارك أن شوقي أقام مأدبةً دعا إليها بعض أساتذة الجامعة ومنهم الدكتور طه حسين ولم يدعُ الدكتور زكي مع أنه كان أقرب إلى صداقته من الدكتور طه . فتألم منه وعدّها

تهاوناً بحق الصداقة . ولكنه أدرك بعد ذلك أن شوقي لم يدعه لأنه معلم من الفئة السادسة . وطه حسين من الفئة الثانية ! وفي هذه القصة ما يصوّر لنا ناحية أدب المآدب والدعوات عنده بصورة واضحة . ولنا أن نطلق عليه بحق لقب « أديب النادي » كما يقول الفرنسيون homme de salon .

ثم لمّا تجهّم القصر في وجهه واتصل بالشعب ؛ غاص في السياسة الوطنية إلى الأعماق . ولكنه لم ينضمّ إلى حزب معيّن وبقي محلّقاً فوق الأحزاب كأنما كان يشعر أن الفنّ العلوي أسمى من السياسة الخلابّة . وأنه في السماء وهي في الأرض . وأنه خالدٌ وأنها زائلة متحوّلة مع الزمن . ولذلك كان يخاطب الأحزاب كلها على حدّ التسوية وينصحهم كما ينصح الأب بنيه يقول :

إلامَ الخلفُ بينكم إلاما ؟ وهذي الضجة الكبرى علاما ؟!
وفيم يكيد بعضكم لبعضٍ وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز ؟! لا مصر استقرّت على حال . ولا السودان داما

ولم يكتف شوقي بالسياسة المحليّة . بل التفت إلى سياسة الجوار فعطف على سوريا وواساها في محنتها بقصيدته القافية المشهورة ومطلعها :

سلام من صبا بردى أرقّ ودمع لا يكفكف يا دمشق

ومهما تكن سياسة شوقي معقدة . فالصراحة فيها واضحة من حيث الدفاع عن الشرق . والاعتزاز بالاسلام . والدعوة إلى الخلافة - وكان يريدها تركية - وتقويم عرش مصر . ولهذه الفكرة الأخيرة ؛ كان يقدم رواياته باسم الأمير فاروق!

الشاعر المعلم :

في شوقي ؛ نزعة قوية جداً للتقليد . ولكنه لم يقف دون من قلّدهم منزلة وقدراً . بل كان يسعى أن ينتهي من هذا التقليد بمنافسة وتفوّق يظهر فيه وتسهل على القراء المقارنة بينه وبينهم من حيث الأسلوب والفكرة والابتكار والتصوير .

قرأ لافونتين في صباه وأطلع على أقاصيصه الشعرية الصغيرة وهي قطع تعليمية على لسان الحيوانات يقصد منها إلى اصلاح غلط اجتماعي أو تقويم خلق شخصي أو تصوير فكرة شائعة أو إيقاظ فكرة نائمة . . على نسق كليلة ودمنة في اللغة العربية . ولكن أسلوب لافونتين أقرب إلى الفن والاستقلال التام بين كل قصة وقصة . فحاول شوقي تقليده ، وانتظم له نحو خمسين خرافة وتسعة أناشيد يحض بعضها على حبّ الوطن والعائلة والأخلاق الكريمة وحسن المعاشرة . والدعاء لله . . .

وبعضها الآخر ؛ نقدٌ للأخلاق العامة الشائعة بسخر ناعم لطيف مضحك أحياناً . يجري أكثرها في سفينة نوح أو بين سليمان النبي والحيوانات . إذ الشائع أن سليمان كان يفهم لغة الحيوانات! وبعض هذه القصص مبتكر وبعضها منتزع من الأساطير المعروفة في الأدب القديم . ومن أجمل هذه القصص ؛ قصة الحمار الذي سقط من السفينة :

سقط الحمار من السفينة في الدجى فبكى الرفاق لفقده وترحموا
حتى إذا طلع الصباح أتت به نحو السفينة موجةٌ تتقدم
قالت : خذوه كما أتاني سالماً لم أبتلعه لأنه لا يهضم

وقصة الحمار الخطيب . الذي جاء في جملة الوفود لتهنئة الأسد بولادة الشبل ولي العهد . ولما جاء دور هذا الحمار وقف خطيباً :

فقال : باسم خالق الشعير وباعث العصا إلى الحمير . .
فأزعج الصوتُ وليّ العهد فمات من رعدته في المهد
فحمل القوم على الحمار بجلّةِ الأنياب والأظفار
وانتدب الثعلب للتأبين فقال في التعريض بالمسكين
لا جعل الله له قرارا عاش حماراً وقضى حمارا

والفرق بين لافونتين وشوقي :

١ — إن لافونتين قضى كل عمره ينظم هذا النوع

من الشعر . وشوقي عالجه أول حياته زمناً قليلاً ثم تركه .

٢ — لافونتين يصوّر الواقع كما هو ؛ مثل قصة الذئب والحمل . فتدفع الناشيء إلى التفكير في السطو والقوّة . وشوقي انتحى ناحية أقرب إلى السموّ والتسامح منه .

٣ — قصائد لافونتين طويلة أحياناً ينظر فيها إلى التفاصيل والأجزاء . وشوقي ؛ يتناول الخطوط العريضة التي تصيب كبد الموضوع .

وهناك بعض ملاحظات أخرى لا أهمية لها فيما يتعلق بموضوعنا .

هكذا كان شوقي في أول حياته ينظم الشعر التعليمي للأطفال . وليس فيه خيال بارع كما رأيت ولا تصاوير شعرية عذبة ، بل هو إلى النظم أقرب . ثم لما اتصل بالقصر ؛ قيّد نفسه وغلل خياله وفصّل كلامه على مقدار ما يحب القصر غير أنّه عاد إلى الطلاقة والحريّة بعد الحرب العامة ولم يخسر هذه المدة سدى . بل قد أنضجته الايام فحوّلته من معلم أطفال إلى معلم شعب . وأصبح شعره التعليمي : حكمةً وإصلاحاً لمواضع الضعف في المجتمع كبحثه في السفور والحجاب مثلاً :

قل للرجال طغى الأسير طير الحجال متى يطير؟
ذهب الحجاب بصبره وأطال حيرته السفور

وبحثه زواج المرأة ونصرته ضعفها :

المال حلّل كلَّ غير محلّلٍ حتى زواج الشيب بالأبكار
ما زوّجت تلك الفتاة · وإنما بيع الصبا والحسنُ بالدينار

وبحثه في الصحافة والعمال وتنظيم العمل والاشتراكية خصوصاً في قصيدته الممتازة « مملكة النحل » ومطلعها :

مملكة مدبّرة بأمرأة مؤمّرة

هذه الصيغة التعليمية ؛ تظهر في أكثر قصائد شوقي الاجتماعية · فكأنه يشعر بأن عليه واجباً تجاه شعبه فكان له معلماً ومهذباً ينبهه ويقود خطاه كما تقود الأم طفلها في أول حبوه

شعر الوصف :

شوقي ؛ مصوّر وصاف · ينقش رسم ما يراه في شعره فإذا هو مرآة له صادقة أتم صدق · ولكنه لا يخلع على ما يرى شيئاً من إلهامه ولا يشرك معه عاطفته ولا يدخل إلى الأعماق ؛ كما نرى في الشعر الغربي · ولقد وصف الطبيعة والمشاهد والملاعب والمدن والآثار والمدرسة والطيارات والسفن البخارية والقطار والتلغراف ·· وكل ما رأى وما شاهد حتى

عُدّ بحقٍ : الشاعر الوصاف الممتاز في العصر الحاضر . وهو إمّا أن يجعل للموضوع قصيدةً برأسها . وإما أن يزجّه داخل المواضيع الأخرى على طريقة أبي تمّام . ومن أجمل قصائده الوصفية ؛ وصف كنزِ فرعون . ونكبة دمشق وجسر فروق . وجنيف . وأما وصفه للمرأة ؛ فعادي سطحي لا يهبط إلى أعماق نفسها ولا يحلّلها . ولكنه يصف جسمها وحركاتها فقط . وأجمل قصائده في المرأة : خدعوها والبال وحفّ كأسها الحبب ، وكافيّة زحلة ، ومنها القطعة المشهورة التي غناها محمد عبد الوهاب فشاعت في الخافقين على كل لسان :

يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك

شعر الفخر :

يترسّم شوقي خطى أبي الطيب المتنبي في فخره بشعره وعبقريته . وهو الفخر الوحيد الذي يردّد نغمته دائمًا وفي أكثر المناسبات . ففي وصف دمشق ؛ يفتخر بأن شبابها يروون شعره :

رواة قصائدي فاعجب لشعرٍ بكل محلّةٍ يرويه خلق

وفي رثاء والدته ؛ يفتخر لها بأنها ولدته عبقرياً :

أتيت به لم ينظم الشعرَ مثلُه وجئت لأخلاق الكرام به نظما

ولو نهضت عنه السماء ومخّضت

به الارض ؛ كان المزنَ والتبرَ والكرما

وهكذا يتبجّح بشعره في كل مناسبة . وهو معذور في ذلك فقد شبّ على الاطراء والمديح والثناء من الجرائد والمنافقين وملتمسي الوظائف والاوسمة .

شوقي والغناء :

شوقي ؛ فيّاض الغزيرة مفتون بالجمال يعبده حيث كان . يقول كاتبه الخاص أحمد عبد الوهاب في معرض حديثه عن علاقة شوقي بسعد زغلول : إن شوقي يرى من جملة صفات الزعيم أن تكون فيه بسطة من العلم والجسم وأن يكون جميلاً !

وحبّ الجمال هذا ؛ هو الذي دفع شوقي إلى تتبعه في كل مكان في الطبيعة الصامته والوجه الصبيح وشدو المغنّي وتغريد الطائر .

وقد أوصله غناه إلى ما يريد من إرواء شهواته . ولهذا لا ترى له شعراً عذباً في الشكوى . لأنه لم يذق ألم البعاد . وشهرته الطائرة ؛ قرّبت كبار المغنّين منه طمعاً بتلحين قصائده ولهذا طالت صحبته لهم يسمع شعره ملحناً منهم فينضمّ سحرٌ إلى سحر . وقد أنشأ شوقي شعراً خاصاً للغناء وأكثره مالحنه محمد

عبد الوهاب . وهو بالجملة جميل جديد عذب . ولكن أكثره لا يجري على القوانين النحوية المشهورة ؛ يتبع فيه طريقة الموشحات الأندلسية ، كقوله :

الفجرِ شقشقْ وفاضْ على سواد الخميلةْ
لَمَحْ كلمح البياض من العيون الكحيلة

الشاعر الناثر :

لشوقي نثر ترسّلَ فيه على طريقة شعراء القرن الرابع . ولكنه التزم فيه السجع والفقرات المتمادية حتى بدا كأنه شعر منثور . وهو بالجملة فإنه لا جمال فيه إلا جمال الاتزان الموسيقي . وقد قرأنا له تحارير خاصة وكتباً متبادلة بينه وبين بعض أصدقائه ؛ فإذا هي أجمل رونقاً وأصفى ديباجةً من كتبه ورواياته النثرية أمثال أميرة الأندلس وأسواق الذهب (١)

آثار الشاعر :

ذكر أحمد عبد الوهاب كاتب الشاعر الخاص قائمة بأسماء كتبه . اطلعنا على بعضها والبعض الآخر لم نطلع عليه إما لأنه لم يطبع وهو الأكثر . أو أنه طبع ونفد ! وهي كما يلي :

---

(١) استعار هذا الاسم من اطواق الذهب للزمخشري واطباق الذهب للأصفهاني .

مؤلفاته في سن الشباب :

١ — رواية لادياس ، ٢ — ورقة الآس ، ٣ — علي بك الكبير ، ٤ — مذكرات بنتاءور ، ٥ — الشوقيات .

مؤلفاته بعد عودته من اسبانيا :

١ — الشوقيات أربعة أجزاء طبع ثلاثة فقط ، ٢ — رواية كليوباترا ، ٣ — مجنون ليلى ، ٤ — قمبيز ، ٥ — علي بك أو دولة المماليك وهي نفس السابقة مصلحة منقّحة ، ٦ — عنترة ، ٧ — أميرة الأندلس ، ٨ — أسواق الذهب ، ٩ — عظماء الاسلام ، ١٠ — رواية السيدة هدى ، ١١ — رواية البخيلة ، ١٢ — كشكول وهو مجموعة قصائد للأطفال وأغاني . . والذي رأيناه مطبوعاً منها ؛ هو : الشوقيات وكليوباترا ومجنون ليلى وقمبيز وعلي بك وعنتره وأميرة الاندلس وأسواق الذهب وعظماء الاسلام .

تحليل مختصر لكتبه ورواياته

١ — كليوباترا «رواية شعرية» :

موضوع الرواية : آخر أيام كليوباترا ملكة مصر واستيلاء الرومان على ملكها

مجرى الحوادث : تسنمّت كليوباترا العرش ؛ فنازعها الملك أخوها . فاستنصرت بيوليوس قيصر فنصرها وعقد الحبّ

قلبيهما وسافرت معه إلى رومة . ثم عادت بعد موته إلى الاسكندرية . فعلق انطونيوس ، أحد القواد الروم بهواها وأنكر قومه من أجلها . فأرسلت إليه رومةُ أوكتافيوس فجاء بأسطوله ووقعت معركة بينه وبين انطونيوس متحداً مع أسطول كليوباترا ففرّت الملكة من المعركة وغلب انطونيوس إذ علم بخيانة حبيبته فانتحر !! وذهبت هي لتفاوض اوكتافيوس فأبى عليها فانتحرت بأن سمحت لأفعى أن تعضها في صدرها فماتت .

وفي هذه الرواية ؛ يحاول شوقي أن يبرر هزيمةَ كليوباترا بأن السياسة المصرية قضت عليها بذلك ويظهر الوطنية والتضحية ويسيّر الحوادث في جوٍّ مصري خالص .

وهي أقرب رواياته إلى المثل الفني التمثيلي . تنساق فيها الحوادث بدقّه وتظهر المفاجئات مترابطة مستحكمة . ولكنه أدخل فيها بعض الحوادث الطفيلية فأفسدها بها . كخبر حابي وهيلانه وعشق الشيخ زينون لكليوباترا . غير أنه لم يهدر جمالها على كل حال .

٢ — مجنون ليلى «رواية شعرية» :

موضوع الرواية : حب قيس بن الملوّح لليلى وجنونه وموته . وهي مستقاة من الأدب العربي وذكرت في الأغاني وغيره .

مجرى الحوادث : أحبّ قيسٌ ليلى واشتهر بذلك . وخطبها من أبيها ؛ فأبى أن يزوجه بها تبعاً للعادات البدوية أنهم لا يزوجون المرأة للرجل إذا اشتهر حبهما لبعضهما بعضاً !! . ومنعه عن زيارتها فلم يمتنع . فاستعدى عليه السلطان فهدر دمه . ثم زوّج ليلى برجل من ثقيف فهام قيسٌ في البراري وجنّ من شدّة حبّه وعاشر الوحوش ينشد الأشعار ويحدّث الغزلان حتى مات .

وفي هذه الرواية ؛ يصوّر شوقي الصحراء وسكانها أجمل تصوير . ويبرز أخلاق البادية واضحةً ويرفعهم إلى درجة البطولة . فليلى : يأبى كاهما حبّ قيس ولكنها لا تخون زوجها به حين زارها . وزوجها يقدّس حبها فيعاشرها معاشرة الأخت المحرمة لا الزوجة . ويعرف رفعه أخلاق قيس فيتركه عند ليلى ويخلّي لهما الجوّ يتشاكيان لواعج الحب والهوى .

وقد وفّق في هذه الرواية توفيقاً بعيداً جداً . ولكنه أدخل بعض الحوادث الطفيلية فيها فأساء إليها كقصة الجن ودور الغريض . وضعفت العقدة الفنية فيها والمفاجئات . حتى ليشعر القارئ ببرودة المواقف أحياناً . غير أن فيها بعض القطع من الشعر الغنائي Lyrique سامية جداً .

٣ – قمبيز «رواية شعرية» :

موضوع الرواية : يخطب قمبيز ملك مصر ، نفريت بنت أمازيس ملك مصر . فترفضه فتتطوع أميرة مصرية اسمها نتتاس وتذهب إليه باسم نفريت لتخلص مصر من غضبه . ثم يعلم قمبيز بالحيلة فيغزو مصر وينتقم من الملك بساماتيك ابن امازيس إذ كان هذا قد توفي . وتنتحر نفريت تكفيراً عن خطيئتها . فيجن قمبيز ويستيقظ ضميره وتتظاهر له أشباح قتلاه فينتحر .

وفي هذه الرواية ؛ يصور شوقي الوطنية المصرية ممزوجة بضعف الروح الحربي المصري . والعصر المترف الذي عاشوا فيه وهو القرن السادس قبل المسيح .

ولكن الرواية بمجموعها ؛ ضعيفة جداً فيها كثير من العرض الذي ليس له قيمة . وعقدها ضعيفة منحلّة وحوادثها الطفيلية كثيرة جداً . وقد انتقد العقاد هذه الرواية نقداً مرّاً هدمها فيه تهديماً ولكن التحامل فيه ظاهر .

٤ – علي بك الكبير «رواية شعرية» :

موضوع الرواية : أمير مصر من المماليك اكتسب فرصة اشتغال الحكومة التركية بحرب روسية، وطمع باستقلال بمصر

فخانه صهره . فاستنجد بضاهر العمر والي عكا فأنجده . ولكن حظّه كان قد أفل فأُسر وقتل .

وفي هذه الرواية ؛ تصوير جميل لدولة المماليك واستبدادهم والرق . ولكن العقدة الفنية فيها منحلة لأنها تقسمّت على ناحيتين الأولى ثورة علي بك . والثانية عشق مراد بك لأخته زوجة علي بك، ولا يعلم أنها أخته! . ثم إن المفاجئات فيها تكاد تكون معدومة . وقد يترك المسرح فارغاً من الممثلين ثم يملوءه بغير من خرجوا دون إشارة . وفي هذا ضعف متناهٍ جداً .

٥ — أميرة الاندلس «رواية تمثيلية» :

موضوع الرواية : الأميرة بثينة بنت المعتمد بن عباد تعرّفت — وهي متنكرة في قرطبة بزي غلام إلى — شاب ، وتعلّق قلبها به . ولذلك رفضت يد وزير ابن تاشفين يوم طلبها للزواج . ثم تزور الشاب في داره فيحدثها عن مقتل أخيها وهو لا يعلم إنها أخته فيغمى عليها وينحلّ شعرها فينكشف تنكرها ! ! ويحبّها كما أحبته . وتدور الأيام دورتها . فيغزو ابنُ تاشفين الأندلسَ ويستولي على ملك أبيها وينفيه إلى إغمات . ويسبي أحدُ المغاربة بثينةَ فيشتريها منه والد عشيقها ويزوّجها له .

وفي هذه الرواية ؛ صورة من فوضى السياسة زمن ملوك

الطوائف . ولكنها مفككة لا تناسق فيها ولا فنّ ولا عقدة ولا مفاجئات ذات بال . غير أن إنشاءها أسهل من إنشاء أسواق الذهب .

٦ — عنترة «رواية شعرية» :

موضوع الرواية : عنترة؛ شاب أسود أنتفى منه أبوه لسواده . وفيما هم ذات يوم ؛ إذ هوجم الحيّ وسبي . فاستنهض الأبُ همة ابنه عنترة للكرّ فأبى حتى يعترف به . ولما رضى الأب بذلك هاجم عنترةُ الأعداءَ واستنقذ السلب منهم واشتهر في أحياء العرب بالشجاعة النادرة . وخطب ابنة عمه عبلة . فأبى والدُها تزويجها . منه فما زال عنترة حتى ظهر على قوم عمه وتزوجها رغماً . وفي هذه الرواية ؛ تصوير جيد لبطولة الصحراء وعادات البدو . ولكن فيها بعض أخطاء تاريخية كتصوير الوحدة العربية فكرةً مختمرةً في نفوس اولئك البدو الذين لم يكونوا يعرفون إلا الحياة القبلية . وفيها تطفّل بعض الحوادث وتفكك واضطراب يهبط بها عن درجة الروايات الفنيّة .

٧ — الشوقيات :

طبع الجزء الأول من ديوان شوقي قبل الحرب ، مقدماً بكلمةٍ مستفيضة من قلمه . ثم روجع هذا الديوان بعد الحرب

وأعيد طبعه وأضيف إليه ما نظم في هذه الفترة الطويلة . فجاء في أربعة أجزاء . قدّم الجزء الأول بمقدمة من قلم الدكتور حسين هيكل باشا ، حلّل فيها شاعرية شوقي تحليلاً لا بأس به . والديوان ؛ مقسم على فصول وأبواب منتظمة . وله فهرس مفصل تسهل المراجعة فيه . وقد بحثنا مطولاً في شعره . فنقتصر على ما قدّمنا .

آخر ايام الشاعر :

انحطت صحة شوقي في آخر أيامه انحطاطاً متمادياً . فكان يعتني بنفسه العناية الكافية ويراجع الأطباء دوماً لأقل اضطراب يعروه . وكأنه أخذ يشعر بدنوّ أجله ؛ فلا يترك دقيقةً تفوت منه لا يعمل فيها . وقد كان يملي أربع روايات في آن واحد ويسأل الله أن لا يميته حتى يتم رواياته .

وفي يوم ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) عام ٩٣٢ أحسّ بنشاط أكثر من المعتاد فقرأ له كاتبه أكثر من المعتاد أيضاً وزار في المساء بعض أصدقائه وبعض الجرائد . وعاد إلى البيت حول الساعة الحادية عشرة فانطرح في سريره لينام . ولكنه استيقظ حول الساعة الثانية على ألم شديد وضيق نفس . فأمر الخادم بإيقاظ زوجه وأولاده فودّعهم ثم فارق الحياة على الأثر

قبل أن يحضر الطبيب . وما تسامعت به مصر؛ حتى اضطرب الأثير بالبرقيات إلى كل وجه . ونعتْه كبريات الصحف العربية والافرنجية . ومشى في جنازته الكبراء والعظماء . وبكى الناس كأنما فارق كل واحد منهم عزيزاً لديه . وأقيمت له حفلات التأبين في كل بلدٍ عربي .

المنتخبات

وجه الطبيعة :

ولقد تمرُّ على الغدير تخالُه ... والنبتُ مرآةً زهتْ بإطار

حلو التسلسلِ موجُهُ وخريرُهُ ... كأناملٍ مرّتْ على أوْتار

مدّت سواعد مائه وتألقت ... فيها الجواهرُ من حصىً وحجار

ينسابُ في مخضلّة مبتلّةٍ ... منسوجة من سُندُس ونضار

زهراءَ عوْنَ العاشقين على الهوى ... مختارة الشعراء في آذارِ

قامَ الجليد بها وسال كأنه ... دمْعُ الصبابةِ بلّ غصنَ عذارِ

وترى السماءَ ضحىً وفي جنح الدُّجى
مُنشقةً عن أنهرٍ وبحارِ

في كل ناحيةٍ سلكتَ ومذهب ... جبلانِ من صخرٍ وماءٍ جار

ومكذبٍ بالجنّ ريعَ لصوتها ... في الماء مُنحدراً وفي التيّار

ملأ الفضاءَ على المسامعِ ضجةً ... فكأنما ملأ الجهات ضَوارى

مملكة النحل :

مملكةٌ مدبَّرهْ بامرأة مؤمّرةْ
تحملُ في العمال والـ صناع عبء السيطرة
فاعجبْ لعمالٍ يولْـ لون عليهم قيصرة
تحكُمُهم راهبةٌ ذكّارةٌ مغبّرة
عاقدة زنّارها عن ساقِها مشمِّرة
تلثّمتْ بالارجوا ن وارتدتهُ مئزرة
وارتفعتْ كأنها شَرارةٌ مُطَيَّرَة
ووقعتْ لم تختَلج كأنها مسمّرة
مخلوقةٌ ضعيفةٌ من خُلُقٍ مصوَّرة
يا ما أقلَّ ملكَها وما أجلَّ خطره
لو التمستَ فيها بطَّـ ال اليدين لم تَرَه
من الرجال وقيو دِ حُكْمِهم محرَّرَة
الملك للإناثِ في الـ دستورِ لا للذكرة
فهلْ تُرى تخشى الطّما ع في الرجال والشره؟
فطالما تلاعَبوا بالمَهَج المصيرة
وعبروا غفلتها إلى الظهورِ قنطرة

وفي الرجال كرم الـ ضعفِ ولؤمُ المقدُرة

وفتنةُ الرأي وما وراءها من أثرة

أُنثى ولكن في جنا حيها لَبَاةٌ مخدرة

ذائدةٌ عن حوضها طاردةٌ من كدَّره

تقلّدت إبرتها وادّرعت بالحبَرَة

كأنها تركيةٌ قد رابطتْ بأنقرة

كأنها «جاندارك» في كتيبةٍ مُعَسْكِرة

تلقى المغيرَ بالجنو دِ الخشنِ المنمَّرة

السابغين شِكةً البالغينَ جَسَرَه

قد نثرتهم جُعبةً ونفضتهم مئبرة

إنَّ الامورَ همةٌ ليسَ الامورُ ثرثْبرة

المالُ في أتباعها لا تستبينُ أثره

لو عرَفوه عَرَفوا من البلاءِ أكثره

وتذهب النحلُ خفا فاً وتجيءُ موقرَة

مشدودةٌ جيوبُها عَلَى الجنى مزرَّرة

ما اقترضتْ مِن بِقلةٍ أواستعارتْ زَهرَة

ادّت إلى الناسِ بهِ سكَّرةً بسكَّرَة

بنو امية :

قم نا ِج جلّقَ وانشدْ رسم من بانوا مشتْ عَلَى الرسْم أحداثٌ وأزمان
هذا الأديمُ كتاب لا كفاء له رثُّ الصحائف باقٍ منه عنوانُ
الدين والوحيُ والاخلاقُ طائفةٌ منه وسائره دنيا وبهتان
مافيه إن قلّبت يوماً جواهرهُ الاَّ قرائِحُ مِنْ رادٍ وأَذهانُ
بنو أُميّة للأنباء ما فتحوا وللأحاديث ماسادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سريرُ الشرْق تحتهمُ فهلْ سألتَ سريرَ الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها في كل ناحية ملْكٌ وسلطان
ياويحْ قلبي مهما انتاب أرُسمَهم سرى به الهمُّ أو عادتهُ أشجان
بالأمس قمتُ عَلَى (الزهراء) أندُبهم
واليوم دمعي على (الفيحاء) هتّان
في الأرض منهم سماواتٌ وألويةٌ ونيِّراتٌ وأنواءٌ وعِقْبان
معادنُ العزّ قد مال الرَّغام بهم لو هانَ في تُرْبهِ الابريزُ ماهانوا
لو لا دمشقُ لما كانت «طليطلةٌ» ولا زهتْ ببني العباس بَغْدان
مرْرتُ بالمسجد المحزونُ أسأله هل في المصلّى أو المحْرابِ (مروان)
تغيَّر المسجدُ المحزونُ واختلفتْ عَلَى المنابر أَحرارٌ وعِبدان
فلا الأذان أذانٌ في منارتِه إذا تعالى ولا الآذان آذان
آمنتُ بالله واستثنيتُ جنّتهُ دَمشقُ روْحٌ وجناتٌ وريحان

قال الرفاق وقد هبّت خمائلُها ... الارضُ دارٌ لها «الفيحاء» بستان
جرَى وصفّقَ يلقانا بها «بردَى» ... كما تلقّاك دون الخلْدِ رضوان
دخلتها وحواشيها زُمرُّدةٌ ... والشمسُ فوقَ لُجينِ الماءِ عقيان
والحورُ في «دمرٍ» أو حولها مَتها ... حورٌ كواشفُ عن ساقٍ وولدان
و«ربوةُ» الوادِ في جِلبابِ راقصة ... الساقُ كاسيةٌ والنحرُ عريان
والطيرُ تصدحُ من خلف العيون بها ... وللعيونِ كما للطيرِ ألحان

الطيارة :

مركبٌ لو سلف الدهرُ به ... كان إحدى معجزات القدماء
نصفه طيرٌ ، ونصف بشرٌ ! ... يالها إحدى أعاجيبِ القضاء !
رائع مرتفعاً أو وقعاً ، ... أنفسَ الشجعانِ قبلَ الجبناء
مُسرجٌ في كل حين ملجمٌ ... كاملُ العُدّة ، مرموق الرُّواء
كبساط الريح في القدرة أو ... هُدْهُدِ السيرة في صدق البلاء
أو كحوتٍ يرتمي الموجُ به ... سابحٍ بين ظهورٍ وخفاء
ملأ الجوَّ فعالاً ، وغدا ... عجَبَ الغربانِ فيه والحِداء
وترى السحْبَ به راعدةً ... من حديدٍ جُمِعت لا من رواء
حمل الفولاذَ ريشاً ، وجرى ... في عِنانيْن له : نار وماء
وجَناح غير ذي قادمةٍ ... كجناح النحل مصقولٍ سواء
وذُ نابَى ، كلُّ ريح مسّها ... مسّةُ صاعقة من كهرباء

يتراءى كوكباً ذا ذَنبٍ فإذا جدَّ فسهماً ذا مضاء
فاذا جاز الثريّا للثرى جرَّ كالطاووس ذيلَ الخيلاء
يملأ الآفاقَ صوتاً وصدىً كعزيف الجن في الارض العَراء
أرسلتْه الأرض عنها خبراً طنَّ في آذانِ سكان السماء

البرلمان :

أُعدّتِ الراحةُ الكبرى لمن تعبا وفاز بالحقِّ من لم يأْلُهُ طَلَبا
وما قضتْ مصرُ من كلِّ لبانَتها حتى نجرَّ ذيولَ الغِبطة القُشُبا
في الأمرِ مافيه من جدٍّ، فلا تفقوا من واقع جزعاً أو طائر طربا
لا تُثبت العينُ شيئاً أَو تحققه إذا تحيّر فيها الدمع واضطربا
تمهدتْ عقباتٌ غيرُ هينة تلْقى ركابُ الثرى من مثلها نَصبا
وأقبلتْ عقباتٌ لا يذللِّها في موقفِ الفصل إلا الشعب منتخبا
له غداً رأيُهُ فيها وحكْمتُه إذا تمهّل فوق الشوْك أَو وثبا
ضُمُّوا الجهودَ وخلّوها منكّرةً لا تملأوا الشِدْق من تعريفها عجبا
أَفي الوغى ورَحى الهيجاء دائرةٌ تحصونَ من مات أو تُحصون ماسلبا
خلوا الاكاليلَ للتاريخ إن له يداً تؤلِّفُها دُرًّا ومَخْشَلَبَا
قالوا الحمايةُ زالتْ، قلتُ لا عجبٌ بل كانَ باطلُها فيكم هو العجبا
رأسُ الحمايةِ مقطوع فلا عَدمتْ كنانةُ الله حزماً يقطعُ الذَّنبا
لو تسألون (ألنبي) يوم جنْدَلَها بأي سيفٍ على يافوخها ضربا

يافاتحَ القدسِ خلِّ السيفَ ناحيةً ... ليس الصليبُ حديداً كان بل خشبا

إذا نظرتَ إلى أين انتهتْ يده ... وكيف جاوز في سلطانه القُطُبا

علمتَ أن وراء الضعف مقدرةً ... وان للحقِّ لا للقوّةِ الغَلَبا

اليومَ يا قومُ إذ تبنون مجلسَكم ... تَبنون للعقب الأيام والحِقَبا

فما هو الفردُ إن شئتُمْ سما صعداً ... إلى الثريّا وإن شئتم هوى صببا

وإن رضيتمُ عَمَرْتمُ ركنه ثقةً ... وإن غضبتم تركتمُ ركنَهُ خربا

وإنما هو سلطانٌ يدان له ... إذا تكفّل بالأعباء وانتدبا

يقولُ عنكم ويقضي غير متّهمٍ ... العهدُ ما قال والميثاقُ ما كتبا

نكبة دمشق :

رِباعُ الخلد ويحَك ما دهاها ... أحقٌّ أنها دَرَست أحقُّ

وهل غُرف الجنان منضداتٌ ... وهل لنعيمهنَّ كأمسِ نسقُ

وأين دُمى المقاصر من حجالٍ ... مُهتكةٍ وأستارٍ تُشقّ

برَزن وفي نواحي الأيكِ نارٌ ... وخلفَ الأيكِ أفراخٌ تُزقّ

إذا رُمن السلامة من طريقٍ ... أتتْ من دونه للموت طُرق

بليلٍ للقذائف والمنايا ... وراء سحابه خطفٌ وصعقُ

إذا عصف الحديدُ احمرَّ أفقٌ ... على جنباتهِ واسودَّ أُفق

سلي من راعَ غِيدك بعدَ وهنٍ ... أبين فؤادِه والصخرِ فرْق

وللمستعمرين وإن ألانوا ... قلوبٌ كالحجارة لا ترِق

رماكِ بطيشه ورمى فرنسا أخو حربٍ به صَلَفٌ وحُمْقُ
إذا ما جاءه طُلاَّبُ حقٍ يقول عصابة خرجوا وشقّوا
دمُ الثوّار تعرِفه فرنسا وتعلمُ أنه نورٌ وحقُّ
جرى في أرضها، فيه حياةٌ كمُنهَلّ السماء وفيه رزقُ
بلادٌ مات فتيتُها لتحيا وزالوا دون قومِهم ليبقوا
وحررت الشعوبَ على قَناها فكيف على قَناها تُسترقُّ
بني سورية اطرحوا الأَماني وألقوا عنكُم الأحلام ألقوا
فمنْ خدَع السياسةِ أن تُغروا بألقاب الإمارة وهي رقُّ
نصحتُ ونحن مختلِفون داراً ولكن كلُّنا في الهمّ شرقُ
ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يُدني الحقوقَ ولا يُحِقُّ
ففي القتلى لأَجيالٍ حياةٌ وفي الأَسْرى فِدىً لهم وعُتقُ
وللحريةِ الحمراءِ بابٌ بكلِّ يدٍ مضرجةٍ يدق

رثاء امه :

لك الله من مطعونةٍ بهوى النوى شهيدة حرب لم تقارف لها إثما
سقاها بشيري وهي تبكي صبابةً فلم يقوَ مغناها على صوبه رسما
أَست جرحها الأَنباء غير رفيقة وكم نازعٍ سهماً فكان هو السهما
تغارُ على الحمّى الفضائل والعلى لما قبّلت منها وما ضمّت الحمّى

رثاء ابيه :

أنا من مات ومن مات أنا ... لقي الموت كلانا مرتين
نحن كنّا مهجةً في بدنٍ ... ثم صرنا مهجةً في بدنين
ثم عدنا مهجةً في بدنٍ ... ثم نلقى جثةً في كفنين
ثم نحيا في عليٍّ بعدنا ... وبه نبعث أولى البعثتين (١)

مراجع هذا البحث

١ — الشوقيات
٢ — روايات الشاعر ومؤلفاته
٣ — ذكرى الشاعرين جمع أحمد عبيد
٤ — حافظ وشوقي لطه حسين
٥ — شوقي لأرسلان
٦ — اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء لكاتبه الخاص
٧ — أدباء العرب
٨ — في أصول الأدب للزيات
٩ — شوقي وحافظ لعصبة الادب في حلب
١٠ — عدد السياسة الخاص في ذكرى تكريم الشاعر
١١ — قمبيز في الميزان للعقاد
١٢ — الديوان للعقاد والمازني

(١) عليّ : ابنه البكر

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٩	وؤكر	وذكر
٨	١٢	تحالف من	تحالف مع
		الرومان	الرومان
١٧	١٧	والتبين	والتبيين
١٩	٦	باللخمين	باللخميين
٣٤	٣	مفتهحا	مفتتحها
٣٤	٩	بمانفسه من	بمافي نفسه من
٤٧	٦	عينية	عيينة
٤٧	١١	عينية	عيينة
٤٨	١٢	»	»
٨٤	١٧	قيتيبة	قتيبة
١١٣	١٣	يستندرن	يستندون
١٤٨	١٨	البتيين	التبيين
١٥٠	١	ورماك	رماك
١٨٥	٧	رتيبل	رتبيل
١٩٥	١٧	واتمت	وأنمت
٢١٢	١٢	هو من أول	هو أول من
٢٢١	١٦	بيصغه	بصيغة
٢٢٩	١٣	الخطوة	الحظوة
٢٣٦	٨	مع يدعم	ما يدعم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٦٠	١٩	اكللك	أكلك
٢٦٤	١٣	النواس	نواس
٢٩٢	١٦	الارذال	الاراذل
٢٢٩	١٠	غير يأثما	غير أن يأثما
٣١٧	٨	من	٠ ٠
٣٥٦	١٥	عجابه	إعجابه
٣٦٢	١	فاسنحفرت	فاسحنفرت
٤١٣	١	الوارقة	الوراقة
٤١٧	٨	وبذكر هو ٠٠٠	
٤٢١	٢	ساقه	ساجة
٤٢٢	١١	لعلملك	لعلمك
٤٧٢	١١	كليلكيا	كليكيا
٤٧٤	١٠	والعبدين	والعبيدبين
٥١٥	٩	والعبيدين	والبعيدبين
٥٢٥	١٩	ادرار كه	ادراكه
٥٣٦	١٢	قات	ألقاب
٥٤٠	٩	كان	كابن
٥٦٣	١٧	فلماء	فللماء
٥٧٨	٣	وضحكك	وضحكك
٦٠٦	١٩	وطنياته	وطنياته

فهرست الكتاب

صفحة		صفحة	
١	النابغة الذبياني	٤٧	الردّ على عيينة
٣	تاريخ . العرب في جزيرتهم	٥٠	خطاب الملوك
٨	إمارة الحيرة	٥٧	شعر الاعتذار
١١	إمارة غسان	٦٤	المنجرّدة
١٢	أثر الحروب في العرب	٦٥	شعر الرثاء
١٦	النعمان بن المنذر	٦٦	رثاء النعمان بن الحارث
١٩	النابغة — لقب النابغة	٦٨	شعر الهجاء
٢١	كنية النابغة . قيمته في قومه	٧٠	تأثر النابغة بالحيرة والشام
٢٢	سبب فراره من الحيرة	٧٢	تأثير النابغة
٢٥	مناقشة الآراء	٧٦	مآخذ على النابغة
٢٦	النابغة في الشام	٧٨	دين النابغة
٢٧	رجوع النابغة إلى الحيرة	٧٩	خلاصة
٣١	خلاصة	٨٠	مراجع البحث عن النابغة
٣٢	متى ولد النابغة ومتى مات	٨١	الفرزدق
٣٣	معلقة النابغة	٨٣	تاريخ العصر
٣٥	الشاعر السياسي	٨٨	الحزب الشيعي
٣٨	أسلوب النابغة	٨٩	حزب بني أمية
٤٦	الشعر السياسي . الردّ على زرعة	٩٠	الحزب الزبيري

صفحة

٩٠ — حزب الخوارج
٩٥ — ترجمة الفرزدق
٩٦ — طفولة الفرزدق وشيخوخته
٩٩ — نسب الفرزدق
١٠٢ — شباب الفرزدق
١٠٥ — زوجاته وأولاده
١٠٨ — أولاده
١٠٩ — الفرزدق السياسي
١١٦ — شعر الفرزدق
١١٧ — الهجاء
١٢٠ — المديح
١٢٧ — الفخر
١٣١ — شعر الغزل
١٣٣ — يتكل على الله ويفسق
١٣٥ — شعر الرثاء
١٣٧ — جرير والفرزدق
١٤٢ — الفرزدق ينحت من صخر
١٤٨ — شعر الوصف
١٥٠ — تأثر الفرزدق بالمحيط الاسلامي
١٥١ — تأثر الفرزدق بالشعراء السابقين وتأثيره في المتأخرين .
١٥٤ — مآخذ على الفرزدق

صفحة

١٥٦ — ملحمة الفرزدق
١٥٧ — آخر أيام الفرزدق
١٥٨ — مراجع البحث عن الفرزدق

١٥٩ — **الحجاج**

١٦١ — تاريخ العصر
١٦١ — معاوية الثاني
١٦٣ — مروان
١٦٤ — عبد الملك
١٦٦ — نشأة الحجاج
١٦٨ — الحجاج وروح
١٧٠ — الحجاج في الحجاز
١٧٢ — العراق والخوارج
١٨٦ — الحجاج في العراق
١٧٨ — خطبة الحجاج في الكوفة
١٨٣ — الثورات في العراق ، ثورة ابن الجارود ، ثورة مطرف ابن المغيرة بن شعبه
١٨٤ — ثورة عبد الرحمن بن الأشعث
١٨٦ — علاقة الحجاج بعماله
١٨٧ — علاقه الحجاج بالبيت المالك
١٩٢ — نفاق الحجاج للخليفة

صفحة

١٩٣ — علاقة الحجاج بالشعب
١٩٦ — كرم الحجاج
١٩٧ — أخلاق الحجاج
١٩٨ — الحجاج وعديل العجلي
١٩٩ — الحجاج والعتكي
١٩٩ — على دين يوسف
٢٠٠ — الحجاج والمرأة
٢٠١ — دهاء الحجاج
٢٠٢ — الحجاج الخطيب
٢٠٤ — اسلوب الحجاج
٢٠٨ — خطبة دير الجماجم
٢١١ — أثر الحجاج
٢١٤ — آخر أيام الحجاج
٢١٦ — مراجع البحث عن الحجاج

٢١٧ — عبد الحميد

٢١٩ — تاريخ العصر . الدواين
٢٢٠ — تطور الانشاء
٢٢٢ — كتاب النبي إلى المقوقس .
كتاب النبي إلى خالد بن الوليد
٢٢٣ — عهد أبي بكر إلى عمر .
كتاب عمر بن الخطاب إلى

صفحة

ابن العاص . جواب عمرو
ابن العاص
٢٢٤ — كتاب عثمان إلى علي يوم الدار
٢٢٦ — تطور الكتابة الخطية والدواوين
٢٢٩ — عبد الحميد ، مولده ونشأته
٢٣٠ — اتصاله بالخلفاء
٢٣١ — اتصاله بمروان
٢٣٢ — أخلاصه لمروان
٢٣٣ — موته
٣٣٥ — منافشة ، أخلاقه
٢٣٦ — قيمته
٢٣٧ — عناصر ثقافته
٢٣٩ — أسلوبه
٢٤٥ — آثار عبد الحميد
٢٤٨ — مختار من الرسالة إلى الكتاب
٢٤٩ — تأثير عبد الحميد
٢٥٠ — مراجع البحث عن عبد الحميد

٢٥١ — أبو نواس

٢٥٣ — تاريخ العصر
٢٥٧ — الجواري
٢٥٩ — الموالى

صفحة

٢٦٣ — بغداد
٢٦٦ — القديم والجديد
٢٧١ — أبو نواس ، مولده
٢٧٢ — طفولته وشبابه
٢٧٤ — نسبه
٢٧٦ — كنيته ، مولده ووفاته
٢٧٧ — في بغداد
٢٧٨ — في مصر
٢٧٩ — مع الأمين
٢٨٢ — لغته وثقافته
٢٨٥ — الثورة على القديم
٢٨٨ — شعر الخمر (ثلاثة أنواع)
٢٩١ — نماذج على النوع الأول ، عقد نكاح على الخمرة
٢٩٣ — نماذج على النوع الثاني ، سكران ، صوم ، سكران ، لوم واغراء
٢٩٤ — مغامر ، شفاء
٢٩٤ — نماذج على النوع الثالث ، الطريق إلى الخمارة
٢٩٥ — حانة ، خمارات
٢٩٧ — شعر الغزل

صفحة

٣٠٢ — شعر المدح
٣٠٦ — شعر الهجاء
٣٠٨ — شعر الرثاء
٣١٠ — شعر الفخر
٣١١ — شعر الطرديات
٣١٢ — زهدياته
٣١٦ — شعر السجن
٣١٧ — الاخوانيات والمنحول
٣١٩ — ألفاظ المتكلمين
٣٢٠ — روابط شعرية
٣٢١ — مآخذ على أبي نواس
٣٢٢ — آخر أيام أبي نواس
٣٢٢ — مراجع البحث عن أبي نواس
٣٢٣ — ابو تمام
٣٢٥ — تاريخ العصر ، الفرس والعرب
٣٢٦ — الثورات ، (١) ثورة ابراهيم ابن المهدي ، (٢) ثورة العلويين
٣٢٨ — (٣) ثورة مازيار (٤) ثورة بابك
٣٢٩ — (٥) ثورة الافشين
٣٣١ — نتائج هذه الثورات

صفحة

٣٣٣ — سيطرة الاعاجم
٣٣٥ — الاحزاب العربية
٣٣٧ — حزب الشيعة
٣٣٩ — الأخلاق
٣٤١ — الشعر
٣٤٣ — أبو تمام ، مولده
٣٤٤ — أبو تمام في دمشق
٣٤٦ — أبو تمام في حمص
٣٤٧ — أبو تمام في مصر
٣٤٨ — أبو تمام في سوريا
٣٥٠ — أبو تمام في العراق وخراسان
٣٥٢ — حرب عموريه
٣٥٣ — أبو تمام في بغداد والموصل
٣٥٤ — أبو تمام في الموصل
٣٥٥ — هبات الشعراء
٣٥٦ — أخلاقه
٣٦٠ — لغته ونظمه
٣٦٦ — شعره وأغراضه . المديح
٣٧٥ — رثاء ابن حميد
٣٧٦ — شعر الهجاء
٣٧٧ — شعر العتاب والتعريض
٣٧٨ — شعر الوصف

صفحة

٣٧٩ — وصف القلم . وصف الغيمة
٣٨٠ — شعر الغزل
٣٨٢ — الشاعر المؤلف
٣٨٤ — تأثير أبي تمام
٣٨٦ — آخر أيام أبي تمام
٣٨٨ — مراجع البحث عن أبي تمام
٣٨٩ — الجاحظ
٣٩١ — تاريخ العصر : المحدثون والمعتزلون
٣٩٢ — المعتزلة
٣٩٨ — خلق القرآن
٤٠٢ — الحرية الفكرية والمأمون
٤٠٧ — الجاحظ ، صورة
٤٠٨ — كتب الجاحظ
٤١٤ — كنت منحولة . مولده ونشأته
٤١٧ — ميلاده ووفاته
٤١٨ — الجاحظ في بغداد
٤٢٣ — رجوعه إلى البصره
٤٢٤ — خصائص الجاحظ واسلوبه
٤٢٩ — التبسط في الشرح . الضحك
٤٣٠ — الترادف . كبوة . المعنى
٤٣١ — جمل اعتراضية

صفحة

٤٣٢ — وصف واقعي مادي · لفظ ومعنى
٤٣٣ — فارسي ويوناني
٤٣٧ — الجاحظ العالم
٤٤١ — الجاحظية
٤٤٥ — الجاحظ والكتاب والشعراء
٤٤٧ — الجاحظ والمرأة
٤٤٨ — تحليل كتب الجاحظ
٤٤٩ — البخلاء
٤٥١ — الحيوان
٤٥٢ — البيان والتبيين · الجاحظ يداري
٤٥٣ — الجاحظ والشعوبية
٤٥٤ — أطاريف
٤٥٧ — تأثير الجاحظ
٤٥٨ — تأثير الجاحظ في العصر الحاضر
٤٥٩ — آخر أيامه
٤٦٠ — مراجع البحث عن الجاحظ

٤٦١ — المعري

٤٦٣ — تاريخ العصر · تفسخ الدولة
٤٦٥ — حلقة من سلسلة · مصر وسوريا
٤٦٩ — نتائج الحروب الاجتماعية
٤٧٠ — نتائج الحروب الأدبية
٤٧٢ — حلب والمعرة

صفحة

٤٧٥ — المعري ، مولده ونشأته
٤٧٦ — رحلاته
٤٧٨ — على هامش الرحلات
٤٧٩ — مناقشة
٤٨٠ — في المعرة
٤٨١ — في بغداد
٤٨٥ — رهين المحبسين
٤٨٨ — كتب المعري · سقط الزند
٤٨٩ — المدح في سقط الزند
٤٩٠ — الفخر في سقط الزند
٤٩١ — الوصف ، الرثاء في سقط الزند
٤٩٢ — الغزل ، الدرعيات في سقط الزند
٤٩٣ — اللزوميات
٤٩٦ — رسالة الغفران
٤٩٨ — آراء المعري · تقديم
٥٠١ — المعري والآخرة
٥٠٣ — المعري والديانات
٥٠٤ — المعري والناس
٥٠٧ — المعري والمرأة
٥٠٨ — المعري الزاهد
٥١٠ — المعري العالم واسلوبه
٥١٤ — مقارنات
٥١٥ — آخر أيام أبي العلاء

صفحة

٥١٨ — مختارات : (تقديم ، مبالغة ، غزل ، هل تعلم بحروف نافرة ، الناس ، فوضى ، شرائع ، المرأة والزواج ، تقية ، أنبياء اشتراكية ، الميت ، العمل الجميل ، العز ، النسك ، آدم جبري ، رثاء والده ، نباتي رثاء أبي حمزة ، في سبيل المجد .)

٥٢٦ — مراجع البحث عن أبي العلاء

٥٢٧ — ابن زيدون

٥٢٩ — تاريخ . فتح الاندلس

٥٣٠ — العرب والبربر ، قحطاني وعدناني

٥٣١ — صقر قريش

٥٣٢ — الدولة الاموية في الغرب

٥٣٦ — دولة بني جهور

٥٣٨ — الدولة العبادية

٥٣٩ — أثر الحروب الاخلاقي والاجتماعي

٥٤٠ — نتائج الحروب الأدبية

٥٤٢ — تعلق الاندلس بالشرق

٥٤٣ — أثر الطبيعة والمحيط في أدباء الاندلس

صفحة

٥٤٦ — ابن زيدون . مولده ونشأته

٥٤٩ — الشاعر السجين

٥٥٢ — الشاعر الشريد . الشاعر وزير في اشبيلية

٥٥٤ — الحساد والمنافسون

٥٥٥ — تأثير حياته في شعره

٥٥٦ — ألوان ونور

٥٥٧ — الشاعر العاشق

٥٦٢ — شعر الشكوى

٥٦٤ — أغراض شعره الاخرى . المدح

٥٦٥ — الهجاء

٥٦٦ — الرثاء

٥٦٧ — شعر الوصف

٥٦٨ — ذكرى قرطبة

٥٦٩ — الشاعر الناثر تفاحة . قصر

٥٧١ — الرسالة الجدية

٥٧٢ — نموذج من الرسالة الجدية

٥٧٥ — الرسالة الهزلية

٥٧٦ — نموذج من الرسالة الهزلية

٥٧٨ — مقارنة

٥٨٠ — آخر أيام ابن زيدون

٥٨٢ — مراجع البحث عن ابن زيدون

صفحة

٥٨٣ — احمد شوقي

٥٨٥ — تاريخ ٠ القرون الوسطى

٥٨٨ — رشيم الانبعاث

٥٨٩ — الدولة العلوية في مصر

٥٩٠ — في جزيرة العرب

٥٩١ — في مصر

٥٩٢ — النهضة

٥٩٨ — أحمد شوقي ٠ مولده ونشأته

٦٠٠ — شبابه في فرنسا

٦٠١ — في سويسرا وبلجيكا ٠ شاعر الامير

٦٠٢ — في اسبانيا

٦٠٣ — شاعر الشرق والاسلام

٦٠٥ — عوامل النبوغ

٦٠٩ — شوقي الشاعر

٦١١ — شعر الذكرى

٦١٣ — شعر العاطفة

صفحة

٦١٥ — شعر الحكمة

٦١٦ — شعر المناسبات

٦١٩ — الشاعر السياسي

٦٢٤ — الشاعر المعلم

٦٢٧ — شعر الوصف

٦٢٨ — شعر الفخر

٦٢٩ — شوقي والغناء

٦٣٠ — الشاعر الناثر ٠ آثار الشاعر

٦٣١ — تحليل كتب شوقي ورواياته كليوباترا

٦٣٢ — مجنون ليلى

٦٣٤ — قمبيز ٠ علي بك الكبير

٦٣٥ — أميرة الاندلس

٦٣٦ — عنترة ٠ الشوقيات

٦٣٧ — آخر أيام الشاعر

٦٣٨ — منتخبات من شعر شوقي

٦٤٠ — مراجع هذا البحث

٦٤٧ — جدول الخطأ والصواب

بعض آثار المؤلف

١ — الغريزة الجنسية

٢ — الكشاف قرّظه بادن باول رئيس الكشاف العالمي

٣ — فن الملاكمة مترجم

٤ — خمسة دروس في التحليل النفسي مترجم

٥ — تائه في الصحراء مترجم

٦ — في بلاد العراة مترجم

٧ — الدروس العلمية

٨ — عدد من الروايات والقصص

٩ — كلمات لنابليون

Circulation Dept.

حقي ،ممدوح
ادباء البكالوريا في سوريا ولبنان والع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01033395